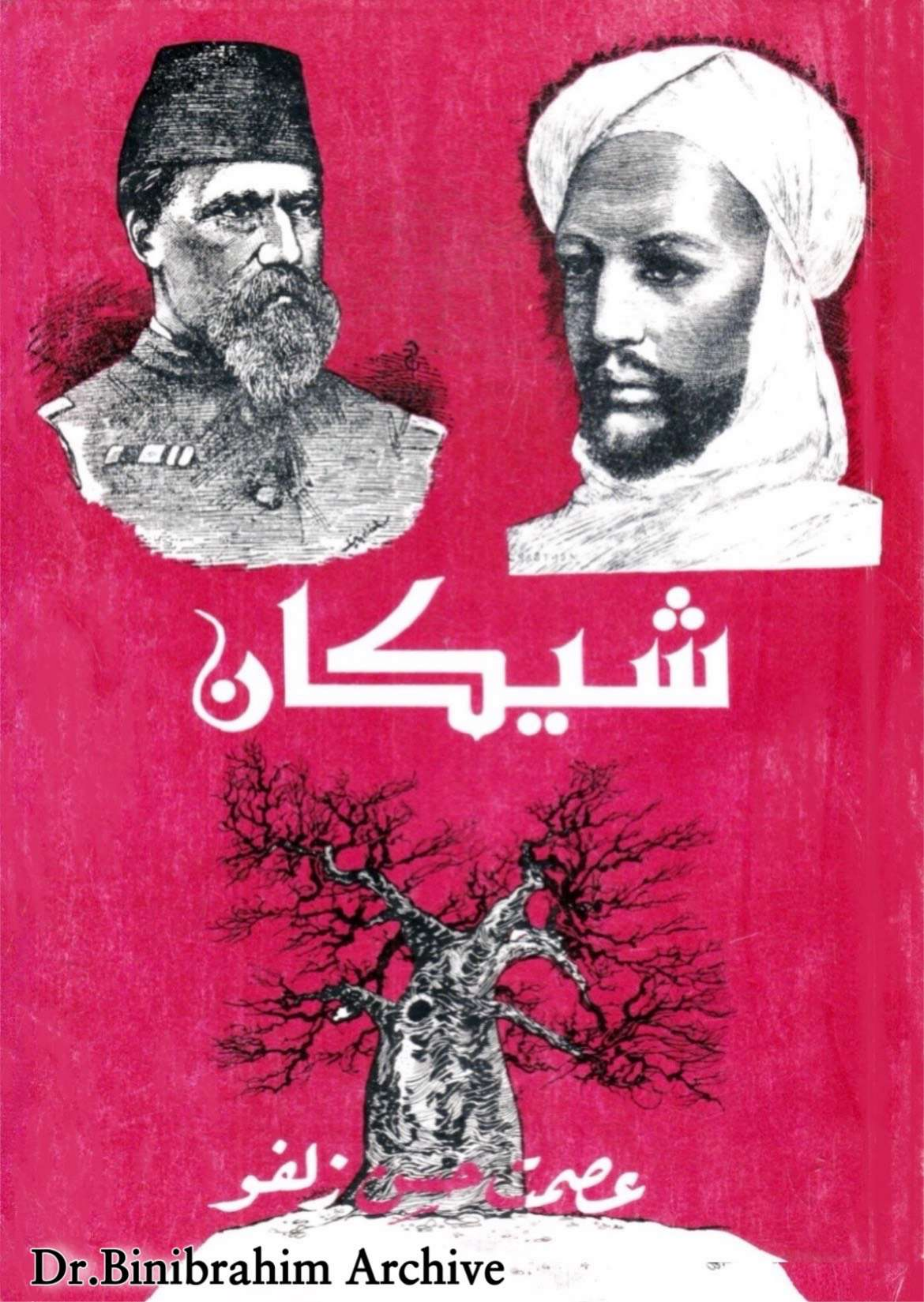

شیکان
عصمت حسن زلفو



تحليل عسكري لحملة الجنرال هكس

عصمت حسن زلفو

(لعل التاريخ لم يشهد – منذ أن لاقي جيش فرعون نحبه في البحر الاحمر كارثة مثل تلك التي حلت بجيش هكس في صحارى كردفان حيث افني عن أخره وقضي عليه قضاء مبرماً ..)

لورد فتز مورس في مجلس اللوردات البريطاني

الفهـــــرس

صفحة

مقـــدمة

منذ زمن طويل شغفت بمعركة شيكان . في ايام الصبا ، كان مدرسو التاريخ في المدارس الصغرى يحكون عنها حكايات تلهب الخيال ، تتحدث عن جيش عظيم يعبر بوادى كردفان في مسيرة طويلة ثم يختفي من وجه البسيطة في دقائق معدودة وكأنما ابتلعته الارض أو مسته عصا سحرية فأزالته من حيز الوجود .

وعندما بدأت معارك المهدية بالبحث والدراسة في الستينات كنت اتوقف كثيراً عند شيكان ، فسحرها القديم لم يبعدها عن ناظرى أبدا . ولم تجد دراساتي المنهكة عن تلك الفترة المزدحمة العاصفة في أن أجلو بعض الغموض الذى يحيط بتلك المعركة . ويعزى ذلك الغموض الى عوامل عديدة : أولها ان من شهد المعركة من جيش الجنرال هكس لم يتكلموا أبدا ، فقد لفهم الصمت السرمدى – الموت . وكانت الابادة الكاملة هي نصيب تلك الالوف التي انتظمت في مربع الجنرال ، ماعدا قلة لاتزيد عن المائتين من الرتب الدنيا . وثانيها أن هؤلاء النفر القلائل الذين نجوا من جيش الجنرال هكس عندما تحدثوا ، فعلوا ذلك بعد خمسة عشر عاما ، عقب معركة كرري وسقوط دولة المهدى ، أي بعد أن تغيرت المعالم وغشي ضباب الزمن ذاكرتهم .

وزادت الكتابات التي نشرت في تلك الاثناء من الالتباس وتضارب الاقوال : فقد قدم (ونجت) في عام ١٨٩١ أول وصف لمعركة شيكان بعد أن استجوب بضعة جنود قاتلوا في صفوف هكس وأسرهم المهدى ثم هجروا راية النجومى قبل معركة توشكى . وكان تقديم ونجت للمعركة جهدا كبيرا ، ولكنه حفل بأخطاء رئيسية ، ولا يلام الرجل في ذلك كثيرا فقد كانت المصادر نادرة ومحصورة في جانب الجنرال . ولكن خطورة الامر هى أن من كتبوا بعده لم يستطيعوا أن يحيدوا كثيرا عن الخط الذى رسمه لمجرى الاحداث .

فعندما أصدر الاب اهرفلدر كتابه بعد عامين من صدور كتاب ونجت ، وهو يعلم الكثير بحكم تواجده في معسكر المهدى ، لم يشأ أن يخالف الوقائع التي قدمها ونجت . وكل من تعرض للمعركة من الكتاب الاوربيين سار على خطى ونجت . حتي حدثت احدى الصدف الغريبة الشبيهة بالخيال الروائي عندما عثر أحد الضباط البريطانيين على مفكرة عباس بك سكرتير حاكم السودان في جيوب أحد قتلى الانصار في معركة كررى ، فأزالت كثيرا من خفايا الامور . فهى سجل يومى شبه رسمى كتب بقلم ضابط يصف الاحداث من قلب قيادة الحملة .

مفكرة عباس بك هى المرجع الاساسي الذى اعتمدنا عليه في وصف مسيرة هكس ، وتتلوها في الاهمية تقارير استجواب المخابرات ثم المصادر الثانوية من كتب وصحف دورية .

أما جانب المهدى فقد اعتمدت في دراستي له أساسا على المخطوطات وأولها مخطوط (سعادة

المستهدى لسيرة الامام المهدى) الذى سطره مؤرخ المهدية اسماعيل على عبد القادر الكردفاني وحققه الاستاذ أبو سليم . ثم مخطوط الشيخ محمد آدم الذى كان في طى الخفاء طيلة السنوات التي أعقبت المهدية ، الى أن قيض الله لى من دلني عليه فأزال بعض الغموض الذى أحاط بمعارك كردفان . ثم هناك مخطوطات على المهدى الذى استجوب بعض مقاتلى شيكان البارزين .

تتكون الدراسة من ثلاثة أبواب . المسرح هو الباب الاول منها ، ويتضمن خلفية للأحداث التي سبقت معركة شيكان وينقسم بدوره الى ثلاثة فصول ، الفصل الاول (المد الاسلامى) عبارة عن مسح جغرافي وتاريخى سريع لكردفان مسرح المعركة . أما الفصلان الثاني والثالث (الجبال) و (المهدى في كردفان) فهما يقدمان سردا موجزا لمعارك المهدى بكردفان . وقد ختم هذا الباب بوصف سريع لتنظيم جيش المهدى الذى خاض به المعركة .

وفي هذا الكتاب . سأجد نفسي مضطرا مرة أخرى لأبرر لقرائي التمهيد الطويل الذى لجأت اليه قبل الدخول في معركة شيكان . فلازلت متمسكا برأى (ليدل هارت) بأن دراسة معركة واحدة دراسة تفصيلية لأى قائد شهير دون العودة الى الخبرات السابقة التي اكتسبها ، أو المعارك والاحداث التي أملت على الجيشين المتصارعين أن يتخذا مواقفهما النهائية قبل المعركة الحاسمة هى عمل مبتور ناقص .

ويتعرض الباب الثاني لتكوين حملة هكس : فالفصل الاول (الصحوة) يتعرض للجذور الفكرية والسياسية التي مهدت للثورة العرابية ، فقد كان جنود الجنرال هكس الذين قاتلوا في شيكان هم أنفسهم جنود الثورة . ويتحدث الفصل الثاني عن تكوين الحملة وتجمعها بالخرطوم والملابسات التي أحاطت بتسييرها نحو كردفان .

أما الباب الثالث (المعركة) فهو الباب الرئيسي الذى يصف مسيرة الجنرال هكس من النيل حتي غابة شيكان ثم المعركة التصادمية النهائية . وتبدأ قصتنا من الفصل الاول والثاني (السراب) و (الرهد) . في سرد شبه يومى لمسيرة الحملة من النيل الى الرهد ، والدفاع العدائي الذى انتهجه المهدى في المرحلة الاولى .

وتصف الفصول الثلاثة التالية (السباق الى البركة) و (الملبس .... أم كازقيل) و (الحصار) الاسبوع الاخير من الحملة وتصادم الخطط من كلا الجانبين ، والمناورات المتشابكة التي لجأ اليها الجيشان المتحاربان .

وتصف الفصول التالية (الهجوم الاول) و (الخطة) و (ليلة حمدان) أحداث يوم الاحد : هجوم حمدان أبو عنجة النهارى والليلى ثم الملامح الرئيسية لخطة المهدى العبقرية التي تبلورت أخيرا في ذهنه ونفذها قادته بمهارة واحكام في ضحى اليوم التالى .

ويقدم الفصل العاشر الصدام النهارى الذى ختمت به تلك الملحمة العظيمة . فهو يفصل احداث يوم الاثنين - ٥نوفمبر والصراع الذى احتدم بين رايات المهدى الكامنة المتحفزة وبين المربع المنهك .

أما الفصلان الاخيران فهما عرض ونقد سريع للنتائج السياسية المترتبة على انتصار شيكان والاستراتيجية التي طبقها المهدى في معارك كردفان .

انني لا أدعى بأنني أفلحت في جلاء كل الغموض الذى أحاط بهذه المعركة . ولكني آمل أن أسهم بجهدى المتواضع هذا في وضع الاطر والاتجاهات الصحيحة للدراسات القادمة التي ستتناول هذه المعركة العظيمة يوما ما .

والله الموفـــق

عصمـت حسـن زلفو
ابوظبى - ابريل ١٩٧٦

الباب الأول

المسرح

المـــد الاســلامي

... (ان كردفان هى السودان نفسه وليس الخرطوم شيئا يذكر بالمقارنة بكردفان – ففيها المحاصيل والمواشي والتجارة ولايصح مطلقا تركها للمهدى ...)

(عباس بك في تنويره للجنرال هكس)

كشأن رفاقه من روافد الانهار الاستوائية ، ينحدر بحر العرب في فصل الخريف هادرا نحو الشرق . معتزا ومتفاخرا بسيول المياه التي يتحمل وطأة اندفاعها ويحصرها بين جانبيه لاشهر طوال . ولكن ما أن يقترب العام من نهايته حتي تبدأ خطوته في التثاقل والتلكؤ الى أن يتوقف نهائيا في الاشهر الاخيرة من زمن الجفاف عندما ينكمش المجرى ويصبح بركا ساكنة متقطعة . فهو أشبه حالا برفيق آخر يجاهد عبر المستنقعات الاستوائية القليلة الانحدار ساعيا لنفس الهدف . وبسعيه الحثيث للشمال الشرقي تعوق سيره نباتات مائية غزيرة . يختفي التيار الرئيسي لنهر الجور بينها وينعدم أثره تحت مساحات شاسعة من مياه المستنقعات المسطحة حتي يصل الى غابة العرب وينفلت متحررا ويلتقط أنفاسه ليحول اتجاهه للشرق ، نحو هدفه الاعظم .

وعندما يلتقي برفيقه المنحدر من الغرب تمتزج مياههما ويتقدمان نحو الشرق يدا بيد ، بخطوة منتظمة واحدة وتيار واحد يأخذ اسم رافد النيل المشهور (بحر الغزال) الذى يبدأ بدوره رحلة أخرى قصيرة تجمعه بالاخ الاكبر (بحر الجبل) وهز الآخر مجهد من رحلته الطويلة من البحيرات الاستوائية ، فتمده مياههما الشابة بدفعة قوية توصله الى بحيرة (نو) ليتسرب منهما النيل الابيض العريض .

يحفر مجرى النيل في رحلته الشمالية شبه المستقيمة الحدود الطبيعية الشرقية لاقليم كردفان ، بينما يشكل بحر العرب وبحر الغزال الحدود الجنوبية للمنطقة التي شهدت النشاط الرئيسي للمهدى في أعوام ٨٢ – ٨٣ – ١٨٨٤ .

تلك هى حدود الطبيعة التي تخضع للقوانين وللضرورة أحيانا ، وتتبع مزاجها ونزقها أحيانا أخرى . ولكن هناك حدود أيضا من صنع الانسان ، تخضع في الغالب الاعم للظروف التاريخية . فليس هناك هيئة طبيعية محددة تفصل كردفان عن بقية السهل العريض الممتد غربا حتي جبال مرة . أو بحار الرمال الممتدة شمالا لصحراء بيوضة والصحراء الليبية بل جرى العرف في تعريف تلك الحدود بالخط الرأسي الرسمى الفاصل بين اقصي مناطق النفوذ والتبعية الاسمية لسلطنة الفور من

الغرب . وأقصي مابلغه جنود محمد علي الوافدون من الشرق[1]

تنقسم الاراضي التي حصرها ذلك السياج ، الطبيعي منه والمصطنع ، الى ثلاثة أحزمة عريضة . الحزام الشمالى يتجسم فيه الوصف الذى صوره شعراء العرب الاقدمون للصحراء : بحار من الرمال والكثبان الممتدة ، ونفس مشاهد الصحراء التي تأسر الناظرين في الفجر والغروب ، أما مابينهما ، فشمس لاهبة وبرد لاذع قارس أما الحزام الاوسط ، فهو أكثر خضرة حيث تتناثر الاشجار ثم تتشابك كلما اتجهنا جنوبا الى الحزام الجنوبي شبه الاستوائي .

ولكن التدرج المنتظم لتلك السهول تعترضه فجأة هيئة طبيعية بارزة ضخمة ، هي جبال النوبة — مرتفعات متفرقة يمتد طولها لاكثر من مائة ميل ، بعضها أشبه بحدائق معلقة بجدرانها العالية التي تحمل في أعاليها تربة خصبة تنبت فيها الغابات والنباتات الغزيرة وتسقيها العديد من مجارى المياه والخيران ، وتزدحم أيضا بالجبال الصخرية القاحلة .

ومن كل القبائل البدوية العربية التي انتشرت في ساحة العالم القديم في أعقاب الفتوحات الاسلامية ، كانت قبائل كردفان الشمالية — على بعدها من موطنها الاول — تحتفظ بالكثير من سمات قبائل الجزيرة العربية في فترة الجاهلية وفجر الاسلام[2] ، في اللهجات والسحنة والروابط القبلية وفي النواحى الانثربولوجية والبيئية[3] : فالدولة كلمة مبهمة ، والحكومة يمثلها شيخ سلطته عائلية أكثر منها رسمية يرونه في مواسم جمع الضرائب ، واعتمادهم على قطعان الماشية والابل لازال هو الذى يكيف أقدارهم ، وحياتهم كلها تدور — كما دارت حياة أجدادهم من قبل — في فلك واحد هو السعي وراء الماء والمراعى . فالبرك والرهود والوديان هى مراكز التجمع السكاني بل هى مبرر وجود الحياة نفسها ، ونسمات بشائر الامطار هى التي تدفعهم وأمامهم قطعانهم ، وتفرض عليهم تحركاتهم عاما بعد عام .

---

١ — ذكر شقير أنه بعد احتلال كردفان كانت هناك حدود متعارف عليها بين حكومة الخرطوم والسلطان — وهى نفس الحدود التي أصر عليها على دينار في سلطنة دارفور الثانية ، وتعتبر جبل الحلة هى نقطة الحدود الرئيسية بخط رأسي غير مستقيم جنوبا وشمالا . كما أن الاسطورة التي رواها شقير عن سر هزيمة الزبير لسلطان دارفور ، توضح أن هناك نوعا من الحدود متعارف عليها ، ومفادها أن سلطان دارفور اهتم بوضع أحجبة لحماية (حدوده الشرقية) من الغزو الذى توقعه من كردفان ، ولذا تمكن الزبير من هزيمته لانه اتاه من الجنوب ..

ويتضح من خريطة التونسي البدائية ومن حديثه ، ان نهاية حدود دارفور الشرقية وبالتالى بداية كردفان من الغرب كانت تبلدية ، في دار الرزيقات ، خط رأسي يمر بتبلدية شمالا وجنوبا ثم تفصلها صحراء رمز اليها بصحراء الاقواز قبل أن يبدأ الاقليم المتعارف عليه بكردفان . وزار التونسي كردفان عام ١٨٠٣م أي قبل حوالى عشرين عاما من غزو الدفتردار حين أصبحت حدودها الغربية تقارب الحدود الحالية وكانت كردفان اقليما تابعا لدارفور .

2. Mac Michael, H. History of the Arab in the Sudan P.193

3. On Camel. Back P. 25.

وهناك عوامل تاريخية عديدة ساهمت في حفظهم ، تلك (الثلاجة) التاريخية التي جعلتهم يبدون كأنما لم تفصلهم عن حياتهم وأرضهم الاولى ألوف الاميال والسنين . أول تلك العوامل كان بعدهم وانعزالهم عن مراكز اشعاع الحضارات الاسلامية ، حين كانت في أزهى عصورها ، في بغداد ودمشق وحلب والقاهرة والقيروان وقرطبة . وقد تعددت الاسباب التي دفعتهم للابتعاد عنها والانتشار تدريجيا في بقاع الارض المختلفة[٤] ، كالانفجار الاسلامى الاول ، الذى قذف شظاياه من الجيوش الاسلامية في افريقيا كما قذف بها الى أقاصي الهند ، ثم الغزو المغولى المدمر ، الذى أعقبته سيطرة الاتراك والمماليك على الامم الاسلامية وخاصة مصر ، ثم انحسار الدولة الاندلسية واندثار حضارتها وهجرة سكانها عبر البحر الابيض المتوسط الى تونس والمغرب ثم الصحراء الكبرى وبلاد السودان .

وثاني تلك العوامل التاريخية هو ضآلة التأثير الحضارى لسلطنة الفور ، خلال الفترة القصيرة التي امتد فيها نفوذها لكردفان[٥][٦] ، بخلاف سلطنة الفونج التي عاصرت سلطنة الفور وكان لها التأثير الديني والثقافي الملموس على بسط من بسطت عليهم نفوذها الفعلى أو الاسمى . وقد يعزى فشل سلطنة الفور في التأثير على كردفان الى أن أغلب سكان كردفان كانوا من البدو والرحل وهم في حركة دائبة لايستقرون على حال . وسكان الجزيرة والنيل من رعايا السلطنة الزرقاء أغلبهم من الحضر . وعلاوة على هذا فهناك المسافات الطويلة والقفار الواسعة (صحراء الاقوان) [٧] التي فصلت بين الاقليمين .

قوم يحسون بتفوقهم العرقي ، يجترون الامجاد القديمة التي تسربت اليهم عبر الاجيال من روايات الآباء والاجداد . هم مسلمون ، ولكنهم يحسون بخوائهم الروحى ، عقيدتهم وتراثهم الديني في القمة ، وواقع حياتهم الباهت الممل ظل في ركود لقرون طويلة . كان هناك خواء عريض وتعطش مغر للاندفاع من القاع وسد ذلك الفراغ الذى لم تفلح الحروب القبلية ولا الغارات المتصلة بين القبائل في ملئه .

وقد ازدادت تلك الهوة في الستين عاما الاخيرة في فترة الاحتلال . فأحفاد محمد الفاتح ، أو من حكموا باسمهم في كردفان ، كانوا آخر من يستطيع سد ذلك الفراغ باهتماماتهم العسكرية والادارية البحتة . وقلما توفرت البيئة الصالحة والجو الملائم لهبة دينية مثلما توفرت في تلك البقاع ، وفي تلك الايام .

---

٤ — السودان يعني في القرون الماضية كل الجزء الجنوبي من النصف الشمالي لافريقيا وأواسط غرب افريقيا المسلم من المحيط الاطلسي وحتي النيل الابيض .

٥ — من عام ١٧٨٧ الى عام ١٨٢٢ أي من بداية غزو السلطان تيراب لكردفان وضمها لدارفور حتي سقوطها على يد الدفتردار عام ١٨٢٢ .

6. Mac Michael p.71.

٧ — تسمية التونسي للصحراء التي تفصل بين كردفان ودارفور .

وتوزعت قبائل البدو التي استوطنت كردفان بين قسمين رئيسيين : بقارة وأبالة وقلة بينهما من الحضر. وقد حددت الطبيعة الجغرافية البحتة هذا التقسيم. في الاراضي الصحراوية وشبه الصحراوية الرملية وصوب الشمال نجد القبائل التي تربي الابل وأكبرها قبائل الكبابيش وبني جرار ودار حامد والحمر. وفي جنوبي كردفان ، بين بحر العرب وجبال النوبة حيث العشب والارض الطينية . نجد قبائل البقارة في رحلتهم السنوية وهم يطاردون الماء حينا ويهربون منه حينا آخر حين يحمل لهم الخريف أسراب ذبابة الابقار. وأكبر تلك القبائل التي استوطنت غرب النيل الابيض هي قبائل الجمع والاحامدة والمسيرية . وما بين البقارة والابالة قلة من الحضر هم الجوامعة والبديرية والغديات .

ووسط ذلك الخضم العربي المتلاطم ترسو جبال النوبة. تضاربت الروايات عن أصل سكانها وكيف وفدوا واستوطنوا تلك الجبال . وعن صلتهم بالنوبة قاطني النيل وصانعي ممالك مروى ونبتة . والاجابة على تلك الاسئلة تعني الكثير . فهم أول من استوطن في كردفان قبل تدفق موجات الهجرة الوافدة من الشمال أو من الغرب والصحراء الكبرى[٨] .

ومن كل جبال النوبة التي يقارب عددها مائة جبل ، تركزت الاحداث لقرون طويلة في جبل تقلى الذى يحتل الجزء الشمالى الشرقي من المنطقة ، حيث نشأت سلطنة تقلى القوية التي تقدم لنا تاريخا جديرا بالاهتمام . وان كان معظمه قد تسرب من الروايات والاساطير ومن معلومات الرحالة ، مثل الكابتن فيكى مايلز الذى زار سلطنة تقلي في القرن السابع عشر. فقد كانت منطقة الجبال تنقسم في البداية الى عدة زعامات اقليمية تتحدث بلهجات مختلفة ولغات متباينة . ثم بقيام سلطنة تقلى تطورت هذه الزعامات الاقليمية وانصهرت في قومية واحدة تتحدث باللغة العربية . ومايقال عن اللغة يقال عن الديانة المحلية والتي تحولت بدورها الى الديانة الاسلامية .

ولم يكن ذلك شأن جبل تقلي وحده . فقد امتدت أمواج المد الاسلامى القوية لتغمر كل منطقة الجبال . فالروايات المحلية تذكر أن أبا جريدة داعية الاسلام الاول في الجبال لم يكن وحيدا فقد اتجه رفاق آخرون جنوبا وغربا ، مثل رشيد الجعلى الذى توجه الى رشاد فسميت باسمه وكون أسرة الرشاودية ، وتوجهت مجموعة أخرى الى جبل قدير.

وقصة انتشار الاسلام في وسط افريقيا وغربها قصة تستحق قليلا من التأمل والتريث : في

---

٨ — يرجح مكمايكل في أصول قبائل كردفان ان النوبة هم جزء من النوبيين والنبتيين الذين انشأوا الممالك الحامية في الالف سنة الثانية قبل الميلاد . ويرجح أن جزءا من النوبيين الذين غزوا مصر أثناء حكم الاسرة الخامسة والعشرين - تراجعوا تحت وطأة الهبة الفرعونية واتخذ بعضهم طريقه جنوبا حذاء وادى المقدم الى أن استقروا في مكانهم الحالى . وهو يعزز رأيه بأن هذا الطريق لم يكن صحراويا قاحلا كما هو الانُ بل كان وافر المياه ومأهولا .

النيجر . كما في دارفور وتقلى تتردد نفس القصة – شاب عربي شجاع يصاهر الاسرة المالكة ثم يتزعمها ويبشر بالدين الجديد . ان تشابه الاحداث يوحى بأن هناك شيئا آخر . ولعل الاجابة تكمن في انفراد الدين الاسلامى من دون الاديان السماوية الاخرى بتلك النصوص التشريعية القاطعة التي تنظم حياة الجماعات والافراد الى أدق تفاصيل الحياة اليومية ، فكان امتثالها لتلك النظم والمامها بذلك التراث المجيد طفرة حضارية كبرى . وما حدث في سلطنة الفور . تكرر في مملكة تقلى : زعيم قبلى يبسط سيطرته على جبل تقلى . أكبر جبال النوبة الاربع ، يزوره في أوائل القرن السادس عشر شاب عربي نجيب . كما وفد قبله أحمد المعقور لملوك الفور وحول مجرى التاريخ في سلطنة الوثنية . فقد حط محمد الجعلى رحاله في كرابة[9] يدفعه الحماس الديني لنشر دعوة الاسلام في تلك الاصقاع . ولم يلبث أن ضمن لنسله وراثة عرش تقلى بعد ما صاهر زعيم الجبل (كبركبر) وأنجب السلطان جعلى أبو جريدة مؤسس سلطنة تقلى المسلمة .

وقد كان الاسلام بقوة الدفع الحضارية الكامنة فيه هو المحرك الاول لازدهار سلطنة تقلى . فقد افلح احفاد السلطان الجعلى ابو جريدة في نشر التعاليم الاسلامية تدريجيا باكرام علماء ومشايخ الطرق الوافدين للجبال وبناء المساجد والزوايا لتدريس الفتية. وكلما ازداد رسوخ قدم الاسلام في تلك البقاع، ازدادت قوة سلاطين تقلى وسيطرتها على ما حولهم من الجبال وانعكس ذلك بدوره في نمو ثروات المنطقة وواردتها من المنتوجات الزراعية ومنسوجات الدمور[10] «القنجة» التي اشتهرت بها تقلى حتي يومنا هذا.

وقد تمكن سلاطين تقلى الثماني عشر من الاحتفاظ باستقلال تقلى طيلة تلك القرون ، فيما عدا فترة بسيطة تبعوا فيها اسميا للسلطنة الزرقاء بعد أن غزا ديارهم ملك سنار ، بادى الثاني . في عهد السلطان الجعلى أبو قرون[11]

وحتي عندما خضع كل السودان تقريبا لسلطة الخرطوم ظلت مملكة تقلى تحتفظ باستقلالها بالرغم من احتكاكها مرتين بحكمدار السودان . في المرة الاولى قاد خورشيد حكمدار السودان حملة الى مملكة تقلى عام ١٨٣٣ لاخضاعها ، ولكن وعورة الجبال وسعة المملكة أقنعته بأن يكتفي بعقد معاهدة

٩ – القوميات التي تكون مملكة تقلى هى :—
(١) تقلى (٢) الرشيداويون (٣) الكجاكجة (٤) التقوى (٥) الترجك (٦) وسكان قدير الكبرى وهى عبارة عن أفرع للقبيلة الام تقلى .

١٠ – بالاضافة الى أن الدمور كان سلعة هامة فقد كان أيضا العملة الرئيسية في مملكة تقلى .

١١ – تشير أغلب المصادر المكتوبة التي تحدثت عن علاقة تقلى بمملكة سنار الى الاحتكاك الذى حدث في عهد الملك بادى الثاني . بينما تؤكد الروايات المحلية أن العلاقة كانت علاقة مصاهرة ووئام .

صداقة مع السلطنة . أما في عام ١٨٤٣ فقد خضعت سلطنة تقلى بمحض اختيارها لسلطة الخرطوم حين شب نزاع بين المطالبين بالعرش واستنجد أحدهم ويدعى الملك ناصر بحكمدار السودان مقابل الخضوع للحكومة ودفع الجزية . وفعلا تمكن من استعادة العرش بمساعدة الحكومة وأرسل القسط الاول من الرقيق (١٢٠٠ رأس) كدفعة أولى لحاكم مصر . ولكنه سرعان ما أخل بوعده بعد سنوات قليلة وعزف عن دفع الجزية للحكومة وفشلت الحملة التي أرسلت لاخضاعه في الوصول اليه فعادت أدراجها .

وبعد وفاة الملك ناصر الذى دام عهده أكثر من ثلاثين عاما تولى الامر ادم ام دبالو ، الذى لعب دورا رئيسيا في معركتنا والمعارك التي سبقتها ، وظل على عهد آبائه في رفضه المطلق لاى خضوع للحكومة .

كان نظام الحكم في مملكة تقلى حكما فرديا مطلقا على رأسه السلطان ، يعاونه اثنان من الوزراء احدهما للاقليم الجنوبي وآخر للاقليم الشمالى أما (ياس) العاصمة القديمة فلم تكن مدينة بالمعني المفهوم ، بل كانت عبارة عن سياج ضخم يحيط بأكواخ القش ، بل نجد أن العاصمة الجديدة (كوبيه) التي انشأها ادم ام دبالو ، وازدهرت فيها التجارة في عهده ، وكانت مفتاح الجبال وملتقي الطرق التجارية للابيض ثم الخرطوم ومصر ، لم تختلف كثيرا عن سابقتها . ولكن يجب ألا نحكم على الرقي العمراني للسلطنة من خلال نظرتنا للعاصمتين حديثتي العهد ، فالآثار التي يمكن مشاهدتها حتي اليوم من الحصون والاسوار المحيطة بمداخل الجبال تدل على مقدرة التقلاويين في البناء دفاعا سلطنتهم من الغزوات الشرقية والشمالية.ان ما تسرب الينا الآن عن التاريخ القديم لتلك المناطق ضئيل للغاية ، وكأن تلك الارجاء انعدم فيها البشر والحياة بخلاف مناطق السودان الشمالية التي عرفت منذ آلاف السنين وتحدث عنها المؤرخون منذ عهد هيرودوتس والمسعودى . والاحتمال ضعيف في أن تزيح الحفريات الستار في المستقبل عن معلومات جديدة عدا تلك التي تقدمها اطلال دفاعات مملكة تقلى . وحتي تاريخها الحديث نجده مبستي من الرحالة أمثال التونسي[١٢] ، مؤرخ تاريخ سلطنة دارفور الذى

---

١٢ ــ التونسي رحالة تونسي زار السودان في القرن الثامن عشر وهو يبحث عن والده الذى غادر مصر وهاجر منها الى دارفور . وقد أحسن سلطان دارفور استقباله وسمح له بالتجول في السلطنة ثم أقطعه اقطاعية . وخلال اقامته تمكن من تقديم وصف مسهب لتاريخ دارفور القديم والحياة الاجتماعية والسياسية ونظم الحكم والادارة . وزار جبل مرة ثم غادر دارفور الى وداى ومنها عاد لمصر . ولما كان يعمل استاذا في كلية طب القاهرة في الكليات التي انشأها نابليون ، فقد قام بترجمة كتابه (تشحين الاذهان في تاريخ العرب والسودان) الاستاذ بيرون الى الفرنسية وطبع عام ١٨٥٠ . وقد قامت بعثة من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠ بتحقيق الكتاب ومراجعته بالنسخة الفرنسية كما زارت دارفور والاماكن التي وردت في كتاب التونسي .

وكتابه يعتبر الان الوثيقة المكتوبة الشاملة الوحيدة ، عن سلطنة دارفور . وقد تحدث عن كردفان حديثا حديثا عابرا ولكن يمكننا أن نستنتج أن الوصف الذى قدمه التونسي عن قبائل البدو في دارفور وعلاقتها بالسلطنة المركزية انطبقت أيضا على قبائل

تحدث عن كردفان من خلال حديثه عن دارفور . ومن شذرات حديثه يمكننا أن نلم الماما غامضا عن تبعية شمال كردفان لدارفور في القرن الذي سبق الغزو المصرى ، وعن مملكة تدعى (المسبعات) ينحدر ملكها من نفس الاسرة المالكة التي اعتلت عرش دارفور ، وان حربا ضروسا نشبت بينهما في النصف الاخير من القرن الثامن عشر ، وعن ممالك أخرى صغيرة كمملكة تقلى .

فمن الروايات السماعية التي جمعها التونسي عن تاريخ دارفور القديم ، نعلم أن جزءا كبيرا من كردفان توحد مرة واحدة على يد السلطان هاشم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، حين غزا السلطان هاشم حدود دارفور الشرقية ، وأفلح في توحيد عدد من قبائل النوبة والعرب استعدادا للحرب . ولكن الخلفية التاريخية لتلك الاحداث لاتزال غامضة ، فنفس المصدر يشير الى أن مملكة المسبعات أنشأها مسبع شقيق السلطان سليمان صولونج (أى سليمان العربي بلغة الفور) « مؤسس أسرة كيرا » المالكة في دارفور . أما كيف تمكن من تأسيس مملكته بمفرده – كشقيقه سليمان ، وماهى حدودها ونظمها أو مدى سيطرتها على من حولها من القبائل فهى كلها امور غامضة مبهمة .

وتبدأ تبعية كردفان لدارفور حوالى عام ١٧٨٥ حين نشب خلاف كبير بين السلطان تيراب والسلطان هاشم سلطان المسبعات ، فتقدم تيراب نحو كردفان غازيا . وعندما علم الاول أن جيش تيراب جيش جرار لاقبل له بمواجهته انسحب شرقا واستنجد بملك سنار وتشتت شمل القبائل التي التفت حوله . أما تيراب فقد واصل اندفاعه الغاضب [١٣] مخترقا كردفان الى أن أشرف على ضفاف النيل بالقرب من امدرمان وأوقع بملك العبدلاب ، ومكث بامدرمان عدة أشهر وهو يبحث عن سبل

كردفان . أما كنيسون فيمضي قدما ويوضح أن سلطة سلطان دارفور على قبائل البدو في دارفور وخصوصا البقارة كانت شبه يعدومة وأقل من اسمية واذا كان هذا شأن قبائل مثل بني جرار تقيم على الحدود القريبة بين دارفور وكردفان فالارجح أن سلطة السلطان كانت أو هى على قبائل كردفان في الشرق أو الجنوب .

التونسي ص ١٤٠

١٣ –كانت حملة اسطورية كما روى شقير :

(وقد طالت اقامة السلطان تيراب في ريك مصابرة للسلطان هاشم لعله يرتدع عن شن الغارة فما زاده ذلك الا تماديا في غيه فتحمس ثلاثة منحاس فضربوه وجمعوا الناس للحرب بلا استئذان السلطان . وكان الوقت العصر فلبس السلطان عدة حربه وركب جواده وجاء الى مكان النحاس فسأل الفرسان عن الخبر فقالوا أن نحاس السلطان هاشم أوقر آذاننا ونحاسنا ساكت فلم يغد لنا صبر على هذه الحالة فاما ان نسكت نحاس السلطان هاشم ونردعه عن البغى أو نموت في هذا السبيل . فقال السلطان تيراب (أتبعوني اذا) فتبعوه ولحق بهم الجيش فاستمر السلطان سائرا والجيش يتبعه الليل كله الى طلوع الشمس فتقدم أحد الوزراء الى السلطان وقال له يامولاى ان الجيش أنهكه التعب ولم يذق زادا فلم يصغ السلطان اليه وواصل السير الى العصر فتقدم اليه وزير آخر وقال يامولاى أن الجيش قصر على السير حتى الفرسان فوضع يده تحت فخذه وأخرجها ملوثة بالدم وقال أنظر ماجرى لى ولم أتضجر وعاد الى متابعة السير فتقدم اليه امامه الحاج عبد الغني وقال له يا أمير المؤمنين فاتتنا خمسة أوقات من الصلوات المفروضة علينا دينا فان كنت لاتقف شفقة على نفسك والجيش فلابد من وقوفك لاداء فرض ربك من الصلاة فوقف السلطان اذ ذاك وقال لقد أوقفتني بالرغم عني) .

عبور النيل العريض ليواصل تقدمه لسنار ، حتي فاجأه المرض وعادت حملته أدراجها . ومنذ ذلك الحين أصبحت كردفان احدى مقدوميات سلطنة دارفور . وانتهى أمر مملكة المسبعات . وظلت تلك الارجاء تعيش في ركود تاريخي لا يعكر صفوه الا عمليات الهجرات والاستيطان التدريجية البطيئة . ولكن عندما بدأت السنون تتوغل في القرن التاسع عشر ، شهدت البحيرة الساكنة حدثين هامين — أشبه بحجرين ألقيا في بركة راكدة . كان الاول صغيرا حرك موجات متتالية بطيئة ، صغيرة الارتفاع ولكنها متصلة . وتلك كانت سنوات الاحتلال ، وقبل أن تتلاشي تموجاتها سقطت صخرة هائلة من علو شاهق فجرت مياه البركة ، وأزالت معالم شطآنها ففاضت مياهها شرقا وغربا . فقد وصل المهدى لكردفان .

ثلاث هجمات فرسان شجاعة في القرن التاسع عشر تساقط فرسانها وتلاشت أمام الاسلحة النارية . وبتلاشيها كشف الغطاء عن حوض النيل ، تلك البلاد التي حيكت حولها الاساطير وكانت حكرا على الرحالة والمستكشفين . هجوم فرسان المماليك على نابليون في معركة الاهرامات ، وهجوم فرسان المماليك الشايقية على جيش اسماعيل باشا عام ١٨٢١ في كورتي ، وهجوم فرسان المقدوم مسلم على جيش الدفتردار في ابريل ١٨٢٢ ، حين خرج والى كردفان من الابيض متصديا للدفتردار ، صهر محمد على وقائد حملة كردفان . وشبت معركة عنيفة بين الجيشين في بارا صباح ١٦ ابريل . انتصر فيها البارود على الشجاعة والحمية .

تقدم الدفتردار نحو الابيض واحتلها ثم شرع في التقدم نحو دارفور ، ولكنه أجبر على التوقف مرة أخرى لمجابهة جيش أبو لكيلك ، الذى بعثه السلطان محمد الفضل لنجدة المقدم مسلم ووصل متأخرا ففاتته المعركة الاولى ، فاضطر الدفتردار لخوض معركته الثانية في كردفان ، معركة سودرى ، وخرج منها منتصرا . وحين تأهب للتقدم النهائي نحو دارفور وافته أخبار وليمة العشاء المشهورة في شندى التي شوى فيها كل من الخراف والمحتفي به — اسماعيل باشا قائد حملة سنار . فانقلب راجعا وخاض مسيرته الدموية الانتقامية المشهورة .

أما كردفان ، فقد شهدت خلال ولاية الحكام العشرين الذين تقلدوا زمام الامور في السودان تغيرا بطيئا ولكنه مستمر . وقد ساهم موقع كردفان الجغرافي الذى تتخلله عدة طرق تجارية ، سواء للنيل شرقا أو شمالا بالاضافة الى عطائها الثرى من المحصولات والماشية ، في تطور الاسواق الاسبوعية المؤقتة الى مدن تجارية هامة شبه دائمة ، حيث تتجمع المحاصيل من الصمغ والسمسم والسمن والعسل وسن الفيل والريش والجلود الواردة من بحر الغزال ، كما تتجمع فيها أسواق المواشي من الابل والبقر . وقد قدر التونسي في القرن التاسع عشر تجارة كردفان لمصر وحدها نحو ١٠ الف جمل سنويا .

وقد نمت هذه المدن بعد الفتح المصرى وتدفق الاوروبيون والمصريون وقدر تعداد سكان الأبيض وحدها ب ٥٠٫٠٠٠ نسمة . فأصبحت بمثابة مركز لتجميع المنتجات من المدن الصغرى ، فمن

الطيارة الصمغ . ومن أبو حراز ريش النعام ومن بارة الفواكه والخضر ومن النهود وبادية الكبابيش الجمال ومن جبال النوبة وبحر الغزال الرقيق[١٤] . والنمو والازدهار التجاري تبعه الدناقلة والجعليون كتجار في هذه المرحلة بعد أن اشتهروا كمبشرين دينيين ووعاظ وأئمة مساجد في المرحلة الاولى . وكان منهم عدد لايستهان به في أغلب مدن كردفان ، وحاز كثير منهم على مكانة تجارية واجتماعية هامة ، وأشهرهم الياس باشا ام برير الذى منح لقب باشا وتولى منصب مدير كردفان اثناء فترة الحكم اللامركزى في عهد محمد سعيد .

وفيما عدا نمو المدن والاسواق الكبيرة ظل الحال كما هو : بضعة حاميات مبعثرة منعزلة تسهم في خلق الانطباع بأن هناك سلطة ودولة . ولكن لابد للحكومة من أن تستعين في تلك الارجاء الشاسعة بنفس النظام القبلى لجمع الضرائب ، وظلت التروس الرئيسية في آلة الحكومة الادارية هى زعماء وشيوخ القبائل وان استبدلت القابهم باللفظ الاجنبي (ناظر) وظلت مملكة تقلى في جبال النوبة مستقلة كما هى.

ولكن التغيير الحقيقي الذى حدث في المنطقة كان على يد السكان أنفسهم ، وليس على يد السلطة المركزية في الخرطوم أو المحلية في الابيض . فبعد الفتح المصرى وانتشار حيازة الاسلحة النارية . اصبحت كردفان ممرا يؤدى الى بلاد السود في أعالى النيل وبحر الغزال ، قبلة المغامرين والباحثين عن الثراء السريع ، فعبرها واستوطن بها عدد كبير من البحارة من الدناقلة والجعليين وانتشرت الكبانيات بالقرب من حدودها الجنوبية .

وعندما أصبحت الاسلحة النارية في متناول عدد كبير من القبائل النيلية كان ذلك عاملا مهما في ازدياد الوافدين لجنوب السودان . فالبندقية تحمى الافراد والجماعات الصغيرة من المغامرين في تلك الاصقاع . واذا وضعنا في الاعتبار تعسف الادارة الحكومية في جمع الضرائب وثقلها من ناحية . واصرارها على تجنيد الشبان السودانيين في الجيش المصرى من ناحية أخرى ، اتضحت لنا البواعث التي جعلت الكثيرين من أبناء القبائل النيلية يبتعدون عن ديارهم ويهاجرون جنوبا لاصطياد الرقيق لمواجهة طلب الحكومة المتزايد للرجال . وللحصول على المال الوفير من التجارة المغرية لمواجهة ضرائب الحكومة المتصاعدة .

---

١٤ ـــ أوضح عباس بك في مفكرته خلال احاديثه مع الجنرال هكس . التي ستصبح مادة رئيسية للصفحات التالية . أهمية كردفان التجارية . وانها أهم في نظره من الخرطوم نفسها فقلت له (الهكس) « ان كردفان هي السودان نفسه وليس الخرطوم هو السودان اذ أن الخرطوم وخلافها لا يكن شئ بالنسبة لكردفان وبالنسبة لمحصول القمح فقط كنت أمين جمرك سواكن في سنة ٨٢ . كانت واردات القمح فقط الكردفاني مائة وأربعون ألف قنطار هذا بخلاف المعتاد مروره عن طريق عتمور كرسكو بهذا القدر بخلاف باقي أصناف مثل السمسم والريش وغيره والواردات للسودان من أوربا ومايلزم السودان وهى غرب السودان شئ لايحصي من كامل الاصناف .

وبينما انحصرت هجرات الوافدين في البداية في جنوب النيل الابيض خلال موجة الهجرة الاولى ، أخذ التجار بعد ذلك يتوغلون غربا لبحر الغزال وبحر العرب في المرحلة الثانية ، فقد شهد النيل الابيض وبحر الجبل نشاطا متزايدا من قبل صمويل بيكر وغردون اللذين استخدمهما الخديوى اسماعيل في تعقب تجار الرقيق ومطاردتهم في المديرية الاستوائية ، فكان تحول التجار غربا الى بحر الغزال والعرب بعيدا عن مجرى النيل الرئيسي لتفادى مستعمرات غردون ، وازدادت أهمية كردفان بالطبع ، اذ أصبح الطريق الرئيسي المؤدى (للكبانيات) المبعثرة التي توحدت أخيرا على يد الزبير يمر عبرها . والنزاع على الجزء الغربي من هذا الطريق في دارفور أدى الى حرب طاحنة انتهت باسقاط سلطنة دارفور بعد عمر دام أكثر من أربعة قرون .

وفي السبعينات ، اتجهت أنظار الخرطوم والقاهرة غربا نحو بحر الغزال ودارفور ، بعد أن تركزت في الستينيات على الشرق ثم الجنوب خلال الحرب الاثيوبية التي شنها اسماعيل لتحقيق حلمه ، فبدأ أولا بحوض النيل الازرق ثم انثني جنوبا لمنابع النيل الابيض مستقلاً حماس المستكشفين الاوروبيين للمغامرات ومحاربة تجارة الرقيق .

وقد تحولت الانظار غربا بسبب تطور الاحداث السريع على يد الزبير في بحر الغزال ثم دارفور ، فها هنا مديريتان تضمان لمديريات الحكومة السبع وبدون ثمن تقريبا . والاهم من ذلك ، ان الرواة لابد قد تناقلوا نبأ الثروات العظيمة والموارد الضخمة التي جمعها الزبير وأعوانه . وترامت تلك الروايات الى أسماع الحكمدار في الخرطوم ، ثم الى الخديوى المسرف وهو يعاني أشد أيام أزمته المالية بعد بيعه لجزء كبير من اسهم مصر في شركة قنال السويس . وبدأت خطوة الحكومة تسرع في توطيد أقدامها في المديريتين وكان أول الضحايا هو الزبير نفسه . فشهدت كردفان أولا حملة اسماعيل ايوب في اكتوبر ١٨٧٤ وهو يعبرها للحاق بالزبير في معركته الفاصلة مع السلطان ابراهيم ، ثم عبرها غردون ببعيره السريع في اغسطس ١٨٧٥ في طريقه لمقابلة سليمان الزبير حيث اجتمع به أثناء زيارته الاولى بشكا وأفلح في تمزيق وحدة جيش الزبير نهائيا بالدسائس والمؤامرات بين قادته . وقد شهدت كردفان آخر الانتفاضات المتمخضة عن أيام الزبير عندما انفصل صباحى أحد قادة الزبير ، ودخل كردفان وهاجم الاضية وقتل حاكمها ولاذ بجبال النوبة الى أن طاردته قوات الحكومة وهزمته هناك .

وفي رأى سلاطين أن أكبر اخطاء غردون في ولايته الثانية للسودان ارتكبت عندما عزم على القضاء نهائيا على (البحارة) وبقايا جيش الزبير ، وأمر مشايخ القبائل بمصادرة أملاك التجار في جنوب كردفان والمتركزين على الطرق التجارية المؤدية لدارفور وبحر الغزال . فهم حسب ظنه كانوا

---

١٥ ـــ الكبانيات هي عبارة عن مستوطنات ومخازن تجارية كان ينشئها التجار الذين وفدوا على بحر الغزال وأعالى النيل . وهي عبارة عن زريبة متسعة يقيمها تاجر أو شركة من التجار تحيط بخندق وتحفظ بداخلها البضائع من سن الفيل والرقيق وتحتمى بداخلها التجار واعوانهم من غارات الاهالى .

المسؤولين عن تسرب الاسلحة النارية الى بحر الغزال . وقد نفذ القرار بعنف وفظاظة . ولم يتسن لغردون أبدا أن يفرق بين البحارة حديثي العهد ممن استقروا في تلك البلاد اثناء موجة الهجرة الحديثة جنوبا ، وبين الدناقلة والجعليين ممن استوطنوا تلك البلاد لقرون وكانت أقدامهم راسخة في النواحى التجارية والدينية .

أما حامية كردفان ، العدو المباشر والرئيسي في مواجهة المهدى في اعوام ٨١ و١٨٨٢ ، فقد قاست من الضعف وسوء التخطيط العسكرى الذى قاست منه كل أقاليم امبراطورية الخديوى اسماعيل المتفككة ، وتعددت أسبابه من سوء توزيع القوى ، إلى انعدام التدريب ثم أخذ خيرة الجنود السود الى مصر نفسها ليقوى بهم الجيش المصرى . وتستأهل حامية كردفان ان تلقي عليها نظرة سريعة . ليس لان تدميرها كان أهم اهداف المهدى في تلك المرحلة ، بل لان ضباط هذه الحامية وجنودها سينضوون تحت جيش المهدى الذى خاض به معركة شيكان ، بل مثلوا القوة الرئيسية الضاربة اثناء المعركة .

وقد اتبع المسؤلون في توزيع قوة الحكومة مبدأين عامين هما : التكثف السكاني بالمدن حسب أهميتها الادارية والتجارية ، ثم المناطق التي اشتهرت بعدم استقرارها أو وقوعها على الطرق التجارية الهامة بين النيل ودارفور وبحر الغزال .

وقد وزعت حامية كردفان على النحو التالى [١٦]

الابيض : ٦٠٠٠ جندى —٤كتائب + ١٥ أوردى [١٧]

بارة : ٩٠٠ جندى

الدلنج : ٢٠٠ جندى ٢ أوردى .

التيارة : ١٣٥٠ جندى .

سلح معظم الجنود ببنادق رمنجتون وعدد من المدافع يزيد عن عشرين ، ويمكن تقسيمهم الى ثلاث فئات رئيسية : فمنهم جنود مصريون نظاميون ومنهم السود وأغلبهم من (البازنقر) [١٨] ، ثم الباشبوزق [١٩] غير النظاميين . أما الضباط فقد كانوا من المصريين أو السناجك من الشايقية وغيرهم . والسنجك [٢٠] في العادة يقود (أوردى) وهو مايعادل سرية (بين ١٠٠ و ١٥٠ رجل) .

---

١٦ —شقير ص ٦٨٧ .

١٧ —اوردى = سرية .

١٨ —البازنقر هم جنود الزبير السابقين .

١٩ —الباشبزق : هم الجنود غير النظاميين .

٢٠ —سنجك رتبة عسكرية تقارب قائد سرية ولا تقتصر على الشايقية فقط .

وان من يلقي نظرة سريعة الى توزيع تلك القوة العسكرية في كردفان تسترعى انتباهه فجوة ضخمة وفراغ هائل في منطقة لم تتمكن قوات الحكومة أبدا من فرض سلطانها عليها أو اثبات وجودها فيها أو أن تطأها بأقدامها – منطقة جبلية منيعة عاش ملوكها في استقلال تام كفلته لهم وعورة مسالكها ومناعتها وشراسة سكانها . والى تلك المنطقة – جبال النوبة – تقدم المهدى من أبا يوم ٩ أغسطس ١٨٨١ .



الجبـــال

(... كانت أيام . تلك الايام ...) تحدث الخليفة عبد الله الى سلاطين وهما يتسامران بعد العشاء مشيرا الى فترة اقامتهم بجبال النوبة : (فقد بلغنا قدير في غاية الاعياء بعد هذا السفر الشاق الطويل وكان للمهدى فرس واحد من تلك السلالة الحبشية الرديئة . أما أنا فقد سرت المسافة كلها تقريبا على قدمى ، ولم تكن مشاق السفر تهمنا نحن الرجال ، فان المصائب والكوارث تأتينا من عند الله ونحن نتحملها راضين شاكرين لان الله قد اصطفانا لنعلى كلمته ونرفع دينه . وكنا نعلم اخواننا ، ولكن (وهنا كان يبتسم) تعليم الدين لم يكن ليأتينا بالطعام لاولادنا ونسائنا . وكان الناس يهرعون الينا زرافات ، ولكن معظمهم كان في فاقة تزيد عن فاقتنا وكانوا يأتون الينا لكى نعولهم ، أما الموسرون فكانوا يتجنبوننا ...)

وقبل أن نمضي في متابعة قصة المهدى في كردفان ، لابد لنا ان نعود عاما الى الوراء ، الى عام ١٨٨٠ عند زيارته الاستطلاعية الاولى لها . لقد حظيت تلك الرحلة بقليل من الاهتمام ، وما وصل الينا عنها ما هو الاشذرات متقطعة من حديث سلاطين نقلا عن الخليفة تناول فيه حادثة أو حادثتين بالتفصيل . ففي مطلع عام ١٨٨٠ عاد المهدى لأبا من المسلمية حيث توجه لبناء قبة تخليدا لذكرى استاذه الشيخ القرشي ود الزين[١] ، وقد انضم اليه الخليفة عبد الله وعادا سويا الى أبا . يتمثل وقع زيارة الغريب القادم من بعيد في ظاهرتين : الاولى كانت تصدره لشرذمة المهدى حاملا رايتها طوال رحلة العودة التي قطعها مشيا على قدميه بلا كلل أو ملل . أما الظاهرة الثانية . فقد كانت اقناع الخليفة للمهدى – كما ذكر سلاطين بالقيام بجولة استطلاعية لكردفان[٢] . بدأت تلك الجولة بزيارة (أبو ركبة) في دار الجمع أقرب قبائل البقارة الى أبا ، حيث زاروا أولا عائلة الخليفة بعد وفاة عائلها . وقد اقترح يعقوب ، شقيق الخليفة ، البدء في الدعوة والدعاية فورا[٣] ، ولكن المهدى صمد أمام الحاحهم الذى أملاه الحماس ، وأقنعهم بأن وجودهم في دار الجمع أجدى ، فهى ستمثل خط دفاعه الاول عند هجرته لكردفان ، وهم سيتولون مهمة حض القبائل للثورة .

أما زيارته للابيض فالمسجل عنها قليل ، عدا الرواية المشهورة عن تجريد المهدى لسيفه وهم بقتل أحد المخنثين[٤] حين منعه رفاقه وأقنعوه بأن من الافضل فتح بلاغ جنائي في مركز المديرية .

١–اوراق على المهدى – جهاد في سبيل الله ص ٥ ،
٢–سلاطين ص ٤٧ .
٣–تقسة ص ٤٨ .
٤–ابراهيم فوزى – بين غردون وكتشنر ص ٧٣

الا أن الدلائل تشير الى أن المهدى ، خلال رحلته للابيض أو أثناء اقامته فيها ، قام باتصالات واسعة برجال القبائل والمشايخ ورجال الطرق الدينية[٥] الذين مثلوا رؤوس الحراب في نشاطه التعبوى . ويبدو أن السيد المكى ، من كبار علماء كردفان ورئيس مشايخها ، كان همزة الوصل بين المهدى وبين الزعماء والاعيان والمشايخ وهو الذى نصح المهدى بالتريث حتي يشتد عوده ، وتم الاتفاق بينهما على أن تكتم قبائل كردفان عصيانها حتي تصدر الاشارة من المهدى باعلانه للدعوة .

ولم يقتصر نشاط المهدى على تجنيد مشايخ المدينة وفقهائها فقط ، بل أفلح في كسب أهم شخصيات المدينة الى صفه ، الياس باشا أم برير أشهر وجهاء المدينة وأعظمهم خطرا .

كان الياس باشا عثمان بن عفان الثورة بلا منازع[٦] : فهو أول الوجهاء والاثرياء الذين أيدوا ثورة الجياع وأعراب البادية ، ولعب دورا هاما داخل مدينة الابيض وخارجها في تنظيم امداد المهدى بالاموال والعتاد الذى كان في أمس الحاجة اليه في تلك الايام العصيبة[٧] .

وحقيقة أن ماحققه المهدى في تلك الايام ، على قلة ماحازه من اهتمام المؤرخين ، تتضاءل بجانبه أمجاده العسكرية اللاحقة فقد وضع اللبنة الاولى لجيش المهدية واستطاع أن يلم أشتات تلك القبائل المتباينة ويصقلها ليتمخض عنها ذلك الجيش المنيع .

وأبرز ملامح الصورة التي علقت بذهن من شاهدوه واحتكوا به تلك الايام ، هي صورة الواعظ الذى يقف متحدثا لساعات طوال بعد كل صلاة ، والالوف تصغى اليه وهى مأخوذة مشدوهة ، وصوته العالى المغنطيسي يرتفع تارة مبشرا ، وتارة محذرا ، وتارة متسائلا ليجد الاجابة أما الصمت المطبق ، أو الهتاف بالدعوات من الحناجر التي استجابت للآذان المنتشية . لقد أثار المهدى شعورهم الديني ، فهز كيانهم وامتلك وجدانهم ليبعد بهم عن واقع حياة باهتة رتيبة لايمكن أن تكون هى الختام لماضيهم المجيد . وبعد أن كانت المثل الدينية وتعاليمها روحانيتها تحتل حيزا ضيقا في حياتهم ، أصبحت تطغى على كل حواسهم وجوانحهم ، وبعد أن كانت صلتهم بها تنحصر في ألفاظ وسلوك تلقائي ، أصبحوا يغوصون في أعماقه ويشربون كلماته وروحانيته في ظمأ دائم ، دون أن يرتووا أبدا .

٥- اوراق على المهدى - جهاد في سبيل الله ص٥

٦-ذكر الاب اورفلدر نقلا عن محمد احمد ود البدرى ان نية المهدى الاصلية كانت التوجه الى دار فرتيت «بحر الغزال» «اعالى النيل» وشن ثورته من هناك . ولكن الياس باشا هو الذى اقنعه بمزايا كردفان ومحاسن جبال النوبة بالنسبة للفترة الاولى التي يحتاج فيها لمنطقة حصينة تحميه .

٧-شقير ص ٦٩٠ .

تلك هى الايام التي صنعت جيش المهدى – في قدير زرع ، وفي شيكان حصد . لقد عادت التعاليم الاسلامية لتحكم قبضتها على أولئك البدو وتلك الاشتات المتباينة من البشر ، كما فعلت بأجدادهم من قبل – ولم يقتصر غرسها في النواحى المعنوية فقط ، بل امتدت للنمط السلوكى ، والحياة اليومية ، والنظم التي تسير حياتهم .

ويجب أن نقوم وصف الاوروبيين المعاصرين بكثير من الحذر[٨] . فقد تركز وصفهم في خشونة التصرفات والهمجية ؛ فزعموا أن الهدف الاساسي من التفاف الجموع حول المهدى وخوضهم تلك المعارك الضارية لم يكن الا السلب والنهب وغنائم الحرب . ويمكننا ان أحسنا النية والظن أن نفسرها بأنها قيست بمقاييس أوروبية ناعمة لا تتناسب وتلك البيئة . لقد أصبحت العبارات اللطيفة الرقيقة التي يحفل بها القرآن الكريم والاحاديث والتراث الاسلامى ألفاظا متداولة تستخدم في المعاملات اليومية والمجال الاجتماعى والتجارى ، بينما كانت تدور الافعال والاقوال قبلها في التفاخر والمزايا الجسدية . ألم يكن الشعار السائد لمن يعزفون عن تقبل نصيبهم أو رواتبهم أو حتى تعييناتهم من الذرة (أنا قائم في شأن الدين) تميزا لانفسهم عن الجهادية الذين يتسلمون المرتبات ؟ هل كان النهب والسلب وضائقة العيش هى التي تدفع أولئك القوم كما يزعم الاوروبيون ؟ .

كان رفع ذلك الشعار هو أكبر انجازات الثورة المهدية الحضارية التي امتد أثرها للقاعدة العريضة من الجماهير وأصبح أثرها ملموسا في تغيير وجه الحياة للقطاع الاكبر من السكان حين جمعت بينهم ارادة عليا واحدة وارتفعت بسلوكهم الاجتماعى والخلقي عندما طبقت عليهم الشريعة الاسلامية والقوانين التي سنها المهدى . لقد تركز تأثير الثورة في الانسان نفسه بخلاف آثار المدنية الزائفة الخداعة التي أحدثتها سنوات الاحتلال وتمثلت في بضعة أبنية شاهقة هنا وهناك وفي تقدم تجارى وادارى في بضعة مدن امتد أثره لنسبة ضئيلة من السكان .

ولابد لنا أن نعجب من حيوية المهدى ونشاطه المتدفق بين واجباته المختلفة المتعددة ، ومن أين توفر له كل ذلك الزمن لتحرير المنشورات وممارسة واجباته الدينية من وعظ وارشاد ، ومن مجالس حرب متعاقبة . ثم التخطيط للعمليات المتصلة ومايسبقها من تدريب ثم الاهتمام بالواجبات التشريعية والادارية لوضع أسس الدولة الاسلامية والرعاية الشخصية لشؤون ألوف الاتباع .[٩]

ولقد كان تحرير المنشورات احدى الوسائل التي تمكن بها المهدى من تأليف جيش مؤمن بعقيدته

٨– الأب اورهلدر ص١٧

٩–منشورات المهدى ص ١٦٧ و ٢٧٣ و ٢٨١ و ٢٨٨ و ٢٨٩ .

في الجهاد ، وان ما أمكن جمعه حتي الآن من المنشورات التي حررها المهدى في تلك الفترة يملأ مجلدات ضخمة(١٠)

وفي تلك الفترة أيضا بدأ المهدى في كتابة أكبر منشوراته ، كتاب الادعية الذى دعاه بالراتب ليجعل قراءته واجبا يوميا . (راتب يومى) يؤديه كل اتباعه لترسيخ معاني القرآن والسنة .

ولابد لنا هنا أن نشير الى صفات المهدى الشخصية في معرض حديثنا عن مواهبه القيادية : فقد أجمع كل من عاصر المهدى في تلك الايام انه كان يتمتع بقدر كبير من المغناطيسية أو القدرة على التأثير على الجموع(Charisma) يعززها قدر كبير من الوسامة الجسدية تحطيه بهالة من الجلال والمهابة .

وصفه سلاطين عند مقابلته الاولى في الرهد بأنه : (رجل قوى البنية ، طويل القامة عريض الكتفين ، ضخم الرأس يلفت النظر اليه بعينين عسليتين براقتين . تحف بوجهه لحية حالكة السواد وتميزه ثلاث فصاد قبلية مائلة – دائم الابتسام .)

وان كان هذا رأى أعدائه فلنا أن نخمن تأثيرا أكبر على اتباعه . وحتي اليوم ، وعلى الرغم من مضي مايقارب التسعين عاما نجد أن الفشل هو نصيب كل من يحاول أن يستخلص وصفا محددا من المعمرين الذين شاهدوا المهدى أو تحدثوا اليه . فهذه السنين الطوال لم تفلح في مسح الاثر الغريب الذى كانوا يحسون به في وجود المهدى ، والاجابة العامة التي تظفر بها عندما تسألهم هى اجماعهم على انه (ما بتوصف) .

أما الأب أهرفلدر ، الذى تحدث اليه لساعات طويلة ، وسبر غوره ثقافيا وفقهيا خلال نقاشهما في الامور اللاهوتية ، فقد ذكر :–

(ان مظهره الخارجي اخاذ ، فهو طويل قوى البنية . وكانت الابتسامة لاتفارق شفتيه كما كان حديثه ساحرا للغاية)(١١)

ومن المؤكد انه كان يتمتع بصوت جهورى عال يمكنه من ايصال كلماته للالوف المحتشدة حوله ، وان كان هؤلاء يلفهم بالطبع الصمت المطبق وهم يجلسون ساعات طويلة في شمس الظهيرة المحرقة أسرى لكلماته التي اعتاد أن يكرر الجمل الهامة منها ثلاث مرات لترسخ في ذاكرة مستمعيه ، كما كان يكثر من الاسئلة الايحائية اثناء حديثه ليبعد الرتابة والملل ، وفي هذا الصدد ، وضح أن تأثره باسلوب الغزالى كان عظيما .

– كان للمهدى عدة كتب ولم ينسخ بعض المنشورات بنفسه ، الا اننا يمكننا ان نميز اسلوبه بسهولة فيها جميعا .
١١–الاب اهرفلدر ١٣ .

في فترة وجوده في كردفان كانت واجباته الدينية تستحوذ على الجزء الاعظم من يومه . وكان اتباعه يسمعون على الاقل موعظتين طويلتين عقب كل صلاة من الصلوات الخمس . ثم يحرر بعض

وفيما عدا نظافة ثيابه وولعه بالعطور ، اتسم ملبسه بالبساطة التامة وأقتصر على الجبة المرقعة والسروال والحزام والطاقية المنسوجة من السعف تحيط بها العمامة .

وقد وصفت طريقة ادارته الشخصية للمعارك بأنه كان يعتلى ظهر ناقته ويسير بها خلف الجيش حتي يصبحوا على مرأى من العدو ، وبعدها تتقدم راياته حسب المخطط الذى قلبه في ذهنه طويلا واتفق عليه مع قادته . وعند رؤيته العدو يأمر اتباعه بالهجوم بعد التكبير ويهز سيفه ثلاث مرات في اتجاهه . وفي الغالب كان هو الذى يحدد مكان المعركة . ثم يترك تطور الهجوم لقادته ، فكل راية تعرف واجبها تماما بينما يقف هو في مكان قريب ليصلى على مرأى من العدو . ولقد لخص الكردفاني اسلوب ادارته للمعارك عندما نقل عن المهدى قوله :—

(في حالة الحرابة أكون خلف أصحابي . وفي الفزعة على العدو أكون وسط الجيش . وفي حالة التوجه لأى مكان أكون خلفهم لان نظرى لهم خير من نظرهم لى ..)[١٢]

أما الخليفة عبد الله فكان أقصر من المهدى ، وكان نحيفا للدرجة التي توحى بأنه محني الظهر قليلا . خفيف الحركة رشيقا . وعندما تفرس سلاطين في الخليفة في مقابلته الاولى له وجد :

(ان لون وجهه هو السمرة الخفيفة ، ووجهه عربي عليه مسحة من الرقة ولا تزال آثار الجدرى بادية فيه . وكان أنفه منقاريا وفمه حسنا عليه شاربان صغيران وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن . وكان ربعة بين القصير والطويل وقد ارتدى جبة مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف في اللون عن الاخرى وعلى رأسه طاقية وقد لف عليها عمامة من القطن ، واذا تكلم تبسم فتبدو أسنانه البيضاء) .

وقد وصفه الاب أوهرفلدر بالحيوية والذكاء ، وانه موهوب بالفطرة في ادارة الرجال — ولكنه وقع في نفس الخطأ الذى وقع فيه آخرون عندما حسبه أميا لايعرف القراءة والكتابة .

وبعد أن عين المهدى خلفاءه ، أصبح الخليفة عبد الله الرجل الثاني وأمير جيوش المهدى ، والمسؤول الاول عن ادارة العمليات والحشود والنواحي التنفيذية والادارية .

١٢—الكردفاني — سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى ص ٨٠ .

وتوليه لتلك الاعباء فرض عليه أن يلتزم بشدة القانون والوجه الآخر من الثورة : الوجه العسكرى الانضباطى[١٣] .

وحتي بعد شيكان ، عندما قابله سلاطين بالزهد واعتذر له بانتظاره خارج المعسكر لانه استدل من دوى نحاسه انه خرج من المعسكر ليشرف على اعدام أحد المخطئين ، قطب الخليفة جبينه وقال :

(هل بلغ ظلمى انه عندما يقرع النحاس يظن الناس أن مجرما سيقتل ؟) فأجاب سلاطين قائلا : (كلا يامولاى أنت مشهور بالصرامة مع العدل) فرد الخليفة قائلا : (أجل أني صارم . وهذا ما يجب على . وستعرف السبب عندما تطول اقامتك معنا .) وهو يعني أن واجبه يحتم عليه موازنة نقاء الثورة وروحانيتها ، بفرض الانضباط الادارى والعسكرى على جيش المهدية الذى سيقع عليه عبئ مقارعة جيوش أعدائه النظاميين[١٤] .

وفي الحروب المبكرة للمهدية حتي معركة قدير ، كان الخليفة يقود الراية الزرقاء شخصيا ، بل ويشترك في القتال بنفسه[١٥] . فقدكان مقاتلا شهيرا حتي قبل المهدية -- ولكن بعد تعيين الخلفاء تخلى عن القيادة الميدانية ليعقوب ليظل في رئاسة المهدى .

كان الخليفة يؤم المصلين في المرات القليلة التي يتخلف فيها المهدى عن صلاة الجماعة ، وقد كان من واجبه أن يلقي أحيانا موعظة أو خطبة في نهاية الصلاة ، الا أن خطبه وصفت بأنهاكانت أقرب منها للتعليمات والاوامر العسكرية الجافة . ولم تظهر عليه في ذلك الحين ، تلك المقدرة الخطابية البليغة التي اكتسبها فيما بعد .

١٣—محمد عبد الرحيم – مخطوط معجم الشخصيات ص ٧٤ .

– من المؤكد ان بيئة الخليفة الاولى ضربت بسهم وافر في تشكيل شخصيته وصقلها فقد اشتهر بالانضباط والاحساس بالمسؤولية منذ الصغر . فقد نشأ في زاوية والده بالمسيج خارج ام ورق . وقد زاركاتب هذه السطور تلك البقعة في عام ٧٣ ليتحقق من مكان مولده . ووجد ان اهالى المنطقة لازال في استطاعتهم حفر الارض لعمق قدم أو قدمين لاستخراج الرماد المتخلف من نار الزاوية .

لم يفعل الزمن الا القليل بتلك المناطق ، والحياة تمضي هناك كشأنها منذ قرون طوال . ونستطيع حتي الان ان تلحظ الانضباط شبه العسكرى وتسلسل الرتب واحترامها في أى زاوية «لقوني» (أى فقيه متمكن يجود القران) جنوب دارفور . فالاحترام والرهبة بين القوني والفكى – ثم الفكى والتلاميذ اشبه بالتسلسل القيادى في أى وحدة عسكرية .

ويمكننا ان نضيف ان الرجل قد انحدر من مجتمع قبلي . لم تزل القبلية بتقاليدها وقوانينها وانضباطها هى كل شئ في جنوب دارفور ، بينما تطور المجتمع وبرزت المبادأة الفردية في اماكن اخرى من سودان القرن الماضي .

١٤—اوراق على المهدى – جهاد في سبيل الله ص ٣٦

أما الخليفة علي فقد وصفه الاب اوهرلدر بأنه يميل الى القصر والنحافة تحيط بوجهه لحية كبيرة لم تفلح في اخفاء وسامة تقاطيعه – وقد قيمه اوهرولدر بأنه اكثر الخلفاء والمحيطين بالمهدى تملكا للثقافة الدينية والتشريعية[١٦] .

كان أولئك هم خلفاء المهدى[١٧] ذوى المناصب الرسمية ، ولكن يجب علينا الانتناسي شخصيات أخرى كان لها وزنها وتأثيرها من وراء الستار . أولئك هم اشقاء المهدى وعلى رأسهم محمد شقيقه الاكبر.

ومحمد هو الذى تكفل برعاية المهدى عند وفاة والده ، ومن ثم كانت له مكانه خاصة عنده . وتتردد الاقاويل بأنه كان أحد الشخصيات الرئيسية المحركة للمهدية حتي وفاته في معركة الابيض[١٨] . وان كان ذلك محل حدس وتخمين ، الا أن المناصب التي تولاها توحى بأهمية خاصة . فهو أحد قادة المعركة الاولى في أبا ، والراية التي كان يقودها ، الراية البيضاء ، مثلت راية المهدى الشخصية – أى راية الرئاسة – لذا لم ترد الاشارة اليها في المعارك الاولى اذ كانت وحدة رئاسة وليست وحدة مقاتلة تضم حشودا بشرية . كما ان النزول من الجبال والتقدم نحو الابيض تم نتيجة لالحاحه من جهة ، والحاح الياس ام برير من جهة اخرى . وتؤكد الروايات الموثوق بها أن هجوم الجمعة المباشر على الابيض ، والذى كان هو أول ضحاياه ، وجد معارضة من المهدى في البداية ولكنه رضخ لرغبة شقيقه الاكبر.

كانت الحياة اليومية لحشود المهدى أثناء اقامته في كردفان ، سواء في الجبال أو بعد سقوط الابيض ، توحى بخاصية المعارك التي اشتهرت بها الثورة المهدية فيما بعد ، وطبعت حروبها بتلك النكهة والطابع المميز – الحركة المتصلة السريعة .

ويمكننا أن نمضي أكثر من ذلك لنحدد ان تلك الخاصية لم تنفرد بها حروب المهدية وحدها ، بل كانت من السمات المميزة للتاريخ العسكرى السوداني منذ القدم . فبينما نجد أن الحروب الاوروبية قد اتسمت قبل عهد فردريك ونابليون بالقلاع والخنادق والحصار الجامد ، نجد أن حروب السودان قد اشتهرت بالحركة المتصلة التي نتجت عن سعة الارض وخلوها في أغلب الاحيان من العلامات الطبوغرافية البارزة . فالنقاط الاستراتيجية الهامة لم تتمثل في نقاط جامدة كالقلاع أو الجسور أو ملتقى الطرق ، بل تمثلت في هيئات طبيعية ، كل مميزاتها انها تتيح للمحاربين مزيدا من الحركة كموارد المياه والآبار ، وخصتهم بنفس المزايا التي استأثرت بها الجيوش الاسلامية الاولى التي هاجمت قلاع بيزنطة ودمشق والمدائن وسحقت بها فرق الروم وكراديس الفرس ،

– الأب اوهرفلدر ص ١٤ .
– كان الخليفة شريف صبيا لم يبلغ العشرين بعد .
١٨–الدكتور ابو سليم – تحقيق مخطوط سعادة المستهدى للكردفاني ص ١٥٣

ثم استولت على قلاع فلسطين في الحروب الصليبية . فحين كان كل جندى من جنود الرومان أو الصليبيين كأنه قلعة قائمة بذاتها : بدرعه الثقيلة وأسلحته المتعددة وخوذته الفولاذية وجواده الضخم وحذائه الجلدى العالى ، تجده مواجها لفرسان المسلمين ، بخيولهم العربية السريعة الصغيرة الحجم ، وأزرهم الخفيفة وسيوفهم القصيرة المعقوفة . وتلك المزايا هى التي جعلت هجماتهم الصاعقة السريعة كالسيل الجارف يطيح بكل مايقف في طريقه . ومامعركتنا هذه الا مثالا مجسما لذلك التباين بين الاسلوبين .

لم تكن مناطق الحضر في السودان (مدنا) بالمعني السائد ، فهى مجموعة من البيوت هينة الانشاء سهل هجرها ، وشبه مؤقتة وتبني من الطوب الاخضر .

أما البادية ، مسرح عمليات المهدى في ذلك الحين ، فالسكان يقيمون في معسكرات مهيأة للتنقل المستمر ، فهى تبني من (الصريف) والقش في ساعات ، وتزال من الوجود في زمن أقل . ولابد للمرء أن يعجب بكفاءة تلك المساكن الخفيفة في مقاومة الامطار وتخفيف هجير الشمس . وتلك هى الميزة التي مكنت المهدى من تنفيذ تحركاته السريعة في عملياته المتصلة منذ أن هاجر من أبا عام ١٨٨١ وحتي تقدمه للخرطوم عام ١٨٨٤ ، على الرغم من أن النساء والاطفال كانوا يتبعون جيشه المقاتل .

وان كان هذا شأن (الديوم) والمعسكرات فشاغلوها كانوا أسرع واخف . فلابسهم وسلاحهم خفيف للغاية ، واحتياجاتهم من الزاد والطعام[19] أهون وأقل والا لما تمكنوا من تحمل أيام الضنك التي وصفها الخليفة لسلاطين ، أو عبور تلك المسافات الشاسعة مشيا على الاقدام .

وبعد تنظيم جيش المهدى عقب حملة الشلالى ، وعندما تجبر الظروف المهدى للمكوث في مكان واحد لعدة أسابيع ، تقام في العادة سوق صغيرة للمقايضة وسوق أخرى كبيرة يحدد له يوم الخميس من كل اسبوع . أما أثناء سنتهم الاولى في قدير ، حين كان حشدهم الضئيل يجتاز تلك الظروف العصيبة فقد كانوا يتشاركون المؤن والحبوب بروح جماعية ونكران ذات وقناعة رائعة .

وبعد أن تضخم حشده في الجبال وأصدر منشوراته الاولى بتنظيم دولته الاسلامية ، ومن أهمها بيت المال للانفاق على العمليات الحربية ، قامت الاسواق تلقائيا . كانت المقايضة هى نظام التعامل الاساسي . ويعزى ذلك لسببين - أولهما أن أغلب مقاتلى المهدى كانوا متطوعين لايتقاضون رواتب أو تعيينات سوى غنائم المعارك التي كانت توزع على المقاتلين وفقا لأحكام الشريعة . وثانيهما ان أغلبهم هاجر للمهدى وقد حملوا معهم ثرواتهم ، أو بالاصح حملتهم

١٩- يجب الا يتكون في ذهننا انطباع خاطئ بأن المائدة السودانية كانت مائدة هزيلة فمن عايشوا تلك الايام وضح ان طعامهم لم يكن بذلك السوء . صحيح ان الفواكه والخضروات كانت نادرة ما عدا البصل ، الا ان المواد الاساسية من لحم ودهن وذرة كانت متوفرة وفي كل معسكرات المهدى كانت تقام الاسواق التي يباع فيها اللحم بنصف خروف أو ربع خروف .

ثرواتهم الممثلة في الابقار والابل لتضمن لهم مايقيم أودهم اثناء ترحالهم ، وفوق كل هذا وذاك اصطحب أغلبهم القوة البشرية العاملة الحقيقية في غرب النيل – النساء .

ولم تقتصر التعبئة الروحية التي شنها المهدى على مسرح معركتنا فقط ، بل تغلغلت منشوراته في كل أرجاء السودان تقريبا . فقد لاحت في الافق نذر العاصفة التي ستجتاح الجزء الاعظم من وادى النيل ، وان بدت في تلك الفترة كهبات صغيرة في أماكن متفرقة ، الا أنها كانت تدل على طبيعة الاعصار المدمر الذى سيكتنف تلك الارجاء ويطيح بعاصمتها بعد سنوات قليلة .

ولابد أن تفوز الاستراتيجية التي وجهت التوقيت وحددت مناطق الصراع باعجابنا وتقديرنا . فيجب علينا الا نقوم تلك الاشتباكات والعمليات المتفرقة تقويما محليا ، أى بالنجاح والفشل الذى حققته كل منها في منطقتها ، بل يجب أن تقوم من خلال النظرة العامة لاستراتيجية المهدى العريضة في تلك الاعوام المبكرة . والواقع انها حققت هدفها بنجاح . ويبدو ان الهدف الاساسي من تلك المعارك المتفرقة كان مايسمى الان (بحجز القوات) أى ارغام العدو على الاحتفاظ بقوات ضخمة بعيدة عن أرض المعركة الرئيسية ، أو اجباره على توزيع قواته في أراض شاسعة لاثنائه عن حشدها وتجميعها . وهو أحد أهداف العصابات في مراحلها الاولى . فقد كان ميدان المعركة الرئيسي للمهدى في الفترة من ١٨٨٢ – ١٨٨٤ في كردفن . ولكنه أجبر الحكومة على تشتيت قواها في النيل الابيض وسنار وشرق النيل الازرق . فشغلها عن حصر جهودها وتركيزها في كردفان ، في فترة كان هو يقاسي من الضعف ولازال في طور الاستعداد والحشد والتعبئة .

ففي خلال تلك السنوات الاولى التي قبع فيها المهدى محتميا بالجبال . نستطيع ان نعدد الكثير من تلك الاشتباكات التي جرت بعيدا عن مركز المعركة الرئيسية :—

١– زحف عامر المكاشفي في الجزيرة الذى استهدف سنار وانتهى بمصرعه في ٦ مايو ١٨٨٢ .

٢ – اصطدام الشريف أحمد طه بالحكومة بعد أن تسلم منشور المهدى في أوائل عام ١٨٨٢ . كان الشريف من كبار رجال الطريقة السمانية فنجح في تاليب قبائل البطاحين والجعليين والشكرية على الحكومة .

٣ – ثورة الفكى ود الزين الذى تقدم نحو سنار بدوره بعد تسلمه منشور المهدى .

٤ – معركة الداعى في فبراير ٨٣ التي قادها الحاكم العام بنفسه لفك الحصار على سنار وقد بعث المهدى الشيخ مضوى حفيد الشيخ ادريس ود الارباب بعد مبايعته له في قدير ليقود ثورة الجزيرة .

٥ – عودة ود برجوب الى منطقة النيل الابيض التى اخلاها المهدى ليجمع القبائل استعدادا لصدام قريب كما سنرى .

ولعل نجاح استراتيجية المهدى يتجسم في المحاورة الشهيرة التي جرت بين الشيخ أحمد أحد زعماء قبيلة رفاعة الهوى وعبد القادر باشا : فقد وقف الشيخ يرجو الحاكم العام طالبا منه التوجه نحو المهدى في كردفان مباشرة وإيقاف الابادة التي شهدتها المناطق الاخرى وتوسل اليه قائلا :

(لقد أفنيت الرعية ببطشك يا باشا فدع عنك هذه المناوشات واقتل الدبيبة من رأسها) فأجابه عبد القادر باشا : (اذا لم تظفر برأسها يا شيخ العرب تقطع من ذنبها حتي ندرك الرأس فنسحقه).

ولكن أثبتت الاحداث ان الوصول الى الراس كان دونه شوك القتاد، فقد كان ينمو نموا سريعا وتنبت له اطراف جديدة ، امتلت لتطوق البلاد من اقصاها لاقصاها.

(أصحاب الدقون المدورات ، والوجوه النايرات ، قبلتوني وقبلتكم ..) تكرر ثلاثا وبعد أن تسكن ضجة التهليل والتكبير والزغاريد تبدأ البيعة . تكرر هذا المشهد عدة مرات في قدير ، بعد أن يخرج المهدى من معسكره وحوله الخلفاء لاستقبال الوافدين من دارفور ، مسرح عملياته الغربي . وان كان هدف عمليات المهدى بشرق النيل هو شغل الحكومة وارغامها على الاحتفاظ بقوتها الضاربة بعيدا عن كردفان ، الا أن ما رمى اليه المهدى في مسرح عملياته الغربي كان مختلفا ، فقوة الحكومة بدارفور ضئيلة لم تشكل خطرا مطلقا ، وأقدامها لم تثبت حتي ذلك الحين . فلم يمض على انضمام المديرية الا أقل من عشر سنوات ، وقرون استقلال الفور وسلطنتهم العريقة لم تغب عن الاذهان بعد – وآثار تمرد الزبير وابنه سليمان ثم ثورة الفور بقيادة السلطان هارون جعلت سلطة الحكومة في دارفور ورقة في مهب الريح . ولكن تركزت أهمية دارفور في حشدها القتالى الضخم . فقد كان واضحا للمهدى منذ ذلك الزمن المبكر أن قبائل دارفور ، بأعدادها الهائلة التي حاول التونسي تقديرها فسئم وكتب عنهم (قوم لا يحصيهم الا خالقهم) وباستعدادهم الفطرى للقتال وتحمل مشاقه ، كانوا يمثلون مركز تعبئة واحتياطى مقاتل لا ينضب له معين .

ويبدو أن المهدى ليس وحده الذى أدرك أهمية دارفور في تلك الناحية ، فالواضح أن الحكومة تنبهت بدورها لهذا منذ البداية واولته اهتماما بالغا وحذرت حاكم المديرية بدورها . فسلاطين يحدثنا بأنه علم بالثورة أول مرة عن طريق برقية وصلت للفاشر وأرسلت له في كبكابية حين كان يقوم بمهمة تفتيشية لبادية الماهرية (أغار درويش يدعى محمد أحمد بدون مسوغ على راشد بك وجنوده قريبا من قدير وأباده هو وجنوده . الثورة خطر جدا . أعمل اللازم في مديريتك حتي لاتنضم القبائل الساخطة الى هذا الدرويش) .

ولكن أفواج الساخطين من دارفور كانت قبلا تسرع الخطى متدفقة على قدير لمبايعة المهدى . كان معظم دعاة المهدى في مسرح عملياته الشرقي من رجال الدين والطرق الصوفية ، الا أن لواء

الثورة عقد في دارفور لزعماء القبائل ومنهم مادبو – أشهر زعماء الرزيقات – الذى توجه الى قدير وبايع المهدى واشترك معه في واقعة الشلالى في ٢٩ مايو ١٨٨٢ ، وبعد أن خلف عقيل الجانقاوى في راية الرزيقات عاد الى دارفور بعد تعيينه أميرا عليها .

كانت حامية دارفور أضعف من أن تواجه حشود القبائل الكثيفة . فهى لم تزد عن ٢٠٠٠ رجل أغلبهم من البازنجر[٢٠] وعلى الرغم من البسالة التي قاتل بها جنود سلاطين وأسهب هو في وصفها في كتابه (السيف والنار)[٢١] الا أن هناك حقيقة هامة غابت عن ذهنه . وهى أن الحشود التي قادها مادبو وقامت بحصره وتعقبه والاشتباك معه في عدة اشتباكات أهمها معركة أم ورقة في أوائل نوفمبر ١٨٨٢ – كانت جزءا هينا من القبائل الثائرة .

فبينما شغل مادبو سلاطين بالمناوشات المتصلة . كان ألوف المقاتلين من قبائل جنوب دارفور يتسللون أفرادا وجماعات بطمأنينة نحو قدير أرض المعركة الرئيسية ، دون أن يعترض سبيلهم أحد . ويمكن الاستدلال الى أن هدف المهدى الرئيسي كان تجميد حركة الحكومة حتي لاتقف حجر عثرة في وجه عملية الحشد والتعبئة ، بأن مادبو لم يجد في الهجوم على دارا أو الفاشر قط بل هاجم سلاطين عندما خرج إليه لتنفيذ أمر الحكومة بمنع إنضمام القبائل للمهدى .

وقد حقق المهدى أهدافه . فقد غادر أبا في عام ١٨٨١ على رأس بضعة مئات من الرجال وبعد أقل من عام قدر الشيخ الضرير حشد المهدى في قدير بخمسة عشر ألفا من المقاتلين .



٢٠–جنود الزبير السابقين .

٢١–عدد سلاطين في خطاب الاعتذار لغردون عن اعتناقه الاسلام ستة وعشرين معركة خاضها في دارفور قبل ان يستسلم .

المهـدى فى كردفـان

(..من حين كنا بجزيرة أبا تعدينا حدودكم .. وخالفنا مقصودكم ..فسارعوا الى محاربتنا فليس بيننا وبينكم الا السيف..)

خطاب المهدى للشلالى

في السرد التاريخى السريع للعمليات العسكرية والاحداث التي مرت بها الثورة المهدية منذ هجرة المهدى من أبا يوم ١٢ أغسطس ١٨٨١ وحتي صبيحة الاثنين ٥ نوفمبر ٨٣ ، يلفت انتباهنا من بين زحمة الاحداث المتلاحقة ، ثلاث معارك رئيسية وثلاثة رجال لعبوا دورا حاسما في المسرح الكردفاني . ومن المعارك الرئيسية الثلاث ، اثنتان منها كانت المبادأة فيها لأعداء المهدى ، أما الاخيرة فقد انتقلت فيها المبادرة للمهدى فانحدر كالسيل الجارف من أعالى الجبال واتجه الى أعدائه في عقر دارهم . تلك هى معارك قدير وجرادة والابيض .

أما الرجال الثلاثة : الشيخ المنا اسماعيل ، والملك آدم أم دبيلو ، والملك ناصر ، فقد كان أولهم زعيما دينيا [١] ، والاخيران من ملوك الجبال [٢] . وقد تكفل الفكى المنا – أحد مشاهير فقهاء الجوامعة – بسهل كردفان حين كان زعيمه مقيما بالجبال . فقد أوكل اليه مناوشة حشود حاميات الابيض وبارا بالاشتباكات المتصلة لشغلها عن التجمع والتقدم نحو المهدى في قدير .

وقد باشر الفكى المنا تلك المهمة بنجاح منقطع النظير فاحتل مدنا هامة بأواسط كردفان وقاد حشودا خلال المعارك التي تخللتها تتفوق على حشود القوة الرئيسية في قدير ، وأصبح خطرا جاثما يهدد الابيض نفسها .

أما الرجل الثاني ، الملك آدم أم دبيلو ، ملك تقلى وأقوى ملوك الجبال ، فهو الذى آوى المهدى بالجبال واسبغ عليه حمايته ، ولولا حسن استقباله وتأييده للمهدى لساءت أحواله كثيرا في تلك الفترة الحرجة .

كان الرجل الثالث هو الملك ناصر ملك جبل قدير ومضيف المهدى طوال مدة اقامته بجبال النوبة ، والى رجاله يعزى فضل كثير في نجاح مقاومة المهدى وصده لحملات الحكومة . وقد شاءت الاقدار أن تختم حياة الرجلين الاولين بنهاية حزينة لا تليق بالدور الحاسم الذى لعباه في تلك اللحظات المصيرية من عمر الثورة الوليدة .

١–الكردفاني ص ١٩٧ .

٢–ابراهيم فوزى ص ١٠٤ .

في عشية معركة أبا ، وقبل ان يلتئم جرحه ، عبر المهدى الى الضفة الغربية بعد أن أفلح في اقناع النوتية وأزال مخاوفهم من نقمة السلطات ان هى علمت انهم هربوه عبر النهر . وفي الايام الثلاثة التالية اكتمل استعداده للهجرة غربا ، فقد لم شمل مؤيديه القلائل الذين انضم لهم عبد الرحمن النجومى والشيخ حسين الزهراء وبضع مئات من رجال القبائل المجاورة(٣)

لم يزد كل حشده آنذاك عن خمسمائة ، كانوا راجلين من قبائل دغيم والحسنات وكنانة . ومنذ تلك اللحظة ارتفع الرسم البياني لتعداد انصاره ولم ينحصر أبدا .

خطا الرجل خطواته الاولى على البر الغربي للنيل الابيض ومقصده محدد – جبل ماسا قرب قدير ، وهدفه لا يتزعزع – اسقاط الخلافة العثمانية والوصول لمكة بعد غزو مصر .

قلة قليلة من الرجال أغلبهم حفاة ، توزع زادهم الضئيل بين ظهورهم وبضعة دواب هزيلة ، يتقدمهم علم أبيض طرزت عليه الآيات القرآنية ، تشرق عليهم الشمس وتغرب كل يوم وهم في سعيهم الحثيث الدؤوب، يتجهون غربا ، ليس لتبتلعهم متاهات كردفان ، بل لينثنوا شرقا بعد ثلاثة أعوام وقد تضاعف حشدهم مئات المرات ، تحجب صفوفهم آفاقا عراضا ، وتطرز أمجادهم صفحات طوالا .

تعرض الركب الصغير في المراحل الأولى من رحلته لاخطار عديدة نجا منها سالما . فالوثبة الاولى كانت تخترق دار الجمع والثانية دار الاحامدة ثم الى تقلى ليثني جنوبا الى قدير . وقد صادف دخوله لديار الجمع بطواف فصيلتين من حامية الابيض بالمنطقة . وكان خبر معركة أبا وتمرد المهدى قد ترامى لاذني السنجك محمد جمعة قائد القوة ، فعزم على مهاجمته واعتقاله . وكان ذلك في متناول يده ، فلم تفصل بينهما الا أميال قليلة ، ولكنه خشي العواقب ففضل الاتصال بالابيض أولا لضمان موافقتها . اضاع السنجك الفرصة السانحة . فحين أذنت له الابيض ، كان المهدى قد تجاوزه بأميال طوال(٤)

عاني الركب من الامطار كثيرا . فقد كانت هجرته لقدير في أوج الخريف ، وتعاقبت عليه بداية الشتاء والارض لم تزل مبتلة بمياه الامطار الغزيرة . وعندما بلغ غايته في منتصف الشتاء كانت رحلته الشاقة قد تجاوزت ثلاثة أشهر في ترحال مستمر (٥) . وقد يعزى بعض التأخير الى اضطراره للتوقف في عدة بقاع لمبايعة القبائل المشتتة ، الا أن الامطار الغزيرة كانت هى المعوق الرئيسي .

وأثناء عبوره لدار الجمع اجتمع بالشيخ عساكر أبو كلام ، ناظر الجمع ، الذى تردد كثيرا في اعلان انحيازه صراحة للمهدى ، معتذرا بأنه موظف حكومي ، ولكنه بايعه خفية ، واكتفي المهدى

٣-جهاد في سبيل الله ص ١٧ .
٤-سلاطين ص ٥٢ .
٥-من ١٧ اغسطس الى اخر نوفبر .

بوعده بألا يتعرض لمن يهاجر الى قدير . كان الشيخ أبو صفي ة ناظر الاحامدة أكثر وضوحا وايجابية ، فقد أكرم وفادته ومد يد المساعدة وآواه في وقت اشتدت فيه الامطار وكاد زاد المهدى أن ينفذ . فأقام في ضيافته عدة أسابيع حتي جفت الطرق ثم واصل مسيرته حدود مملكة تقلى .

توقف المهدى خارج حدود تقلى وأرسل للملك آدم رسولا يستأذنه في الدخول[٦] . وتلك كانت لحظة حاسمة في تاريخ الثورة المهدية ، ولايمكننا أن نتصور الآن أى أخطار جسيمة كانت ستحيق بالمهدى لو كان رد الملك سلبيا .

الا أن الملك رحب به ووفر عليه البحث عن الحلول البديلة ، وكلها كانت طرقا مسدودة في وجهه . فللملك سجل حافل في تحدى الحكومة جهارا ، وهناك عوامل عديدة تجعله يتخذ تلك المواقف الحاسمة من الثورة . كان أهمها ان ملوك تقلى بنوا سطوتهم ونفوذهم تحت راية التبشير الاسلامى ، وكان الترحيب والاحتفاء بالعلماء ومشايخ الطرق الصوفية تقاليد راسخة بالمملكة . ومن الناحية الأخرى ، ماكان هناك مايبرر تخوفه من حشد الملك قد أخذ على عاتقه ان يؤدى أكثر مما طلب منه . فقد أوفد وزيره وقاضي المملكة لمقابلة المهدى ومبايعته ومرافقته حتي بركة الزمزمية تمهيدا للتقدم نحو قدير[٧] .

ولكن ما كاد الركب يصل اليها حتي لاح خطر جديد . فقد حمل رسولا الملك نبأ حملة أخرى تتجه نحو الجبال تنوى القضاء عليه . وأكد الرسولان أن محمد سعيد باشا ، مدير كردفان ، يتقدم على رأس قوة كبيرة . وحمل الرسولان نصيحة الملك للمهدى بأن ينسحب الى جبل (بطن امك) أحد الجبال الحصينة ، ليلوذ به الى أن ينجلي الخطر . ولكن الاقدار تدخلت مرة أخرى وكفت المهدى شر معركة غير متكافئة . فقد افلتت رصاصة من غدارة محمد سعيد عندما كان ينظفها ذا صباح فتطير ظانا انها انذار بفال سيئ وقفل أدراجه عائدا للابيض في أواسط سبتمبر ٨١ .[٨]

تسبب تحول خط سير المهدى الى جبل بطن أمك في تأخيره شهرا كاملا عن الوصول لهدفه التالى ، جبل النقارة ، الذى تقرر أن يمكث به انتظارا لاذن الملك ناصر للاقامة بكنفه ، ثم تدخلت الامطار الغزيرة التي انهمرت في ذلك الشهر لتعطل مسيرته مرة أخرى . فقد توقف اسبوعا كاملا

٦–جهاد في سبيل الله ص ١٨ .
٧–ذكر اهرولدر ان الملك لم يبايع المهدى الا بعد انتصاره في قدير .
٨–جهاد في سبيل الله ص ١٩ .
٩–شقير ص ٦٥٦ .

بانتظار جفاف سيل خور الوادى ، وهناك وافاه رسله الذين بعثهم للملك ناصر والفكى مختار الكناني ، زعيم جبل جرادة الذى كان لابد للمهدى من المرور به .

تباين رد الرجلين . فبينما رحب الملك ناصر باقامته وطلب منه التوجه اليه على الفور[9] ، رفض الفكى مختار السماح له بالمرور وحذره من دخول جبل جرادة ، مما اضطر المهدى أن يقتحم الجبل في هجوم شجاع برجاله القلائل في صباح ٢٤ اكتوبر . تمخضت المعركة عن هزيمة الفكى مختار واحتلال المهدى لجبل جرادة الذى تقدم منه نحو غايته – جبل قدير – فحل به في نهاية اكتوبر . وتلك كانت نهاية المرحلة الاولى من ملحمة كردفان .

لم يضع المهدى لحظة واحدة بعد وصوله قدير ، فشرع مباشرة في الاستعداد لخوض معاركه الدفاعية القادمة . وحسنا فعل ، فقبل انقضاء شهر سيجد نفسه يخوض أولى معاركه الكبيرة في كردفان .

وقد انصب نشاطه في الاسابيع الاولى في دعوة سكان الجبال القريبة لمبايعته ، فصادف نجاحا كبيرا وأصبحت الجبال المحيطة بقدير بمثابة ستار دفاعى ومركز يكفل له تضيد الاخبار . وهناك عني المهدى بتنظيم جيشه الصغير وتدريبه على القتال المشترك بوحدات متماسكة بدلا من قتال القبائل العشوائي الذى لم يتقن مقاتلوه خلافه .

اعتمد المهدى في ذلك الطور البدائي على ثلاثة عوامل لتكوين وحداته المقاتلة :—

١ — القبيلة

اقتصر حشده في البداية على ثلاثة قبائل رئيسية وهى دغيم وكنانة والحسنات ، بالاضافة الى عشيرته التي أضيف اليها من لم ينضو تحت لواء أى من تلك القبائل . كانت القبيلة هى الركن الاساسي في تكوين الوحدة والهوية الطبيعية لتمييز رجاله في تلك الفترة . وهى بدورها كانت تقدما ورقيا انتظم بجيشه الذى خاض معركة أبا ، والذى كان مطابقا لتنظيم الطرق الصوفية بكل رتبة ونظمه . وسنرى انه عندما كثرت القبائل وتعددت ، اضطر المهدى لجعل المناطق أساسا لتمييز مناطق الغرب والنيل الابيض والشمال .

٢ — تشكيل الصفوف

جمع المهدى رجال كل قبيلة[10] في صفوف متتالية مستقيمة كانت بمثابة رباط غير مرئي بين الافراد يمكنه من استغلال صدمة الصفوف أثناء المعركة التكتيكية .

١٠–الكردفاني ص ١٥٣

٣ــ التكوين التكتيكى للفرسان والمشاة :-

لعله من المدهش أن يضع المهدى الاسس الصحيحة لاستخدام الفرسان في مساندة المشاة منذ ذلك الزمن المبكر . فقد أدرك في أولى معاركه النظامية الكبيرة ان الاقتحام ليس من مهام الفرسان . بل يستحسن استخدامهم للاستصلاع والمطاردة قبل وبعد الاقتحام . لقد طبق تقاليد القادة المسلمين الاوائل بنجاح في وجه الاسلحة النارية ، فقدكانت صفوف المشاة في حروب المسلمين الاوائل تتكون من قلب وميسرة وميمنة يحيط بها الفرسان من الجانبين .

أما انجازه الاكبر حقيقة ، فقد تمثل في سرعة تغلغل دعوته في القبائل المحيطة بالجبال حتي أصبح هؤلاء أكثر مؤيديه حماسا ، حتي النساء منهم . وقد جني المهدى ثمار اجتهاده في بث دعوته في منطقة الجبال بأسرع مما كان متوقعا[١١] .

فما أن ترامت أحداث أبا الى أسماع راشد مدير فاشوده بالتفصيل ، وأدرك ان المهدى ليس بالعدو الذى يواجه مباشرة عزم على مباغتته وأخذه على غرة . فحشد كل حامية فاشوده (٧٠٠ جندى مسلحين بالبنادق) وعززها بألف مقاتل من مقاتلى رث الشلك وتوجه بهم نحو قدير بتكتم عبر طريق غير مطروق . وغالى راشد في تحوطه ليحيط اقتحامه لجبل قدير بالسرية المطلقة ، فانذر اهالى جبل فنقر وجبل كاز الذين يقعان في طريقه بكتمان الخبر والا تعرضوا لبطشه ، فامتثل شيخ جبل فنقر وحرم أهالي الجبل من مغادرته خشية تسرب نبأ الحملة الزاحفة . ولكنه نسي أمر النساء ، وهو الاهم عندما يتعلق الامر بنشر الاخبار . فقد علمت رابحة بنت على (رابحة الكنانية)[١٣] بالخبر وكانت من مؤيدات المهدى ، فسارعت اليه في قدير لتخبره بما اتفق عليه (الرجال) .

كان تقدم راشد الليلى سريعا ، مما اضطر رابحة الى السير بقدميها ثماني عشر ساعة متصلة لتسبقه ؛ فبلغت قدير في الثلث الاخير من ليلة الخميس ٢٨ ديسمبر . وما أن بدأ المهدى في الاستعداد حتي تصاعدت السنة اللهب من قمم الجبال . علامة انذار بخطر مقترب ، مؤكدة خبر رابحة .

١١-اوراق الشيخ محمد ادم ص ٥١ .

١٢- قدر شقير تعداد حشد المهدى في تلك الفترة بثمانية الاف مقاتل ، وقدرها على المهدى بسبعمائة مقاتل . الدلائل تشير الى صحة تقدير على المهدى . اولا حدثت معركة راشد بعد شهر من استقرار المهدى في قدير وذلك الفاصل الزمني القصير لم يكن يسمح بان يتضاعف حشد المهدى لاكثر من عشر مرات اذا قدرنا ان المهدى عبر النيل الابيض بحوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ مقاتل ولم يزدد حشد المهدى اثناء رحلته الشاقة الا باعداد قليلة.

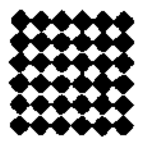
١٣-اوراق الشيخ محمد ادم ص ٥١ .

سارع المهدى في ارسال طليعة للاستكشاف من الفرسان المسلحين بالبنادق . وقسمت الطلائع الى قسمين ، قسم يصل حتي مضارب راشد ويعود سريعا حاملا الانباء الاولية المبكرة ذات الاسبقية العاجلة عن موقع العدو وحجمه وطريق اقترابه . وقد وكل ذلك الواجب الى فارس واحد مسلح ببندقية من البنادق القليلة التي كانت بحوزة المهدى في ذلك الحين . أما القسم الثاني المكون من ثلاثة أشخاص : على ود عويضة ، وعبد الله ، وعلى محمد ، فقد كلفوا بجمع المعلومات التفصيلية عن العدو . ولذا تحتم عليهم متابعته خطوة خطوة ثم الانفصال عنه في اللحظة الاخيرة ليتمكن المهدى من وضع خطته التكتيكية المفصلة النهائية على ضوء تقاريرهم . وهؤلاء كانوا من الراجلين.

وعلى الرغم من أن الفارس الاول قتل أحد طلائع راشد في فجر السبت ٢٩ ديسمبر [١٤] منبها راشد أن أمره لم يعد سرا ، وان مفاجأة المهدى لم تعد بذى موضوع ، الا أن راشد أصر على تقدمه الليلى . فأشرف في ليلة الخميس ٢٨ ديسمبر على غابة مراج ، على مسافة قصيرة من معسكر المهدى .

كانت خطة المهدى بسيطة سهلة التنفيذ ، واكتملت ملامحها النهائية بعد وصول مجموعة الاستكشاف الثانية ، والتي تقدمت مع راشد خطوة خطوة ثم انفصلت عنه وسبقته الى المهدى . وقد تدرجت أطوار خطته على النحو التالى : التقدم نحو غابة مراج والترصد لراشد في لحظة خروجه منها والالتحام معه وهو لايزال في تشكيله ذى المواجهة الضيقة التي حتمها عليه عبور طريق الغابة الضيق ، وقبل أن يستخلص كل السرايا من الغابة للانتشار في تشكيل المربع المعهود[١٥] ليتيح لتسليحه المتفوق انتاج أكبر كمية من النيران . وبالتالى كان عماد خطته هو الالتحام في لحظة معينة محددة ، لو هاجم راشد قبلها لتعثر هجومه ، حيث لن تتمكن صفوفه من تحقيق الصدمة المطلوبة ، ولو تأخر عنها لافلح راشد في الخروج من الغابة وصعب على المهدى الالتحام به في العراء ، حيث يتاح لراشد استغلال تفوقه النارى والعددى فقد كان لراشد ١٤٠٠ مقاتل وللمهدى ٨٠٠ مقاتل .

ولن نصل الى نهاية هذه الصفحات حتي تتكرر نفس الاحداث في غابة أخرى يزج فيها هذه المرة بعشرات الالوف من الرجال — غابة شيكان .



١٤-جهاد في سبيل الله ص ٢٣ .

١٥- شقير ص ٦٥٧

أزاح ضياء الفجر استار الظلام . ومع ترتيل الخليفة على ود حلو تقدم المهدى يوم الجمعة ٢٩ ديسمبر على رأس راياته الثلاث دغيم ، وكنانة ، والحسنات واتجهوا شرقا[١٦] . طبق المهدى مخططه العبقرى تطبيقا رائعا . فعندما تدفقت مواجهة راشد الضيقة من الغابة ، وقبل أن تكتمل صفوفها خارجها ، شاهدت جيش المهدى وأطلقت عليه النار . ولكن المهدى أمر بالهجوم العام فالتحم الجيشان بينما كانت بقايا راشد لاتزال داخل الغابة وقبل أن يتمكن من تشكيل صفوفه لمواجهة الاقتحام . وتحت ضغط صدمة هجوم الانصار تلاشت الصفوف الامامية ثم التحمت موجات الهجوم مع بقية قوة راشد وأبادت جزءا كبيرا منها ، فولت البقية الادبار ، وهنا حل دور الفرسان حيث طاردوهم ثلة ثلة وفردا فردا بين أشجار الغابة ومرتفعات الجبال وأفنوهم تقريبا[١٧] ماعدا ضابطا واحدا . كانت خسائر المهدي ضئيلة للغاية لم تزد عن الثلاثين .

زاغت أعين الرجال القلائل أمام المشهد . فقد تناثرت الغنائم والجثث والاسلحة النارية وغطت ساحة القتال . الا أن كل ذلك تضاءل أمام جائزة المعركة الكبرى ، التي تمثلت في النتائج المعنوية والدعائية والتعبوية غير المباشرة التي هزت امبراطورية الخديوى من أقصاها الى أقصاها . وهنا فقط أتت رحلته الاستكشافية الاولى لكردفان كلها وأثبتت عشرات المنشورات فعاليتها ، وكان تحول القبائل من الترقب الى الاعجاب والتأييد العلني بعد انتصاره في أبا ، الى الانضمام واهجرة اليه والتمرد المسلح . فتضاعف حشده مرات عديدة في الاشهر الستة التي فصلت بين حملة راشد وحملة الشلالى الى أن تجاوز ٨٠٠٠ رجل واشتعلت البلاد من أقصاها الى أقصاها بالثورات المسلحة المتباعدة تمهيدا للهبة الكبرى .

ولا يملك المرء الا أن يكرر اعجابه بالاستراتيجية التي اتبعها المهدى في ذلك الحين . فبدلا من أن يكدس حشود المؤيدين في قدير[١٨] ، فضل أن يعيد عددا كبيرا ممن بايعوه لانشاء رؤوس جسور بمناطقهم تمهيدا للثورة العارمة التي ستشمل البلاد كلها . فقد كان ينظر بعيدا ، مفضلا المخاطرة الوقتية بمواجهة أعدائه بحشد أقل ، في سبيل الهدف الاعظم – المسرح الكبير ولنر الآن ماذا كان يجرى في المسرح الاصغر – كردفان .

شهدت كردفان في الاشهر التي تلت حملة راشد نشاطا قتاليا محموما شمل الجزء الاوسط من المديرية . فقد بعث المهدى بعبد الله ود النور لقيادة التمرد المسلح بدار حمر وانضم اليه المكى ابراهيم في مارس ٨٢ ، فتعاونا على طرد قوة حكومية صغيرة كانت تجمع الضرائب في المنطقة . وحاصر حامد ود

١٦–شقير ص ٦٥٧ .

١٧–جهاد في سبيل الله ص ١٨ .

١٨–لا يستبعد ان قلة الزاد والحبوب في قدير التي اشتكى منها الخليفة لسلاطين كانت من المبررات التي جعلته يفضل الا يكدس كل مؤيديه في قدير حتى لا يتحمل عبء اعاشتهم .

السنجك شيخ البديرية حامية أبو حراز فاستسلمت في ١٢ ابريل[١٩] . ثم انثني حامد الى منهل البركة جنوب شرق الابيض معززا بقبيلة الحوازمة ، فاصطدموا في ١٨ مايو بتجريدة أرسلها محمد سعيد لنجدة حامية البركة أفلحت في اجلائهم عنه بعد أن تساقط منهم عدد قليل . وعاد المكى ود ابراهيم فداهم اسحف وهى حامية صغيرة تبعد أميالا قليلة عن بارا فاقتحمها في ٢٥ مايو . تلك الاشتباكات مهدت للتقدم نحو بارا ، فتمخضت عن معركة عنيفة بين الانصار وحامية بارا القوية في ١٧ يونيو تمكن فيها المدافعون من صد الهجوم[٢٠] .

أجبرت تلك الانتقاضات التي اشترك فيها عشرات الالوف ، أجبرت محمد سعيد على حصر نشاطه في الابيض وما حولها بعيدا عن المهدى . ولكن الثمن كان باهظا . فقد قدرت خسائر الانصار في محاولة اقتحام بارا وحدها بخمسة آلاف رجل .

وعندما انسحب المهاجمون الى منهل شتورة غرب بارا وطلبوا نجدة المهدى ، اكتفي المهدي بارسال عبد الله ود النور لينسق العمليات ولم يمدهم بقوة مقاتلة[٢١] ، فقد انشغل بأمر غزوة الشلالى وكان يقلب أوجه الرأى المختلفة للنزول من الجبال ومهاجمة الابيض بنفسه بعد أن قوى جيشه بأسلحة الشلالى . ويبدو أن عبد الله ود النور خمن أو علم بقرب تقدم المهدى بنفسه لقيادة المعركة الرئيسية فلم يبدأ في عمليات عدائية . واكتفي بالانسحاب بعد الاشتباك الاول الى منهل أبي سنون ، ثم انسحب لمنهل البركة بعد الاشتباك الثاني . ولكن نجاح عمليات قادة محمد سعيد كان سلاحا ذا حدين فقد أضرم مقتل الالوف من رجال القبائل نار الحقد والعزم على الثأر ، وانتظروا انضمام المهدى اليهم بفارغ الصبر .

تلك كانت عمليات المسرح الغربي . أما شرق كردفان ، فقد تولى أمرها الفكى المنا ، شيخ الجوامعة ، فوجه ضربة قوية لمحمد سعيد لم تقم له بعدها قائمة . وأصبحت كردفان كبحر يعج بمؤيدى المهدى ، ارتفعت في وسطه جزيرتان صغيرتان هما حاميتا الابيض وبارا . فبعد أن بايع الفكى المنا المهدى في قدير عاد لشرق كردفان . وفي الاشهر الستة الاولى من عام ٨٢ ، وبينما كان محمد سعيد مشغولا بتوجيه حملاته ضد السماني والمكى ود ابراهيم وود السنجك وعبد الله ود

١٩–دار الوثائق المركزية – مخابرات ٥١/١٥/١ .
تقرير البكباشي حسن محمد الشايقي .
٢٠–مخابرات ٥١/١٠/١ أقوال اليوزباشي على احمد الصاوى .
٢١–شقير ص ٦٨٦ .

النور . كان الفكي المنا يحشد رجال الجوامعة والقبائل المجاورة . فتجمع تحت قيادته نحو ٢٠,٠٠٠ مقاتل[٢٢] .

وقد ظلت خطوط الاتصال بين الابيض والخرطوم سواء منها الطريقان الرئيسيان أو خط التلغراف سليما حتي منتصف عام ٨٢ . والى خط الاتصال الخلفي هذا وجه المهدى جهده ليغصمه حتي تكتمل حلقه الحصار الخارجية حول الابيض . فأشار على الفكي المنا بمهاجمة مدينة تيارة . ثالث مدن كردفان وهاجمه الفكي مرتين ولم يفلح في احتلالها ، فقد صمدت دفاعاتها القوية في وجه هجماته الكاسحة . وعندما استنجد قائد الحامية بالابيض . هاجمها الفكي المنا يوم ٦ اغسطس هجوما ضاريا فأفلح في اختراق دفاعاتها واحتلالها وأباد حاميتها وخرج منها مسرعا متصيدا للنجدة القادمة من الابيض وأبادها ثم قطع سلك التلغراف وأسرع مبلغا المهدى باحتلال التيارة . فأصبح المسرح معدا للمهدى ليتقدم من الجبال .

وسقوط التيارة يلفت نظرنا الى الاستراتيجية الناجحة التي يتبعها المهدى دائما عندما يسلط عينيه على مدينة أو قلعة معينة . فسقوط التيارة التي تقع شرق الابيض يعني قطع طريق الاتصال الاخير بين الابيض والخرطوم . فكلا الطريقين ، الشمالى والجنوبي ، يصبحان تحت رحمة من يفوز بهما . وسنرى المهدى يكرر نفس استراتيجية كردفان الناجحة مرة أخرى بعد عامين على مستوى أكبر في أبعاده العسكرية والزمنية . فأكبر المدن التي أسقطها المهدى ؛ وهى الخرطوم والابيض . اشتهرت معاركها باسم (حصار الابيض) و حصار الخرطوم ولكننا في كل منها نجد أن المهدى لم يطبق الحصار بمعناه السقيم المباشر . فهو لم (يخنق) المدن التي حاصرها وعصر عنقها بيديه مباشرة ، ولم يطوقها بجيشه الرئيسي منذ الوهلة الاولى تاركا بقية أطرافها لترفس بأقدامها ويديها . بل كان يهيئ (الاختناق) أولا باشعال النيران والدخان في كل المسرح المحيط بهدفه . حارما نقاط العدو القوية من مجال التنفس الحيوى حتي تتداعى الاطراف ويصيبها الشلل ؛ ثم بعد ذلك يتوجه بحشده الرئيسي للرأس والرقبة ليهصرها . كان محمد سعيد ومن بعده غردون . أشبه بالذباب يسبح متخبطا في نسيج العنكبوت الى أن تعصره أخيرا .

في أواخر فبراير ٨٢ ، حمل من هاجروا للمهدى من الجزيرة انباء الحملة الجديدة التي أعدها جيكلر باشا للقضاء عليه نهائيا ، واوكل قيادتها ليوسف الشلالى ، المحارب والادارى الشهير .
ان المثير في القصة المهدية هو متابعة ايقاع الاحداث التي تبدأ كدقات الطبول الخافتة ثم تزداد سرعة ايقاعها ودويها رويدا رويدا الى ان تصم الآذان . فاعداد الحشود ومسارح المعارك ، ومقدرة القادة وشهرتهم ترتفع تدريجيا وباطراد .

٢٢–مخابرات ٥١/١٥/٩ أقوال الصاغ ابراهيم عارف .

ولقد جرت العادة ، بين الكتاب الاوربيين الذين كتبوا عن تلك الاحداث ، على تبخيس قدر القادة الذين خاضوا المعارك الاولى ضد المهدى والتشهير بعدم كفاءتهم وقصر نظرهم واهمالهم . وسواء كان قصدهم تبخيس مقدرة المهدى العسكرية والاستهانة بانتصاراته تلقائيا . أو كان ايجاد العذر لهزيمة الحكومة ، وهم كانوا يؤرخون الاحداث من وجهة نظرها . الا ان من يدقق النظر والبحث في سياق مخططات راشد والشلالى وقراراتهما سيخلص الى تقييم مخالف . ولعلنا قد تعرضنا في صفحات سابقة لمخطط راشد الذكى واجتهاده في التكتم والسرية والمفاجأة . ثم سيره المتصل على الاقدام لساعات طوال وتحمله مشاق جمة تبعد عنه تهمة الاهمال . ولو لا اكتشاف أمره للمهدى في اللحظات الاخيرة لفاجأه بضربة سريعة ، كان أغلب الظن انها ستكون القاضية .

وان كان ذلك شأن راشد ، فالحيف الذى حاق بالشلالى كان أكبر . فاتهامه بالغباء والقصور والاهمال تهم يصعب علينا قبولها بسهولة . فالواضح ان مخطط الشلالى كان مخططا فريدا منذ البداية . فقد تقدم الرجل في حشد ضخم يكفي لسحق المهدى في معركة اصطدامية مباشرة . ولكنه فضل انتهاج سياسة واستراتيجية أكثر حكمة وتريثا . وقد أشار مؤرخ المهدية ، اسماعيل عبد القادر الكردفاني ، الى مخطط الشلالى الذى استقاه ممن رافقوا الشلالى ووقعوا في الاسر :

(وقد اخبرني بعض الثقاة أن الحكمة في عدولهم عن الطريق المذكورة وسلوكهم الى الطريق الموصلة الى جرادة ليتمكنوا من جبال تقلى وجميع جهاتها بحيث تكون الجبال المذكورة ورأهم ليستمدوا منها ويأمنوا من اتيان الاصحاب عليهم من جهتها حيث ان الجبال المذكورة تحت طاعتهم فيما يزعمون أما جبل الجرادة فيشنون عليه الغارات حتي يجحفوا بأهله ويدخلوهم بالقهر تحت طاعتهم ليتمكنوا بذلك من أغراضهم الفاسدة واعمالهم التي هى عند الله كاسدة ، لانه على هذه الحال يكون المهدى عليه السلام مع أصحابه بجبل قدير في جهة الاطراف النائية عن العمران ، بحيث لا يتمكنون من محلات العمران التي هى جبال تقلى المذكورة ، فيضيق بهم الحال . لعدم ورود الاشياء عليهم ، فيتلاشي أمرهم ويضمحل ويضعف ، فيسهل عليهم محاربتهم) .

لقد رمى قائد الحملة الى محاصرة المهدى في قدير دون أن يصطدم به مباشرة . بأن يعسكر بجيشه الضخم حوله باترا خطوط امداده وتعزيزاته ليذوى تدريجيا حين تتكالب عليه عوامل الفناء من جوع وأوبئة ، وهو يتباهى أمامه كل يوم بصفوف الجنود بملابسهم الزاهية . وبمزارعه وحدائقه التي حمل بذورها وتقاويها وامل أن تزين عاصمة مديرية الجبال بعد غزوها وتصفية امر المهدى ومضيفيه من ملوك الجبال العصاة . كانت خطة بعيدة المرامى والاهداف .

لم تكن السرية من أهداف الشلالى على الاطلاق . بل العكس ، كانت الدعاية والاعلان

التفاخرى يتمشي تماما مع سياق خطته ، فقعقعت عبارات خطاباته الرنانة للمهدى بالتهديد والوعيد . وحق له التفاخر ، فقد انتظم بين صفوفه ما يزيد عن ٥٠٠٠ رجل مسلحين بالاسلحة النارية والمدافع . فارقت حملة الشلالى النيل من فشودة واتجهت نحو الجبال في اواخر مايو ٨٢ . وبعد تقدم سريع أشرف بجيشه على جبل جرادة في ٢٨ مايو ، فحط رحاله بسفح الجبل وأقام زريبة مربعة عزز أركانها بالمدافع وعزم على المبيت والانتظار[٢٣] .

أما المهدى فلم يفارق الشلالى منذ ابتعاده عن النيل لحظة واحدة ، بل ذكر شقير أن طلائع المهدى كانت تتجول متنكرة بين معسكر الشلالى في فاشودة في فترة الاستعداد والحشد[٢٤] . وكأنما أدرك المهدى خطة الشلالى المتمهلة الرصينة ، فعزم على فصل الخطاب في تلك الليلة نفسها . وقد قدم على المهدى وصفا مفصلا لمعركة صباحية ضارية فكتب :—

وحملت راية السيد محمد بعد ذلك على الزريبة فداسها الانصار بأقدامهم ودخلوها من الجهة التي يحميها طه أبو صدر ومحمد سليمان الشايقي فأعملوا فيهم السيف والحربة والسكين فانهزموا أمامهم وقتل طه ابو صدر قرب نحاسه .ومن ادهش ما قيل ان احدى نسائه أخذت تضرب النحاس وتشجع العساكر وتضرب بطبنجتها كل من يقترب منها حتي قتلها عبد المنعم محمد من دغيم . وحملت راية دغيم فواجهت المكان الذى يحميه يوسف باشا الشلالى نفسه فانهزم أمامها لجهة الشرق ق ولحقت الخيول بالمنهزمين . وبقي من جيش الشلالى عبد الله ولد دفع الله فأمر جيشه بأن يرقد على الارض فرقدوا الى أن مرت بهم راية السيد محمد وراية دغيم وكمن عبد الله ولد دفع الله الى أن جاءت الراية الزرقاء يقودها الامير يعقوب وكان ساعتئذ قد أصلح الزريبة ورتب المدافع فأصلى الراية الزرقاء نارا حامية فقتل بعضها وهزم بقيتها .

وأسرع الامير أحمد المكاشفي للمهدى فأخبره بالامر فأرسل المهدى الى راية الامير محمود عبد القادر التي كانت تحرس معسكر الانصار لتحضر حالا وقام المهدى نفسه متوجها للزريبة . وقرب الزريبة نزل المهدى ليصلى ركعتين وبينما هو يصلى أخذ عبد الله ولد دفع الله يطلق نيران مدفعه على المهدى ومن معه وهجم على الزريبة المقدم عمر السروراني ومعه آخرون فقتلوا على شوكها وما زال المهدى يصلى وقنابل المدافع تقع من حوله حتي صار المكان كله حفرا وكانت صلاته تلك طويلة فكان عندما يسجد يغطيه دخان القنابل والغبار حتي يظن الواقفون انه قد قتل ثم يقوم مكبر وهكذا حتي وصلت راية السيد محمود واقتحمت الزريبة ولحقتها الراية الزرقاء ثم أدرك المعركة الثانية في الزريبة السيد محمد ود دغيم والخيالة الذين كانوا يطاردون المنهزمين واقتحمت الزريبة من

٢٣–اوراق الشيخ محمد ادم ص ٥٨ .
٢٤–شقير ص ٦٦١

كل الجهات وأعملوا السلاح الابيض في رجال ولد دفع الله وقتل هو نفسه بجانبه مدفعه .)

نستطيع الآن أن نخمن خطوة المهدى التالية ، بعد أن تضاعف جيشه في الجبال ووضع يديه على عتاد ضخم من حملتي راشد والشلالى ، بالاضافة لما غنمه رجاله في معارك السهل . كانت الابيض بالطبع هى وجهته التالية . في يوم ٢٨ يوليو ٨٢ ، ودع ملوك الجبال – اصدقاء الضراء – وانحدر من الجبال نحو عاصمة كردفان .

لقد وصف حصار الابيض الدامى الطويل كل من تعرض لقصة المهدية تقريبا . الا أن ما يعنينا هنا هو حصاد المهدى من الرجال والسلاح ، فهو الذى سيصبح عماده الرئيسي في معركتنا التي دارت على بعد أميال قليلة من جنوب الابيض . لقد قدر شقير غنيمة المهدى بأنها تجاوزت ١٦٠٠٠ بندقية و ١٣ مدفعا و ٥٠٠٠ أسير من الجنود المصريين والسود . ولقد مكنته تلك الغنيمة الثمينة من البدء في تنظيم جيش نظامى يواجه به معركته الكبرى القادمة .

تنظيم جيش المهدى

حتي ذلك الحين ، أى في الفترة التي أعقبت سقوط الابيض لم تكن وحدات المهدى المقاتلة قد انتظمت بعد في ذلك الاطار المحكم الذى قدر له أن يملأ اسماع عالم القرن التاسع عشر . كانت الوحدة الرئيسية هى راية القبيلة ، فلم يكن تنظيم الارباع قد برز الى حيز الوجود ، ولم تعزز الوحدات المنفصلة بالمدفعية والفرسان والجهادية وبيوت المال للمناطق المنفصلة ، ولم يزل تنظيم الجيش متبعا النهج الذى وضع المهدى خطوطه العريضة في منشوره (تنظيم الجيش) الذى حرره في قدير .

ولعل المبرر الاساسي لذلك الجمود الذى أصاب حركة تطوير جيشه المستمرة يكمن في أن مسرح القتال الرئيسي انحصر في كردفان ، فكان تسيير المعارك وادارتها وشؤون الامداد والتموين يتركز بين يدى المهدى شخصياً . وكان بيت المال عاماً لكل الوحدات .

ولكن نصر معركة الابيض ، وما أغدقه على الجيش النامى من سلاح وعتاد وفير حتم اعادة النظر في تنظيم الجيش المتضخم ، وسنحت الفرصة في الاشهر القليلة الهادئة التي مكثها في الابيض . ومن ناحية أخرى اجبرته الظروف على التعجيل ، أن كان ينوى التأني ، بصقل طاقات جيشه المقاتلة في نواحى التنظيم والتسليح والتدريب ، فقد ترامت الى آذانه أبناء الحملة الهائلة التي كان يعد لها في القاهرة والخرطوم والتي ستتقدم نحوه في نهاية الخريف . ومن الوصف الذى بلغه عن تلك الحملة وعن ضخامة الاستعداد والحشد ادرك انها شئ يختلف تماما عن حملات راشد والشلالى ودفاعات محمد سعيد .

ولقد طوع المهدى كل طاقات رجاله ووجهها لخدمة المعركة القادمة . وعندما حلت الاشهر

الوسطى من عام ٨٣ كان قد قسم جيشه الى ثلاث مجموعات قتالية تعمل فيما بينها بتنسيق رائع :—

١ — فرسان الاستطلاع :—

لقد اتسع مسرح معركته هذه المرة ليبدأ من النيل وينتهى بالابيض . وليضمن المهدى سيطرته على تلك الاراضي المتسعة وكان لابد له من قوة خفيفة الحركة تضطلع بالواجبات التالية :

(أ) تضمن له سيلا متصلا من المعلومات والاخبار عن تحركات عدوه ونواياه ومواقعه وتسليحه .

(ب) السيطرة على الارض الحرام .

(ج) تتكفل بازعاج ومضايقة وارهاب عدوه تمهيدا للمعركة النفسية .

كانت وحدات الفرسان في المهدية تعتمد على قدرة الافراد في الحصول على الخيول . وقد خصص المهدى ٣٠٠٠ فارس للقيام بهذا الواجب سلح أغلبهم بالبنادق وانضووا تحت أمرة أربعة امراءهم : أبو قرجة — وعبد الحليم مساعد — وعمر الياس أم برير — والشيخ فضلو أحمد .

٢ — قوة الاقتحام الرئيسية :—

تلك هى التي أنيط بها عبء مواجهة هكس في الصدام النهائي . كان قائدها المباشر هو أمير الامراء عبد الرحمن النجومى ، وقد توزعت الى ثلاث رايات كبرى انقسمت بدورها الى رايات القبائل .

ومن الثابت أنه منذ ذلك الزمن المبكر كان تنظيم المقدميات (٢٠ رجلا) سارى المفعول . فقد قسمت الرايات بدورها الى مقدميات . وكان المشاة يكونون بالطبع الجزء الاعظم . وقد رمز اليهم بالكرابة أو الحرابة ، الا أنهم عززوا ، باعداد متفاوتة من الفرسان حسب قدرة كل قبيلة والحق بكل راية عدد من الجهادية ، ولكنهم سحبوا منها قبل المعركة بشهر : الفرسان ليعززوا مجموعة الاستطلاع ، والجهادية ليكونوا أرباع الجهادية بقيادة حمدان أبو عنجة .

كان لكل راية رئيسية علم مميز . الراية الزرقاء لاهل الغرب حتي أواسط افريقيا ، الراية الحمراء للقبائل الشمالية في النيل والجزيرة ، الراية الخضراء منطقة غرب وشرق النيل الابيض . ولكل راية رئيسية نحاس ، ولكل راية قبيلة نقارة .

تكويـن الرايـة الزرقـاء :—

أمير الراية – الامير يعقوب بن السيد محمد .[٢٥]

راية الحمر – الشيخ ابراهيم مالك

راية الحمر – جبريل أبو جفنة

راية الحوازمة – الشيخ نواى

راية المسيرية – الشيخ خليل

راية الغديات – اسماعيل ود النور

راية الجمع – عساكر أبو كلام

راية الجوامعة – الشيخ فرج الله

راية الرزيقات – عقيل الجنقاوى – مادبو

راية المعالية – الشيخ دودو

راية دار حامد – الشيخ قريقر

راية هبانيه – كليب حمدان

راية الكبابيش – الشيخ التوم

راية التعايشة – عثمان ادم – احمد على – يونس الدكيم – احمد فضيل

راية بني جرار – احمد ود نوباوى

٢٥-قدمت اوراق على المهدى كشفا بقادة الراية الزرقاء الذين اشتركوا في معركة شيكان مكتوبا في اعلاه (بيان راية الخليفة عبد الله بن السيد محمد .الراية الزرقاء . وقائد جيشها يعقوب محمد اخوه) . وقد تشكك محققو دار الوثائق المركزية لصحتها ، لان السيد على المهدى لم يوضح اسم المصدر أو الراوى كعادته ولان بعض الاسماء غير واضحة في الاصل (للاهمال الذى كتبت به مما يستدعى الشك في صحتها) .

وتلاحظ له كثير من الاسماء التي وردت في تلك القائمة وردت ايضا في قائمة اوراق المخابرات المصرية – والتي ارفقها كاتبها ابراهيم مضوى مع خطاب لشقير مؤرخ في ١٨٩٠/٢/١٥م يذكر فيه انه استخلص بيناتها من شخصين اشتركا في المعركة بجانب المهدى وانه استجوب كلا منهما على انفراد وتاكد من تطابق اقوالهما وهى المذكورة اعلاه . إما الاسماء التي وردت في اوراق على المهدى فهى :—

المشاهير في الراية الزرقاء الحاضرين .

حامد على – أحمد على – عثمان ولد ادم المشهور بجابو – المقدم جديد عبد المولى – صابون يونس الدكيم – الزاكى طمبل – النور عنقرة – عبد الله ولد ابراهيم حمد يس – ابراهيم مالك – بلل نافور – عبد الباقي عبد الوكيل – صالح حماروا أبسام . أحمد فضيل . يعقوب محمد ابو زينب – عثمان حاج خالد، عمر أزرق أبو اميه سليمان ولد اكرج – على الهاشمى – حسين ولد انفيال ، أبو روب محمد على ولد ابو عاقلة ، حاج الزبير عبد الرحيم ، أحميد ولد حمدان ، بانقا موسي ، القاضي أحمد على ، حسين جزو القاضي .

الراية الخضـــراء :—

أمير الراية — موسي ود حلو والبشير عجب الفيه

كنانة — قرشي ود احمد
الحسانات ود حلو والبشير عجب الفيه
كنانة — قرشي ود احمد
الحسانات — عبد القادر
عمارنة — أبو بكر عامر
لحويين — الشيخ عبد الله برجوب

الراية الحمــراء :—

أمير الراية — عبد الرحمن النجومى
عمر أزرق
الجعليين — الياس باشا أم برير
عثمان حاج خالد
الدناقلة — ميرغني سوار الذهب
مكين ود النور

٣ — قـوة النيـران المعززة (٥٠٠٠ — ٧٠٠٠ مقاتل)

لقد أدرك المهدى أهمية تطبيق المبدأ التكتيكى البديهى : تغطية تقدم قوات الاقتحام بقوة فعالة من النيران . ومنذ أن أرسل الخليفة عبد الله لعائلته وعشيرته لتنضم لهم في قدير وفضل حمدان أبو عنجة أن ينضم مباشرة للخليفة الذى كان يعرفه منذ نعومة في دارفور ، واختاره الخليفة ليتولى انشاء قوة النيران الحديثة ، كان ذلك ايذانا بولادة قوة ضاربة محكمة التنظيم عالية التسليح . فصفوف (الجهادية) أى النظاميين كما أطلق على حاملى الاسلحة النارية ، هى التي طبق عليها لاول مرة تنظيم الوحدة القتالية الجديدة (الربع) .

وزع كل حملة الاسلحة النارية وأغلبهم من الجنود السود الناظميين الذين اسروا من حامية الابيض على ٤ أرباع في البداية ، تراوح تعداد كل منها بين ١٢٠٠ و١٥٠٠ مقاتل . وقد قسم كل ربع بدوره الى رايات تعادل كل منها سرية تقريبا (١٠٠ مقاتل) أوكل قيادتها الى أمير . اما المقدميات (الفصائل) في الغالب تولى قيادتها صغار الضباط أوكبار ضباط الصف من الاسرى أنفسهم .

وبالاضافة لحاملى البنادق انشئت أولى وحدات المدفعية وكانت معظم طواقمها من المصريين من أسرى الابيض ولم تزداد مدفعية المهدى في ذلك الوقت عن عشرين مدفعا أغلبها مدافع جبلية ومن طراز كروب ، ومنها أربعة مدافع رشاشة من طراز (متر اليوز) .

رئاسة المهدى

على الرغم من مباشرة المهدى الشخصية لشؤون اتباعه الا أن توسع الجيش أجبره على تكوين رئاسة كانت بمثابة أركان حرب ميدانية لتعاونه في تصريف امور جيشه وتخطيط معاركه القادمة . كانت رئاسة ميدانية حقيقية فلم يكن لها مبني محدود كما يوحى لفظ الرئاسة . بل كانت تقام حيثما كان يقيم المهدى . فمقر المهدى هو الرئاسة . وأشهر مواقع رئاساته كانت المبني الذى أقام فيه لاشهر قصيرة في الابيض . ثم شجرة التبلدى الضخمة شرق مدينة الابيض التي توسطت معسكر التدريب الذى اقامه عندما اخلى جيشه المدينة استعدادا لمجابهة حملة الجنرال هكس . كانت الشخصيات شبه المستديمة المتواجدة دائما في رئاسة المهدى هى :—

١ — الخلفاء الثلاثة : فبالاضافة لانهم أعضاء دائمون في مجالسه الحربية . أوكل لكل من الخلفاء الاشراف على شؤون رايات المناطق الثلاث . وباشر الخليفة عبد الله تلك المهمة بالاضافة الى وصيفته كأمير عام لجيش المهدى .

٢ — قاضي الاسلام : عين المهدى القاضي أحمد جبارة قاضيا للاسلام يعاونه عدد من القضاة . كما عين نوابا ليتولوا فصل قضايا المحاربين .

٣ — أمين بيت المال : انشأ المهدى بيت مال لامداد الجيش باحتياجاته من مال وحبوب وسلاح على غرار بيت المال في عهد الخلفاء الراشدين . كانت الغنائم هى أهم مصادر ايراداته في تلك الفترة .

كان ذلك هو الجيش الفتي الذى مضي بخطى ثابتة في طريق الرقي والتقدم والانصهار في وحدة واحدة متماسكة . وتزايد تسليحه قوة ومنعة يوما بعد يوم ، فقد انصبت فيه بعد سقوط الابيض خبرات ضباط وجنود نظاميين . فامتزجت بالفطرة القتالية الغريزية لقبائل البادية . وأفرخت نتاجا عسكريا منيعا .

وفيما كان المهدى يصقل جيشه لتكتمل ملامحه كجيش نظامى . كان الجيش (النظامى) الاصلى يفقد كثيرا من مميزات وخصائص الجيوش الحديثة . وان كان لانتصارات المهدى دور كبير في خلخلة صفوفه . الا أن السبب الاهم كمن في القاهرة نفسها . فقد كانت القاهرة تعج بأحداث جسام . فقد اشتعلت الثورة العرابية .

الباب الثاني

من القاهرة للخرطوم

الصحــــوة

(.. أما اذا حنث بقسمه وخان دستور الامة ، فأما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس...)

الشيخ جمال الدين الافغاني

كان حشدا عظيما ، ذلك الذى اكتظت به ساحة ميدان عابدين في أصيل ٩ سبتمبر ١٨٨١ . فقد اصطفت كل الآيات حامية القاهرة بكامل أسلحتها متجهة صوب قصر عابدين . وحولها احتشد ألوف المواطنين يرقبون الاحداث التي تجرى أمام أعينهم وقد فاضت جوانحهم فخرا واعجابا ، ولاغرو ، فقد كانوا يشهدون لحظة حاسمة في تاريخ الامة المصرية .

ومن بين صف الفرسان الامامى ، تقدم القائد وتبعته ثلة من الضباط شاهرة سيوفها وكأنهم يذكرون صاحب القصر بأن للقائد من يحرسه . ران صمت رهيب على الميدان لم يقطعه الا وقع حوافر الجواد وهو يقترب من القصر .

صاح صاحب القصر في الضباط امرا بأن يغمدوا سيوفهم ويعودوا الى وحداتهم المصطفة خلفهم[1] ، ولكنهم تجاهلوا نداءه . رفع عرابي باشا يده بالتحية العسكرية ، فابتدره الخديوى قائلا بحدة ظاهرة (ما هى أسباب حضورك بالجيش هنا ؟) .

أجاب عرابي : (جئت يامولاى لاعرض طلبات الجيش والامة ، وكلها طلبات عادلة) .

فأعاد الخديوى سؤاله : (وما هى هذه الطلبات ؟) .

قال عرابي : (هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ورفع قوة الجيش) .

تقدم الخديوى خطوة الى الامام وقد أخذ منه الانفعال مأخذه وصاح في وجه عرابي (كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها وأنا خديوى البلد وأعمل زى ما أنا عاوز) .

رد عرابي باشا بهدوء (ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم) .

عصف الغضب بالخديوى . ولكن رفيقاه البريطانيان هداه ونصحاه بانهاء الحوار والعودة الى داخل القصر حتى لا تتطور الامور الى ما لا تحمد عقباه .

أدار الخديوى ظهره الى جنوده وعاد أدراجه الى قصره ، وترك رفيقيه البريطانيين لمعالجة الموقف . وبذلك جسم الخديوى في تلك اللحظات كل الصفات التي أبغضتها الحركة الوطنية المصرية المناهضة : تخليه عن جنوده وشعبه ، ووضع ارادة الامة في يد الاجانب – احدهما

١–شبيكة – تاريخ شعوب وادى النيل ص ٥٧٦ .

القنصل الادارى والآخر المراقب المالى البريطاني . وبذلك اصطدمت الارادتان علانية ، ارادة الخديوى حاكم مصر ، وارادة القومية المصرية الفتية التي كانت تتمتع باولى انتصاراتها وبروزها ككيان أصبح له الحق للمرة الاولى ، منذ قرون سحيقة ، في أن يقول كلمته في مقدراته التي كانت حكرا للاجانب أو ممثليهم . ولكن القصة تعود الى الوراء قليلا . الى أيام حملة نابليون في مصر.

فقد كان الجنرال الشاب هو المتسبب الاساسي في اطلاق الشرارة الاولى التي فجرت مشاعر القومية المصرية . فنهضت تلك القوة الهائلة التي اختفت تحت ركام قرون الحكم والتسلط الاجنبي ،[٢] أهل البلاد الاصليين ، الذين كان حكامهم يرمزون اليهم (بالفلاحين) . كان المصريون دائما طرفا منسيا في الصراعات التي شهدتها دلتا وادى النيل الخصيبة منذ بدء التاريخ تقريبا . بل حتي مؤرخيهم -كالجبرتي- كانوا يرمزون اليهم (بالرعايا) (والناس) (والخلق) كأنما لم يكن لهم كيان أو صفة مميزة .

ولكن عهد نابليون ، حسنت نيته أم ساءت ، والاحداث التي ماجت بها شوارع القاهرة ، هى التي فتحت غطاء القمقم فانطلق المارد الحبيس في الثورة الشعبية التي اشتهرت بثورة الازهر.

فالغريب ان الاحداث العنيفة التي حفلت بها سنين الاحتلال الفرنسي القصير في مصر كانت كلها تسير في هذا الطريق الذى يقود الى استيقاظ القومية المصرية . فعلى الرغم من تناقض مصالح . الجانبين المتصارعين ، الفرنسيين في جهة والاتراك والمماليك من جهة أخرى ، الا أن كليهما التجأ الى مركز الثقل الحقيقي المهمل كسبا للتأييد ، الى جماهير المصريين . وعندما أخذ هؤلاء المبادأة بين أيديهم واشعلوا ثورتهم ، تلفتوا باحثين عن زعامة لتقودها ، فالتقوا مع نابليون عند درجات الجامع الازهر ، مقر الهيئة التي دفع بها لتصبح حلقة الوصل بينه وبين جماهير الشعب المصرى[٣] .

لقد كان نابليون يدعى انه محرر القوميات المضهدة . وقد بكر عند وصوله للقاهرة لمخاطبة الفلاحين حاثا اياهم لينفضوا عن ظهورهم تسلط وقهر المماليك . وفي البداية كانت وسائله للتقرب الى المصريين لا تخلو من سذاجة ، كادعاء اعتناقه الاسلام وارتداء الازياء العربية بعمامتها وقفطانها ، ولكنها قادته الى مخطط لا يخلو من ذكاء وحنكة . فقد أدرك ان مفتاح رجل الشارع انما يكمن في يد المشايخ وعلماء الدين .

وكلما أسرف المصريون ، تقودهم غريزتهم الصادقة في عدائه ، أسرف هو في التقرب الى مشائخهم وعلمائهم ، ولكن الامر انقلب وبالا عليه في النهاية . فقد قاد هؤلاء الثورة ضده . ولم

---

2. Jamal Mohd Ahmed: Intellectual Backgronud of Egyptian

Nationalism.

3. B. Lit thesis P 5 Jamal P 6

يكن للامر من بد غير أن ينتهي تلك النهاية . فقد دار الصدام الاخير عند محك تتضاءل أمامه كل العوامل الاخرى ، ألا وهو العامل الديني .

وسواء تقرب نابليون للمشايخ أو ادعى الاسلام ، فقدكان هناك فيصل للامور واضح وضوح الشمس . فقد كان الفرنسيون (كفارا) ومهما قيل عن تسلط المماليك فهم في نظر العامة ممثلو السلطان – خليفة المسلمين . ومهما ادعى نابليون من عطف على الدين الاسلامى ، فلم تكن تصرفات ضباطه وجنوده تأيد ذلك الادعاء فهم يتعاطون الخمور في الشوارع علانية ويطاردون الغواني في الازقة ويهتكون الاعراض بلا خشية من وازع أو رقيب .

وما كان بمقدور المشايخ الوقوف موقف المتفرج لامد طويل ، فقدكانوا هم القادة الروحيين للشعب وحملة التراث الاسلامى التليد وحفظته . وقد وصفهم نابليون بأنهم اخلصوا لنظامه في البداية ولكن المد الشعبي كان أقوى منهم ، فانتهى الامر بأن قاد الازهر ثورة القاهرة ضد الفرنسيين عام ١٨٠٠ [٤] .

كل تلك الاحداث كانت منعطفا حادا في نمو القومية المصرية ومسارها وبروز (الشخصية المصرية) التي كان حكامها الى عهد قريب ينتهرون جماهيرها عند خروجها لتأييدهم ان هبوا لقتال عدو غاز (لم الصياح والجلبة ؟ أينا ينتصر سيحكمكم) .

ومنذ بزوغ الحركة الوطنية المصرية ، أى منذ أن خرج شيوخ الازهر ليقودوا المظاهرات ضد كليبر ، اتسمت تلك الهبة بأنها ثورة ونهضة فكرية قبل أن تكون شيئا اخر . ولازمتها تلك السمة طوال مسيرتها الظافرة في السنوات التالية . فالصحوة الفكرية مهدت للثورة الاجتماعية والسياسية .

تهيأت الظروف اذن لبدء معركة الحرية الطويلة بقيادة المشايخ والعلماء الذين تزعموا القاعدة العريضة من الفلاحين وجماهير المدن . ولكن المسيرة كانت مقبلة على منعطف آخر هام في طريقها . فقد حتمت ظروف معينة أن تضع القاعدة الجماهيرية يدها على الاداة الكفيلة بتجسيم الاحلام والاماني – السلاح . فجلاء الفرنسيين عن مصر في أغسطس ١٨٠١ ترك خلفه فراغا كبيرا ، ضربت أثناءه الفوضي بأطنابها في مصر لعدة سنوات ، ولم تكن تلك القوى الجياشة التي انطلقت لتوها وكسرت أغلالها ، فأحست بقوتها ، لترضي بأن تعود الامور الى ما كانت عليه في عهد المماليك الذين تجاوزهم الزمن ، فغفلوا عنها وانشغلوا بالصراع على السلطة في السنوات العاصفة التي تلت جلاء نابليون ، حين كان الفاصل الزمني بين اعتلاء الوالى وسقوطه لايتجاوز أسابيع

٤– Jamal p. 6

بل لا يتجاوز عدة ايام .ولكن القوة المستترة برزت مرة أخرى في اللحظة المناسبة لتحسم الامور . فاكتسحت شوارع القاهرة المظاهرات وعلى رأسها مشايخ الازهر لتطيح بالبرديسي ، آخر ولاة السلطان ، وتسلم قيادها الى محمد على باشا في مايو ١٨٠٤م .
كان الباشا الداهية يرقب الامور بحذر وتروٍ. لكنه استطاع طيلة تلك السنين أن يحافظ على مبدأ لم يحد عنه لحظة واحدة . فلم يترك بابا يمكنه من كسب جانب الجماهير دون أن يطرقه . وقد كسب الجولة الاخيرة فاستطاع ان يمتطى الموجة الشعبية الكاسحة التي حملته الى قمة الحكم في مصر لاربعين عاما قادمة . فنحن نجده يوزع القمح على الفقراء مجانا عندما تولى قيادة ميناء بولاق ، ثم نراه في مناسبة أخرى ينسحب من اجتماع القادة محتجا على زيادة الضرائب على الاهالى الذين طحنهم الفقر. وعندما طفح الكيل بالجماهير التي اضنتها المجاعة وخرجت للشارع صائحة في وجه البرديسي آخر ولاة السلطان (يابرديسي ايش بتريد من تفليسي) ، كان هذا ايذانا للالباني الذكى للتحرك بعد أن ظل يلعب بالولاة والمماليك لعبة القط والفأر – مساندا هذا ضد ذاك ثم ذاك ضد هذا – ليزيل كليهما عن طريقه في اللحظة المناسبة ، الى أن استقر الامر بين يديه أخيرا .

من الصعب القول أن عهد محمد على وخلفائه كان ايذانا باستقلال مصر ، فقد كان همهم الاول هو الانفراد بحكم البلاد ، وظلت شوكة الاتراك والشراكسة قوية في عهدهم كما كانت دائما ، بل زادت سيطرتهم على المناصب الهامة . أما المصريون فلا زالوا يدعون ب (الفلاحين) تصغيرا لشأنهم وتمييزا طبقيا لهم ، وظلوا على حالهم مواطنين من الدرجة الثانية . ولكن التقدم العمراني والتقني الذى نزع اليه محمد على واسماعيل ، وكان هدفهما الاساسي تثبيت دعائم حكمهما واحكام ادارة البلاد والظهور بمظهر الدولة الحديثة ، كان لا مفر له في النهاية من أن يصبح أرضا خصبة لنمو الوعى القومى والسياسي شاء الحكام أم لم يشاءوا .

فالبعثات التعليمية التي أرسلت لاوربا ، والمدارس العسكرية ثم مدارس الطب والهندسة والزراعة والادارة والمحاسبة التي فتحت في عهده[٥] ، والاحتكاك بمئات الخبراء الاوروبيين ، كان لابد لها من أن تفتح أعينهم لاشياء أخرى خلاف علوم الطب والحساب والمعمار والصيانة الفنية . فقد تلمسوا عزة الانسان الاوروبي في وطنه ، وكفالة حرية القول والنقد وأنظمة الحكم الديمقراطية التي تنعم بها تلك الشعوب .

كان ذلك شيئا كالحلم للمصريين الذين ما ذاقوا الا حكما مطلقا مستبدا في معظم العهود التي تعاقبت عليهم .

٥–عبد الرحمن زكى – الجيش المصرى في عهد محمد على باشا ص ٤٢ و ٨٢ .

كتب الكثير عن انتهازية محمد على وميكافيليته . وعلى كل كان عهد محمد على طويلا المدرجة التي يستطيع المرء فيها ان يعدد حسنات كبرى تعادل كفتها أخطاء جسيمة . فقد انطبقت هنا قاعدة بأن من يعمل كثيرا يخطئ كثيرا . فالباشا بصبره النافذ وتعجله الشهير بالانجازات الكبرى مهما كلف ذلك من تضحيات ، كان لابد ان يحفل عهده بمآسي عديدة . ولكن هناك انجازان لا يستطيع أحد انكارهما : فتح باب التعليم لألوف المصريين – ثم وضع السلاح في ايديهم .

فللمرة الاولى منذ قرون سحيقة احتلت صفوف المصريين الحقيقيين ، (الفلاحين) ، حيزا محترما في حشود الجيش المصرى. في العهود المتعاقبة المتواترة التي مرت كالاطياف على مصر وأمسكت بالامور فيها من فاطميين وأيوبيين وطولونيين ومماليك وعثمانيين ، كان السلاح ، أداة القمع الرئيسية ، حكرا لنخبة مختارة منتقاة من أولئك الحكام الاجانب تعاونهم قلة انتهازية من المصريين . ولكن حين كسر محمد على شوكة المماليك . ثم اضطرته حروبه الخارجية وطموحه الى التوسع ليتجاوز جيشه مئة ألف جندى ، وحين خابت آماله في بناء جيش من السود الذين غزا بلادا شاسعة من أجل توفيرهم ، لم يجد أمامه أخيرا الا جماهير المدن والفلاحين . واستطاع طوعا أو كراهية أن يجند عشرات الالوف حتي أصبحت الاغلبية الساحقة تنحدر منهم . بل أتيح لبعضهم أن يترقوا ضباطا حتي الرتب الوسطى في الجيش . ولكن عهد محمد على أفسح المجال للمصريين في سلاح واحد – سلاح المشاة – ملح الارض . أما الاسلحة الممتازة من فرسان ومدفعية واسطول ، والرتب العليا والوظائف الهامة ، فقد ظلت حكرا للاتراك والشراكسة والاجانب دون المصريين .

سارت الاحداث التي نقصدها من تلك الشريحة من تاريخ مصر الحديث في عهد محمد سعيد وعباس ، ببطء لا تتحمله العجالة والسرعة التي نتناول بها خلفيات ذلك العصر . أما خلفهما ، الخديوى اسماعيل ، فيستحق وقفة قصيرة . فذلك الخديوى الذى دخل التاريخ موصوما بالتفريط في مقدرات مصر الاقتصادية ، ومدموغا بالاسراف والتبذير ورهن بلاد بحالها للسماسرة والبنوك الاوروبية ، كانت له بضع حسنات غابت عن عين منتقديه بين تلال المساوئ والاخطاء . ولا عجب ، فقد تفتحت أعين اسماعيل وهو في الرابعة عشرة من عمره في فينا وباريس أجمل عواصم العالم وشغف وجدا بمسراتها وفنونها وآدابها الرفيعة. ولما تولى زمام الامور عام ١٨٦٣ عقد العزم على جعل مصر قطعة من أوروبا على حد تعبيره – على الاقل في تلك المجالات ، فكان افتتاح دار الاوبرا وكانت جريدة الوقائع المصرية وكان المجلس الاستشارى في محاولة مشوهة لخلق برلمان مصرى . وأخيرا كان للرجل فضل لا ينسي ، فقد فتح باب مصر على مصراعيه لسنوات طوال لاحدى تلك الشخصيات النادرة في شرق القرن التاسع عشر الاسلامى ، وهو الشيخ جمال الدين الافغاني الذى يمكن اعتباره روسو الثورة العرابية بحق وحقيقة .

فمن وهاد الافغان انحدر الرجل كالعاصفة ليزيل ركام قرون التخلف معلنا أن لا مجال للحلول الوسط ، مبشرا بمبادئه (الاسلام دين ودولة) . كان جمال الدين لهيبا سطع من بين رماد عصور الانحطاط والتبعية لينادى بنهضة الشرق والاطاحة بمستعبدية، مذكرا بأن العودة لتعاليم الاسلام النقية الاولى هى طريق الخلاص الوحيد :

(اعادة الصداقة بين العلم والدين ، ولكي تصلح الدين .. يجب ان تعود الى الاصل وهو القرآن والصحيح من الاحاديث والاستنتاج بالقياس لما ماينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه ، وان تفتح باب الاجتهاد ، وان نقضي على التفرقة بين أهل السنة وأهل الشيعة ، فهذه التفرقة أحدثتها مطامع الملوك) .

وقد لاقي الرجل الامرين من المستعمرين الاوروبيين ، وظل لسنوات يحمل عصا[٦] التسيار كالسارى يبث أفكاره هنا وهناك على طول البلاد الاسلامية وعرضها بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل . ففي وطنه افغانستان تآمر البريطانيون لاخراجه من البلاد ، وفي الهند كان البريطانيون في انتظاره ليجبروه على الرحيل مرة أخرى . ولم يمهلوه هذه المرة ليبث تعاليمه بين مسلمي الهند ، فرحل الى بلاط السلطان العثماني فقوبل بالترحاب وسمح له بالتبشير بأفكاره ، ولكن مشايخ السلطان الاحمر لم يطيقوا صبرا على أفكاره التحررية ، فكادوا له الى أن شد الرحال مرة أخرى – هذه المرة الى مصر .

كان احساس جمال الدين الافغاني بالزحف السرطاني الاوروبي في البلاد الاسلامية قويا ، وكان رأية ان لا سبيل لا يقافه الا باتحاد الدول الاسلامية :

(الشرق .. الشرق خصصت جهاز دفاعى لتشخيص دائه[٧] ، وتحرى دوائه فوجدت أقتل أدوائه ، انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ..) ثم دراسة أسباب تفوق الغرب وتحرير الشعوب سياسيا ليبدأ الإصلاح من القاعدة الى القمة . (ولن تبعث شرارة الاصلاح في وسط هذا الظلام الحالك الا اذا تعلم الشعب وعرف حقوقه ودافع عنها . ومتي عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطرا الى المطالبة بها والمحافظة عليها اذا نالها ..) .

(ثم ان الممالك الاسلامية هذه انما هى من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها . في حين أن تلك الدول عليها لا تكف عن التذرع بالوف الذرائع . حتي بالحرب والحديد والنار . للقضاء على حركة من حركات النهضة والاصلاح في البلاد

٦-شبيكة ص ٥٦١ .

٧-كامل الشناوى زعماء وادباء ص ١٩

الاسلامية ومن ثم يجب على العالم الاسلامى أن يتحد في حلف دفاعي كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء ، وللوصول الى هذه الغاية ، انما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم في الغرب وأن يتعلم أسرار تفوقه وقدرته) .

وقد يعزى ترحيب الخديوى اسماعيل المفاجئ بجمال الدين ، على ما بين الشخصيتين من تباين . الى الظروف التي جدت في عهده . فولع الاول بمشاريع التعمير الضخمة ، ونفقات حروبه التوسعية بالاضافة الى اسرافه التفاخرى المشهور ، قادته الى الاستدانة من الدول الاوربية ، والاخيرة جرت وراءها التدخل الادارى لحماية مصالحها وتسديد الدين القومى الذى تجاوز ٩١ مليونا من الجنيهات عام ١٨٧٦ . وهذه هى الذريعة التي اتخذتها الدول الاوروبية للتسلل ثم السيطرة على مقاليد الحكم في مصر . بدأوا أولا برقيبين على الميزانية المصرية في نوفمبر ١٨٧٦ ، ثم بوزيرين ، ثم بالسيطرة التامة على بنود منصرفات وواردات الميزانية المصرية .

لما ضاق اسماعيل ذرعا بالتدخل الاجنبي ، تلفت مستنجدا بالقوة التي لا يلتفت الحكام اليها الا في الازمات والملمات الى الارادة الشعبية فانتقلت المبادرة مرة أخرى الى العلماء والمشايخ .

وكأنما كانت تلك الاحداث أشبه بحلقات تتصل بعضها ببعض لتقود في النهاية الى الصدام الحتمى بين الخصمين الحقيقيين حين تنزاح الاقنعة عن وجهيهما . فقد شاهدنا صعود نجم الفلاحين المصريين بقيادة العلماء في عهد نابليون والسنوات التي تلت عهده ، ثم رأينا كيف وضع محمد على السلاح في أيدى القاعدة الشعبية العريضة في سنوات الاستقرار والهدوء النسبي ، وعاد اسماعيل الى العلماء والمفكرين ساعيا وراء تأييدهم بعد أن أطبق عليه الاخطبوط الاجنبي .

ولكن اسماعيل لم ينشد مظاهرات الغوغاء والدهماء كما فعل جده ، بل اتجه الى طبقة المتعلمين والمفكرين فقد تغيرت الازمان والاحوال فاصبح المتعلمون يعدون بمئات الالوف وأصبح الطريق اليهم يمر عبر الصحف الشعبية المستقلة التي أفسح اسماعيل مجال العمل أمامها ، فقادت الدعوة للنضال من أجل التحرر ، والهبت مشاعر القراء بالحماس القومى .

وقد كان انتشار الصحف الشعبية طفرة وطنية كبرى . فبنهاية عهد اسماعيل عام ١٨٧٩ كان صحيفة محمد أنس (روضة الاخبار) وصحيفة الاخوين سليم وبشارة تقلا (الاهرام) وصحيفة يعقوب صنوع (مرآة الاحوال) وصحيفة أديب اسحق (مصر) وصحيفة الكوكب المصرى ومرآة الشرق . الخ .. ولكن كل تلك الجهود والمشاعر الوطنية الجياشة ظلت جهدا مبعثرا في حمية فوران لا يقر لها قرار الى أن قيض لها القيادة الفكرية الملهمة التي تجسمت في الشيخ جمال الدين الافغاني ليقودها ويوجهها الاتجاه الصحيح .

وعندما حل الافغاني بمصر عام ١٨٧١ أكرمه الخديوى اسماعيل وخصص له رئيس وزرائه راتبا . وبعد قليل أصبح منزله منتدى جامعا وملتقى للمفكرين المصريين وطاف المدن الكبرى

ليحاضر مبشرا بمبادئه الجديدة . وفي السنوات الاولى من سنيه الثمان بمصر . تحاشي جمال الدين التبشير السياسي عن الاوضاع المصرية مباشرة بل بدأ بتهيئة اذهان تلاميذه ومريديه لتقبل بذور الفكر الجديد . وكان جمال الدين شأنه شأن المفكرين الاسلاميين الاوئل لا يفرق بين المواضيع الانسانية أو العلمية ، فكل فروع العلم مسخرة لمعرفة الحقيقة الكبرى – الله سبحانه وتعالى – فكان يحاضر في الرياضيات والفلك والاجتماع والادب والمنطق والجدلية والعلوم الاسلامية ليعود تلاميذه على المنهج العلمى الهادئ حتي في بحث الامور الادبية والسياسية .

وقد أفلح جمال الدين في أن يلفت نظر الأمير توفيق ولى العهد الجديد الى هذا الخطر في لقاءاتهما المتعددة في الحفل الماسوني .وكانت اراء ولى العهد تبشر بالخير في البداية ، وتقبل مقترحات جمال الدين بأن اصلاح الامور لا بكون الا على يد (جماعة) وليس على يد الحاكم فقط ، عكس فكرة الامامية التي سادت في العالم الاسلامى في عصور الاضمحلال والانحطاط .

ولفترة قصيرة بعد سقوط الخديوى اسماعيل واعتلاء ابنه توفيق العرش بدا أمل في أن تتحقق المطالب القومية أخيرا دون اللجوء لمواجهة شاملة بين القوى الوطنية والخديوى والدول الاوروبية . فقد وافق الخديوى في مبدأ الامر على الاصلاحات الدستورية واعلانها ولكنه انثني بعد قليل تحت ضغط القوى الاجنبية التي كان يعلم جيدا انها هى التي عزلت أباه وأجلسته مكانه ، فتأجج الشعور الوطني مرة أخرى حين أدرك دعاة التحرر أن لا سبيل الى الاتفاق مع العرش طالما كان مسنودا بالدول الاستعمارية .

لم يستغرق ولى العهد وقتا طويلا ليثبت أن قول القائل بأن (السلطة مفسدة) هو عين الحقيقة ، فقد قلب لجمال الدين ظهر المجن عندما اعتلى العرش عند ابعاد والده الخديوى عام ١٨٧٩ واستمع الى وسوسة بطانته وتحذيرها من خطورة آراء جمال الدين على سيادته وعرشه فأمر بابعاده ، بل أصدر منشورا هاجم فيه آراء جمال الدين واتهمه بالفساد والتخريب . ولكن فات الاوان ، فالنار التي ظل يذكيها المفكر الاسلامى طوال ثماني سنوات بتؤدة وأناة لم تكن لتخمد بمنشور ، فقد حمل تلاميذه ومريدوه الراية من بعده . وما هى الا سنين قلائل حتي ولد الحزب الوطني ثم تتابعت مقالات الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن النديم النارية في صحيفة الوقائع [٨] تنادى بالتحرر وتدعو الى الانطلاق من آثار القيود والتبعية ممهدة لجعل الوحدة بين الجيش والشعب حقيقة واقعة .

لقد تهيأت الظروف للثورة : طبقة مستنيرة تنسمت نسائم الحرية في الخارج ، وصحف تدعو

---

8. Jamal P. 25.

لتغيير الواقع البغيض علنا في عشرات المقالات وسلاح وضع في أيدى أبناء الشعب الحقيقيين للمرة الاولى منذ قرون .

سارت الاحداث اذن في طريق اللاعودة ، لتقود كلا من قوى التحرر ممثلة في الضباط العرابيين والاستبداد ممثلة في الخديوى ومن ورائه النفوذ الاجنبي .

وقد اشتعلت شرارة الثورة في البداية بين مدرجات المجلس الاستشارى الذى أراده اسماعيل مجرد واجهة لدولة حديثة ديمقراطية فكونه من الاعيان والعمد والمشايخ . ولكن هؤلاء لم يطيقوا أن يظلوا بمنأى عن الاحداث أو أن يحيدوا عن الخط الوطني الجارف الذى غمر شمال وادى النيل . فقليلا قليلا أصبحت مناقشات مجلس الاعيان أكثر حيوية وتمس امورا لم يكن يخطر ببال اسماعيل تناولهم لها عندما وافق على قيام المجلس . فقد تفجر الخلاف بين المجلس ورياض باشا رئيس الوزراء المكروه حول صلاحية المجلس للنظر في الميزانية العامة . وقد يبدوا لنا في أول الامر ان ذلك حق مشروع بداهة – ولكن منذ عهد اسماعيل كانت الدول الاوروبية ترى أن المجلس لو منح ذلك الحق فسيغل يد الخديوى والوزارة التي مثلت فيها مصالحها بوزيرين ، كان واجبهما الرئيسي هو ضمان سداد أقساط الديون مهما كلف ذلك من ضغط على المصروفات . وقد ضيق الخناق على منصرفات الميزانية للدرجة التي جعلت رئيس الوزراء يحيل ٢٥٠٠ ضابط الى الاستيداع ، فتجمع هؤلاء واقتحموا وزارة المالية واعتقلوا الوزير البريطاني مدة من الزمن حتي تدخل الخديوى وأطلق سراحه .

تمادى رياض باشا في تحدى نواب المجلس الاستشارى ، فقد دخل عليهم وقرأ عليهم أمرا بحل المجلس بدعوى انتهاء مدته ، ورفض النواب تلك الحجة بدورهم مستندين الى أن هنالك امورا معلقة ، أهمها الميزانية ، لم يبت فيها بعد . وعندما أغلق مبني المجلس في وجوههم كونوا جمعية وطنية مطالبين بالدستور الذى ينص على مجلس نواب برلماني يستمتع بسلطات تشريعية كاملة .

وقد شهدت تلك الايام نشاطا وطنيا وفكريا واسعا برز فيه تحرك الحزب الوطني الناشئ الذى أصبح محور آمال الامة بكل طبقاتها وطوائفها بما فيها عدد من الضباط الوطنيين على رأسهم عرابي .

كان عرابي يمثل الحركة الوطنية خير تمثيل . فهو بدوى عربي من قرى مصر نشأ في الريف المصرى فأحس بالمظالم التي يعاني منها مواطنوه . وتلقى قسطا من التعليم الديني حين التحق بالازهر لمدة أربع سنوات ولما كان والده شيخ البلد فقد طالبته السلطات بالحاق ابنه بالجيش ، اذ كانت سياسة محمد على تهدف الى تجنيد أبناء العمد والمشايخ حتي يحببوا الجندية للفلاحين النافرين ويجذبوهم اليها . كل تلك الخلفيات دفعت عرابي ليتصدر ثورة الضباط الوطنيين في الجيش .

وقد تطورت الاحداث التي وضعت العسكريين بقيادة عرابي في الصف الامامي في مواجهة الخديوى فسارت على الوجه التالى : (٩) .

في أواخر عام ١٨٨٠ وقع الخديوى على مرسوم أوعز به عثمان رفقي وزير الحربية الشركسي ، يقفل باب الترقي نهائيا في وجه الجنود الى رتب ضباط . بالطبع كان المتضررون هم المصريين . فذلك يعني أن الغالبية العظمى في صفوف الضباط ستظل حكرا للشراكسة . سارع الضباط الوطنيون بزعامة فقرر الخديوى اعتقالهم ومحاكمتهم ، الا أن جنودهم أفرجوا عنهم بالقوة . وكان ذلك تحديا واضحا للخديوى الذى خشي مغبة الامر فتراجع للمرة الاولى أمام المد الشعبي الذى سندته أسنة السلاح هذه المرة وعزل عثمان رفقي من وزارة الحربية وعين محمود سامي البارودى الشاعر الشهير وأحد قادة العرابيين في منصبه . ولكن الخديوى توفيق بدا تلك الايام وكأن رأيه كرأى آخر من تحدث اليه . فقد استجاب مرة أخرى لضغوط حاشيته والى تحريض الاوروبيين لايقاف الضباط الوطنيين عند حدهم . وبعد أشهر قليلة عزل محمود من وزارة الحربية وعين صهره داؤود باشا بدلا عنه . واسرف هذا في استعداء الضباط ، فأجرى حركة تنقلات ب هؤلاء للتحدى بعنف ، فقد تجمعوا على رأس جنودهم واتجهوا نحو قصر عابدين — وكان المشهد الذى وصفناه في مطلع هذه الصفحات .

ومنذ تلك اللحظة انطلقت الحركة الوطنية فاصبحت ثورة شعبية تساندها الغالبية العظمى من رجال الجيش وأجبر الخديوى على التراجع مرة أخرى ، فاستجاب للمطالب التي رددت اصداءها اطراف ميدان عابدين بصوت عرابي الجهورى وعزل رياض وعين شريف باشا رئيسا للوزراء وعرابي وكيلا لوزارة الحربية ، فسارع بتحقيق كل مطالب الجيش التي كان ينادى بها . ومن جهة أخرى ، شرع شريف باشا في تحقيق المطالب الوطنية بهمة ، فنقح الدستور بسرعة وعرض على مجلس النواب لمناقشته واجازته .

كان ابتهاج المواطنين عظيما بذلك الانتصار الحاسم الذى انتظروه منذ أمد طويل . وأصبح عرابي بطلا شعبيا ، فجال في طول البلاد وعرضها ليخطب مبشرا بالعهد الجديد . وقد وصف ويلفريد بلنت الذى عاصر الاحداث تلك الايام بأنها كانت قمة الحبور والشعور الوطني الجياش .

ولكن قوى التسلط التي ظلت ترقب الموقف من بعيد بعين جزعة متحفزة ، تحركت وكشفت القناع عن وجهها الحقيقي . فالخديوى والباشوات وألاعيبهم ومؤامراتهم شئ ، وثورة شعبية

٩—شبيكة ص ٥٦١ — ٦٣٨

مسلحة على بعد أميال من قناال السويس شئ آخر . فهى تمثل تهديدا مباشرا بقطع الشريان البحرى لتجارة الامبراطورية وتضع استثمارات بنوك روتشيلد وأسهم المساهمين الفرنسيين في كف عفريت . فكان رد فعل فرنسا وبريطانيا عنيفا . فقد قدم قنصلاهما مذكرة شديدة اللهجة للخديوى في ٧ يناير ٨٢ . وأبحر الاسطول البريطاني متجها نحو الاسكندرية . فكأنما قدمت المذكرة على فوهة مدفع .

كانت سخرية الامر تكمن في اعتراض الدولتين على اقامة نظام نيابي يتمتع بسلطات حقيقية تبيح له مناقشة امور أساسية مثل مناقشة الميزانية . حين ظلت بريطانيا تتشدق لسنين طويلة بأنها أجبرت السلطان عبد الحميد على اعلان الدستور وانشاء النظام البرلماني في تركيا لتحقيق (الديمقراطية) فهى المبشرة بالديمقراطية الليبرالية . وهى التي تحميها . وهى التي تنشر الحضارة المسيحية في عالم الشرق المتخلف ! !

أما المذكرة التي قدمها قنصل بريطانيا منفردا فقد كانت اكثر عنفا ، ولم يكلف نفسه عناء المداراة والمواربة فأحدثت هزة كبيرة وتصدعاً في صفوف الثوار . فقد استقال شريف باشا ، وأسندت الوزارة الى محمود سامى البارودى ، وعين عرابي وزيرا للحربية . ومنذ تلك اللحظة سيطر العرابيون سيطرة تامة على كل مرافق الحكم ، وأصبح الخديوى رأسا اسميا في مصر . ومضت الاحداث مسرعة نحو الصدام المحتوم .

حسم عرابي والبارودى كل الامور المتعلقة : ففيما يتعلق بالجيش ، صدرت لوائح الترقيات للوطنيين . وأبعد الضباط الاجانب عن كل الاماكن الحساسة . وفيما يتعلق بمطالب الامة ، حسم البارودى أمر الدستور ، فقد نقحت مواده بسرعة وأعلن المرسوم .

كانت صفعة قوية لبريطانيا وفرنسا . فقد تصدر الصفحة الاولى من الدستور نص يمنح النواب الحق في مناقشة الميزانية العامة السنوية . وهو سبب كل الخلاف والتعنت الاوروبي .

كان الضباط والجنود بالطبع على رأس المبتهجين . فقد أصبحوا مفخرة البلاد ، تلك البلاد التي كان أهلوها ينظرون الى الجند والسلاح كأداة قمع وتسلط ، وليس رمزا للعزة الوطنية .فهاهو السلاح في يد أبناءها لينتزعوا حقها السليب من أيدى حكامها الاجانب

ولكن بريطانيا التي تخلت عنها فرنسا ، لم تستطع أن تقف موقف المتفرج . وسنحت الفرصة للتدخل عند اكتشاف مؤامرة لاغتيال عرابي دبرها الضباط الشراكسة في ابريل ١٨٨٢ . وما كان لعرابي الا أن يحاكمه باحكام رادعة رفض الخديوى التصديق عليها . فقد ألبه الاوروبيون وحرضوه مشيرين الى ان امتناعه عن التوقيع عليها يعتبر من صميم حقوقه الشرعية . ولما أصر عرابي على تنفيذ الاحكام طلب الخديوى معونة الدول الاجنبية رسميا بلا حياء . وفي تلك الاثناء . وصل الاسطولان

البريطاني والفرنسي الى الاسكندرية وبدأ التحرش بالعرابيين ، فقدم القنصلان انذارا تعسفيا حمل المطالب التالية :

١ — اقالة الوزارة .
٢ — ابعاد عرابي وأعوانه من الحكم ونفيه من مصر .
٣ — تعيين سلطان باشا – أحد الذين يثق بهم الخديوى رئيسا للوزراء .

وماكان بمقدور الخديوى اقالة عرابي حتي ولو أراد ذلك ، فقد كان الاخير هو الحاكم الفعلي . ولكنه ترك القاهرة الى الاسكندرية ، فترددت الاشاعات انه انتقل هناك ليضع نفسه تحت حماية الاساطيل الاجنبية .

ومن جهة أخرى أصاب التصدع صفوف جبهة الوطنيين ، فعندما أصدر الخديوى أمرا بعزل عرابي من وزارة الحربية ، وجه هذا بانعقاد الجمعية الوطنية لتنظر في الامر . فأصدرت الجمعية قرارها بأن الخديوى يعتبر مارقا لانه وضع نفسه تحت حماية الاعداء ورفض أمر عزل عرابي وثبت في موقعه . ولكن البلاد أصبحت بلا وزارة ، فقد كان هناك عرابي فقط وزيرا للحربية .

وقد علم الاخير ان الحرب أصبحت وشيكة . خصوصا بعد مذبحة يونيو في الاسكندرية التي راح ضحيتها بعض الاجانب في ظروف غامضة ، وتوتر الجو بعدها وأصبح قابلا للانفجار في أى لحظة . شرع عرابي يتأهب جادا بتحصين ساحل الاسكندرية بسرايا المدفعية . وتلك كانت الذريعة التي وجدها الاميرال سيمور قائد الاسطول البريطاني فأرسل انذار بأن تسلم التحصينات والا فسيقصف المدنية والتحصينات في ظرف ٢٤ ساعة . وفعلا نفذ وعيده وقصفت الاسكندرية في صباح ١٧ يونيو ، فانسحبت حامية الاسكندرية وعسكرت في كفر الدار وتكاملت جيوش عرابي بالقرب من التل الكبير وحفرت خنادقها استعدادا لمواجهة العدو المتقدم نحو القاهرة .
كانت الامدادات تتوالى على الاسطول البريطاني من مالطا . وعين الجنرال ولزلى ، أشهر الجنرالات البريطانيين ، قائدا للحملة فأنزل قواته في القنال بعد احتلالها وتأمينها وتقدم نحو القاهرة تقدما حثيثا الى أن تصدت له قوات عرابي في التل الكبير فنشبت الموقعة الشهيرة .

فقبل أن تشرق شمس صباح ١٣ سبتمبر ، قاد ولزلى جنوده متلفحا بالظلام في مسيرة أصبحت معلما شهيرا في تاريخ الحروب . فقد ابتدع ولزلى التكتيك الجديد : السير ليلا والاقتحام معَ بزوغ الفجر ، فأصبحت سنة اتبعها العسكريون ودخلت عملية (هجوم الفجر) الكراسات العسكرية منذ ذلك الحين .

أما الوصف الذى قدمه المؤرخ الرافعى لمعركة التل الكبير فهو ينبئ عن معركة غير متكافئة :

(اقتحمت الجنود الانجليزية الاستحكامات الامامية ، وأطلق رماتها القنابل والبنادق عليهم ، وقتل منهم في هذه الهجمة نحو مائتين قبل أن يصلوا الى الخنادق ، ولكن الهجوم كان فجائيا وشديدا فاستولى الانجليز على الاستخدامات الامامية ، وبعد هنيهة هجموا على خط الاستحكامات الثاني ، اتجهت فرقة منهم تجوس خلال الاستحكامات ففتكت بنادقهم بالمصريين فتكا ذريعا ، وهجم فرسان الجيش البرطاني بقيادة الجنرال (دورى لو) على ميسرة العرابيين وهى متجهة صوب محطة التل الكبير، وأحدقوا بها ، وأخذ المصريون على غرة في الميمنة والميسرة وصمد للدفاع الايان من السودانيين بقيادة الميرالاى محمد بك عبيد ، وظلوا يدفعون الانجليز حتي استشهد معظمهم وقتل قائدهم البطل محمد عبيد واستبسل أيضا في القتال آلاى من البيادة بقيادة أحمد بك فرج وعبد القادر بك عبد الصمد ، كذلك أبلى اليوزباشي حسن أفندى رضوان (الفريق حسن باشا رضوان فيما بعد) بلاء حسنا في الواقعة اذ كان قومندانا للطوبجية فلما فوجئ المصريون بهجوم الجيش الانجليزى اختل نظامهم ولكن اليوزباشي حسن رضوان صمد للمهاجمين وأخذت مدافعة تصلى الانجليز نارا حامية وكبدهم خسائر جسيمة ، وجرح هو في تلك الواقعة ، وقد أعجب الجنرال ولزلى ببسالته وترك له سيفه احتراما له ، ولم يزد عدد الجنود الذين اشتركوا في المعركة عن ثلاثة آلاف . أما الباقون فقد تولاهم الذعر فألقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار ، ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة لم تزد خسائر الانجليز فيها عن ٥٧ قتيلا منهم ٩ ضباط و٤٨ صف ضابط وجندى ، و٤٠٢ جريحا منهم ٢٧ من الضباط ، أما خسائر المصريين فقد تراوحت بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ قتيل ويقول المستربلنت (انه سمع من خادم عرابي الذى لازمه في المعركة ان عدد قتلى المصريين كان كبيرا وانهم بلغوا عشرة آلاف بين قتيل وجريح لان الانجليز لم يستعملوا هوادة في القتل ، وقال انه لا يعتمد صحة هذه الارقام . ولكنه شاهد أكواما من عظام القتلى في التل الكبير وهى شهادة ناطقة بما جرى في المعركة) .

عاد عرابي الى القاهرة في المساء منهزما ، فقر قرار الثوار على الاستسلام وكتبوا عريضة استرحام للخديوى . ودخل ولزلى القاهرة دخول المنتصر فسلم عرابي وجنوده كأسرى حرب وأسدل الستار على الثورة

تلت تلك الاحداث أيام كالحة في تاريخ الشعب المصري . في لحظة قبرت كل أمانيه الوطنية وجثم على كاهله احتلال بغيض . وبعد الايام المشرقة التي شهدت تفجر الحماس الوطني الذى طغى على كل طبقات الامة وصفوفها مبشرا بولادة القومية الفتية ، خيم جو كئيب ، غذاه احساس المهانة بانتهاك حرمة الوطن .

أما الجيش الوطني الذى جسم كل نضال القرون ، فقد تناثر وسرحت قواته بعد استسلامهم . وبعد أن اعتقلوا فترة ذاقوا فيها مرارة السجن سرحوا واعيدوا الى المدن والقرى ليشاركوا مواطنيهم

حسرتهم وهم يشاهدون جيوش الاحتلال تجوس في القاهرة وتدق أحذيتها الثقيلة في شوارعها .
ولم يكن ذلك هو نهاية المحنة ، فكما نفي القائد الى جزيرة سيلان ، نفي الجنود الى السودان – فقد كان أولئك هم الجنود الذين قدر لهم أن يقاتلوا في معركة شيكان .

•

الشتـــات

(...أنا كالمسيح بين اليهود...)

الجنرال هكس في الدويم

بعد انحسار مد الثورة العرابية في مصر وجدت قضية السودان نفسها في وضع فريد . فخلال شهور التوتر التي سبقت الصدام البريطاني بالعرابيين ، كان لحصار الابيض دوى مكتوم ضاع وسط زحمة الاحداث التي عصفت بالقاهرة نفسها . ولما استقرت الامور مرة أخرى للخديوى ، ومن خلفه قوات الاحتلال بوضعها المزرى السابق وتلاشي دوى المدافع وصيحات أسرى جيشه ، عادت قضية الثورة المهدية لتفرض نفسها مرة أخرى كقضية عاجلة بعد سقوط الابيض في ١٩ يناير ١٨٨٣[١] .

ولكن الخديوى أصبح عاهلا بلا جيش فجيشه قد تمرد عليه . جنوده اسرى في المعسكرات ، وضباطه في السجون والمنفي . وهو ككل حكام مصر في تلك الايام ، لايستقيم حكمهم يوما واحدا دون أن تسنده الجيوش – أداة الردع الرئيسية . وقد نصحه البريطانيون بانشاء جيش جديد يعجنونه هم ويشكلون ملامحه على نمط بريطاني الانضباط . أختير الكولونيل وودهاوس تعاونه نخبة من الضباط وصف الضباط البريطانيين لانشاء الجيش الجديد فشرع في تجنيد ستة كتائب كنواة لجيش محترف من المتطوعين . وبينما كانت أجراءات التجنيد والتدريب تمضي على قدم وساق سقطت الابيض ، وأصبح من المؤكد أن المهدى سيزحف نحو الخرطوم نفسها . وما العمل اذن؟ وكيف السبيل الى انقاذ امبراطورية السودان؟ اه – هناك جيش عرابي— ليبعث بالجيش المصرى المتمرد الى السودان ، فيحقق هدفا مزدوجا – يريح باله منهم لعدة شهور وينقذ امبراطوريته المهددة .

أطلق الخديوى يد وكلاء التجنيد ذوى الشهرة الشريرة لاعادة تجميع الجنود ، أو بالأحرى اعتقالهم وجرهم الى معسكرات التجنيد جرا . وحكى الكثير عن المقاومة الشرسة التي أبدوها حتي أن بعضهم قيد بالسلاسل منذ لحظة تجنيدهم حتي وصولهم الخرطوم[٢] ، فقد انتشرت الشائعات منذ زمن عن طبيعة معارك السودان التي تنتهى دائما بابادة الحاميات والحملات ، وان الحكومة نفسها تنوى الخلاص منهم بارسالهم في مهمة انتحارية لمجاهل السودان .

نقل الجنود من معسكرهم بالسويس بالبواخر حتي سواكن ومن هناك بالطريق البرى الى بربر فالخرطوم ، وقذف بهم عبد القادر حلمى باشا لجور وصولهم في حملاته الناجحة في الجزيرة وسنار[٣] . وقد أعادت انتصارات عبد القادر الثقة الى نفوسهم قليلا . وتلك الاشتباكات توحى بأن

١-شبيكة تاريخ شعوب وادى النيل ص ٦٦٠ .

٢-نفس المصدر ص ٦٦٠ .

٣-شقير ص ٧١٥ .

معدن الجنود انفسهم لم يكن بالسؤالذى أشتهر به جنود حملة هكس فيما بعد وتوضح أن هناك كثيرا من التجني من جانب ستيوارت الذى أرسلته القاهرة لكتابة تقرير عن الأحوال في السودان ، وأصبح تقريره هذا مصدرا أساسيا عن عمليات عبد القادر حلمى ، فقد كتب ستيوارت يصف حالة الجيش :—

(وضباطهم يجهلون أبسط الفنون العسكرية وليس في قدرتهم تنفيذ اهون التحركات او المناورات العسكرية وثلث الجنود يجهلون استخدام البنادق والكثير منهم يعتقدون أن للمهدى قوة سحرية ..) ولكن يجب علينا أن نقيم تقرير ستيوارت بكثير من الحذر فكما ذكر الدكتور شبيكة[٤] ،كان الهدف الاساسي من ذلك التقرير هو التمهيد لارسال وتعيين قادة بريطانيين في صفوف الجيش المصرى بالسودان .

أما القاهرة نفسها فقد اتسمت التيارات التي تحكمت في توجيه سياستها نحو السودان بالتناقض والتضارب ، وبرز للوجود شرخ عميق بين الادارة العليا ، ادارة البريطانيين. والأرادة التنفيذية اى الوزارة المصرية وأدى الى أخطاء كبيرة في معالجة المسألة السودانية.

فبريطانيا كانت تظن أن احتلالها لمصر احتلال مؤقت يمكن الخلاص من تبعاته في أول فرصة سانحة وكانت القضية السودانية ، التي هى فرع من الاصل وهو القضية المصرية ، تقابل ضمنيا بتجاهل سلطات الاحتلال البريطانية وتحاشيها من أن تزج بنفسها في ذلك القطر المترامى الاطراف . فكانت تشجع اخلاء السودان من ذلك المنطلق . ومن ناحية أخرى ، كانت الوزارة المصرية لاتجرؤ على التسليم بالامر الواقع بأن يتم تفكيك الامبراطورية السودانية على يديها .

ولكن لم يكن هناك خطا محددا يفصل بين تصرفات الجانبين ، بل كان يتداخلان ويتبدلان حسب الظروف الطارئة.فمكتب المندوب السامى البريطاني لم يمانع في تعيين ضباط بريطانيين متقاعدين[٥] ، ثم في تمرير مراسلاتهم والتعليق عليها باستحياء شديد في البداية مؤكدا أن هذا من شئون الوزارة المصرية وحدها . وتدريجيا انزلقت سلطات الاحتلال البريطانية ، ثم تورطت الى أن وصلت الامور الى دركها السحيق بتورطها بوصول غردون للخرطوم .

وقد أتي تقرير ستيوارت الشهير أكله بسرعة[٦] ، فقد استدعى عبد القادر حلمى باشا الى مصر وعين علاءالدين باشا مكانه[٧] وبذلك فقدت القاهرة رجلها الذهبي الذى انفرد بين جميع حكام

٤–شبيكة ص ٦٦٠ .

٥–نفس المصدر ص ٢٩

٦–شقير ص ٧١٥ .

٧–شبيكة ص ٦٦٠ .

السودان الذين عاصروا الثورة المهدية بمبادراته وحملاته العسكرية الفعالة . ثم شرعت القاهرة مباشرة في تعيين الضباط الاوربيين للحملة التي نوى توجيهها لاستعادة الابيض من المهدى . فقد قدم فالانتين بيكر ، مستشار الخديوى العسكرى صديقه الكونيل هكس الضابط المتقاعد من الجيش الهندى الى الحاكمين في مصر ورشحه ليتولى قيادة الحملة أو ترؤس هيئة أركانها . وعين هذا ، وتبعه عدة ضباط أوروبيين انضموا لصفوف الحملة ، وكان أبرزهم الميجور فركهار والكابتن هيرلث البريطانيان والبارون اسكندروف البروسي.غادر هكس ومرافقوه القاهرة في ٧ فبراير وبعد رحلة سريعة حط رحاله في الخرطوم في ضحى يوم ٧ مارس .

كان قرار استدعاء عبد القادر حلمي قرارا جانبه التوفيق فقد كان خلفه رجل آخر[٨] .وعلى الرغم من ان قرار التعيين نص على أن يتولى علاء الدين منصب الحكمدار بصلاحياته السياسية والادارية فقط وان تترك الشئون العسكرية للواء سليمان نيازى باشا بصفته قائدا عاما، الا أنه لم يكن هناك محيص من تدخل الاول في الشئون العسكرية بحكم ثقل منصبه السياسي . وقد وصف الجنرال هكس ازدواجية القيادة والفراغ الذى خلفه عبد القادر عند مغادرته للسودان قبل وصول خلفه . فكتب للسير ادوارد ماليت في مكتب المندوب السامى البريطاني في ١٣ مارس :—

(الفوضي والمؤامرات الصغيرة تملأ الجو هنا . وانا لا التي تعاونا من زملائي وهم لايكلفون أنفسهم بتقديم أبسط المعلومات التي تمكنني من أداء واجبي ولقد ترك استدعاء عبد القادر فراغا كبيرا ، فالحاكم الجديد علاء الدين لازال بعيدا عن الصورة . والحاكم الغائب عبد القادر لازال هو الحاكم الحقيقي ..)[٩] .

منذ البداية اتسمت علاقة الثلاثي ، علاء الدين وهكس ونيازى ، بالتوتر وعدم الارتياح . فمن ناحية ، كان هكس يظن أن السلطة التنفيذية في التدريب والعمليات يجب أن تتركز في يديه ، وحاول جهده أن يدخل النظم البريطانية والهندية على الجنود الذين صعب عليهم بالطبع هضم النظم الجديدة في تلك الفترة القصيرة ، ومن ناحية أخرى ، كان لسليمان نيازى كل الحق ، بصفته قائدا عاما ، لفرض رأيه والاصرار على تنفيذه ، فكان احتكاك الرجلين محتوما .

على أن الجو الثقيل صفا قليلا في شهر ابريل حين انشغلت الحملة بعملياتها الناجحة في النيل الأبيض والتي وجهت نحو تجمعات ود المكاشفي وعبد الله ود برجوب وأتباعهما من قبائل جهينة واللحويين والشانخاب والكواهلة . وتبدأ قصة تلك العمليات بالاقتراح المنطقي الذى أبداه سليمان باشا ورمى الى تنظيف جيوب المقاومة من انصار النيل الابيض قبل التوجه نحو كردفان[١٠] كانت

٨–ابراهيم فوزى ص ١٣٢

9. Russel : the Min of the Sudan P. 35. —٩

١٠–اوراق محمد عبد الرحيم – موقعة المرابيع ص ٧٢

تجمعات الانصار ، التي اتخذت مضاربها حول الجزيرة أبا ، تتركز في الجبلين والقرى المحيطة بها ، فاصبحت حامية الكوة اكبر حاميات النيل الابيض ، في متناول يدها وقد نشأ ذلك الوضع منذ أن وجه المهدى بتجميع كل انصار الجزيرة تحت أمرة ود المكاشفي في الجبلين حتي لا يترك النيل الابيض ، الخط الامامى بالنسبة لكردفان ، منطقة مفتوحة للعدو يعيش فيها كما يشاء .

تأهب سليمان نيازى للتقدم نحو الكوة التي اختارها مركزاً لعملياته في النيل الابيض ، فغادر الخرطوم بالبوارج على رأس قوة تكونت من الآلاى الثاني بقيادة الاميرلاى حسين مظهر ، والآلاى الثالث بقيادة الاميرلاى ابراهيم حيدر . قدرت تلك القوة بحوالى ٥٠٠٠جندى[١١] . لذا انتشر خبر وصولها بسرعة البرق حين ألقت البواخر مراسيها في الكوة .

لم يكن ود المكاشفي بحميته وشجاعته المشهورة بالرجل الذى يقبع منتظرا عدوه في الجبلين . فما ان تواترت أنباء وصول الاخير للكوة حتي جمع رجاله وتوجه بهم نحو الكوة ، فاقتربت القوتان تدريجيا من الصدام الحاسم الذى أفرخ معركة المرابيع ، احدى ملاحم المهدية العظيمة[١٢] .

فعندما بعث سليمان نيازى بعيونه لتتجسس أخبار المكاشفي[١٣] .
وأفادته بأن الأخير يعسكر في الجبلين ، عزم سليمان على التقدم نحوه . فغادر الكوة في صباح الاحد ٢٢ ابريل وتقدم ببطء وحزر الى أن بلغ قرية المرابيع ثم غادرها في فجر الاثنين ٢٩ ابريل في طريقه الى حجر عسلاية .

وصل ود المكاشفي بدوره الى مشارف المرابيع في الليلة السابقة وعلم بتحركات سليمان ، فعزم على الالتحام به . ووقع اختياره على غابة تحف بطريق سليمان الى حجر عسلاية ، وكمن منتظرا . ولكن تقدم سليمان الحذر جنبه كارثة محققة . فقد تريث الى أن عاد اليه جواسيسه قبيل الفجر وأبلغوه أن المكاشفي ينتظره بكل جموعه في غابة تقع جنوب المرابيع بأميال قليلة .

ولما اشرق فجر يوم الاثنين ، أخلت آلايات سليمان المرابيع وتخيرت بقعة مكشوفة تبعد مسافة قليلة من الغابة التي كمنت بداخلها رايات المكاشفي .

عاد سليمان نيازى تنظيم قوته ووضعها في شكل مربع معززا الموقع بقدر استطاعته فنثر الموانع الحديدية ذات الرؤس البارزة الحادة(الضريسة) أمام صفوف الجنود[١٤] ، ودفع بمدافع الكروب الى الصفوف الامامية ، ووقفت الالايات على أهبة الاستعداد ، فتجنب الدخول الى الغابة والتعرض لكمين الانصار .

١١-شقير ص ٧١٦ .
١٢-محمد عبد الرحيم ص ٧٣ .
١٣-جريدة الوقائع - عدد ٩ مايو ٨٣ .
١٤-شقير ص ٧١٦ .

عيل صبر ود المكاشفي في انتظار قدوم الالايات نحوه ولم يلبث أن ضاق ذرعا ، فارتكب خطأه القاتل[15] . فقد ترك مكمنه المأمون بين أشجار الغابة وقصد عدوه مهاجما . وما أن وقع بصرهم على صفوف المربع حتي كبروا في صوت واحد وتدافعوا نحوه وقد أطلقوا للجياد الاعنة وأشرعوا الرماح[16] .

كان الهجوم ضاريا تميز بالشجاعة واللامبالاة ، فقد تصدر ود المكاشفي الصفوف الامامية يحيط به كبار امرائه ، عبد الله ود برجوب . وودكريف . وفضل المولى ود سليمان والشيخ العركى ، وتلاحق في موجات سريعة وجهت نحو الصفوف الامامية . لم تبال صفوف المهاجمين بانفجارات المدفعية التي أزاحت صفوفا بأكملها من وجه الارض وعندما اصبحوا على مسافة ..٦ ياردة انهالت عليهم نيران البنادق الكثيفة فتساقط الرجال من كل جانب .

ولكن ذلك لم يثنهم عن التقدم نحو جدار الرصاص الساخن كما أكد شقير في وصفه للمعركة :

(ولم يتم تنظيم المربع على هذه الصورة حتي أقبل الدراويش وفرسانهم في ساقتهم مهاجمين بهيئة قوس فلما صاروا على مرمى الرصاص صدرت الاوامر للعساكر فأمطروهم سحابة من الرصاص برحت بهم تبريحا وخاف فرسانهم وكبراؤهم ان يثنيهم ثقل الرصاص عن متابعة الهجوم فصاحوا بهم وحملوا في مقدمتهم بقلوب لاتهاب الموت فكنت ترى الفارس مجردا سيفه ومطلقا عنان جواده قاصدا اختراق المربع فيصيبه الرصاص فيقع فيضمد جرحه بيده ويعيد الكرة راجلا حتي يصرعه الرصاص الى أن ملئت الارض من قتلاهم وقد قتل من كبارهم ١٢ رجلا فيهم أحمد المكاشفي وجرح عامر المكاشفي جرحا بالغا وجرح ود برجوب جرحا أقعده حتي صار يحمل على سرير.

ولما انجلى غبار المعركة ، برز للأعين مشهد مخيف . فقد تراصت جثث للانصار وخيولهم في نفس تشكيل الهجوم الهلالى الذى تقدموا به . وأبيد ثلاثة أرباع رجال ود المكاشفي ، وسقط قائدهم الشجاع صريعا وقتل سبعة من كبار امرائه وجرح عبد الله ود برجوب .

أما خسائر سليمان باشا فقد كانت ضئيلة للغاية ، لم تتجاوز رجلين وعشرين من الجرحى . وقد سارع سليمان لتأمين المنطقة فواصل تقدمه مباشرة الى الجبلين فاحتلها وعاث فسادا في القرى[17] ، اذ أحرق أكواخ الاهالى ومحاصيلهم ، ثم كر عائدا للخرطوم بعد أن ترك حامية صغيرة في الكوة الخرطوم ليمضي أشهر الصيف هناك استعدادا للتقدم نحو كردفان في نهاية الخريف .

وفي التلغرافات التي بعث بها سليمان باشا للقاهرة ، معلنا انتصاره ، ونشرت في جريدة الوقائع الرسمية في عدد ٩ مايو أكد سليمان باشا انه قد استأصل شأفة الانصار نهائيا من منطقة النيل الابيض

١٥–برقية سليمان نيازى الثانية لنظارة الحربية – نشرت بجريدة الوقائع في عدد ٢١ مايو ١٨٨٣م .

١٦–شقير ص ٧١٦ .

١٧–اوراق محمد عبد الرحيم ص ٧٥ .

وان مشائخ القبائل قد وفدوا زرافات ووحدانا لتأكيد ولائهم للحكومة . و أن هذا دليل على أن القبائل ستنفض من حول المهدى في المستقبل القريب .

* * *

كانت بلاغات سليمان باشا تجانب الحقيقة لحد بعيد . فعندما نحاول تقويم معركة المرابيع ، ونحن نعلم الوجه الذى اتخذته الاحداث التي اعترضت مصير حملة هكس فيما بعد ، تبدو لنا تلك المعركة وكأنها كانت حلقة من مسلسل خداع ، أغلب الظن أنه كان غير مقصود من جانب المهدى . فلا تزال دوافع المهدى من ترك جموع ود المكاشفي في النيل الابيض دون استدعائها للابيض غامضة ، يصعب التكهن بمراميها الحقيقية .

وفي الكوارث الكبرى التي تعرضت لها الجيوش في تاريخ الحملات الخاسرة الشهيرة ، نجدها غالبا تتذوق حلاوة انتصار قصير سريع نتيجة لظروف خداعة تسبق المعركة الرئيسية ، يجعلها تستهين بأعدائها وتقدر قوتهم بأقل من حقيقتها . ولعل أصدق مثال في التاريخ الحديث هو الحملة الروسية على فنلندا . فقد كان أداء الجيش السوفيتي ضعيفا للدرجة التي أقنعت المراقبين . ومن بينهم هتلر والجنرالات الالمان ، من أن جيشا بهذا المستوى يعجز عن سحق الجيش الفنلندى الصغير في أيام معدودة ، هو جيش لا يستطيع الوقوف أمام آلة الحرب الالمانية الرهيبة الا لاسابيع معدودة . فكان ان أقدم هتلر على مغامرته الروسية التي كانت من أعظم الكوارث العسكرية في التاريخ . كان نصر المرابيع شبيها بنصر مزيف خدع هكس والحكومة المصرية فراودتهم أنفسهم ، فأقدموا على مغامرة كردفان .

وهناك ثلاث ظواهر تعزز هذا الظن . أولها أن هكس صدق او أقنع نفسه بعد انتصار المرابيع بأكذوبة كبرى كانت تتردد في القاهرة ، وليس لها أساس من الصحة ، وهى أن جيش المهدى لايستخدم الاسلحة النارية . وقد أيدت معركة المرابيع تلك الاشاعة .

ولم تكن التقارير الرسمية تتحدث عن جيش المهدى باعتباره جيشا نظاميا يتقن فنون الحرب الحديثة الموجهة من قيادة عسكرية موحدة بل كانت تتحدث عن مجموعة من شراذم القبائل تفيض حماسا وتعصبا . وقد عززت هجمات ود المكاشفي الشجاعة التي لاتخلو من خرق هذا الانطباع . ولعلنا لن نمض في هذه الصفحات الا قليلا ، حتي نعلم كم كان الجنرال مخطئا .

وقد تقدمت قلة من رجال القبائل ، خشية منهم على أموالهم وأعراضهم[١٨] ، لسليمان باشا مؤيدين للحكومة حتي يأمنوا شر كتائبه التي أحرقت القرى والمحاصيل ، فتولد انطباع خاطئ آخر بأن القبائل التي التفت حول المهدى ستذوب وتتلاشي من حوله تدريجيا بمجرد ان تتقدم الحملة

١٨-برقية سليمان نيازى - جريدة الوقائع عدد ٢١ مايو .

لكردفان ، في الوقت الذى تحدثنا فيه الكردفاني بتزايد هجرة القبائل الجماعية وتدفقها نحو الأبيض في تلك الأسابيع اعلن المهدى فيها التعبئة العامة ، حين ترامت اليه الشائعات بتوجيه الحملة الجديدة نحو الابيض

عادت الكتائب المنتصرة الى الخرطوم لتبدأ كل الحملة فترة الاستعداد للتقدم نحو كردفان في نهاية الخريف ، حين تؤمن وفرة المياه وبعد ان تنقضي أشهر الصيف بحرارتها القائظة.

وقد شهدت أشهر الصيف من مايو الى سبتمبر نشاطا متزايداً من قادة الجيش في محاولة لاكمال الاستعدادات للحملة الكبيرة القادمة . فشيدت القلعة الشهيرة في الضفة الغربية للنيل بامدرمان . ونصبت حولها خيام الجنود تمهيداً لمرحلة أخرى من التدريب الشاق.

وعندما استقرت الأمور قليلا وتسي الثلاثي امر العدو المشترك تفرغوا للتناحر فما بينهم واصبحت الخلافات والمشادة بين القادة الثلاثة ، وبالأخص بين هكس وقائده سليمان باشا ، سمة يومية . ففي ساحة التدريب كان هكس يوجه أمر النقد للضباط والجنود وهتف ذات مرة في وجه الضباط عقب احدى مناورات المدفعية .

(لم أشهد مثل هذه الفوضي طوال خدمتي العسكرية الطويلة.)

اما في مجال التجهيزات الادارية ، وبالأخص اقتناء الجمال ، فقد ارتفعت أصابع الأتهام مشيرة الى علاء الدين الذى تكفل بأمر شرائها مشيرة الى اختلاسه جزءاً كبيراً من اعتمادات الشراء ، احتفظ به لنفسه . واستدلت بأن شراء الجمال يقع ضمن مسئولية أحد صغار الضباط ، ولا يستوجب ان يتولى امره حاكم السودان بأسره كما فعل علاء الدين حين غادر الخرطوم الى شرق السودان لشراء الجمال (١٩) .

وقد بدأت شكاوى هكس المتصلة ببرقيته المطولة التي ارسلها يصف فيها الاحوال بعد رحيل عبد القادر ، ومهد بها للمطالب التي سيتقدم بها في نهاية الأمر . ثم افصح في برقية أخرى بعث بها بعد نصر المرابيع في ٣ مايو عن هدفه بلا مواربة فهو يقترح بأن يعين قائداً عاماً لكل قوات السودان وان يمنح سلطات عسكرية غير محدودة . فبعد ان وصف مجرى عملية المرابيع واسبغ على نفسه فضل الانتصار متجاهلا سليمان باشا ، القائد الاعلى للحملة – طالب ماليت بأن ينقض الجنرال بيكر رغبته في يتوسط لسمو الخديوى حتي يعين قائدا عاماً وان تجمع كل السلطات العسكرية بين يديه.

وقد جسم خطاب سير ماليت ، الذى قدم به برقية الجنرال الى شريف باشا رئيس الوزراء في ٢٢ مايو ، مدى تناقص السياسة البريطانية في ذلك الحين . فهو يزكى الجنرال ولكنه يتنصل من القضية برمتها فقد كتب (٢١) .

١٩-ابراهيم باشا فوزى ص ١٣٩

2٠. Russel P. 33.

21. Russel P. 30.

(أرفق لسعادتكم ، سرا ، تلغرافا بعث به الجنرال هكس .. ولعلى لن أجد نفسي مضطرا مرة أخرى للتأكيد لكم بأن حكومة جلالة الملكة ليست لها أى مسئولية قريبة أو بعيدة بالعمليات التي تجرى في السودان أو باجراءات تعيين الجنرال هكس . وأرجو أن لايوحى تقديمى الخطاب لكم بأنه يحمل أى تزكية أو توصية رسمية تتصل بموضوع الجنرال) .
وفي الشهرين المنصرمين قبل أن يحسم موضوع القيادة ، أمطر هكس مكتب المندوب السامى بالبرقيات المتصلة التي دارت أغلبها حول طلب التعزيزات والمؤن لسد نقص الحملة واحتياجاتها للتجهيز للتحرك لكردفان .

ولكن البرقية التي أرسلت في ٣ يونيو كانت أهمها . فهى تنبئ عن تحول جذرى في الاستراتيجية التي اقترح هكس اتباعها نحو المهدى. فهو الآن يحبذ اتخاذ استراتيجية دفاعية عوضا عن الاسراتيجية الهجومية التي سيتمخض عنها التقدم نحو الابيض . فقد اقترح أن تقوى حاميات النيل الابيض والخرطوم لتفصل بين المهدى في كردفان وبقية السودان، ويترك للزمن ان يفعل في فعله حشود المهدى فتنفض تلك القبائل من حوله تدريجياً [٢٢] .
وقد دعم الجنرال رأية بالارقام موضحا استحالة التقدم نحو كردفان الا اذا عززته الحكومة ب ...٥ جندى .
(بين يدى المهدى حشود كبيرة من الرجال ،ولابد ان كثيرا من رجال القبائل سينضمون له في الابيض بعد موسم الزراعة . وان القوة المتوفرة بين يدينا الان لاتكفي لاستعادة كردفان . فكل اوقية من المؤن يجب ان تؤخذ من هنا ونحن نمر عبر أراضي معادية تحتلها قبائل قوية . ويجب أن ينشأ خط امداد مضمون لتمرير المؤن ، وان تقام النقاط الادارية على طول ذلك الخط كما يجب توفير الحراسة اللازمة لكل قافلة مؤن .

«ولتنظر الآن لحجم القوة التي ستتقدم نحو كردفان فهى أقل من ...٦ جندى ، والغالب الأعم ان جزءا كبيرا منهم سيتخلف نتيجة للحميات والامراض التي تعقب فصل الخريف . وأنا لا أستطيع سحب جندى واحد من حاميات الجزيرة. اذن الجيش الذى سيتقدم نحو كردفان لن يزيد عن ...٥ مقاتل منهم ألفان سيوظفون لانشاء نقاط خط الامداد والمحافظة عليه ومن ثم نجد أن قوة للشاة الضاربة الحقيقيه التي سأقاتل بها لن تزيد عن ...٣ جندى .هذا العدد كما تعلم لايكفي لسحق المهدى ، والقضية كلها تتركز في حجم تعزيزات الجنود التي تستطيع القاهرة امدادى بها في اغسطس قبل التحرك الى كردفان . هذا بالاضافة الى احتياجاتنا المالية التي لاتقل عن ....١٢ جنيه . ويمكننا

٢٢-كان أول من اتبع هذه الاستراتيجية هو عبد القادر حلمى - بعد ان ساءت حالة جنوده وتخلى عن فكرة التقدم لكردفان . الا ان حكومة القاهرة اصرت على استعادة كردفان . شقير ص ٧١٦ .

أن نقبل المخاطرة ونتقدم لكردفان ، ولكن يجب أن نضع في الاعتبار أن النتائج المترتبة على هزيمة الحملة ستكون خطيرة جدا . فهي لن تعني ضياع كردفان ودارفور فقط بل ضياع سنار بل وحتي الخرطوم نفسها[٢٣] ..

وقد حول سير ادوارد ماليت الخطاب الى وزير الخارجية البريطانية تلغرافيا في ٦ يونيو مؤيدا آراء الجنرال :

«وان الجنرال هكس يطلب تعزيز قوته ب ...٦٠ جندى آخرين ولعلك تعلم الضائقة المالية التي تعانيها الحكومة المصرية ، ومن هنا أخشي أن تتعرض العمليات القادمة للفشل الذريع اذا لم تخصص لها القوات الكافية .

وعلى ضوء هذه الظروف فسيطل علينا سؤال ملح يجب أن نجد له جوابا حاسما ، وهو ألا يستحسن أن يقصر الجنرال هكس نشاطه في الاحتفاظ بمنطقة مابين النيلين والدفاع عنها وأن يكف يده عن كردفان في الوقت الحاضر؟ ..

أما في الخرطوم ، فيبدو أن الازمة الناشبة بين القائدين تفاقمت وتزايد احتكاكها لدرجة أصبحت غير محتملة . فقد أرسل هكس في الثامن من يونيو الى الجنرال وودهاوس قائد الجيش المصرى الجديد شاكيا الظروف التي تحيط بالحملة :

(لقد طلبت من الحكومة أن تعزز الحملة بارسال ...٦٠ جندي من القاهرة . وأنت تعلم أنهم سيجرون من قراهم وحقولهم جرا، ويبعثون الى برجال مقيدين بالسلاسل لايؤمنون بالقضية التي سيحاربون من اجلها ... الا يمكنك ان تبعث الى بأربعة من كتائب جيشك الجديد؟ فهم خيرلى من الالوف التي سيبعثون بها . يمكن اعادتهم خلال ستة أشهر.. هرب واحد وخمسون جندى من بطاريات مدفعية الكروب من المعسكر أمس .. المعلومات التي تصلنا عن المهدى متضاربة ومتناقضة .

وبلغ السيل الزبي في يوم ٢٣يوليو ، فقد بعث هكس باستقالته في مساء اليوم نفسه الى القاهرة . وفي برقيته المطولة التي بعثها الى السير ماليت أوضح الظروف التي أحاطت بتقديم الاستقالة :—

(لقد بعثت الى وزارة الحربية المصرية باستقالتي اليوم . لقد أقدمت على ذلك وأنا أحس بالندم ولكن لم يكن امامي خيار آخر فانا لا أستطيع المضي في العمل تحت هذه الظروف فقد جابهني سليمان أمس بأنه لا يرى أن تلغرافات رئيس الوزراء المصرى ملزم له باتباع آرائي في توجيه العمليات المقبلة في كردفان. ولقد اهملت مقترحاتي فعلا مرتين خلال الاسبوع المنصرم)

وبعد أن بعث هكس باستقالته ، ابتعد عن العمل . فخيم على الخرطوم جو متوتر في انتظار قبول استقالته ووضع نهاية للصراع بين الجنرال والباشا.ولم يطل انتظارهم فقد حسمت القاهرة النزاع فجأة

بابعاد سليمان باشا نيازى من الخرطوم وتعيينه حاكما على شرق السودان[٢٥] ، وتعيين الجنرال هكس قائداً عاما على جيش السودان بسلطات مطلقة. كما قررت الوزارة المصرية دفع مبلغ ...ر.١٢ جنيه الى جيش السودان لتجهيز الحملة وصرف متاخرات رواتب الجنود.

وتبرز حقيقة واضحة لأعين المتفحص لتلك البرقيات المتداولة بين الجنرال هكس وسير ماليت ووزارة الخارجية البريطانية ، فنحن نلاحظ أن رنة النقد المرير واليأس التي كانت تسود تلغرافات الجنرال تحولت بين فينة وأخرى بعد بلوغه خبر تعيينه قائدا عاما الى لهجة تطفح بالثقة في جيشه وضباطه ، بل نجده يتحرق شوقاً الى بدء العمليات والتقدم نحو كردفان . وكأنما كان تعيينه بذلك المنصب هو الهدف الحقيقي الذى كمن وراء نقده المتصل لسليمان وضباطه وجنوده ، بل نجده فجأة يتخلى عن اقتراحه الوجيه باتخاذ استراتيجية دفاعية والاكتفاء بتعزيز حاميات النيل الابيض لتقف عازلا بين المهدى وبقية أرجاءالسودان . فقد تناسي تماما تلك الخطة الحكيمة . فنحن نجده يتحدث في تلغرافه الذى بعث به للقاهرة في ٣١ يوليو :

(ان النيل عال جدا وسيترتب على ذلك تأخير وصول المؤن والاسلحة من بربر ، وبالتالى سيتأخر تقدم الجيش الى كردفان[٢٦]

لقد أفلحت أخيرا مؤامرات هكس وماليت الصغيرة ، فدفعت بالجنرال الى مركز الصدارة في قيادة الحملة . ولابد للمرء أن يتساءل ألم يكن من الخير للحملة لو ظلت القيادة في يد سليمان نيازى . فعلى الرغم من عقدة تفوق الاوربيين التي يعاني منها الشرقيون ، وبالاخص حكام مصر ، ظانين أن كل أوربي خبير في مجاله ، الا أن الحقيقة كانت تبدو مختلفة تماما . فلقد أثبت سليمان نيازى أثناء قيادته لحملة النيل الابيض قدرا ليس بالقليل من بعد النظر والمرونة كان الجنرال يفتقد الكثير منها ، كما سنرى في الاحداث التالية .

* * *

حسم أمر القيادة وقرت عين الجنرال ، فوجه اهتمامه في الشهر التالى الى مراحل التدريب النهائية

والى اعادة تنظيم جيشه المتضخم بانضمام عدد من أعيان البلاد بأتباعهم ، ومسارعة عدد من المغامرين ومراسلى الصحف الذين استهوتهم المغامرة الافريقية الجديدة . ثم خطت الحملة خطوتها

--- نفس المصدر ص ٣٦

-- شقير ص ٧١٧ .

الاولى نحو الابيض عندما بارح علاء الدين الخرطوم الى الدويم على رأس وحدة ادارية لتجهيز منطقة الحشد الجديدة لاستقبال الجيش الرئيسي .

وعندما شرعت حملة هيكس في التحرك جنوبا نحو النيل الابيض على دفعات متتالية ، كان تنظيم الحملة الشهيرة يسير على النحو التالى :

رئاسة الحملة

القائد العام : الجنرال هكس[٢٧] .

نائب القائد العام : علاء الدين باشا

رئيس الاركان : الكولونيل فركهار

هيئة الاركان : الكابتن هرلث

سكرتير حكمدار السودان : عباس بك

مترجم سكرتير القائد العام : ميخائيل ناصف

فرقة المشاة :—

(٤ آلايات ٢٠٠٠ جندى)

قائد الفرقة : اللواء حسين مظهر .

الآلاى الأول : الاميرلاى سليمان عوني – ٣ كتائب

الآلاى الثاني : الاميرلاى السيد عبد الخالق – كتيبتين

الآلاى الثالث : الاميرلاى حسين فهمى –كتيبتين

الآلاى الرابع : الاميرلاى رجب صديق (٢٩) كتيبتين

الفرسان :—

القائد : القائمقام عباس وهبي

٥ بلوكات سوارى نظامية(..٥فارس)

٥ بلوكات سوارى من الباشبزق(..٥ فارس)

٢٧–كان الضباط الاوربيون يرفعون درجتين اعلى عند التحاقهم بالجيش المصرى .

٢٨–كان الالاى يتكون من ثلاثة كتائب في تنظيم الجيش المصرى ، ولكن خفض عدد الكتائب في بعض الالايات الى كتيبتين حتي يمكن تشكيل اربعة الاياتلتناسب تشكيل المربع الذى بوى هكس التقدم به – اي لكل ضلع الاى .

٢٩–ذكر فوزى انهم اكرهوا في مرافقة الحملة

ابراهيم فوزى ص ١٤٨ .

المدفعية :—

القائد : القائمقام عباس وهبي
١ بطارية مدافع كروب(٤ مدافع)
١ بطارية مدافع جبلية(١٠ مدافع)
١بطارية مدافع نوردفللت(٦ مدافع)
١ بطارية رشاشات مترالیوز (٦ مدافع)

الاتباع الاداريون ...٢ رجل :

كان أغلبهم من الحمالين وسائسي الخيل والطهاة الخ .. ولكن كان نصفهم تقريبا من المقاتلين حاملي السلاح، وهم اتباع الاعيان الذين رافقوا الحملة أمثال قناوى بك أبو عمورى وعبد الرحمن بانقا .

الحملة (الدواب)

حمل الجنرال معه مؤونه ستة أشهر ، فكان حشده من الدواب ضخما ، ولعلها كانت المصدر الرئيسي للمتاعب التي سيتجشمها في سبيل الحصول على الماء أثناء عبوره لكردفان ، فالحيوانات تستهلك كميات هائلة من المياه. وسنرى أن ذلك المطلب التمويني كان له شأن عظيم في تحديد مصير الحملة ، عندما حلت لحظة المفاضلة بين طرق الاقتراب للابيض . لقد ضمت حملة الجنرال ما لا يقل عن :

...٦ جمل
...٣بغل
...١حمار
..٥ فرس

مستشفى الميدان :

بقيادة الدكتور جورج الحكيم

المدنيون :—

رافق الحملة عدد كبير من المدنيين يمكن تقسيمهم الى ثلاث فئات :

١- بعض الاعيان الطامحين الى المناصب والاوسمة امثال قناوى بك ابو عمورى صاحب كبانيات بحر الغزال المشهورة وعبد الرحمن ود بانقا . وكان لكل من هؤولاء اتباعه المسلحون وحملته الخاصة ، فيمكننا اعتبارهم عناصر معززة للحملة [٣].

٢- كبار موظفي الحكومة من السودانيين الذين اعتبروا أن (الدولة) قد انتقلت بحالها وانضمت للحملة لاسيما وان حكمدار السودان يرافقها.

ومن هؤلاء : بساطي المحسي باشكاتب الخرطوم - حمد التلب رئيس مجلس الاستئناف ومحمود أحمداني مدير الخرطوم. وقد رحب علاء الدين باصطحابهم للاستفادة من خبراتهم ، ولانشاء المديرية من جديد عندما يجلو المهدى عنها.

٣- مراسلو الصحف : رافق الحملة مراسلو خمسة صحف أوربية منها صحيفة (الديلى نيوز) وصحيفة (التايمس) وصحيفة (الجرافيك) لموافاة القراء بأخبار الحملة. فلا زالت المغامرات الافريقية هى أكثر الاخبار رواجا وشعبية. وتعود القارى الاوربي على الشغف بها منذ كتابات بيرتون وستانلى وصمويل بيكر وسبيك في الستينيات.

التسليح :-

سلح جنود المشاه ببنادق الرمنجتون الثقيلة الوزن ذات السناكى الطويلة، ولم يكن مداها أكثر من مائتي ياردة. أما الاتباع ورجال الاعيان المرافقين فقد تسلحوا بأشتات من الاسلحة ، منها بنادق قديمة أو بنادق صيد الافيال ، وأغلب مدفعية الجنرال كانت من المدافع الجبلية ومدافع الكروب . أما ملخص خواص المدفعية فقد كانت كالآتي:

المدفع الجبلى:

أقصي المدى : ٢٠٠٠ ياردة

الوزن : ٢٠٠ رطل

عيار الدانة : ٤ بوصة

وزن الدانة : ٦ أرطال

الكروب :

أقصى مدى للطلقة : ٣٥٠٠ ياردة

الوزن : ٣ طن

العيار : ١٢٠ مم

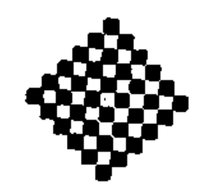
حملت المدافع والذخيرة على عربات تجرها الجمال والبغال.

وقد كان مظهر الجنود مثيرا للرهبة ، فبالاضافة للملابس العسكرية العادية كانوا يرتدون قبعة ضخمة من الريش تعلو قامة الجندى أكثر من قدم. وقد حملت نسبة معينة من الجنود سكاكين كبيرة لقطع أغصان الاشجار المتشابكة التي تعترض طريق الحملة.

واذا ألقينا نظرة سريعة على تنظيم الحملة وتسليحها ، فلعل أول ما يلفت انتباهنا هو أن جيش

الجنزال هكس كان جيشا ثقيلا بطئ الحركة ، فنسبة الافراد الاداريين كانت كبيرة ، وكان المجموع الكلى من البشر والدواب يقارب العشرين ألفا ، مما قلل من سرعة تحرك الحملة لدرجة كبيرة .

وقد يكون عذر الجنزال في اصراره على التحرك بذلك الجيش الضخم هو توقعه أن يواجه خصما قويا حسب الاخبار التي بلغته عن حشود المهدى ، ولذلك غض الطرف عن مزايا السرعة وخفة الحركة . وعلى كل ، كان المحك الاساسي في المفاضلة بين الاختيارين ينحصر في اختيار الطريق المناسب . فهناك من الطرق ، حتي في كردفان ، مايسمح للعدد الكبير بالتحرك بسرعة دون عناء . وقد أثبتت الاحداث التالية أن المفاضلة في اختيار طريق الحملة للابيض كان هو العامل الحاسم الذى سيحدد مصير الحملة في النهاية .



الباب الثالث

المعركة

لم يكن النهر العريض مانعا طبيعيا يفصل بين غرب البلاد وشرقها ، بل كان اقرب منه لطريق رئيسي يربط بين سكان الضفتين من القبائل العربية والنيلية ، وتدفع أمواجه الهادئة مئات المراكب للشمال حاملة حصاد الضفاف الغنيه من الذرة ومن محاصيل كردفان ودارفور .

وقد نمت عدة قرى على ضفاف النهر وتطورت تدريجيا الى أن أصبحت مراكز تجارية كالدويم والكوة .

وعلى الاولى وقع اختيار الجنرال هكس وأركانه في البداية وحدد موقعها مركزا لتجمع الحملة قبل أنطلاقها غربا لأراضي كردفان المعادية ، التي أصبح الجزءان الاوسط والجنوبي منها في قبضة المهدى .

وعلى الرغم من أتساع الدويم وملاءمتها لعملية الحشد ، الا أن علاء الدين كانت تراوده فكرة التحرك جنوبا الى الكوة وتجميع كل الجيوش هناك . ويبدو أن الميزة الاساسية التي جعلت علاء الدين يعيد النظر في أختيار الكوة كانت تنحصر في أنها أقرب مدن النيل الابيض لشات ، الوثبة الاولى في مسيرة كردفان . فهى تقع شرقها مباشرة ، عكس الدويم التي تقع الى الشمال الشرقي . وقد رجح الرأى الرامى الى ارسال حسين باشا مظهر وشكرى بك يرافقهما عباس بك بوابور « الفاشر » الى الكوة لاستطلاع صلاحيتها كموقع تجمع ، على أن يلحق بهم الحكمدار علاء الدين بالبر.

وقد أبحرت وابور « الفاشر » في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين ١١٫٣٠ من ضحى الاربعاء ١١ سبتمبر . وبات حسين مظهر ومرافقوه ليلتهم بالقرب من الكوة ، ثم دخلوها في منتصف النهار . وبينما شغل النوتية بمد السقالات الى الشاطئ ، ترامى للاذان دوى المدافع من البر أيذانا بوصول علاء الدين على صهوة جواده تحيط به ثله من أركانه وحرسه الخاص .

ترجل علاء الدين وطاف على جنود الحامية وضباطها ثم أعتلى المنصة مستعرضا صفوف السرايا ، ثم توجه من هناك نحو منزل على بك قائد المركز واجتمع بالضباط واستمع الى شكواهم التي دارت حول تجاوز بعضهم في الترقي ، وقد وعدهم بترقيتهم أسوة بأقرانهم ، وختم علاء الدين يومه بعد أن أقتنع بميزات الدويم وعدم صلاحية الكوة ، فشد رحاله عائدا الى الدويم باعتبار ان مسألة منطقة التجمع قد سويت نهائيا . الا أن هناك نتائج هامة تمخضت عن زيارة علاء الدين الخاطفة للكوة ، تلك الزيارة التي مضت بسرعة دون أن تحظى باهتمام من أرخوا لحملة هكس .

في الدقائق الثلاثين التي أمضاها على الشاطئ قبل صعوده الى ظهر الباخرة عائدا للدويم ، أستغرق علاء الدين في مناقشة سريعة أدت الى آثار بعيدة المدى ، ويمكننا أن نعتبر أن خلاصة النقاش التي أنطبعت في ذهن علاء الدين ، هى التي ادت الى اتخاذه لذلك القرار المصيرى الذى كان بمثابة

المسمار الاول الذى دق في نعش الحملة .

فقد استجوب خلالها رجلين[1] قدما اليه بصفتهما من أحسن العارفين بطرق ومسالك كردفان . استطاعا أقناعه بأن الطريق الجنوبي الذى يمر بالرهد محاذيا لخور « أبو حبل » في أنحناءة طويلة لجهة الجنوب ، والذى يبلغ طوله ٢٥٠ ميلا تقريبا ، هو الطريق الافضل للأبيض ، وليس الطريق الشمالى المعروف الذى يمر ببارا ويبلغ طوله حوالى ١٧٦ ميلا .

لقد تحدث كل من تعرض لمعركة شيكان تقريبا ، عن أفضلية طريق بارا الشمالى ، وأن أختيار هكس ، أو بالاحرى علاء الدين ، للطريق الجنوبي كان خطا مميتا ، بل كان من الاسباب الرئيسية التي أدت الى اندحاره . والوثيقة الوحيدة المتوفرة بين أيدينا الآن تؤيد ان علاء الدين كان هو الذى أصر على أتخاذ طريق الرهد ، فقد كان للدقائق التي أمضاها على شاطئ الكوة تأثير عظيم على تصوره لخطط المسيرة المقبلة . ومن ناحية أخرى ليس هناك مايؤيد أصرار هكس على الاختيار الثاني — طريق بارا — كما أورد ونجت وسلاطين والمرجح أنه قبل أقتراح علا ء الدين بلا تردد باعتبار أن الاخير أدرى بمزايا الطريقين ومثالبهما لمكوثه مدة أطول في الدويم .

الا أن المقارنة بين الطريقين ، كما وصفتهما المصادر المعاصرة للاحداث ، كانت تدور على محورين هامين : أولهما أمكانية تموين ذلك الحشد الضخم الذى تجاوز عشرين ألفا بين بشر وحيوان . كانت مصادر المياه هي التي تتحكم في تشكيل ملامح الصراع القادم بين الجنرال والمهدى . فلا أثر هناك لطرق أو نقاط أستراتيجية يتسابق عليها الخصمان خلاف البرك والرهود .

أما المحك الثاني فقد أنحصر في أفضلية كلا الطريقين تمكن هكس من أبراز تفوقه النارى لاقصى مدى . أى أرض مفتوحة بقدر الامكان تمكنه من الاستخدام التكتيكى المتفوق لحشده النارى الضخم ، لتحطيم هجمات المهدى بقوتها الكامنة في جسارة مقاتليها وتفوقهم العددى .

والواضح أن علاء الدين قد نحى المزايا التكتيكية جانبا وحصر أهتمامه في ضمان وفرة المياه ، وحتى في تلك ، يبدو أن علاء الدين قد خدع بظواهر الامور التي توحى بغزارة المياه كلما أتجهنا جنوبا ، وأن كثافة الاشجار والنباتات وخضرتها تخفي بين جنباتها البرك والخيران . كان ذلك مبدأ سليما ومأمونا يصح الاعتماد عليه في أوج الخريف ، وليس في شهوره الاخيرة كشهرى سبتمبر وأكتوبر اللذين عزم هكس على التقدم اثناءهما لكردفان .

كان غريبا ان يتخذ رجل كعلاء الدين باشا ، تمتد خلفه سنوات طويلة من الخبرة العسكرية

١—لم تحدد يوميات اسم الرجلين خلافا لعادتها مع بقية الادلاء وخبراء الطرق.
يوميات عباس بك ص ٨١ .

والعمل بالسودان ، قرارا خاطئا يمس أمرا بالغ الاهمية كذلك الامر . فمقارنة سريعة بين الطريقين ، طريق بارا وطريق الرهد تبرز مزايا الطريق الاول على الفور . فان كان المحك الاساسي للمفاضلة هو مياه الشرب ، فالمياه أكثر وفرة في طريق بارا . فهو طريق مطروق معروف ، به ابار دائمة تستخدمها القوافل طوال العام ، عكس طريق الرهد ، الذى تكثر فيه المياه ، ولكنها مياه موسميه مشتتةخارج الطريق يحدد توفرها أساسا بغزارة أمطار الخريف .

ومن الناحية التكتيكية ، تعتبر طبيعة الارض المفتوحة في طريق بارا ، أنسب لتسليح هكس الذى يرتكز على نيران المدافع والبنادق . كما أن تقدم هكس بطريق بارا سيضمن خلاله تأمين جانبه الايمن ، فعن يمينه تقع ديار الكبابيش ، حلفاء الحكومة التقليديين ، عكس أواسط وجنوب كردفان التي أصبحت منطقة مقفولة للمهدى تقريبا . وفوق هذا وذاك كان طريق بارا أقصر – ١٧٦ ميلا – بينما يمتد طريق الرهد في انحناءاته المتعددة الى أكثر من ٢٥٠ ميلا . وطريق بارا قصير نظيف يؤمن أندفاعة سريعة الى الابيض بخلوه النسبي من الاشجار والنباتات الغزيرة .

يجدر بنا أن نتوقف هنا هنيهة لنستعرض بسرعة طبوغرافية المنطقة التي عزم الجنرال على أختراقها في مسيرته الشهيرة :

تقع تلك المنطقة محاذية لخط عرض ١٣ حيث تغيب رمال الصحراء تحت الشجيرات والحشائش التي تتزايد كثافتها كلما أتجهنا جنوبا .
ولايعترض سبيل ذلك البحر الممتد من خضرة الاشجار والحشائش الا سلسلة جبال النوبة التي تمتد من الشرق الى الغرب وبالترتيب التالى ، جبل تقلى فجبل الداير وجبال النوبة .

تنحدر السيول من أعالى تلك الجبال وتتجمع في عشرات المجارى والخيران وتصب كلها في مجرى واحد عملاق عرف بخور « أبو حبل » تهدر جنباته بما تحمله من مياه السيول نحو ثلاثة أشهر في العام ولمدى يتجاوز مائتي ميل قبل أن تبتلعه الرمال ويتلاشي أثره في شرق كردفان .

وخلال مسيرته الطويلة التي قد تمتد أحيانا الى ان يلتقي بالنيل يخلف خور « أبو حبل » ثلاث برك ضحلة صغيرة هى شركيلا والبركة ثم الرهد .

وللاخيرة أهمية خاصة ، فهى ملتقي خور «كازقيل» بخور « أبو حبل » ومياهها مستديمة طول السنة ، بينما تجف مياه شركيلا والبركة في أشهر الجفاف .

كان المسلك الذى أقترحه علاء الدين باشا يحاذى خور « أبو حبل » تقريبا في الجزء الاعظم منه ، فحسب علاء الدين أنه أتخذ طريقا غنيا بمصادر المياه والعشب لاطعام الدواب .

كانت أغلب معلومات علاء الدين صحيحة ، ماعدا بعض التحفظات التي قد تقلب الصورة

رأسا على عقب . أولها أن خور « أبو حبل » يجرى بالمياه لمدة ثلاثة أشهر في العام – تبدأ في يونيو وتنتهى في سبتمبر – أى قبل تحرك الحملة غربا . وثانيهما أنه على الرغم من مرور الطريق ببحيرتين تكثر المياه بهما ، الا أن عبور المنطقة التي تفصل بينهما يستلزم دراسة وفيرة بمسالك الطرق التي تؤدى الى الآبار والبرك الصغيرة المتخلفة من مياه الامطار . وقد ظن علاء الدين أنه قد أمن ذلك الجانب ، عندما جند حشدا كبيرا من الأدلاء .

تجاوز عدد الأدلاء خمسة عشر دليلا من قبائل متعددة ، أنحصرت مؤهلاتهم عند ترشيحهم في معرفتهم ودرايتهم بشرق واواسط كردفان ، كان على رأسهم أربعة أدلاء كبار يتبعون لقيادة الحملة مباشرة . وهم :

أحمد أبو صباحى
أحمد أبو كشوه
حكيم المحسي
محمد البقارى

ولكن ذلك الحشد الكبير من الادلاء لم يؤد ، كما أمل علاء الدين الى تزويد الحملة بالتفاصيل الدقيقة عن المسالك ومصادر المياه ، بل أدى الى تضارب الاقوال والتنافس .

* * *

أبحرت البارجة بورديني عائدة بعلاء الدين وأركانه الى الدويم فأشرف عليها في صباح الخميس ١٣ سبتمبر ، وتوجه مباشرة الى المعسكر الذى أعد لاستقبال الجيش القادم من امدرمان . وهناك تسلم رسالة من الجنرال يبلغه بوصوله الى الترعة الخضراء في أمن وأمان ، حتي الجمال التي خشوا عليها أن تنفق من ثقل الاحمال ومشقة الطريق كانت الاصابات بينها ضئيلة لم تتجاوز مائة وسبعة وخمسين جملا نفقت اثناء السير .

كان خطاب هكس متفائلا ، اذ أنعشت سهولة الرحلة آماله في نجاح الحملة ووصولها الى الابيض بعد مسيرة مشابهة ، كما أبدى أرتياحه وموافقته على الطريق المقترح ووعدهم بأن يجد السير ليصل الدويم يوم الثلاثاء المقبل .

٢–يبدو ان ضيق الجنرال وخلافاته مع الضباط كان اعمق مما تظهره يوميات عباس بك . في الدويم وقبل التحرك لكردفان اجاب هكس احد مرافقيه الاوربيين الذى استفسره عن احواله وعن الموقف عامة هازا راسه (انا كالمسيح بين اليهود .)

أمضت رئاسة علاء الدين الايام القليلة التالية لانتظار هكس في رتابة مملة . تشاغل علاء الدين أثناءها بالمرور يوميا على حامية الدويم وتفقد أحوالها وتجاذب أطراف الحديث مع سكان المدينة من الجعافرة ليستخلص منهم كل ما يمكن معرفته عن طبيعة مسرح القتال القادم . وعندما ضاق ذرعا من بطء الجنرال ، بعث بهجان لاستطلاع أخبار الجيش ، فعاد اليه مرتدا صباح الخميس وأنباه بأقتراب الجيش من الدويم ، فوجه علاء الدين بخروج جميع جنود النقطة وأصطفافهم لاستقبال هكس أستقبالا رسميا .

وحوالى الظهيرة ، أعلن الغبار الكثيف المتصاعد عن وصول طلائع الحملة لمشارف الدويم ، فعزفت الموسيقي وتلقي الجنرال التحية من جنود الحامية ، ثم ترجل من جواده وصافح علاء الدين ، وأستغرقا في حديث قصير عن سير الامور في فترة غيابه ، ثم مضي الى خيمته التي نصبت بعيدا عن خيام بقية الضباط .

ورغم مظاهر الود البادية من الضباط المستقبلين ، سجلت يوميات عباس في صباح الجمعة ٢١ سبتمبر أول مظهر من مظاهر الشقاق الذى سيصبح سمة يومية من سمات الحملة ، وسجلت أيضا بداية الدور الذى سيلعبه كاتب اليوميات في الاسابيع العصيبة القادمة في التوسط لتقريب شقة الخلاف بين قيادة الحملة الاوربية[٢] والضباط المصريين . فقد لاحظ عباس بك أن الجمال لم تخرج للمرعى منذ يوم الاربعاء الماضي ، فهرع الى الجنرال هكس وأسر اليه بمخاوفة على سلامة الجمال وهى عماد المسيرة الاول . أستدعى الجنرال رجب بك الصديق قائد الالاى الرابع المنوط به رعاية الجمال مستفسرا ، فألقي الاخير باللوم على اللواء حسين مظهر الذى أحتد في حديثه مع رجب وتدخل هكس وعباس بك الى أن سوى الخلاف بأعتذار رجب بك ووعد بأخراجها حالا الى المرعى . ولكن المشاحنة لم تمر دون أن تخلف آثارها من رواسب الحنق والترصد بين الضابطين[٣] .

كانت الايام الثلاثة التالية أياما قائظة الحرارة ، أجبرت الضباط على الاعتكاف في خيامهم . ولما أحس الجنرال ان الملل قد سرى في صفوف الجنود عزم على تعجيل التقدم نحو الابيض ، ووجه بعقد اجتماع نهائي مع علاء الدين باشا للتفاكر في خطة التقدم . وقد تمخض ذلك الاجتماع ، الذى عقد في عصر الاحد ٢٣ سبتمبر ، عن القرارات التالية :—

١ — دفع الآلاى الرابع بقيادة رجب بك للوثبة الاولى ، الدويم شات ، كمقدمة للحملة ولاستكشاف المياه وتجهيز مواقع الحملة في شات .

٢ — إقامة ست حاميات عسكرية لحفظ خطوط أمداد الحملة من النيل ، تتكون قوة كل منها من ٤٠٠ جندى من الجنود النظاميين والباشبوزق معززة بمدفع جبلى .

٣—يوميات عباس بك ص ٨٣ .

٣ — حددت وثبات الطريق الذى ستسلكه الحملة وهى [٤] شات ، سراخنة ، أباراى ، العقيلة ، جوهان ، عبلى ، البليات ، أم شيخ الرهد ، كازقيل ، الملبس والرهد .

وقد ترجمت القرارات الى أفعال فورية في صبيحة اليوم التالى ، فغادر رجب بك الدويم في فجر الاثنين ٢٤ سبتمبر متجها نحو شات ، ثم توالت تقاريره الى الخلف تفيد بوفرة المياه وكثرة الآبار التي شرع المهندسون في تنظيفها وتهيئتها لاستقبال الحملة . فقر قرار الجنرال على التقدم بكل جيشه في اليوم التالى .

وما أن أضاء ضوء الفجر مرسي الدويم حتي كانت الحملة تودع شاطئ النيل وتلقي نظرتها الاخيرة عليه ، ثم توليه ظهرها وقد خطت خطواتها الاولى لتبتلعها غياهب كردفان .

كان حشدا عسكريا منيعا ، ذلك الذى تقدم غربا في فجر الخميس ٢٧ سبتمبر . فقد أتخذت الحملة تشكيل المربع التقليدى الذى جعلها تبدو من البعد أشبه بمكعب فولاذى هائل أكتظ بالبشر والدواب . وقد أصبح التشكيل القتالى الذى تقدمت به الحملة في يومها الاول هو الهيئة التي ستتقدم بها حملة هكس حتي أيامها الاخيرة ، وبدت على النحو التالى :—

دليلان في الأمام
خيالة الاستكشاف
الجنرال هكس وأركانه
آلايات المشاة الاربعة في شكل مربع
الخيالة النظامية

وخلف الجميع زحفت غابة متحركة من سيقان آلاف الجمال التي أصم رغاؤها الآذان ، أقتلعت الطبقة الرقيقة من الارض المبتلة فأثارت عاصفة من الغبار الكثيف تصاعدت للسماء مشهرة تقدم الحملة البطئ .

لم تكن مسيرة اليوم الاول تؤذن بالخير ، فعدا الزحف البطئ المعتاد ، تزايدت المنازعات والمشاحنات بين كبار الضباط ، وأشتعلت حرارتها هذه المرة بين الجنرال هكس واللواء حسين مظهر . في أثناء دخول المربع محطة « شات » ساد الاضطراب صفوفه ووحداته . فقد كانت نقطة التفرق التي توقفوا عندها تبعد مسافة تتجاوز الميلين عن المعسكر الذى اعده رجب بك لاستقبال الحملة ، فتداخلت الوحدات والجنود في بعضها بعضا على الطرق الضيقة التي أكتنفتها الاشجار « وعم الاستياء القادة وأشمأز جميع الضباط والعساكر والحاضرين من غوائل مالو حصل شئ وكان عدونا

٤–انظر خريطة رقم (١) (مسيرة الجنرال هكس) .

مسيرة حملة الجنرال "هكس"

الدويم - الرهد

الدويم ٢١ - ٢٧/٩/٨٣
شات ٢٧ - ٢٩/٩
زريقة
١٠/١
هجليجة
٦ - ٧/١٠
أم هجليجة
سليمة
١٠/٨
ورعة
أبو كثيرة
عقيلة
١١ - ١٤/١٠
شركيلا
الفتشة
أبو قوي
أم رواية
أبو شيعى
١٠/٢٢
أم دبكر
أم ضيران
١٠/٢٣
الرهد
٢٤ - ٣٠/١٠
خور أبو حبل

مقياس الرسم/ ١ : ١٠٠٠و٠٠٠

مراقبا .. وفي ليلة السبت المذكورة كان من المستحيل الاستدلال على انسان بالنظر الى ضخامة الجيش وأتساع حركته ، فضلا عن ضجة خوار الخيل والبغال والحمير الذين ينوف عددهم عن سبعة آلاف . وقد استمرت هذه الليلة بدون أن يعرف الضابط جنده ولا البلك أورطته ولا الاورطة آلايها وهكذا .. »

أستشاط اللواء مظهر غضبا ، وأعلن أن تغيير التشكيل دون أخطاره يعتبر تحديا شخصيا وتدخلا في صميم صلاحيته كقائد فرقة المشاة ، فمضي الى خيمة علاء الدين وهو يرغى ويزبد مطالبا الحكمدار بأيضاح الاسباب التي دعت الى تجاوزه وتفريق المربع دون علمه ، فاستمهله علاء الدين الى صباح الغد .

وفي صباح اليوم التالى ، الاحد ٣٠ سبتمبر ، تجمع كبار الضباط في خيمة علاء الدين وقد حملت وجوههم نذر الشر ، وثارت في نفوسهم الحساسية الطبيعية نحو الضباط الاوربيين . ولابد ان أحد الوشاة تطوع بترجمة العبارات التي تفوه بها بعض الضباط في لحظات غضبهم ، اذ سجلت مفكرات عباس بك أن هكس اعتذر في البداية وأوضح أن هناك لبسا في الامر فقد حرفت تعلياته أثناء ترجمتها ، وكل الذى طلبه هو أن تمر الكتائب واحدة واحدة نظرا لضيق الطريق ثم أنقلب مهاجما : « بأى حق يسوغ لكم أتهامى بالتقصير أو الجهل أن كانت تعلياتي قد حرفت ؟ أنا الذى حاربت وقلدت وحدات مقاتلة طول عمرى في مشارق الأرض ومغاربها[٥] . » ولما تزايدت حرارة حديثه أنبرى عباس بك كاتب اليوميات محاولا التوسط وتخفيف الشقاق الذى بدأ ينخر في وحدة قيادة الحملة ، فطلب من هكس أيقاف النقاش عند هذا الحد حتي لاتصل أخبار النزاع الى آذان الضباط والجنود وتفت في معنوياتهم وفي ثقتهم في قيادة الحملة ، ثم انتزع منه وعدا بأن يستشير ضباط الحملة المصريين عند أصدار أوامره التي تتعلق بالتحرك والعمليات ، ثم عاد الى حسين مظهر وطيب خاطره ودعا الى اجتماع عام للتشاور في أمر الوثبة التالية .

وقد تمخض الاجتماع الذى عقد في المساء عن عدة قرارات هامة : أولها تنفيذ مخطط انشاء الحاميات الخلفية لخط الامداد والبدء « بشات » نفسها بتشييد حامية صغيره تستوعب سرية جهادية ومائتي جندى باشبوزق معززة بمدفع جبلى . أما عن خطة السير للوثبة التالية ، فقد أجمعت الآراء على ان يتقدم الجنرال هكس وعلاء الدين بنصف الحملة فقط « آليين » لقلة مياه الشرب ، على أن يلحق بهم اللواء حسين مظهر ببقية الحملة حينما يستوثقون من وفرتها[٦]

ونلاحظ هنا حتي في تلك الايام الاولى من مسيرة الحملة ، أى تأثير نفسي غريب فرضه ذلك السائل الثمين ، عصب الحياة وأسباب بقائها – الماء – على اذهان جميع ضباط الحملة وجنودها دون

٥–يوميات عباس بك ص ٨٦ .

٦–نفس المصدر ص ٨٧ .

استثناء ، من قيادة الحملة العليا وحتي ادني حماليها ، في التلهف والجزع عليه تساوى الكبير والصغير.

ولعله مما يدعو للعجب والحملة لم تبعد عن النيل أكثر من ٢٠ ميلا وقد عبرت وثبتها الاولى فقط ان تسجل يوميات عباس بأن قرار تقسيم الحملة قد اتخذ « لعدم تحققنا من وجود المياه الكافية للجيش جميعه بجسامته » مشيرة بالاتهام الى تخبط الادلاء وجهلهم بمواقع المياه على وجه التحديد ، وهم لايزالون في بداية المشوار.

ولم يمض يوم الجمعه دون أن يختم بحادث اخر أهتزت له قيادة الحملة وضباطها . فحتي تلك اللحظة ، كان تصور الضباط والجنود للفظة « العدو » أو « المهدى » أقرب لتصورها لاشباح وهمية منها الى مخلوقات حية ، ولكنهم في صباح الجمعة فطنوا الى أن احد اعدائهم كان يتجول بينهم ويتناول طعامهم بل ويرتدى زيهم الرسمى . ففي خلال اقامة علاء الدين في الدويم أقبل عليه ذات صباح أحد جنود حامية كردفان ويدعى « أبو الفارس سليمان » كان برتبة امباشي وأبيلت وحدته في انتصارات المهدى الاولى قبل سقوط الابيض ، وزعم انه وقع أسيرا في يد المهدى لشهور طويلة ولكنه تمكن من الهرب وسعى بقدميه تسعة أيام متصلة حتي بلغ الدويم . وقد أستجوبه علاء الدين أستجوابا مفصلا عن أحوال المهدى بالابيض ، وضمه الى الحملة بنفس رتبته القديمة ومنحه مرتبه المتأخر وملابس عسكرية ليرافق الحملة الى « شات » .

وقد غادر « أبو الفارس » الزريبة في صباح الجمعة مع الجمال التي بعث الى المرعى ، وانتهز فرصة أنشغال الرعاة ، فهرب على ظهر جمل سريع حاملا معه سلاحه وذخيرته وسارع لينضم الى المهدى وعاد من كان بصحبته وأبلغوا قيادة الحملة بهربه .

كان للنبأ وقع الصاعقة على الضباط « لكونه عالما بحالنا وأحوالنا وساعة هيئة دخولنا .. وقد ظهر أنه جاسوس فصيح قادر على أعمال الحيل التي يتحقق بها الشقي من حقيقة الاخبار التي يعطيها له .. ثم أنه عسكرى وله دراية بأحوال العسكرية وكان ناظرا لحركتنا عند دخولنا « لشات » وهو الامر الذى تسبب في حصول الزعل بين سعادة هكس وحسين باشا مظهر واشمئزاز كل الجيش من هذه الحركة كما أوضحت من قبل[٨] .. » والعبارة الاخيرة تكشف عن السبب الحقيقي لانزعاج القيادة ، وهو تواجد الجندى الهارب في تلك اللحظات الحرجة – لحظات[٩] الارتباك عند دخولهم لمحطة « شات » ويبدو انها كانت محقة في مخاوفها ، ولعل أبلاغ المهدى بتدهور حالة الجيش في تلك اللحظات ، يفسر لنا الى حد كبير بواعث ثقته المفرطة بنفسه بأنتصاره على ذلك الجيش الذى ضربت الفوضى بأطنابها فيه منذ اللحظة التي غادر فيها النيل ، وقبل أن يعجم عوده وتتصل رايات استطلاعه بهم .

٧–الجهاد في سبيل الله ص ٤٨ .

٨–يوميات عباس بك ص ٨٨ .

٩–كان وقع النبأ اليما ، خاصة على علاء الدين . فقد اتضح له ان معظم المعلومات التي استخلصها من الامباشي الهارب كانت خاضعة وقد بنى عليها الكثير من خطط السير .

على أي حال طوى الضباط مخاوفهم وآووا الى خيامهم في وقت مبكر ، فقد كانت بانتظارهم مسيرة شاقة في صباح اليوم التالى .

وفي الخامسة والنصف صباحا من فجر السبت ، قوضت الحملة خيامها وزريبتها لتنتظم مرة اخرى في هيئة المربع التقليدى ، ولخمس ساعات متصلة شق المربع طريقه متعثرا وسط الحشائش والاشجار التي لوحظت كثافتها المتزايدة تدريجيا كلما توغلوا غربا ، فحط المربع رحاله في نقطة « الهجليج » لتعذر السير . وانتظارا لنتيجة أستكشاف المياه ، ولوصول النصف الآخر بقيادة اللواء حسين مظهر أمر الجنرال ببناء زريبة للمبيت . وكأنما أشفقت عليهم الطبيعة في تلك الليلة ، فهطلت أمطار خفيفة تبعتها نسائم رطبة مسحت عنهم مشقة السير وخففت من غلواء جفاف الحلوق المتعطشة للماء ، فتبعثرت في اطراف الزريبة جماعات من الجنود والضباط التفوا حول لهيب النيران المتراقص يتسامرون لوقت متأخر من الليل . ولما أشرقت عليهم شمس الاثنين وجدت المربع وقد انضم اليه نصفه المتأخر يجد السير مرة أخرى في طريقه لنقطة « الخنفرية » هدف السير في ذلك اليوم . فقد أفاد استطلاع الأدلاء عن وفرة المياه حولها فبلغوها في منتصف نهار الاثنين وشيدت الزريبة المعهودة للمبيت .

حفلت الايام الثلاثة التي أمضتها الحملة في منطقة « الخنفرية » بالنشاط الاستطلاعى والمجالس الحربية المتواصلة التي تمخضت عنها عدة قرارات هامة أملتها الظروف التي أستجدت خلال الاسبوع الماضي .

في صباح الثلاثاء دفع بجماعة أستطلاع من مائة فارس بقيادة الكابتن « هيرلث » والدليل « أحمد صبيح » للبحث عن المياه على طريق الوثبة التالية ، على أن يعودوا الى المعسكر قبل حلول الظلام . ولما انتصف الليل دون أن يسمع عنهم خبر ساور القلق القيادة خشية وقوعهم في قبضة عدو متربص .

وقبل الفجر بساعة تقريبا بدت اشباحهم من بعيد وهم يشقون طريقهم بين الحشائش نحو الزريبة ، فأزاح وصولهم أسباب القلق على مصيرهم ، وبعث أسبابا مجددة للقلق على مصير كل الحملة . فقد كانت نتيجة الاستطلاع سلبية ، اذ لم يوفقوا في العثور على أى مظهر يدل على وجود مياه قريبة خلاف بركتين جافتين . واذا علمنا أن مياه « الخنفرية » وابارها لم تكفِ لسقاية الجيش لمدة تزيد على ٢٤ ساعة ، وضح لنا مبعث المخاوف التي القت جوا كئيبا على الحملة ، فحملت الجنرال على عقد أجتماع سريع ، تقرر بعده أن ترسل كتيبة لاحتلال بركة المياه في المحطة السابقة للمحافظة عليها من تغول الانصار ، ولاحضار مياه تكفي مسيرة الجيش الى الوثبة التالية ، التي تنتهى ببركة « السراخنة » .

وفي أثناء الاجتماع أبدى كابتن (هيرلث) قائد مجموعة الاستطلاع ملاحظة جديدة ، ساهمت هى الأخرى في تجديد مخاوف المجتمعين ، ففي أثناء مرورهم على ارجاء تلك المنطقة تجاوزوا عدة قرى

ولاحظوا أن سكانها هجرو وأخلوها تماما ، وكان واضحا عند تفقدها أنها هجرت منذ عهد قريب ، أى عند اقتراب الجيش منها .

كانت تلك أول بادرة تشير الى مخطط المهدى الذى عزم على تنفيذه كخطوة أولى في سلسلة من العمليات العدائية لمقاومة مسيرة الحملة استهلها بتطبيق النشاط السلبي الذى يطلق عليه العسكريون عملية (حرق الارض) أى أخلاء الارض التي يمر عبرها العدو ، وتدمير كل موارد الاعاشة التي قد تعينه على التقدم .

وقد أثارت الملاحظة الاولى ، المتعلقة بعرب البقارة الذين هاجروا وسقوا مواشيهم من البرك فتسببوا في جفافها ، شكوك الجنرال الذى أبدى خشيته « بأن من المتحمل ان العربان المارين بجهة أراضيهم مادام لم يقابلونا ، فلربما يريدون اعدامنا بأتلاف ماتركناه من المياه خلفنا مع العلم بأن النقطة التي نقيم بها الآن لاتكفينا زيادة عن ٢٤ ساعة ، فمن ذلك قد وقعنا في دائرة الحيرة[١٠] .. »

أجبرت القيادة العليا على اعادة النظر في مخطط سير الحملة برمته ، خشية على حاميات الامداد الخلفية من أن تعزل وتحاصر وتباد ، فدعا الجنرال الى أجتماع عام عاجل في مساء الثلاثاء لاتخاذ قرار نهائي بشأنها على ضوء المعلومات الجديدة .

توافد المجتمعون على خيمة الجنرال في تمام الساعة السادسة مساء ، والتأم شمل الاجتماع الذى ضم علاء الدين باشا والكولنيل « فركهار » رئيس الاركان ، واللواء حسين مظهر قائد الفرقة وقادة آلالايات الاربعة ، وسجلت يوميات عباس بأسلوبها الركيك محضر الجلسة .

أستهل الجنرال الاجتماع داعيا اياهم للتشاور وابداء الرأى حول مصير النقاط الستة التي اتفقوا على انشائها على طول خط الامداد ، بالاضافة الى النقطة التي شيدت فعلا في « شات » . اتجه المجتمعون الى حسين مظهر في انتظار سماع رأيه ، فاجاب أنه سيتحدث بعد أن يستمع الى مقترحات قادة الآليات . فبادر الاميرلاى رجب قائد الالاى الرابع قائلا : « أنه وان كان وضع النقاط العسكرية لحفظ خط الرجعة هو من اصول العسكرية ومن الضرورى ، لكن الجيش الموجود معنا كاف فقط لمقاومة العدو ولايصح أنقاصه اذ آن ذلك لايكون الا نقصا في القوة التي ستجابه المهدى . فأرى عدم لزوم عمل النقاط المذكورة حتي تحفظ قوتنا بأجمعها[١١] لقتال المهدى . »

ثم تحدث الاميرلاى عوني فأيد حديث رجب بك . وتحدث اللواء حسين مظهر معترضا بحدته المعهودة : « لا يصح تقدم الجيش بدون آن نجعل له خط رجعة حفاظا له ، واذا لم نجعل تلك النقط خلفه فيعتبر ذلك خروجا على القانون العسكرى . »

١٠–يوميات عباس بك ص ٩٣ – ٩٤ – ٩٥ .

١١–يوميات عباس بك ص ٩٣ – ٩٤ – ٩٥ .

فرد هكس قائلا « أنا أعلم ذلك ولذلك عقدت هذا المجلس لاخذ آرائكم . »

فبادره حسين مظهر مرة أخرى بلهجة اشد عنفاً : «لاجل عدم الاستهزاء بعقولنا في المستقبل ، ارجو الاستفهام عما جرى للخمسة الف جندى التي وعدتنا بها الحكومة لتعزيز النقاط الخلفية ؟ . »

فاجابه الجنرال مطالبا بعدم الخروج عن الموضوع وحصر النقاش في استخدام القوة المتوفرة بين ايديهم الآن فعلا ، فتحدث حسين مظهر مرة اخرى متسائلا : « أن لم يكن هناك نقاط لحفظ خط الامداد فما هي الطريقة التي ستصلنا بها الامدادات في الشهور القادمة ؟ . »

فأجاب الجنرال وقد عيل صبره : « أن ذلك ممكن تدبيره فيما بعد وصولنا الى الابيض بسلامة البارى ويمكن بعد ان نظفر بالاعداء احضار الامدادات بطريقه أحسن من هذه » .

وتحدث الحكمدار علاء الدين اخيرا :—

« بأن من رأيي هو بانه بالنظر لعدم مقابلتنا باحد العربان ولا مشائخهم من عهد قيامنا ، ولحد هنا لانرى سوى أمتداد خروجهم عن طاعة الحكومة ، وان العساكر السابق الاتفاق على وضعهم بالنقط لن تكفي قوتهم لحفظ خط رجعتنا – ولربما يطمع بهم العربان بعد تقدمنا بالجيش ، وتركهم خلفنا ماهو الا تنقيصا في قوتنا الحالية . ولزيادة علمى بحال واحوال السودان وعربانه فارى عدم وضع نقط خلفنا وتقدمنا بالجيش جميعه لجهة الابيض . وبعد الانتصار على المهدى والفتك بهم ، فمن جهة التعيينات ومايلزم للعسكر وقتها يصير حضوره من الطريق التي مسافتها لاتزيد عن سبعة أيام . اولى من تفريق قوتنا هنا مائتين وهناك ثلاثمائة التي لاتنتج منه سوى تضعيف قوتنا واستهزاء العربان بنا ومادام ان سعادتكم قندان الجيش والموجودين هم رؤساء الجيش الذى يتراءى لا مانع من النظر فيه[12] .. »

وختم الجنرال الاجتماع أخيرا : « أن الصوت الاقوى هو عدم وضع النقاط ، وان طلبي منكم ان يسجل كل منكم آراءه التي ذكرها في المجلس كتابة ويبعثها لطرفي لحفظها » .

لقد برزت أثناء الايام الثلاثة التي امضتها الحملة في بركة « الخنفرية » عدة ظواهر ، كانت تنبىء عن طبيعة المأساة التي سينتهى اليها مصير الحملة . في الاجتماع الاخير وردت لاول مرة عبارة توحى بأن هكس وقادته قد أدركوا ، بعد فوات الاوان . ان الطريق الذى يسلكونه الى الابيض لم يكن الطريق الافضل ، في أحدى أجاباته على استفسارات حسين مظهر الاستفزازية وعد الجنرال بأن أيصال المؤن من النيل الابيض « ستكون بطريق آخر أسهل من هذه » .

وعدا أعراض الضعف الداخلية التي بدأت تفت في عضد الحملة وتمثلت في التحزب والتكتل بزعامة اللواء مظهر لمعارضة القادة الأوربيين ، كانت هناك الاراضي المقفرة المهجورة التي تركها لهم

١٢–يوميات عباس بك ص ٩٥

المهدى ليعبروها في مسيرتهم الشاقة ، ثم لاح في الافق أخيرا خبر عن العدو الاصلى – المنسي ، فقد اشارت اليه اليوميات أشارة عابرة في سردها لاحداث الثلاثاء ٢ أكتوبر « شوهد أثنين من العربان مرسولين بصفة طلائع من طرف الشقي محمد أحمد وحالما حققوهم فروا هاربين بخيولهم . »

ها أخيرا قد اصبح العدو حقيقة ملموسة ، ولكنه من ناحية أخرى سيظل دواما مراقبا اياهم عن كثب ، مبتعدا عنهم كالسراب كلما اقتربوا وكادوا ان يمسكوا بتلابيبه ، تباعد واختفى .

وما كان الفارسان اللذان لمحهما هكس في ذلك اليوم ، الا عوارض طفحت على سطح الاحداث واخفت خلفها مخططا ضخما ، كان العمل يمضي فيه على قدم وساق من مسافة مائتين ميل من الحملة . في معسكر المهدى بالابيض .

تبلورت الشائعات والانباء المتواترة التي ترامت الى أذني المهدى في الاشهر الاخيرة وتجسمت في حقيقة مؤكدة، في هيئة جيش لجب شاكي السلاح كان أضخم حشد عسكرى شهدته تلك البقاع في عمرها الطويل ، فارق النيل واتجه غربا ، ليؤكد عزمه على الوصول الى المهدى في عقر داره .

وقد ادرك المهدى من ارهاصات الانباء التي بلغته عن حجم الجيش الزاحف وتسليحه ، انه سيقتحم غمرة عراك هائل يفوق كل ما واجهه خلال العامين المنصرمين منذ مغادرته « أبا » وبدء مسيرته الظافرة في جبال وسهول كردفان . وقد سارع عدوه ليبدد شكوكه عن جد الصراع القادم ، وكفاه مشقة التحقق من صحة الانباء الاولية التي وردت عن أقتحامه لكردفان ومفارقته للنيل ، فبعث اليه من « شات » بخطابه الشهير متباهيا بمنعته وحشده العسكرى الهائل الذى لم تحمل رمال كردفان الساكنة مثله من قبل[١٣] .

ولابد أن المهدى قد أستبشر[١٤] خيرا بعد أطلاعه على تهديد الجنرال ووعيده ، فلم تكن تلك المرة الاولى ولا الأخيرة التي يتوعده أعداؤه بالويل والثبور وعظائم الامور ، وما أنجلى غبار القتال في كل منها الا برز رافعا رايات النصر.ولكنه لم يركن الى طالعه السعيد ، بل شرع فورا في الاستعداد والاعداد لدخول معركته القادمة .

وقد خطا المهدى الخطوة الاولى نحو المعركة عندما أقام معسكرا تدريبيا ضخما خارج الابيض . فقد مضي على معركة الأبيض عدة شهور التقطت خلالها جيوشه أنفاسها وذاقت طعم الراحة بعد قتال

١٣–انظر خطاب هكس ص (٩٠) .

١٤–جهاد في سبيل الله ص ٤٩

متصل ، وخشي المهدى ان يستسلموا للدعة ورغد العيش بين دور المدينة وحوانيتها وتخمد فيهم روح القتال الاسبرطية التي امضي شهورا عديدة في شحذها ومضائها .

ومن ناحية أخرى ازدحمت راياته في الشهور الاخيرة بالوافدين والمقاتلين الجدد الذين تدفقت قوافلهم نحو الابيض من كل حلب وصوب ليبايعوه وينصروه في صراعه القادم . ومن أجل كل هؤلاء ، عزم المهدى على الخروج من المدينة واخلائها وتجميع كل مقاتليه في معسكر للتدريب في الفضاء الواقع شرق أسوار المدينة .

وقبل أن يصل موكب المهدى الى شجرة التبلدى التي اختارها موقعا لرئاسته ، حمل اليه انذار الجنرال هكس ، فتوقف هنيهة لاعداد الرد المناسب .

كانت لهجة الرد هادئة رصينة توحى بثقته بالانتصار ، على عكس خطاب الجنرال الذى طفحت صفحاته بالتهديد والوعيد :—

« بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الولى الكريم والصلاة [١٥] على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله الى من يسمع من اهل الجردة من له عقل . فانه لايخفي على ذى عقل ان الامر بيد الله لا يشاركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لاحد الا من عصمه الله تعالى فادا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التي تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله فانه لا قوة لشئ دون الله ، وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخلوق ويستعجز قوة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم فان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل فقالوا «يا الهنا ومولانا ان المهدى قتلنا دون انذار » فأقول «انذرتهم يارب فلم يسمعوا فحضر ذلك شاهداً سيد الوجود صلى الله عليه وسلم . وقال لهم الامام المهدى انذركم فلم تسمعوا وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين أستضعفوا للذين أستكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين وقال الذين أستكبروا للذين أستضعفوا نحن صددناكم عن المهدى اذ جاءكم بل كنتم مجرمين فأن كان لكم نور تؤمنوا بالله ورسوله والدار الاخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن سلم يسلم وان أبيتم الا الجحود فأسوتكم بمن سبقكم من الجنود والسلام . »

وقد شغل كتبة المهدى لايام متصلة بنسخ الخطاب وحررت منه ١٥٠٠ نسخة أمر المهدى بأن تترك في طريق الجيش ليقرأها أكبر عدد من جنود هكس . ولما أطمأن المهدى على أكتمال منطقة الحشد الجديدة ودوران عجلة التدريب ، حصر اهتمامه خلال اليومين التاليين في العمليات الاستطلاعية تمهيدا للصدام الوشيك .

١٥—جهاد في سبيل الله ص ٤٩

ويمكننا أن نجزم من خلال المصادر التي تحدثت عن تلك الفترة ، ومن توجيهاته التي أصدرها لقادته ، وبالاخص لامراء الاستطلاع ، أن مخطط المهدى حددت ملامحه منذ ذلك الزمن المكبر وتلخص في الخطوط العريضة التالية :—

(أ) جذب جيش هكس بعيدا عن النيل وبعيدا عن خطوط أمداده ، وعدم التعرض له حتي يتوغل في غياهب كردفان ويأخذ منه الارهاق ومشقة السير مأخذهما فينقض عليه في مكان ما عند نهاية مسيرته غربا أو قريبا من نهايتها ، في الابيض نفسها أو في نواحيها . وقد أقتنع سلفا بنجاح تطبيق تلك الاستراتيجية في معركتين سابقتين لم تغب عن الاذهان أحداثهما بعد ، هما قدير وجرادة . ففي كلتا الموقعتين قبع منتظرا عدوه واصطدم به بعد مسيرة طويلة مرهقة عبر الغابات والجبال .

(ب) تطبيق أسلوب حرق الارض واخلاء المنطقة التي تمر عبرها الحملة من السكان والاحياء تماما ، وابعاد أو اتلاف كل ما من شأنه أن يفيد العدو في معيشته اليومية كالآبار ، وموارد المياه ، والمساكن وقطعان الماشية .

(ج) تخصيص قوة قتالية للاستطلاع والمناوشة ولزرع بذور الحرب النفسية وسط جنود الحملة الذين بلغ المهدى أنحطاط روحهم المعنوية ، ولضمان سيل المعلومات اليومية عن تقدم الحملة لتحدد على ضوئها لحظة انتقال المبادرة للمهدى ليضرب ضربته القاضية .

وقد تحركت تروس آلة المهدى العسكرية لتسير الاحداث حسب المخطط في ايقاع وتنسيق رائعين . فقد عين المهدى قوة من اربع رايات على رأسها الامير « أبو قرجه » والامير « عبد الحليم مساعد » والامير « عمر الياس » والشيخ فضلو أحمد[١٦] ، قدر تعدادها بثلاثة الاف مقاتل[١٧] أغلبهم من الفرسان . حددت لها المهام الاتية :—

١ — السيطرة على الارض الحرام التي كانت تفصل بين الجيشين واخلاء المنطقة من السكان .

٢ — جمع رجال القبائل وحشدهم وارسالهم لمعسكر الابيض .

٣ — ارسال التقارير اليومية عن سير العدو .

٤ — مناوشة الحملة بالاشتباكات المتصلة وقض مضاجعها وبتر أطرافها البعيدة[١٨] المنعزلة أو المتخلفة عن خط سير المربع على أن لا يدخلوا مع المربع في اشتباك حاسم . وقد شدد المهدى على

١٦—شقير ص ٧١٩ .
١٧—أقوال حسن حبشي – كاتب الامير عبد الحليم .
١٨—الكردفاني ص ٢٢٣

هذه النقطة منذ البداية ، وأضطر أن يؤكدها مرات عديدة لكبح جماح الامير عبد الحليم الذى عجز عن السيطرة على جنوده المتعطشين للقتال ، وهم يرون عدوهم مرأى العين .

وقد حمل المهدى أمراءه الثلاثة المتوجهين غربا نحو الجيش الزاحف خطابات عديدة لزعماء القبائل[١٩] يحثهم فيها على لم شمل قبائلهم لاخلاء المنطقة والانضمام اليه في الابيض . وكان من أبرز هؤلاء الشيخ « عساكر أبو كلام » ناظر قبيلة الجمع ، الذى تحتل ديار قبيلته الجزء الاكبر من المرحلة الاولى من مسيرة الجنرال . لقد جعل شيخ الجمع مسيرة الجنرال وكأنها تشق طريقها وسط منطقة موبوءة بمرض قاتل ، فعلى طول امتداد مسيرة الجنرال اخليت المنطقة من كل السكان رجالا ونساءا واطفالا ، وتكون حزام عريض تجاوز سمكه اربعين ميلا اقفر من كل مظاهر الحياة .

وعندما أشرف هكس على الترعة الخضراء[٢٠] ، اطلق المهدى العنان لامرائه الثلاثة ، فأنطلقوا بفرسانهم غربا وادوا المهام الملقاة على عاتقهم على خير وجه ، فبعد مقابلة سريعة مع الشيخ « عساكر أبو كلام »[٢١] أنتشروا في انحاء متفرقة من شرق كردفان لجمع شمل بقية القبائل .

واثناء طوافهم في دار الجمع ، حدث أول اتصال بين القوتين على مشارف قرية صغيرة تدعى أبو قوى «[٢٢] اذ شاهدت طلائع أبو قرجة وعبد الحليم مساعد الغبار الزاحف ببطء نحوهم من بعيد منبئا عن جحافل هكس المتقدمة غربا . وماكان عبد الحليم مساعد[٢٣] بالذى تقع عينه على عدو ، وينتظر ساكنا مهما ثقلت صرامة القيود التي تكبل يديه . ولكن أبو قرجة أصر على تنفيذ تعليمات المهدى حرفيا ، وحسم النزاع برفع الامر للمهدى ، فبعث حسن حبشي ، كاتب الامير مساعد الى المهدى مستأذنا بالهجوم على هكس

تسلم المهدى التقرير الكتابي الاول عن تقدم هكس ، فرد زاجرا عبد الحليم محرما عليه التورط في عملية هجوم كبير والاكتفاء بالمناوشات الصغيرة مع المتخلفين والمنعزلين عن الحملة ، وان يتعقبهم للرهد حيث سيتسلم تعليمات مفصلة هناك .

وبعد أسبوع من تحركهم من الابيض التام شمل الأمراء الثلاثة وأتحدت راياتهم وتجمعوا على مسافة قريبة من المربع . ومنذ تلك اللحظة لم يفارقوا المربع في مسيرته الطويلة يوما واحدا ، وتتبعوه

S.N.R. vol v111 statements by Ali Eljulla. P. 119.

٢٠–الجهاد في سبيل الله ص ٥١ .

٢١–أقوال حسن حبشي ص ٣ .

٢٢–الكردفاني ص ٢٢٣ .

٢٣–أقوال حسن حبشي كاتب الامير عبد الحليم مساعد ص ٤ .

كظله متعقبين صفوفه خطوة بخطوة وهم يناوشونه ويقتطعون من اعضائه وكلما تخلف الجنود تجمعت قوة الانصار وصرعت أحد الجنود المتخلفين من المربع ، وكررت نفس العملية في « العقيلة » حيث غنموا عدة جمال ، وأسروا أحد جنود المدفعية المهرة

في الاسبوع الثاني أقتربت عناصرهم الامامية من المربع وهاجمت أطرافه بالغارات المتصلة كلما سنحت الفرصة . وكان الاسير من المدفعية ويدعى « على بدر » ارسل للابيض [٢٤] حيث جند وتسلم احد مدافع « الكروب » التي غنمت من حامية الابيض . ولعلها لم تكن مصادفة أبدا ان طلائع « أبو قرجة » أبقت على حياة ذلك « المدفعجى » المدرب خلافا لعادتها مع بقية الجنود الذين طالتهم أيديها ، ويبدو انها كانت تنفذ توجيهات المهدى في الاستفادة بقدر الامكان من العناصر الفنية المدربة داخل الحملة . وتلك التوجيهات كانت تستبعد المخاوف التي ستسجلها يوميات عباس بك عن خشية هكس من أن تتعرض كل الحملة للتدمير حرقا وسط تلك الاشجار والحشائش العالية التي تحيط بالمربع من كل جهة جهة ، اذا ما أقدم احد رجال المهدى على اشعال عود ثقاب واحد [٢٥] وادناه من بحر الحشائش الكثيفة .

لم يكن لتلك المخاوف مايبررها ، فقد كان نظر المهدى يرنو ، حتي والخطر المباشر ماثل امام عينيه ، الى مابعد شيكان ، الى معارك أخرى ضخمة سيخوض غمارها بعتاد هكس وكوادره الفنية المدربة ، كان المهدى أكثر حرصا على ذلك العتاد من ان يعمد الى مثل تلك الحيل التي تضع ختاما سريعا لملحمة كردفان ، لا تليق بمقاتليه المتعطشين للاستشهاد ، ويحرمه من عتاد هو في أمس الحاجة اليه في معاركه المقبلة .

وقد شهدت الاسابيع الاولى من تقدم هكس في كردفان جهدا دوؤبا في معسكر المهدى للرقي براياته الى المستوى القتالى المنشود . فقد سار التدريب القتالى على قدم وساق تحت بصر المهدى المباشر من رئاسته تحت شجرة التبلدية الشهيرة [٢٦] ، وتميز بتشديده على الانضباط وحرص على خلق روح العمل الجماعى حتي تذوب روح الانفرادية والعشوائية التي انطبع بها القتال القبلى . فقد أصدر منشورا محرما فيه وضع الزينة والزخارف التي تحلى بها السيوف ، كما نهى عن أطلاق النيران وسل السيوف في لحظات الحماس ودون تعليمات الامراء .

وما هى الا أيام قليلة حتي اتسمت الحياة اليومية بكل سمات معسكر تدريبى ضخم ضم سكان المدينة جميعها . فقد نمت مدينة أخرى حول رئاسة المهدى ، كانت اشبه بغابة من اكواخ القش تمتد الى مدى البصر ، تتوسطها الاسواق الصغيرة وحوانيت الحرف المختلفة وقد امتدت امامها ساحة [٢٧]

٢٤-جهاد في سبيل الله ص ٥١ .

٢٥-يوميات عباس بك ص ١٢٣

٢٦-شقير ص ٧١٩ .

٢٧-الاب اوهرولد ص ٧٦ .

ازدحمت بالمقاتلين الذين استغرقوا في التدريب العسكرى من الفجر حتي الغروب ، لا تقطعه الا الصلوات الثلاث ، واصبحت الاستعراضات العسكرية يومية تقريبا بعد ان كانت أسبوعية . وكعادة المهدى ، ركز جهده الشخصي في شحذ روح مقاتليه المعنوية ، فكان يقف خطيبا لساعات طوال يحث جنوده على القتال ويزكى فيهم اوار الحماس تهيئة للصراع القادم .

وقد قدم شاهد عيان – الاب أو هرفلدر – صورة قلمية لمعسكر المهدى كتب :—

« اتيح للمهدى ان يركز كل اهتمامه الان في الاستعداد لمقاومة حملة الجنرال هكس التي تفاوتت الاخبار عن اعدادها الخيالية وسلاحها المدمر . وعندما علم بمغادرة الحملة لامدرمان أصدر منشورا ليقرأ على جميع المقاتلين عدد فيه محاسن الجهاد ومتع الجنان في انتظار المستشهدين . وقد غادر مدينة الابيض وضرب خيامه تحت شجرة تبلدية ضخمة خارج أسوار المدينة وحذا الخلفاء الثلاثة حذوه ، فكانت تلك اشارة لاخلاء المدينة .

هجرت حياة الدعة والخمول التي دامت اشهرا قليلة بعد سقوط الابيض ، وبعد فترة وجيزة تجمع المقاتلون حول رايات امرائهم ، فبرز للوجود معسكر تدريب ضخم استعدادا للمعركة الكبرى القادمة .

وقد بعث المهدى بالرسل لكل الجهات معلنا ان مصير كل متخلف عن الجهاد سيكون قطع يده ورجله . ولكن رجال القبائل انضموا للمعسكر بمحض اختيارهم ، وسرعان ما غطت اكواخ القش كل السهل فاكتظت بآلاف المقاتلين الذين حطوا رحالهم ترقبا للمعركة القادمة ، ولكن المهدى سمح لمن كانت عائلاتهم بالمدينة بالعودة في الليل لزيارة اسرهم . وقد بعث عدد من الامراء لانحاء متفرقة من كردفان لجمع المقاتلين ، وتدفقت مجموعات من القبائل باكملها نحو المعسكر ، وكانت المناورات والاستعراضات العسكرية تجرى يوميا والمدافع تقصف بدون انقطاع حتي تعتاد الخيول على دوى انفجاراتها فلا يصيبها الفزع عندما يحل اليوم المرتقب ، وافلح المهدى في بث الحماس في تلك الجموع حتي أصابنا خوف حقيقي على مصير هكس[٢٨] .. »

فتحت الزريبة ابوابها في اللحظات الاولى من فجر الخميس ٣ أكتوبر ولفظت كوكبة من الفرسان على رأسهم الكلونيل فركهار ، طعنت غربا واسرعت في سيرها بعيدا عن الزريبة .

كانت مهمة الكلونيل وجنوده هى الاستكشاف عن المياه أولا ، وعن العدو ثانياً ، على ان يحدوا

٢٨–الاب اوهروولدر ص ٧٦

في البحث عن الاولى ، وان يتجنبوا الثانية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فقد كانت تعليمات الجنرال واضحة ومحددة :- ان لا يدخلوا في اشتباك بعدو يصادفهم مهما هان شأنه .

عاد الكلونيل حوالى الساعة الثامنة وهو يحمل بشرى عثورهم على بركتين احداهما تبعد مسيرة يوم لمشاة الجيش ، والأخرى بالقرب من قرية « الصراخنة » فوجه هكس بأن تخلى حامية « شات » وان يضم جنودها الى بقية الحملة ليتقدموا سويا نحو « الصراخنة »

وفي فجر الجمعة ٤ اكتوبر وصل جنود حامية « شات » الى الزريبة ، وبذلك بتر هكس حلقة الاتصال الاخيرة بالنيل وكدس كل قوته عازما على التوجه بجميع حشده نحو المهدى . فجد في السير في اليومين التاليين حيث حل برهد العبيد بعد « مكابدة الاتعاب في المرور من وسط الغابات[٢٩] » ثم عاود السير مرة أخرى فبلغ هدفه التالى « بركة الصراخنة » في ضحى السبت . وقد أتسم التقدم خلال الايام الاربعة المنسلخة من تحركهم من « الخنفرية » بالسير المتصل الشاق ، لم تقطع وتيرته الا حادثتان أشاعتا جوا من البلبلة صاحب الحملة الى نهاية مطافها .

فعند وصول المربع بركة « أم سدرة » ، وبعد ان شيدت الزريبة وتهيأوا لأخذ قسط من الراحة ، شق الفضاء دوى طلقتين ناريتين ، هب الرجال على اثرهما فزعين ، وعلا صفير عازف البوق مستنفرا الجنود الذين تقافزوا لتناول اسلحتهم ووقفوا على أهبة الاستعداد ، بينما جرت المدافع الى اركان الزريبة استعداد لتلقي الهجوم المنتظر . دام الانتظار دقائق ثقيلة حتي تحققوا أن مصدر الطلقتين هو اثنان من طلائع أبو قرجة كانا يتجسسان على الزريبة ، فأمر الضباط بصرف جنودهم .

أما في يوم الاحد ، فقد تحققت قيادة الحملة نهائيا من الظواهر الاولى التي بدت في الاسبوع الماضي ، فاسفرت عن اخلاء كل منطقة شرق كردفان من السكان بعائلاتهم ومواشيهم . فعند مرورهم على حلة « ود صبيح » صادفوا شيخا مسنا سألوه عن سكان القرية ، فأجاب بأنهم اخلوها وغادروها الى غير رجعة بعائلاتهم ودوابهم وان ليس هذا شأن هذه القرية فقط بل شأن كل القرى في تلك المنطقة . ولما شك علاء الدين في اقوال الرجل ، امر بتفتيش كل القرية تفتيشا دقيقا - كانت حصيلة البحث خيبة أمل مجددة ، فلم تسفر عن أى كائن حى خلاف امرأة طاعنة في السن تجاوز عمرها الثمانين عاما تحتضن طفله صغيرة ، أكدت هى الاخرى ان جميع السكان قد اخلوا ديارهم واتجهوا غربا للانضمام للمهدى ولم يتخلف شخص واحد ، حتي والدة تلك الطفلة الصغيرة ، ولم يمنعها هى شخصيا من الهجرة الا عجزها وكبر سنها .

حسم الاستجواب الشكوك والحيرة التي ساورت الضباط في الأيام الماضية وهم يعبرون ديارا خالية ، كانوا كغيرهم يحسبونها تكتظ بالقبائل والقرى ، فأمضوا ليلة مسهدة تخللتها الوساوس والظنون

٢٩-يوميات عباس بك ص ٩٧ .

لم يضع حداً لاحزانها الا ضياء الفجر مذكراً بمعاودة السعي للهدف البعيد والابيض .

قوض المعسكر وتحزم المربع مرة اخرى . وعاود السير للوثبة التالية – نقطة نوراني – فبلغها في الظهيرة وحط رحاله بها عازما على البقاء بها الى حين التحقق من وفرة المياه التي ذكر الأدلاء انها لا تبعد أكثر من مسافة نصف ساعة . وقد بعث الحاج ابراهيم أحد الادلاء من بلدة « الكوة » ، وكان علاء الدين يعول كثيرا على معرفته بدروب كردفان ، تحت حراسة ثلة صغيرة من الفرسان للتحقق من وجود هذه البركة .

كانت المعلومات التي قدمها الحاج ابراهيم بعد عودته صحيحة ودقيقة . فقد أشرفوا على البركة بعد مسيرة نصف ساعة بالضبط . لقد وجدوا البركة ، ولكنهم وجدوا مفاجأة اخرى أليمة . فقد كان في انتظارهم رجال « أبو قرجة » وقد كمنوا بين اشجار البركة ووجهوا ضربتهم الاولى نحو الخبير فأثخنوه بالجراح بينما أنسحب رفاقه مسرعين الى الزريبة فدخلوها في حالة هياج عظيم ، وتمكن الضباط بصعوبة من استخلاص حقيقة ماحدث بالضبط . أمر الجنرال هكس بحفر الخنادق وان تقف كل القوة في حالة استعداد تأهبا لصد الهجوم المتوقع ، بينما اصر علاء الدين على ارسال مجموعة انقاذ من الفرسان للعودة بالدليل ، فعادوا به فعلا في نهاية اليوم ومرت بقية الليلة بسلام دون حوادث أخرى . ولكن سريان نبأ قرب العدو منهم الى ذلك الحد ، وهم لا يستطيعون اليه سبيلا ، ضاعف من تكثيف شعور القلق والتوتر « وحصل لجميع العساكر والرؤساء مزيد الكدر والأسف »[٣٠] .

وقبل ان يختم عباس بك تسجيل أحداث الاثنين الحافلة سجلت مفكرته سوء تفاهم آخر بين علاء الدين والجنرال .

فقد أوى علاء الدين لفراشه مبكرا وقد أثقلت فكره الهموم « واعتراه الكدر بشأن الحصول على المياه والصعوبة الحاصلة بشأن تقدم الجيش الى الابيض » وبعد قليل علم من خدمه بأن الجنرال أمر بالتحرك فجر الغد . وحز في نفسه ان تصدر تعليمات التحرك دون أخذ مشورته ودون التحقق من خط السير للوثبة التالية . وعندما ارسل الجنرال لعلاء الدين ليحضر لخيمته بلغ الاستياء منه مبلغه ، فأعتذر عن الذهاب . وكالعادة توسط مسطر اليوميات ، فمضى الى هكس وشرح له أسباب استياء علاء الدين وانه لا يستطيع الحضور لأنه اخلد للنوم . انكر هكس صدور تلك التعليمات من جانبه ، ونوه عن خشيته من أن يتسبب علاء الدين في تعطيلهم عن القيام غدا . فالقى عباس بك بتبعة اللوم على الجنرال ورد عليه بأنه « لا يستطيع القاء تبعة التأخير على علاء الدين لانك لم تخطره اخطارا رسميا بل تخطيته مصدرا تعليمات التحرك مباشرة للواء حسين مظهر .. » ثم وعده بالعودة لعلاء الدين محاولا انهاء الخلاف . ودخل على علاء الدين في مخدعه وطيب خاطره ورجاه التوجه لمقابلة الجنرال . فأمتثل علاء الدين أخيرا وتوجها معا نحو هكس . وعندما تواجها وافرغ كل ما بنفسه ، أتضح ان المسئول

٣٠–يوميات عباس بك ص ١٠٠

عن سوء التفاهم هو الكلونيل فركهار الذى حرر تعليمات التحرك ووجهها الى حسين مظهر مباشرة .

وعلى كل صفي الخلاف بعد نقاش طويل ، ثم ختمت المشاورة حول التحرك غدا « للعقيلة » التي تعتبر نهاية الثلث الاول من المسيرة فاستدعى الجنرال الادلاء وسأل كلا منهم على حدة . قدم كبيرهم « أحمد صبيح » وصفا مسهبا « للعقيلة » والطريق المؤدى اليها ، فأبان ان « العقيلة نفسها ليست بلدة بل بئر كبير يقع على خور النيل وهو خور يمتلئ بالامطار وتمكث به الامطار وتجرى طول السنة ولاتساعه يسمونه بالنيل ، وانه لا توجد غابات بالمعني المفهوم في الطريق بل اشجار خفيفة واراض مزروعة وانهم سيمرون بقريتين هما « الحمد » و « السنيطة » وان المسافة بين نوراني والعقيلة كالمسافة بين الدويم وشات ، وقدم الأدلاء الاخرون معلومات مقاربة لوصف أحمد صبيح وانفض الاجتماع في وقت متأخر من الليل بعد ان أقرت القيادة التحرك في فجر اليوم التالى .

وفي صباح الثلاثاء جد المربع في السير غربا عابرا منطقة تماثل طبيعتها وصف الأدلاء ، فاشرفوا على قرية « الحمد » في الظهيرة وأقاموا معسكرهم داخل غابة صغيرة باتوا ليلتهم داخلها .

اشرق عليهم فجر الاربعاء بعد ليلة هادئة نعموا فيها بنوم طويل فاتسمت المسيرة الصباحية بالنشاط والانتظام والحيوية. وكان الضباط يحسبون ان بانتظارهم نصف يوم من السير حتي ينتصف النهار كالمعتاد ، ولكن الامور سارت على غير ما يشتهون . فقد سجلت يوميات عباس بك وصفا دقيقا ليوم عصيب جابهوا خلاله صعابا حقيقية نجمت عن العطش ومشقة السير تحت سياط الشمس اللاهبة وهى المرة الوحيدة التي أحسوا فيها بوطأة قلة الماء على مسيرة الحملة . ولعل ذلك اليوم انطبع في ذاكرة من شهدوا المعركة وتحدثوا فيما بعد ، ومنه ساد الانطباع الشهير بأن العطش كان له نصيب الاسد في تدمير الحملة . فقد كتب عباس بك يصف مسيرة ذلك اليوم :—

« في يوم الاربعاء المبارك ١٠ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة واحد عربي نهارا قمنا من نقطة الحمد قاصدين العقيلة وصرنا نقطع الطريق بين غابات وزروعات بغاية الصعوبة لغاية الساعة سبعة عربي نهارا ولم نكن نعلم موقع الجهة التي نقصدها ، والعساكر لم يأخذوا من الماء الا اقل من مرتب يومين . وحيث كان خط مسيرنا في اعوجاج لعدم وقوف الخبير على حقيقة الطريق فما قاسيناه من الأتعاب تارة ومن العطش الزائد اخرى شئ لا ينبغي التعبير عنه خوفا من تكدير من يهمه أمرنا ، ولكن من حيث ابتدينا بالدخول لهذا الحد فلأجل ان يعلم حال الجيش وبهدلة العساكر من شدة العطش ، ارى الوجوب على نفسي ان أفصح الحقيقة على قدر ما يصل اليه علمى غير مبال بمن يلومني . وهى ان من شدة حرارة الشمس وطول السير يمينا وشمالا وعلمنا باختلال الخبير عن الطريق المستقيم قد انتهت زمازم العساكر المملوءة بالمياه لعلمهم بقرب النقطة الموجهة اليها واخذوا يعتزلون واحد بعد الاخر وعشرة بعد عشرة وما فوق ذلك حتي نشأ منها انكسار حذاء القلعة وصاروا يطوقون بانفسهم غير متعلقين بما يلاقونه . وادهى من ذلك ماصار من اتساع القلعة والحملة من الجهات بمسافة الفين متر

تقريبا . وخوفا من ان يفوز بنا العدو لاسمح الله بحالتنا تلك قد اندهشت جميع الرؤساء وتيقنوا من عدم الخلاص من هذه الجهة ومن شدة ماحاق بالعساكر بالعطش الزائد ظانين جميعا بان هذه مقصدة من الخبير . فاندفع ملهوفا لجهة العساكر سعادة الجنرال هكس باشا مناديا اليهم بالانتظام خشية من تعرض العدو ، فلا يسمع اليه قولا . فنادى على الضباط راجيا منهم حصول الهمة في عدم تبويظ القلعة وعدم خروج العساكر عن حد الطاعة اليهم فلا كانوا يمتثلوا . وكان سعادة أفندى الحكمدار يجول بجوادة يمينا وشمالا لجهات صفوف القلعة مناديا للضباط بحفظ نقطهم وللعساكر بالطاعة خوفا من تمكن العدو بهم فلا يسمع الا النداء بالعطش وقد ضاعت في هذه الساعة عقولهم وصاروا كأنهم لم يذوقوا مياه عشرة أيام أو أكثر فوقع الرعب في قلوب الرؤساء ، فمنهم وهو سعادة هكس باشا قال وهو في شدة الغيظ كيف يكون الحال لو اتتنا فرقة من العربان لا تزيد عن المائة هاجمتنا في هذه الساعة فلا يكون الا الغدر ببعضنا فواسفاه من ان تكون عساكر منظمة كهذه لاتحفظ نفسها اثني عشر ساعة من العطش مادام قدر الله لها ذلك . واني على يقين من ان ذلك لابد وان يكون ناشئا عن عدم اطاعة اوامر الضباط فاخبرته بان كثرة اكلهم الفول السوداني والبسلة وهى اللوبيا والاذ رة تسبب منها عطشهم حتي اوصلهم لهذه الحالة . وكان اغلب العساكر الموجودين بالقلعة يقطعون القرب ويكسرون الصهاريج المياه من أجل شربة ماء فأتلفت القرب والصهاريج . وباختصار ياسعادة الجنرال ان هذه الحالة مخيفة جدا ونحمد الله تعالى ومن علامات النصر والنجاح – قابلوا خور بطيخ في الطريق ..[٣١] »

وفي ذلك اليوم العصيب ابرز « أبو قرجة » لاول مرة جزءا من راياته المستترة ، فظهروا بالمئات يتعقبون الحملة خطوة بخطوة . ورغما من تدهور حالة المربع وسهولة توجيه ضربات قاصمة لصفوفهم الا ان « أبو قرجة » تمسك بتعليمات المهدى وتركهم وشأنهم مكتفيا بالتمتع بمراقبة مشهد تكسر الصفوف وتخلف الجنود وسقوط الدواب . وكان لظهوره ومراقبته المتصلة للمربع أثر نفسي مدمر ، فالجنود يشاهدون عدوهم الذى طالما سعوا الى لقائه على بعد خطوات منهم وهم لا يستطيعون حياله شيئا .

«وكانت طلائع الشقي محمد احمد يتبعون اثرنا من خلف القلعة وعددهم تقريبي كما بلغنا من الكشافين والباشبزق لا يزيدون عن ثلاثمائة وثمانين خيالة ويبعدون عنا مسافة ربع ساعة وتارة نصف ساعة خلف طريق سيرنا طامعين في اخذ ما نتركه خلفنا من ضعيف الجمال وغيره وما يسقط من الحملة والفتك بما يتأخر من عساكرنا »

وقد انقذت الحملة من ذلك الضنك على يد الكابتن هيرلث :—

« ونقول بدون انكار انه لحسن حظنا والسلامة لقوتنا وشفاء ظمأ عساكرنا قد ساعدتنا المقادير

٣١-يوميات عباس بك ص ١٠٣ .

الالهية بوجود حضرة القبودان هرلث أحد ضباط اركان حرب البروسياني . اذ انه لكونه من الصيادين العظام ، ففي أثناء سيره مع السوارى الموجودين برفقته اذ على بعد رأى ارتفاع مقدار من البط في وسط الحشائش ، فظن ان محل وجود هذا البط ولابد بها مياه اذ البط لايمكث الا بمحلات المياه ، فقصده وكان حقيق فوجد بركة كبيرة فاوقف هناك السوارى وعاد الينا مع اربعة منهم واخبرنا بوجود البركة المذكورة » .

وصلت الحملة اخيرا بالعقيلة وختمت الوثبة الاولى من مسيرتها . ولكن الثمن كان باهظا . فالمشقة التي عانوها اثناء المسيرة الاخيرة والهلع من مواجهة المصير الكالح بالموت عطشا ، لم يفارق اذهان ضباط وجنود الحملة حتي نهاية المسيرة ، ومن بعدها لم ترتفع معنويات الجنود الى ماكانت عليه ابدا .

الرهـــد

«ان الحكومة لا تقصد بسفريتنا هذه الا اعدامنا ولو لم يكن كذلك لما قادنا القومندان الانجليزي لجهة هذه الغابة الملعونة ... فهذه خرافة الانجليز وغشهم..»
صيحات الجنود اثناء مسيرة السبت ٢٠ أكتوبر

كانت ليلة الخميس ١١ أكتوبر حالكة الظلام ، حرمت من ضوء القمر وبريق النجوم ، فقد حجبتها السحب التي تكاثفت منذ غروب الشمس عن اعين الناظرين ، وخيمت العتمة على المنطقة مغلفة المعسكر والزريبة برداء اسود ثقيل . ولكنها كانت من الليالي السعيدة النادرة في مسيرة الحملة . فهي ليلة عيد الاضحى المبارك . وقد ضاعف شعور الاطمئنان بوفرة المياه من احساس الحبور الذى عم صفوف الجنود والضباط وانتقلت عدوى المرح الى الجنرال نفسه ، فأمر بأن تعزف الموسيقى احتفالا بليلة العيد. وحتى عندما خفت السحب المثقلة ، وهطلت الامطار مدراراً ، غض الجنود الطرف عن البلل الذى اصابهم والمشاق التي تكبدوها في نقل المتاع واستبشروا خيراً ، فتبددت الهموم التي ارقتهم طيلة الليالي الماضية بهواجس الموت عطشاً .

وقد ظلت روح الجنود المعنوية في احسن حالاتها تلك الليلة ، لذا كانت استجابة نيران الزريبة لطلقتين رشقها انصار ابو قرجة المندسين بين الاشجار ، قوية عنيفة . فلسبع دقائق متصلة رددت اركان الزريبة اصداء نيران المدافع والبنادق والصواريخ وهي تقصف بدون هوادة ، وبعنف لا يتناسب مع ضآلة الفعل المعادى ، وكأنما نووا اثبات قوتهم ومنعتهم والتأكيد لعدوهم انهم ليسوا تلك الجماعات المفككة المبعثرة التي شاهدها البارحة وقد انهك قواها العطش والتعب

وعندما اشرق صباح العيد كانت الصورة العامة للزريبة اقرب لوحدة مسترخية بمعسكر تدريبها ، منها لحملة مستغرقة في عمليات عسكرية . فقد نحرت الذبائح ووزعت الحلوى والمرطبات وارتدى الضباط احسن ملابسهم وتوجهوا لزيارة كبار القادة في خيامهم ، وامضوا ساعات النهار في تجاذب اطراف الحديث عن الايام الغابرة وعن ذكريات الوطن ، فنسوا او تناسوا ذلك العدو البعيد الذى مكث هادئاً في انتظارهم ، وذلك العدو القريب الذى لا تغفل عينه عنهم لحظة .

أتاحت عطلة العيد لضباط الحملة مهلة من الزمن للابتعاد عن همومهم اليومية وتأمل اداء الحملة وتقويمها في ماضيها القريب ، ومستقبل ايامها القادمة ، وشطح الخيال بالجنرال وضباطه الاوروبيين وهم يقلبون الخطط ويفاضلون بين الطرق والمسالك المتعددة للوصول الى الابيض .

ويبدوا ان كاتبنا كان له نصيب الاسد في النقاش الدائر في ذلك اليوم فقد سجلت مفكرته اشتاتاً من الآراء والمقترحات التي دارت في المستويات العليا من الحملة ، واهمها الاقتراح الذى تقدم به الجنرال لتدبير مؤامرة لاغتيال المهدى ، محبذا الاتصال بالياس باشا ام برير ووعده بنفحة مالية ضخمة توازى ٣٠٫٠٠٠ ريال وبمنصب رفيع ان افلح في اغتياله .

وبرر هكس تآمره بأن لا فائدة من احتلال الابيض وهى خالية ، فالمهدى هو روح الحركة وعقلها المحرك « وما هى الفائدة بدخولنا الابيض اذا لم نتحصل عليه بنفسه لان المسألة لو كانت قاصرة على دخولنا الابيض فتلك في اليد في أى دقيقة ! وان مقصودنا هو القبض عليه وقتله حتي بعد ذلك يؤمل انتظام كردفان وهدوء احوالها (١) » .

وكان عباس بك اول المعارضين مذكرا بأنهم فشلوا في اقناع متطوع واحد يجازف بحياته ليحمل رسالة الى الدويم لتبلغ الحكومة عن اخبار التقدم ، رغما من الاغراء بتقديم مكافأة قدرها مائتا ريال . فان كان الامر كذلك ، فما بالك بمن يطلب منه ان يخترق حشود الانصار ويتغلغل الى قلب الابيض معقل المهدى ؟ ثم ان الياس باشا من كبار المعضدين للمهدى وقد غالى في معاداة الحكومة الى الحد الذى لا يرجى منه عودة او ارتداد .

ثم تطرق الحديث الى المنشورات التي اعدها هكس لتوزع على الاهالى ، وتداول المجتمعون في الوسيلة التي ترسل بها لمشايخ القبائل ، واجمعوا في النهاية على تسليمها للمرأة المسنة التي اسروها في قرية ود صبيح .

اخذ عباس المنشورات واتجه نحو خيمة علاء الدين لاخذ موافقته النهائية على اسلوب المنشور وعباراته الطنانه :

« قد صار حضورنا ومعنا جيش عظيم من العساكر المنصورة لضرب الاشقياء ونحن الآن في وسط بلادكم ولابد بلغكم ذلك وقبل الان حررنا لمن يلزم من المشايخ بالنصيحة والامان فاذا كنتم طايعين للحكومة وتريدون خلاص انفسكم واموالكم وعيالكم من التلف وعمارة اوطانكم فبادروا بالحضور لمقابلتنا انتم ومن يتبعكم وعليكم امان الله ورسوله ومن لم يحضر فيكون هو الجاني على نفسه ونكون بريئون من ذنبه يكون معلوم «١٣ الجمعة سنة ٣٠٠ أنا حكمدار عموم السودان . علاء الدين باشا . امضاء أنا الانجليزى قومندان ورئيس الجيش المصرى هكس باشا[٢] . »

أومأ علاء الدين برأسه معبراً عن رضائه عن محتويات المنشور واضاف امضاءه ، ثم استمع لعباس بك وهو يروى ملخص حواره مع الجنرال حول الوسائل الممكنه للقضاء على المهدى ولو بالتآمر عليه واغتياله .

وقد أيد علاء الدين ما ذهب اليه عباس من تعذر تنفيذ مثل هذه المؤمراة ، واضاف انه سبق ان اقدموا على محاولة مشابهة في الخرطوم ، كلفوا شخصاً موثوقاً بأمانته وشجاعته ومنحوه ١٠ آلاف ريال من خزينة الحكومة ثمناً لاغتيال المهدى ، واتجه الى الابيض وبعد اسابيع وصلهم منه خطاب بأنه

١-يوميات عباس بك ص ١١٢

٢-يوميات عباس بك ص ١١٥ .

داخل معسكر المهدى وفي انتظار الفرصة الملائمة ليوجه ضربته ولا زالوا في انتظار خطاب آخر منه حتي الآن .

وقد مضت بقية ايام الحملة القليلة التي امضتها في العقيلة هنيئة رخية ، لم يكدر صفوها الا المناوشات المعهودة التي تجاوز حصادها عشرة جنود كانوا يجمعون البطيخ خارج الزريبة ، فداهمهم رجال ابو قرجة المترصدون ، ولما ابلغ النبأ للجنرال عزم على التحرك فجر الاحد .

أسرعت خطوة المربع قليلا في الوثبة الثانية بعد تحركهم من العقيلة . فبعد سير متصل أشرفوا على حلة الفكى محمد وغادروها فجر الاثنين ١٥ أكتوبر فأشرفوا على خور صوعان فمكثوا به يومين كاملين وتزودوا بالمياه وعاودوا السير فحطوا في قرية البلشيك يوم الاربعاء ، وغادروها للوثبة التالية ولم يوفقوا في الوصول اليها بل اطلوا على قرية أم دبيكر في صباح الجمعة وغادروها بسرعة ، فقد وجدت بركتها موحلة ومياهها غير صالحة للشرب ، وتحركوا من ام دبيكر صباح ٢٣ أكتوبر وواصلوا السير حتي برز لهم احد الادلاء مبشراً بوصولهم لخور البليات « فهللت العساكر لهذا الخبر المسر فوصلنا الخور وتعسكر الجيش بمسافة خمسون مترا بعيدا عن الخور وكان العسكر يتزاحمون على المياه فرحين مسرورين[٣] .. »

حق لعباس بك ان يختم احداث الاسبوع منذ تحركهم من العقيلة وحتي وصولهم البليات ورنة الفرح بادية بين اسطر اليوميات . فقد كان اسبوعا شاقا حافلا بالاحداث اضناهم فيه السير المتصل كما تزايدت ضراوة مناوشات انصار ابو قرجة وتعاظمت خسائر المربع . في صباح الاحد فتحت عناصر ابو قرجة نيرانها عليهم وهم يجدون السير لصوعان ، «فكنا نراه على البعد كامنين فوق اعالى الاشجار ليتفقدوا حالنا» . اما اثناء مسيرة الاربعاء فقد تعاظمت حشود طلائع ابو قرجة فتجاوزت ثلاثمائة فارس كانوا يتتبعون المربع على البعد ، وعندما سنحت لهم الفرصة فتحوا نيرانا كثيفة تساقط على اثرها عشرون من صفوف المربع كان من بينهم احد قادة الكتائب .

وخلال نفس الاسبوع المنصرم ، تعرضوا لمواجهتين مع ذلك العدو الذى اخذ بخناقهم وكانوا قد ظنوا انهم تحرروا من قبضته – العطش . في يوم الاثنين ، وهو اليوم الثاني لتحركهم الى العقيلة ، ادى اهمال الضباط واسرافهم في توزيع المياه التي اخذت من خور صوعان الى انحدار احتياطى المياه المحمولة من ٥٠٠٠ الى ١٢٠٠ قربة خلال يوم واحد . وقد اصرت قيادة الحملة على توزيع المياه الباقية بالتساوى وبكميات ضئيلة على الوحدات خلال المسيرة ، فحرم كثير من الرتب الدنيا من المياه وتساقط اربعة جنود في الطريق من فرط الظمأ ونفق اكثر من مائة جمل وعدة بغال تناثرت جثثها على قارعة الطريق كايماءات محزنة تكشف عن طبيعة مسيرة هكس ومأساته .

أما في يوم الخميس ١٨ أكتوبر ، فقد تكشفت حقيقة مفزعة اخرى بالقرب من قرية

٣–يوميات عباس ص ١٢٥ .

البلشيك .فقد كانت سياسة هكس هى الرد بعنف على كل اشتباك مهما كان ضئيلاً ، ولما اطلق انصار ابو قرجة بضع طلقات نحو المربع ، وجه هكس بأن تشترك نيران المدفعية مع البنادق في اسكات طلقاتهم . ولكنه اصيب بخيبة أمل جديدة ، فقد تدني مدى المدافع من الف متر الى ما يقل عن مائة متر ، وعجزت المدافع عن توجيه قذائفها لأبعد من هذا المدى لاهمال صيانتها وسوء اداء الطواقم وكان الجنرال يحسب ، حتي ذلك الحين ، ان تفوق نيران مدفعيته هو احدى اوراقه الرابحة التي سيبرزها في اللحظات الحاسمة ، ولكن حتي تلك تسرب اليها القصور واصابها الخلل .

أما اقسي ايام ذلك الاسبوع المنكود فقد كان يوم الاربعاء اثناء مسيرتهم من صوعان الى البلشيك ، وعدا مسيرة الاربعاء ١٠ أكتوبر الشهيرة من الحمد الى العقيلة التي كاد الظمأ ان يقضي فيها على الحملة ، لم تسجل يوميات عباس بك يوما اشد ضنكا من هذا اليوم ، وضاعف شعور الضياع والحنق الذى انصب على الضباط الاوروبيين وعلى تخبط القيادة العليا من مشقة اليوم . فقد كتب عباس بك :

«في يوم السبت المبارك ٢٠ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ عربي صباحا قمنا من نقطة أم دباكر قاصدين بليات وبعد مسيرتنا بساعتين قابلنا غابة لم يتمكن الانسان من العبور فيها ، وبينما العساكر سائرين خلف الخبراء اذ وقف الكولونيل فركهاروس وصمم على المرور داخل الغابة قولا منه بأنها اقرب مما عرف عنها الخبير اعتمادا على بوصلة بيده ، فتعجبنا غاية العجب من مجانبة اقتراحه للصواب لان الخبير اعرف منه بهذه الطرق وما احضرناه الا لارشادنا عن الطريق الاسهل لمرور هذا الجيش الجسيم .وبالاختصار فانه لا يريد من ذلك الا القول فيما بعد ان نصر الجيش يعود اليه وليس الى هؤلاء الخبراء الذين احضرهم سعادة الحكمدار مع اننا لم نرى من الخبراء شئ يوجبنا لعدم الاعتماد عليهم ، وياهل ترى هل يمكنه التقدم بالجيش بهذه البوصلة التي اتعبنا بها كل العساكر من نحو تمزيق هدومهم ودخول الشوك باجسامهم فضلا عن مشقة الجمال في العبور وقطع خشب الاصناط باحمالهم تارة وباجسامهم ؟ وهل لا يدرى ان مع تشبك الاشجار السنط ببعضها والخلاص من بينها يكون مانعا بالكلية من مرور الجيش ، وموجبا بلا شك في التأخير زيادة عما لو قطعنا الطريق بالميل ؟ فهذه خرافة الانجليز وغشهم. ولو قلنا أنه يقصد بذلك الوصول للمياه بسرعة فهل لا يفطن كيف تكون النتيجة لو صادفنا العدو داخل الغابة؟ ان هذا لشئ عجيب، ولقد كانت هذه النادرة اخف رحمة فيما صادفناه بعد العصر وهو في الساعة ٩ ونصف عربي في اثناء مسيرنا اذ توجه الكولونيل ذاته وبعد ان اختفي مسافة عاد وقال انه لاجل الوصول للخور بسرعة ينبغى علينا العبور من هذه الغابة للخور واشار بيده لقطعة غابة ترى من فوق التل كأنها لم تكن .. وفقط حشائش خفيفة وبعض اشجار سنط وعند نزولنا في الواطى وجدنا طريق مستقيم وعلى يسارها غابة عالية الاشجار . ومع كونه عالما علم اليقين بارتفاع اشجارها ووجود بوص يبلغ ارتفاعه خمسة وستة أمتار . فوافق الخبير على مضض خوفا من ان يلام فاتبع الطريق وسار عليها وتبعه سعادة الحكمدار مسافة نصف ساعة فزعق الجنرال هكس باشا

وقال لى اين الخبير فأخبرته بأنه تقدم على هذا الدرب مع سعادة الحكمدار فقال كيف ذلك مع كونه الكولونيل فاركهاروس عرف عند المرور من هنا وارسل مندوب يناديه وهو في حالة الزعل وحضر ايضا سعادة الحكمدار وامر بالدخول داخل الغابة على الجهة الشمالية ودخل الجيش الغابة حسب الامر وكنت اذ ذاك رأيت سعادة الحكمدار لقي درب داخل البوص فتبعته وسرنا داخلا مسافة ساعة تقريبا ولم تنتهى الغابة وكان ارتفاع البوص من خمسة لستة امتار لا يمكن الرائي ان ينظر او يحقق ما بجانبه على بعد متر واحد وفي الاثناء زاغ عن بصرى سعادة الحكمدار وبقيت انا واربعة انفار متحيرى الفكر كيف تكون نهاية هذا الطريق وكنت لا اسمع الا ضجة الجيش على بعد بعيد غير ممكن الرجوع اليه فظللت اتبع اثر سعادة الحكمدار ولكني لم اجده وقد ضاع كل فريق من الجيش والحملة الى جهة دون معلومية بعضهم بعضاً . وبينما كنت تائها كأمثالى اذ سمعت مناديا ينادى علينا من الجهة اليمني قائلا ها هنا الطريق فملت حالا تجاه الصوت وقطعت مسافة عشرة دقائق بدون ان أرى احد فطلعت من قطعة ارض مكشوفة نوعا حشيشها اوطى فوجدت من على بعد جانب من الوادى وسعادة الحكمدار وسعادة الجنرال هكس باشا فتقدمت الى ان وصلتهم ولم يزل الجيش في التقدم داخل الغابة بحالة توريط وبوصولنا فوقه فكنا نرى العساكر والحملة تائهين بالغابة كل جمعية على حدتها على مسافة الفين وثلاثة آلاف متر تقريبا واول من طلع التل مع الجيش كانت الطوبجية ومدافع الكروب . ولما رأى سعادة الجنرال هكس باشا ذلك انجبر بالعودة لجهة التل واستمرت العساكر والحملة في طلوع التل باتجاه ندا بروجية الجيش ولم ننتهى لحد الساعة ٢ عربي ليلاً . وكان كل من لحق التل من العساكر يأمره سعادة الحكمدار حالا بقطع اشجار السنط لاعمال الزريبة خوفا من انتهاز العدو هذه الفرصة الملعونة وتعسكرت العساكر فوق التل بحالة غير منظمة لضيق المحل حتي صار كل انسان لا يدرى اين تابعيته وبات كل عسكرى وكل ضابط بأى جهة لحقها بالتل خائفين . وكان سعادة الحكمدار يطوف بنفسه بداير القلعة في اطمئنان العساكر وتشجيعهم لصرف ما لحقهم من غشاوة الفكر حيث كانوا يتكلمون بالفاظ جهلية فمنهم من يقول ان الحكومة لا تقصد بسفريتنا هذه الا اعدامنا ولو لم يكن ذلك لما قادنا القومندان الانجليزى لجهة الغابة ومنهم من يقول أنه كان مستعدا لقتل نفسه خلاصا من ورطة الدخول في هذا الحشيش الناشف ومن الضباط العظام من يقول ان هذه بلا شك مقصده من الانجليز في اعدامنا ومن الباقين من استشهد مؤكد لما يلحقه من الموت داخل الغابة وصارت الالسن عموما تطعن بما يأتي فكر صاحبها من الملحوظات حسنة كانت ام سيئةوفي الواقع لو لم يكن البارى مريد لنا بالنصر وقلوب اعداءنا عمية لكانت حياة هذا الجيش المركب من خمسة عشر الف نفس وخمسة الاف جمل تقريبا والف حصان وبغل موقوفة على كبريتة واحدة تضع في هذه القشوش الناشفة ولا يمض برهة زمانية الا وهى آخذة بأرواح الجيش عموماً فحمدا لمن له الحمد على هذه المنة العظيمة وصرنا بعد هذا لا نفكر في اعدائنا طامعين في رضا البار على هذا القياس ولقد مضت هذه الليلة بين كان

ويكون الى ان اصبح الصباح ليوم الاحد المبارك ٢١ أكتوبر سنة ٨٣ عازمين على القيام للبليات حامدين المولى على انقاذنا من بلية ليلتها . »[٤]

أوحت اسطر مفكرة عباس بك بأن شقة الخلاف التي برزت للمراقبين منذ شهر خلا ، منذ مغادرتهم للدويم ، قد اخذت تتسع يوما بعد يوم . فقد برز التحزب واضحا بين الضباط الاوروبين وعلى رأسهم فركهار ، والضباط المصريين وعلى رأسهم اللواء حسين مظهر وقناوى بك من المدنيين المرافقين .

وبعد تنفسهم الصعداء بانقضاء الاسبوع العصيب وبلوغهم لخور البليات الذى آذن بقرب انتهاء المرحلة الثانية - العقيلة الرهد - لم تجر الامور كما أملوا ، فبعد عشر دقائق بالضبط من تشييد الزريبةعلى الجانب الايمن من الخور ، فتح انصار ابو قرجة المندسون بين الاشجار نيرانهم على المربع « ولم يمتنعوا عن الضرب علينا خلال النهار على بعد تقريبا من سبعمائة لالف متر وتارة يضربوا الينا مختفين في الحشائش زاحفين على بطونهم الى مدى قريب ومن كثرة هذا الضرب قتل خمسة جنود خلاف ١٣ جرحوا ايضا[٥] .. »

كان بود الجنرال ان تستجم الحملة لمدة اطول في تلك البقعة الظليلة بمياهها الوفيرة النظيفة ونسائمها الرطبة ، ولكن اعداءه لم يتركوه وشأنه ، فقد اصبحت مناوشاتهم التي تزايدت حدتها وتعاظمت خسائرها عادة يومية ، ففي فجر الاثنين استيقظوا على دوى رصاص الانصار المختفين بين الحشائش والاشجار ، وتساقط اكثر من عشرين من الجنود قبل ان يتمكنوا من اخذ سلاحهم ، وعاودوا فتح نيرانهم في الظهر لفترة اطول . كان ذلك اكثر من ان يتحمل الجنرال فعزم على التحرك في اليوم التالى ، متحسرا على مفارقته لخور البليات الظليل ، وعاودوا السير بعد ان تزودوا بمياه يومين .

كان ليومى الراحة اللذين نعموا بهما في خور البليات اثرهما في بث جو التفاؤل من جديد على الرغم من الخسائر التي منوا بها . لذا اتسمت مسيرة الاحد بالنشاط والحيوية . وعندما تعرض المربع لنيران الانصار المعهودة تجاهلوها تجاهلا تاما ، ومضوا في طريقهم لا يلوون على شئ وهم يلحظون بأطراف اعينهم حشدا صغيرا من الانصار لا يتجاوز ثلاثين مقاتلا ، وقفوا بدورهم يرقبونهم من البعد .

واصل المربع سيره بعزيمة اقوى وخطوة اسرع الى ان ترامى الى اذان الضباط دوى النقارة المكتوم، وعندها نصح الضباط هكس بالتوقف فهذا دليل على أن الانصار سيعاودون الكرة ومادوى النقارة الا اشارة لهم بالتجمع ، ولم يخيب هؤلاء ظنهم طويلا ، فسرعان ما ارتدوا باعداد ضخمة هذه المرة

٤-يوميات عباس بك ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

٥-يوميات عباس بك ص ١٢٨

وبجرأة منقطعة النظير ، وللحظات كادوا ان يصطدموا بالمربع ويضربوا بتوجيهات المهدى عرض الحائط فقد طوقوا المربع من ثلاث جهات ولم يفصل بين القوتين اكثر من مائة ياردة واشتعلت النيران بين الجانبين « وصرنا في مناوشة جسيمة طول سيرنا وكنا نسير نصف ساعة ونقف بعض دقائق من شدة هذه المناوشة » .

وظلوا في تلك الحالة لساعات طويلة حتي اشرفوا على قرية الأدية ، فأمر هكس بالتوقف وتشييد الزريبة وباتوا ليلتهم فيها ، وقد عزموا على التوجه للرهد صبيحة اليوم التالى . ولكن ضيوف النهار حلوا ايضا في تلك الليلة وتركوا آثارهم .

في فجر اليوم التالى وجدوا آثار زيارة عدوهم الليلية ظاهرة للعيان . في ستار الظلام وجه ابو قرجة فرسانه ببث منشورات الانذار التي وصلت لتوها من طرف المهدى في كل ركن من اركان الزريبة . فأمر الجنرال بأن تجمع وتحرق فورا حتي لا تقع انظار الجنود عليها ، ولكن هيهات، فقد استغرق عدد كبير منهم في قراءتها واستيعاب معانيها[٦] ولم يتمالك عباس نفسه فسجل نص المنشور كاملا في يومياته « لعجيب الفاظه »[٧]

نفض الجنود همومهم وقووا عزيمتهم وخطواتهم وهم يتجهون من الادية نحو الرهد ، ممنين الانفس براحة تمتد لبضعة أيام على ضفاف بحيرة الرهد الكبيرة حيث سيجدون في انتظارهم حلفاءهم من رجال الملك آدم ام دبالو ، ومنها تصبح الابيض ، الغاية الكبرى ، في متناول اليد وتضع الحملة ختامها ويعودون لاولطا تهم سالمين وتصبح تلك الايام العصيبة ذكريات منسية .

أسرعت تلك الآمال العراض بخطوة المربع ورغما عن مناوشة الانصار مضي المربع في طريقه غير مبال ، فما هى الا مسيرة ساعات ثلاث حتي اشرفوا على احد اهدافهم الكبيرة – الرهد – محط آمالهم في الاسابيع الاخيرة .

كان سرور القيادة بالوصول الى الرهد عظيما ، فذلك يعني انهم اكملوا ثلاثة ارباع المسيرة ، وقد عزم الجنرال على اخذ فترة راحة طويلة تمتد لحوالى الاسبوع فأمر بتشييد زريبة منيعة جعلت المعسكر يبدو شبيها بحامية مستديمة قوية .

أما بركة الرهد نفسها فلم تكن كما وصفها الادلاء : « واما الخور فلم توجد به المياه بالصفة التي تبالغت لنا من قبل بل وجدت الحشائش بكثرة واتساعه تقريبا من الف متر عرض وطول والمياه الموجودة به هى ببعض حفر ويستحيل الاكتفاء منها ما لم يصير اعمال محل كحفرة متسعة بعد نظافة الحشائش منها وطرق صغيرة من جميع جهاتها كى بها توصل المياه للحفر المذكورة ، ومنها تؤخذ المياه وقد قيل ان هذا الخور يملا سنويا وعدم ملؤه في هذه السنة هو بالنسبة لعدم كثرة الامطار ، ومع ذلك

٦–ذكرت اوراق على المهدى ان بعضهم قرأها وتمعن فيها وكتب رداً على ظهرها اخذه رجال ابو قرجة وعرضوه على المهدى .
٧–يوميات عباس بك ص ١٣١ .

فلله الحمد على وجود ما وجد به بالنسبة لما لنا من احتياج اليها ولحد الان الساعة ١٢ غروبا فلم نعلم ما هو التصميم على جعل هذه النقطة معسكرا أم لا [٨] . »

استغرق الجنود في اليومين الاول والثاني في بناء الزريبة ، فقد أمر هكس ببناء منصتين مرتفعتين للمدافع حتي تصبح نيرانها اكثر فعالية ، وعززت الزريبة فأزدادت سمكا ، وحفرت الخنادق لحماية الحملة من كل الجهات وبدأت فترة استجمام الحملة التي امتدت لستة أيام على ضفاف بركة الرهد .

* * *

جلس جوستاف كلوتز ، خادم البارون سكندورف بخيمته مفكرا متأملا . أى اقدار قذفت به وجعلته يترك برلين ، مدينته الجميلة ، ويعبر تلك القفار ليجد نفسه داخل خيمة تشرف على خور الرهد في اعماق اصقاع السودان ؟ ! مد يده لملابس سيده لينظفها ، ثم نحاها جانبا وخرج من الخيمة والافكار تضطرم برأسه . كانت ازمة كلوتز هى مشكلة الكثيرين داخل الحملة ، شعور الضياع واليأس من النجاح والانتصار ، والخشية من الفناء اما بحراب الانصار او بالموت عطشا . لقد قلب وجوه الامر المختلفة كثيرا في الاخيرة ، وبعد معاناة طويلة ، اضمر في نفسه امرا . فخرج باحثا عن صديقه الوحيد وكاتم سره الذى كان يفضي اليه باسراره وخلجات نفسه ليفاتحه ويستشيره في امر قراره الخطير . فقد عزم على الهرب من الزريبة والانضمام للمهدى والنجاة بجلده وليكن ما يكون . فمهما يتعرض له من اخطار وأهوال ، فهى اخف من انتظار الموت ظمأ . دخل على صديقه وهو يقدم رجلا ويؤخر اخرى وجمع شجاعته اخيرا وفاتحه في الامر . وبدلا من ان يواجه تقريعا ولوما من صديقه فوجئ بأن نفس الفكرة قد ساورت صاحبه ، فتهللت اساريره وصافحه مسرورا ، واستغرقا على الفور في وضع تفاصيل خطتهما لمغادرة الزريبة والانضمام للمهدى .

وفي مساء اليوم الثالث لوصول الحملة الى الرهد ، تسلل شبحان من بوابة الزريبة وابتلعها الظلام. لم يعرهما الحراس التفاتا فقد بادروهم بأنهما ذاهبان لاحضار الحطب لطهى طعام البارون . ولكن لو أمعن الحراس النظر فيهما لادركوا حقيقة هدفهما . فقد حملا زادا وسلاحا .

ابتعد الاثنان عن الطريق وتوغلا داخل الاشجار وتركا خلفهما الزريبة الى الابد . وانحصر املهما في ان تقع عليهما ابصار الانصار المنتشرين في كل مكان فيأخذانهما في الاسر.

واصلا السير بين الأشجار حتي اصابهما التعب فجلسا ليستريحا ، وما ان تهيئا لاخذ قسط من الراحة ، حتي ترامى الى اذنيهما دوى طلقات رصاص من مكان قريب ، فر على اثرها زميل كلوتز عائدا الى المعسكر تاركا صديقه وحيدا[٩] .

جلس كلوتز يعمل فكره ، هل يعود الى المعسكر وينسي مغامرته القصيرة ؟ أم يواصل السير الى

٨- يوميات عباس بك ص ١٤٣

٩- الاب اوهرولدر ص ٨٠

رجال المهدى ؟ وأخيرا قر عزمه على الرأى الاخير ، فقد خشي ان يسبقه زميله الى المعسكر ويروى الراوية كاملة فيجد نفسه عرضة للاعتقال والتحقير . قرت عينه بعد ان اتخذ قراره الحاسم بالانضمام لانصار المهدى ، فتوجه نحو شجرة كبيرة وسط معطفه ليستلقيَ عليه . وقبل ان يستسلم للنوم ، امسك بندقيته واطلق عيارين ناريين في الهواء حتي يظن كلا الجانبين – الانصار والمربع – ان الطلقات صادرة من الجانب الاخر .

استيقظ كلوتز مبكرا ولملم ملابسه وحمل بندقيته ودار على عقبيه ليتجه بعيدا عن الزريبة نحو معسكر المهدى وقبل ان يخطو خطوته الأولى ، تسمر في مكانه ، فقد فوجئ بثلاثة رجال احاطوا به محدقين وقد صوبوا بنادقهم نحوه . ها قد حلت اللحظة الحاسمة . فقد اعمل فكره كثيرا في كيفية الاتصال برجال المهدى دون ان يعرض نفسه للمخاطر ، ولكن هؤلاء وفروا عليه كل هذا فقد ظلوا يرقبونه طيلة الليلة الماضية ، ولم يشاءوا ايقاظه خشية ان يضطرب ويفاجأ ويضطرهم لخوض معركة غير متكافئة . اسرع يحرك يديه ويعصر دهنه لينطق بالكلمات العربية القليلة التي يعرفها ليشرح لآسريه حسن نواياه ، فألقى ببندقيته جانبا وبسط يديه وهو يأتي بحركات ودية ، ولكن هؤلاء ظلوا يحملقون فيه دون ان يأتوا بحراك ، فهز يديه مرة أخرى يائسا وهو يهتف متسائلا عن زعيمهم «الدرويش .. أين الدرويش ؟ » فتقدم الانصار الثلاثة نحوه وجردوه من سلاحه وطلبوا منه ان يتقدمهم نحو معسكر ابو قرجة .

لم يصدق عينيه وهما تشاهدان معسكرا ضخما يموج بالحركة والضجيج ، يأوى كل انصار ابو قرجة في امان تام ، ولا يبعد عن الزريبة الا ميلين او اقل .

أدخل كلوتز على ابي قرجة فرحب به الاخير ثم استجوبه استجوابا منفصلا عن احوال المربع وتسليحه ، وفي نفس اللحظة ارسل فارسا سريعا ليبلغ المهدى نبأ اسر احد كبار الضباط الاوروبيين ، كما كان يظن ابو قرجة في تلك اللحظات .

وقبل ان ينقضي اليوم التالى ، أتاهم رد المهدى بأن يبعث الاسير الى الابيض فورا وان يعامل معاملة كريمة ، فوجه ابو قرجة بأن يحل وثاقه وامر له بجواد وارسل تحت الحراسة المسلحة الى المهدى في الابيض .

* * *

في منتصف أكتوبر ، وقبل ان يبلغ الجنرال هكس ترعة الرهد ، كانت استعدادات المهدى قد اكتملت لخوض معركته الكبرى ، فاصبحت خيمته المنصوبة تحت شجرة التبلدى والاكواخ والخيام التي احاطت بها اشبه بخلية نحل تموج بالحركة والنشاط . فسيل تقارير ابو قرجة وعبد الحليم يتصل بلا انقطاع ليبلغه نبأ تحركات هكس اولا بأول . فهو الآن بنورابي ثم العقيلة فصوعان ثم الرهد . ووفود

القبائل برجالها ونسائها ودوابها مازالت تغذى معسكر المهدى حتي ضاقت الارض على سعتها بهم مبايعة ثم موالية لتنتظم بمعسكر التدريب الذى كان العمل فيه يجرى على قدم وساق ، والرسل والفرسان في حركة متصلة يملأون الساحة بصخبهم يحملون خطابات المهدى وانذاراته ومنشوراته .

وخلال تلك الايام برزت شخصية المهدى بحيويتها وطاقاتها الخلاقة وهى توجه تحركات الجيش في تلك البقاع المترامية الاطراف موزعا وقته بين المجالس الحربية والتحركات العسكرية والاشراف على التدريب وتدوين المجادلات الفكرية وتشريع القوانين وسنها والخطابة والوعظ والارشاد .

كان لرسل ابو قرجة وعبد الحليم الاسبقية ، فيدخلون فورا على المهدى ، فهم يحملون انباء عدوهم الزاحف الذى كانوا يتحرقون ليوم لقائه بصبر نافذ .. وقد علا الغبار في احد أيام الاسبوع الاخير من أكتوبر من جهة الشرق منبئا عن فارس مسرع يحمل احد تقارير ابو قرجة اليومية .

أدخل الرسول على المهدى مباشرة ، فحمل اليه نبأ اسر ضابط « انجليزى » .

انتشر النبأ في المعسكر بسرعة البرق واصبح سكانه في شوق عظيم لرؤية الأسير . وعندما بدا موكبه اشتد الزحام حول خيمة المهدى وتدافع المقاتلون لتكتحل اعينهم بمشهد احد زعماء اعدائهم وهو يواجه المهدى .

وفي وسط الزحام ، كان الاب اوهرفلدر يشق طريقه بصعوبة بالغة حتي يصل الى مدخل الخيمة ، فقد أرسل اليه المهدى ليترجم حديث الاسير الاوروبي ، ولما تعرف عليه المتزاحمون حول الخيمة تعالت الصيحات محذرة « اعمل حسابك يا يوسف القسيس » « لا تخف عنا شيئا مما يقوله صديقك » « افسحوا الطريق ديل ناس الدلنج(١٠).

وقف الاب اوهرولدر منتظرا استدعاءه على احر من الجمر ، فقد مضت شهور طويلة منذ ان صافحت عيناه مرأى احد ابناء جلدته ، دعك من ضابط من حملة الجنرال هكس التي بدت له ، من شدة يأسه ولهفته ، وكأنها حملة انقاذ شخصية بعثت لانتشاله من براثن الاسر.

ولما سمح له بالدخول جال بنظراته في ارجاء الخيمة ، فوجد المهدى جالسا يبتسم وعن يمينه احمد سليمان ، والاسير امامها ، حيا الاب المهدى الذى رد عليه ببشاشته المعهودة ، ثم دعاه للجلوس وقدم اليه الاسير.

رفع الاب عينه ليتفحص الضابط الاسير ، فأصيب بخيبة امل كبرى ، فعوضا عن ان يجد امامه احد الضباط الانجليز الكبار ، وجد نفسه قبالة فتي يافع اشقر الشعر ، ازرق العينين يرتدى ملابس رثة ترصعها بقع الدهن ، ويضع على رأسه طربوشا متسخا .

١٠-الاب اوهرولدر ص ٨٣ .

قطع عليه المهدى تفحصه للشاب طالبا منه ان يستجوبه ويترجم حديثه . فوجه الاب حديثه للأسير متسائلا عن اسمه : أجاب الاسير : « جوستاف كلوتز من برلين ، مراسل صحيفة المانية »

وعندما طلب منه المهدى ان يستفسر منه عن احوال هكس قدم وصفا صادقا مفصلا عن احوال الحملة ، ختمه في النهاية بأن الرأى الغالب عند الضابط الاوروبيين هو ان مصيرهم الهزيمة .

ابتلع الاب اوهرلدر الصدمة الجديدة بصعوبة ولكنه عزى نفسه بأن كلوتز لربما كان يمالئ المهدى لكسب مودته . ومرت فترة صمت طويلة حين عجز اوهرلدر عن الترجمة ، وقبل ان يستجمع شتات نفسه المبعثرة لكزه احمد سليمان منبها ، طالبا منه سؤال الاسير عن عدد مدافع هكس .

وبدلا من ان يسأله اوهرلدر ذلك السؤال واجهه بسؤال آخر : « لم هجرت صفوف الحملة وسعيت للقاء المهدى » . أجابه الاسير ببساطة « لانقاذ حياتي » فأطرق الاب اوهرلدر يفكر مليا وقد امتلأت نفسه غما الى أن تنبه حين ناوله احمد سليمان مفكرة صغيرة وجدت بحوزة كلوتز وطلب منه اطلاعهم على محتوياتها .

قلب الاب صفحات المفكرة ، فوجد بها تواريخ تحركات الحملة من محطة لاخرى ، واحصائية بالجمال التي تنفق كل يوم من أيام مسيرة الحملة ، وبعض الملاحظات عن سيده البارون سكندورف .

ختم المهدى المقابلة طالبا من الاب اوهرلدر سؤال الاسير عن أى الجيشين اقوى ؟ ولمن ستكون الغلبة في النهاية اجاب كلوتز بلا تردد بأنه يعتقد ان جيش المهدى اقوى وان النصر سيكون بجانبه ، الا ان عددا كبيرا من رجاله سيتساقطون اثناء القتال لان تسليح هكس النارى كان قويا ومتفوقا على سلاح المهدى فقاطعه احمد سليمان « ان الشهادة هى مطلبنا ومبتغانا » .

كان سرور المهدى عظيما ، فقد تأكدت له تقارير ابو قرجة بما لايدع مجالا للشك . فتقارير ابو قرجة التي تطفح حماسا شئ ، ورأى اوربي عاش مع الحملة شئ آخر .

أمر المهدى باحضار طعام للأسير ولما قدمت صحاف الطعام صار يتخير اطايب قطع اللحم ويقدمه بيده للأسير الذى انبسطت اساريره واشرقت ملامحه مطمئنة .

بعد أن تناولوا الطعام صرف المهدى أحمد سليمان وابقي الأوروبيين وطلب من اوهرلدر ان يبلغ الاسير انه سيصبح في امان تام ان اسلم وانضم لصفوفهم ، نقل حديث الاب المهدى للاسير ، فوافق بدون تردد ، فمد المهدى يديه وبايعه وردد الاخير الفاظ البيعة بلهجة ركيكة ، ثم استدعى المهدى أحمد سليمان مرة اخرى وامر بأن يصرف للاسير جبة الانصار ، وسيفا وعمامة وان يدعى مصطفي من الآن فصاعدا ، ثم صرفهم جميعا .

كان لمقابلة المهدى مع كلوتز أثر هام في مجريات ملحمة شيكان . فمنها استمد ثقة مفرطة جعلته يمضي في مخططه الذكى للنهاية دون تدخل رئيسي من جانبه ، الا حين يثق تمام الثقة من ان العوامل

الطبيعية والمناوشات والسير الطويل لابد ان تفت في عضد عدوه وأن عدوه قد وصل الى اقصي درجات التدهور.

ولابد ان المهدى قد استجوب كلوتز مرات عديدة بعد المقابلة الاولى التي وصفها قلم اوهرلدر وألم منه بتفاصيل دقيقة عن احوال عدوه مكنته من ان يضع تلك المخططات المحكمة.

ولم تكن اقوال كلوتز ولا تقارير ابو قرجة اليومية هى وحدها مصادر المهدى ، بل كان له عيون واصدقاء داخل زريبة هكس نفسها من كبار التجار المرافقين للحملة ، كما اثبتت يوميات عباس بك.

سترت الحشائش الطويلة حركة الرجال الزاحفين نحو حافة بركة الرهد ليسددوا المرتب اليومى من الطلقات النارية نحو زريبة الجنرال.

دوت الطلقات الاولى ، فماج المعسكر بحركة الجنود المتدافعين ليستتروا وراء اغصان الزريبة وهم يشقون طريقهم زاحفين على بطونهم للاحتماء بالخنادق. وسرعان ما ارتفع دوى المدافع من منصاتها العالية معلنة انضمامها للمعزوفة النارية ، فطغى على طقطقة البنادق.

استمر الاشتباك لدقائق قليلة ، ولكنها كانت كافية لتذكير الضباط بأن اعداءهم لازالوا في أثرهم ، بعد ان حسبوا ان وصولهم الى الرهد والاحتماء بتلك الحامية القوية الحصينة سيكفيهم شرهم لايام قليلة يستردون انفاسهم خلالها قبل معاودة السير.

أرغى الجنرال وازبد غضبا ، فقد تعرضت خيمته لنيران الانصار ، وكان موقعها في مكان مرتفع متوسطة الزريبة. واصبحت هدفا واضحا لوابل من الرصاص الذى أنصب على ساريه العلم العالية المنتصبة امام خيمته. اصابت احدى الطلقات المقعد الذى كان يجلس عليه الجنرال وتحطم تحته ، فصب جام غضبه على عباس بك وهي الذى اشرف على تخطيط الزريبة ومواقع الخيام « ان وضعك خيمتي بهذه الجهة المرتفعة لا تقصد منه الا اصابتي من العدو انقلها حالا[11] ». طيب الضابط خاطره بصعوبة ، ولكن الجنرال ظل متكدرا بقية اليوم مما ادى الى تأجيل الاجتماع العام الكبير الذى كان قد تقرر عقده في الصباح بين القيادة العسكرية والقيادة السياسية ، لتقويم المسيرة ومناقشة خطة السير والخطط القادمة للوثبة الاخيرة.

عقد الاجتماع في الظهيرة ، وقد افتتحه الجنرال هكس مشيرا الى القضية التي شغلت بالهم طوال المسيرة وهى تقوية الحملة بالاهالى المتحالفين ليواصلوا المسيرة سويا سيرا الىالأبيض واعرب هكس عن امله في ان ينضم الملك آدم اليهم في الرهد. واقترح ان يبعثوا بكبير الادلاء . احمد صبيح الى الملك لاخطاره بوصولهم الى الرهد ، وانهم في انتظاره للتقدم سويا نحو الابيض.

وقد اعترض علاء الدين بشدة على اقتراح هكس وبني اعتراضه على الحقائق التالية : أنها

١١-يوميات عباس بك ص ١٣٦ .

مخاطرة عظيمة ان يفرطوا في اكثر ادلائهم خبرة ويعرضوه لمخاطرة الاسر والقتل . وخير للحملة ان لا تعتمد مطلقا على آدم « الذى هو خارج عن طاعة الحكومة منذ فتح السودان ، وقد هلك الكثير من الجنود ارسلوا في حملات متعاقبة لتأديب الملك ويئست الحكومة اخيرا من اخضاعه واكتفت بفرض جزيه رمزية تعاد اليه في شكل هدايا ومنح تبلغ في جملتها السنوية اكثر من تلك الجزية » .

وأما معلومات الشيخ اده – احد مشايخ الهبانية – بأن الملك سينضم اليهم عندما يقتربون من مقره ، فليس هناك مكان اقرب الى الجبال من الرهد . وها هم يجتازون تلك البقاع لعدة اسابيع خلت ، ولم يظهر للملك اثر حتي الان[١٢] ، ورغم ان الاخبار تنتقل في هذه البقاع بسرعة البرق . ولابد ان الملك يعلم بخبرهم منذ ان غادروا الدويم ، « فلوكان الملك يرغب في الانضمام اليهم ، لما تأخر في انتظار دعوتنا ، وحتي لو انضم الملك لنا ، فمن الذى يضمن ولاءه وهو الذى آوى المهدى في الجبال قبل ذلك ؟ فخير لنا اذن ان ندع الملك وشأنه والا نعرض افضل خبرائنا للتهلكة » .

وافق هكس على رأى علاء الدين وترك الملك جانبا ، ثم انتقل المجتمعون الى الموضوع الثاني وهو خطة التحرك من الرهد الى الابيض .

وبعد مناقشة وجيزة ، استقر الرأى على التحرك من الرهد نحو الابيض بعد يومين – أى يوم الاحد – على ان تعتبر علوبة الوثبة الاولى حيث سيتزودون بمياه يومين ، ومن ثم يواصلون التقدم نحو الابيض عن طريق البركة[١٣] ، والتزود منها بمياه يومين ايضا للوثبة الاخيرة نحو الابيض .

وقد سجلت مفكرة عباس بك قبل ختمها لاحداث اليوم اقتراحا هاما تقدم به علاء الدين للجنرال ، كان تقديمه يكشف عن ان قيادة الحملة قررت ان تأخذ المبادرة لاول مرة ، وان تدخل في

---

١٢ –اكد اوهرولدر متابعة رجال الملك للحملة منذ اقترابها من ديارهم – اهرولدر ص ٨٢ .

١٣–مخالفا لكل من ارخوا معركة شيكان لم ترد لفظة البركة على الاطلاق في اليوميات – ويبدو وصف عباس للطريق المقترح اتخاذه نحو الابيض متناقضاً . فهو يذكر (قيام الجيش باكر بتاريخه الذى هو يوم الاحد لجهة علوبة بمياه يومين ومنها لجهة كازقيل مياه يومين ايضا ثم لجهة الملبس وهناك مياه يومين ..) ومن هنا نرى ان النقاط التي وصفها تقع على طريقين مختلفين وليس على طريق واحد – بل كانا يمثلان اختيارين مختلفين لا محيص لهكس من اتخاذ احدهما دون الآخر – طريقي الملبس وطريق البركة . فقد ذكر شقير (ولم يكن للابيض من الرهد الا طريقين ، طريق الملبس وطريق البركة ، فقر الراى على الاخير ، على اختيار طريق البركة لانها اغزر ماء) .

وذكر اجلن الذى زار المنطقة قبل خمسين عاما وتحقق من طبوغرافيتها في ذلك الحين (بان نية هكس الاصلية كانت التقدم نحو البركة) وذكر ونجت بعد استجوابه لمن اشتركوا في الحملة ان نية هكس كانت التقدم نحو الابيض عن طريق البركة .

وتفسير ذلك التضارب في اقوال عباس بك يبدو سهلا ، فمن الخريطة المرفقة – ص ١٣٤ – ترى ان الطريق الذى وصفه عباس بين الرهد – علوبة –كازقيل هو نفس طريق البركة بالتفافة طويلة نحو جهة الغرب ويمكن – لمن ياخذ طريق كازقيل ان يمر بالبركة – وكل الخلاف سينحصر في التقدير النسبي لاهمية معالم الطريق – ففي نظر من كتبوا بعد ذلك ان البركة كانت اهم نقاط الطريق لذا سموه بطريق البركة ، بينما تجاوزها عباس بك في الوصف ورمز الى الطريق بطريق كازقيل .

شقير ص ٧٢٠ .

يوميات ع اس. بك ص ١٣٨ .

عمليات عدائية تزيل قليلا من حلكة الظلام الدامس الذى احاط بالحملة من كل جهة .

فنذ تحركهم من الدويم اكتنف الغموض موقف عدوهم ، فهم لا يدرون شيئا عن نواياه او تسليحه او تعداده ، فيما عدا انه يقبع منتظرا كالشبح في الابيض البعيدة ، فقد انحصر كل همهم طيلة المسيرة في استطلاع موارد المياه . وقد طلب علاء الدين من عباس بك التوجه الى هكس ليأمر بتخصيص قوة عسكرية تتحرك ليلا سرا وتداهم القرى القريبة لاسر بعض الاهالى واستجوابهم عسي ان تزال غشاوة الجهل التي اعمت المسيرة من الالمام بعدوها « فاننا وصلنا لهذه الجهة التي كان يبلغنا عنها قولا بأن الرهد قريب للابيض فلابد من وجود من يعطينا خبر الشقي واعوانه بكردفان ولكن لم يصادفنا سوى وجود جماعة من الاشقياء تابعين أثرنا ليلا ونهارا ومن هذا يتضح ان هؤلا أعوانه الحقيقيين وما ارسلهم الا لمعاكستنا ولمنع من يأتينا طائعا من عربان وخلافه وبهذه الطريقة قد حقق هذا الغرض وانحرمنا من وقوعنا على الاخبار الحقيقية (١٤) .. »

أيد عباس بك اقتراح الحكمدار وهرع لخيمة الجنرال هكس ليبلغه اقتراح علاء الدين فحظى الاقتراح بحماس فورى من الجنرال والكولونيل فركهار الذى حضر المحادثة . وأكد لهم الجنرال ان هذه الفكرة قد جالت بخاطره من قبل كثيرا ، ولكن نسبة لجهله بالاساليب القتالية للجيش المصرى وعدم تأكده من تمرسهم في القتال الليلى اللازم لتنفيذ مثل هذه العملية فقد نحاها جانبا ، ولكن ما دام الامر كذلك فسيأمر فورا بتعيين هذه القوة فهم في امس الحاجة لتلقف أى خبر عن عدوهم المترصد . ودخل معهم مباشرة في تفاصيل التخطيط للعملية ، فحدد القوة بكتيبتين واقترح تشكيل السير الذى يكفل لهم سرية التحرك ، وعين اللواء حسين مظهر ليقود العملية .. فصدرت التعليمات رسميا في مساء الجمعة للتنفيذ في مساء السبت .

ولكن حماس عباس بك للعملية الليلية ، خمد في اليوم التالى . فقد حملت اسطر اليوميات احاسيس المرارة وخيبة الامل وهى تشير بالاتهام الى تواكل اللواء حسين مظهر . فقد خرج الاخير من معسكر الرهد في الخامسة مساء وعاد في الثالثة بعد منتصف الليل ، وزعم انه فشل في اصطياد احد من اهالى المنطقة او من الانصار ، وتعجب عباس بك من ان حسين مظهر اتخذ الطريق الرئيسي مع ان الهدف الاصلى هو الابتعاد عن الطرق المطروقة ومفاجأة معسكرات الانصار او القرى البعيدة عن الطرق .

وقد مضت بقية الايام الستة التي قضتها الحملة في الرهد كما تمني ورغب هكس : حياة معسكر وادعة نعم فيها الجنود بفترة قصيرة من الراحة ، تركهم فيها الانصار وشأنهم في الايام الاربعة الاخيرة . ولا عجب ، فقد شغلوا هم انفسهم بأمور اخرى .

١٤–يوميات عباس بك ص ١٣٩ .

وقد بذل هكس جهدا عظيما خلال تلك الايام ليعيد الامور الى نصابها وليصلح ما افسدته مسيرتهم الطويلة المنهكة من خلل في انضباط الجنود ومعنوياتهم ، فركز جهده على التشديد على النمط السلوكي للجنود في نواحي اليقظة والاستعداد والمظهر العام . ثم وزع الترقيات والاوسمة يمينا ويسارا ، ومن بينها ترقية احد اليوزباشية الذى قفز لرتبة بكباشي مكافاة على اقتصاده في صرف التعيينات المجففة حين اقنع جنوده باستغلال الفواكه والحبوب التي تصادفهم اثناء السير في المزارع المهجورة كالفول والدخن والذرة وعندما علم الجنرال بهمة الضابط كان سروره عظيما ، فسارع ورقاه ترقية استثنائية ليشجع ضباطه على المبادرة والابتكار في توفير المؤن والمياه .

عاود المربع المسير صباح الاحد ٢١ أكتوبر الميعاد المحدد ، في الفجر ادارت الحملة ظهرها لبركة الرهد واخلت زريبتها وخطت خطوتها الاولى في الوثبة الاخيرة ، وثبة الرهد الابيض .

كانت مسيرة المربع نشطة وسريعة ، ولنصف ساعة ظلوا في سير متصل منتظم حتي اشرفوا على البقعة التي تقرر عبور خور الرهد منها . وما ان شرع الجنود والدواب في عبور المياه الضحلة حتي فتحت عليهم نيران كثيفة من الضفة الغربية ، معيدة اياهم للواقع المرير ومذكرة بعدوهم المترصد .

تفاوتت كثافة النيران التي وجهها الانصار نحو المربع طيلة الوقت الذى استغرقه عبور الخور ، ولكن الجنرال امر ان يتجاهلوا شأنها ويواصلوا السير . ولكنه اضطر للتوقف بعد قليل اذ بدا احمد صبيح ، كبير الادلاء ، وهو ينهب الارض بجواده ويتصايح مهللا ، وعندما بلغ الحكمدار زف اليه نبأ مفرحا ، فقد وقعت عينه اخيرا على احد مشايخ القبائل وهو في طريقه اليهم لتقديم طاعته للحكومة ومعه رجاله وعائلاتهم وهو يطلب الاذن لينضم برجاله للحملة . سر الجنرال كثيرا ، فها قد ظهر احلافهم الذين كانوا في انتظارهم طوال هذه المدة ، ليعززوا قوتهم ويوافوهم بالاخبار الموثوقة عن المهدى واضعين خبرتهم بمسالك كردفان تحت تصرف قيادة الحملة .

امر الجنرال بأن يتوقف المربع حتي يعود الدليل الذى انثني راجعا لاحضار الشيخ ورجاله ، ولما طال انتظاره امر الجنرال بارسال كوكبة من الفرسان للاستفسار عن سبب التأخير ، ولكن اصداء طلقات الرصاص التي وصلت لآذانهم نبهتهم الى ان الامور لم تسر على ما يرام ، فأمضوا لحظات اليمة في الانتظار ، الى ان بدت اشباح الفرسان تبدو من بعيد بين الاشجار عائدة للمربع مثقلة بجراحها . بدد مشهد الجرحى الآمال التي انتعشت قبل قليل ، وتلاشت عندما استمعوا الى رواية كبير الادلاء وهي ان الشيخ ورجاله كان قد ارسلهم المهدى لتعزيز رجال ابو قرجة ولكنهم ضلوا طريقهم ، وشاهدوا غبار الحملة من بعيد فحسبوهم رجال ابو قرجة فتقدموا منهم وعندما تبينوا حقيقتهم كان قد فات الأوان — فقد اصبحوا في وسطهم تقريبا ، وانقذت بديهة الشيخ الحاضرة الموقف فخدع الجنود قائلا انهم اتوا لينضموا للحملة ، وطلب منهم امهاله للذهاب واحضار بقية رجاله وسارع مبتعدا ثم عاد واحضر بقية الرجال . ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد هذه المرة فكمنوا في انتظار فرسان الحملة

وامطروهم وابلا من الرصاص تساقط على اثره عدد من الفرسان ، فانسحب هؤلاء بسرعة عائدين للمربع بعد ان اخذوا احد جرحى الانصارا سيرا

كظم الجنرال غيظه وأمر بمعاودة السير، ولكنه توقف بعد قليل وامر بتشييد الزريبة والمبيت فيها ليواصلوا السير في فجر اليوم التالى نحو علوية ، واخذ الاسير لخيمة الكولونيل فركهار للاستجواب.

السباق الى البركه

«هل يتعاقب الجيشان»

أوراق على المهدى

في دهمة الليل البارد الرطب ، كان الفارس يحث جواده على السير وسط الطريق الضيق الذى تشابكت حوله أشجار الكتر والحشائش الغزيرة . وعبثا يحاول رفيقاه اللحاق به ، فقد كان الفارس في عجلة من أمره .

كان الفارس المسرع ، الامير عبد الحليم مساعد [1] ، قد ترك رئاسته في الرهد واسرع للابيض ليبلغ المهدى بنفسه نبأ شروع عدوه في المرحلة الاخيرة من حملة الاسابيع الستة .

فبعد جلاء هكس عن الرهد ، وكعادة عبد الحليم وابو قرجة في احتلال معسكرات هكس بعد اخلائها ، بعث عبد الحليم بفرسانه المشاغبين لتقصي تحركات الجنرال . وعندما افادت طلائعه باتجاه هكس الجديد نحو علوبه ، سارع ليطير الانباء للمهدى ، ظانا ان رأى هكس قد أستقر نهائيا على مسلك منهل البركة في تقدمه الاخير نحو الأبيض . ولكنها لم تكن المرة الاولى ولا الاخيرة ، كما سنرى ، التي يعدل فيها الجنرال المتردد عن رأيه ويسلك طريقا مختلفا .

أعد عبد الحليم العدة لرحلة سريعة للأبيض بعد أن اخذ بصحبته حرسا خفيفا مكونا من فارسين ، فبدأ رحلته في اصيل يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر وامضي الليل كله في السير [2] ، دون توقف تقريبا الى أن أشرف على الابيض في ظهر يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ، فاجتاز مسافة يستغرق قطعها ثلاثة أيام في الظروف العادية . ثم قابل المهدى واجتمع معه اجتماعاً طويلا دام حتي صلاة المغرب وقفل راجعا مباشرة للرهد في مساء نفس اليوم .

وقبل ان نتابع مجرى الاحداث التي سبقت تقدم المهدى المفاجئ نحو هكس بعد طول انتظار وترقب ، يستحسن ان نقف هنية لنستعرض موقفه بسرعة . ولعله من الصعب ان نجزم بمخططاته ونواياه في تلك اللحظة ، عندما قرر أن يتخلى فجأة عن أستراتيجيته السلبية الصبورة ، لينتقل للمبادرة ويتقدم لملاقاة هكس في منتصف الطريق بين الرهد والابيض . وكل ما نستطيع ان نجزم به

---

١ ـــ مخابرات ٣ / ١١ / ١٩٧٩ / أ .

٢ ـــ تكبد عبد الحليم مشاق ذلك السفر الطويل المتواصل ، وقطع المسافة بين الرهد والابيض في زمن اكثر قليلا من نصف يوم علما بأنه أسرع ذلك الاسراع ليحث المهدى على التحرك . وانه كان خلف تحرك المهدى المفاجئ بعد أن افلح في اقناعه بأن اللحظة الملائمة لفصل الخطاب قد دنت . (اقوال كاتب الامير عبد الحليم ص ٦ ـ مخابرات ٣ / ١١ / ٧٩ / أ) .

هو ان المهدى تيقن في لحظة معلومة من نية هكس للتقدم واحتلال البركة ، فكان ذلك بمثابة أشعال للفتيل الذى فجر الاحداث واطلق العنان للتحركات العسكرية الضخمة[٣] التي شهدتها المنطقة في الايام القليلة التالية . ولا يمكننا الا ان نلمح أصابع عبد الحليم بارزة للعيان وراء قرار المهدى الاخير ، سواء بالتقدم وبالتخلى عن الابيض او باحتلال البركة ، فالقرار انما اتخذ بناء على معلومات اوصلتها طلائع أستكشافية كما ذكر الكردفاني[٤] : «ولما تحقق المهدى من قرب الجيش المذكور بحيث كان بينه وبين الابيض نحو ثلاثة أيام ، خرج بنفسه الكريمة وأصطحب جميع اصحابه الكرام ..»

ولكن تقرير عبد الحليم الشفهى لم يمكنه الا من اتخاذ خطة عامة لاتبدو من ملامحها الباهتة الا الخطوط الرئيسية التالية : وهى تصميم المهدى على حرمان هكس من حرية اختيار ارض المعركة النهائية ، ورفضه الحاسم لمعركة دفاعية حول الابيض لاتتناسب مع تسليحه الابيض وطبيعة جنوده الوثابه المتعطشة للقتال والهجوم ، ثم اتخاذ المبادرة بهجوم شامل صاعق في ارض وظروف مناسبة ، لن تتوفر له الا اذا كان على مسافة قريبة من المربع ، تمكنه من الوثوب عليه بسرعة في اللحظة السانحة . فقد كان هكس في نظر المهدى ، كالفريسة التي طال انتظارها ودنا موعد وقوعها في قبضته ولكن لازال امامها عدة منافذ للنجاة بجلدها والانفلات شمالا نحو الامان .. الى الابيض .

وأياً كانت مبررات المهدى ، فلا يسعنا الا ان نعجب بقراره الشجاع ونحن نلمح فيه روح المخاطرة المحسوبة التي تبرز دائما في خططه الجريئة . ولكن المخاطرة هنا كانت اعظم . وذلك هو الانطباع السريع الذى يقفز الى الذهن عند النظرة الخاطفة الى مواقع الجيشين والى طرق الاقتراب المختلفة لاهدافها في الايام القليلة التي سبقت اليوم الاول من نوفمبر ، عندما قرر المهدى التحرك من الابيض والتقدم نحو البركة :

فقد توفرت للجنرال من مكانه في علوبة حرية اختيار بين عدة مسالك يمكنه أن يتخذ أى منها في تقدمه للأبيض ، وبذلك يصبح موقف المهدى مزعزعا للغاية ان اخلى جيشه الابيض وتقدم نحو هكس . وهنا تكمن خطورة تحركات المهدى الجسورة الاخيرة ، فالجنرال لو افلح في تفادى المهدى او سبقه بأندفاعة سريعة نحو الابيض الخالية واحتلها ، لانقلب الموقف رأسا على عقب .

كل تلك التقديرات حتمت تواجد المهدى بالقرب من هكس لمراقبته عن كثب بكل قوته الضاربة . وليس بطلائع استكشاف فقط ، حتي يتمكن ، عندما يتحسس المسلك النهائي الذى سيتخذه هكس نحو الابيض ، من تعديل حشوده ومواقعه بسرعة وينقض عليه في المكان الملائم . وقد عبر الكردفاني في مناسبة أخرى عن مثل هذا الموقف « مخافة هروبهم وتفرقهم في بطون الاودية

---

٣ — شقير ص ٧٢١ .
٤ — الكردفاني ص ٢٢٧ .

والجهات[٥] » . ولكن الخشية لم تكن مخافة من هروبهم وتفرقهم فقط ، بل وصولهم للأبيض واحتلالها ، وكان تعبير اوراق على المهدى اقرب للواقع عندما رمزت لذلك الموقف بالسؤال التالى « هل يتعاقب الجيشان ؟[٦] » .

اذن يعزى توالى الاحداث وتسارعها في الأسبوع الاخير من شهر اكتوبر الى تحقق المهدى ، كما ذكر الكردفاني ، من ان هكس اصبح على مسافة ثلاثة أيام من الابيض[٧] . وهى تعني انه اما ان يتقدم الآن ، او لايتقدم ابدا . فقد اصبحت البركة ، هدف هكس العاجل ، في منتصف المسافة بين الجيشين – أى على مسافة يوم ونصف[٨] . فكان وصول هكس الى ذلك المدى من الابيض بمثابة شارة البدء في السباق .

ومن ثم بعث المهدى بانذاره الاخير الى الجنرال مع فضل الله ، احد طلائع هكس الذين وقعوا في أسره ، ثم حصر اهتمامه في وضع خطته الكبرى للاسبوع الأخير من ملحمة شيكان . وقد حفلت تلك الايام الأخيرة من شهر اكتوبر ، عندما كان المهدى يقلب وجوه الرأى المختلفة الى ان اتخذ قراره الحاسم بالتقدم نحو هكس ، بمجالس الحرب المتصلة التي لم يتوقف عقدها طوال النهار والليل لملاحقة سيل بلاغات وتقارير ابو قرجة المتواترة التي ارتفع متوسطها لأربع أو خمس تقارير يومياً[٩] .

ولتحقيق تلك الاهداف التي سبق ذكرها ، كان لابد للمهدى من تحركات معينة تندرج في خطته الاستراتيجية ، التي تهدف بدورها في النهاية الى تمكينه من انجاز هدفه التكتيكى تحت اكثر الظروف والاوضاع ملاءمة له .

وتشير الاحداث ، واقوال من استجوبوا فيما بعد الى ان خطة المهدى الاستراتيجية كانت ترمى ، عندما تترجم الى تحركات على مسرح المعركة ، الى هدفين رئيسيين :–

١ – محاصرة هكس .
٢ – احتلال الاماكن ذات الاهمية الاستراتيجية كمصادر المياه مثل الرهد والبركة وفولة كازقيل .

وكلا الهدفين متكاملين يرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا . فالاول يحقق وجود قوة « رقيبة » فعالة بالقرب من هكس (لتثبيته) والاحاطة به وحصره في دائرة ضيقة لتحرمه التقدم أو التقهقر . وقد تحتم

٥ – الكردفاني ص ٢٣٢ .
٦ – جهاد في سبيل الله ص ٥٠ .
٧ – بطريق البركة .
٨ – مخابرات – أقوال البارودى – ص (٥٣) ٣ / ١١ / ١٧٩ /أ .
٩ – الاب اوهرولدر ص ٧٥ .

على تلك القوة ، أى رايات أبو قرجه وعبد الحليم المعززة من الابيض ، ان تضع نفسها على مسافة قريبة من المربع تمكنها من الوثوب عليه اذا تمكن من الافلات وتقدم نحو الابيض او تقهقر نحو الرهد ، وتتيح لها في نفس الوقت ان تسير قدما في تأدية واجبها القديم الذى انحصر في مضايقته واستنزافه وزعزعة معنوياته وتقطيع اوصاله واطرافه .

ونستطيع هنا ان نحس بولع المهدى بعمليات الحصار كما اثبتت ذلك أحداث مضت « حصار الابيض » واحداث آتية « حصار الخرطوم » ولابد أن احداث سقوط الابيض قد جعلته ، يتقزز من الصدام الدموى المباشر مع عدو متفوق ناريا ، وان يحسن تقدير « اقتصادية الحصار » والنتائج الباهرة التي يمكن تحقيقها عن طريقه بأيسر الوسائل وأبخس الاثمان . كما يشير الحاح المهدى على هكس بالمنشورات المنسوخة بتلك الكميات الضخمة الى انه لم ييأس ابدا ، حتي قبل اسبوع ، من المعركة ، من استسلام هكس حتي يتجنب مناطحة مباشرة بالمربع الفولاذى ، او لعله على الاقل ، تعشم في تأخيره الى اقصي زمن ممكن حتي يتحقق رجحان كفته بعد ان تأتي عمليات الحصار والمناوشة اكلها في تحطيم نفسية وقدرات الجنزال .

اما الهدف الثاني ، احتلال البركة والرهد ، فبالاضافة الى أنه استكمال واتمام للهدف الاول الا ان مغزاه كان اكبر في مجال آخر وهو اجبار هكس ودفعه الى اتخاذ طريق معين يكمن المهدى على مشارفه فيسدد ضربته القاضية فقد كان سكون الجنزال وتجمده في مكانه مكلفا ازاء مناوشات عبد الحليم وابوقرجه الشرسة وتقهقرة للرهد اكثر تكلفة ، اذ يجدها محتلة بقوات عبد الحليم المعززة ، ولم يكن تقدمه الى البركة بأقل سوءا حيث ينتظره المهدى بقوته الضاربة الرئيسية .

تمخضت تلك الايام عن العديد من المجادلات والآراء . فقد تميزت بالترقب والتحفز نتيجة لسيل المعلومات المتصلة عن تحركات العدو ، لم تتناول تلك المجادلات تحريك الرايات والحشود فحسب ، وهي بدورها مازالت مجال جدل تاريخى حتي الآن ، بل دارت حول جدوى التقليد النمطى في ادارة المعارك بقيادة المهدى الشخصية . ولاشك ان امراء المهدى ، بعد تلك الشهور الطويلة من التربية الروحية والفكرية كانوا قد اكتسبوا تصوراً عميقاً لدور المهدى القيادى ، الذى تزايد رسوخا في اعماق وجدانهم . فقد مضت عليهم شهور طوال وهم يدورون في المجال المغنطيسي لتلك الشخصية الفذة . فأصبحوا يضنون به على خوض المعارك ومخاطرها التي ان مست شخصه ، فقد مست بقاء واستمرار الدعوة نفسها . فقد تحدثت أوراق المهدى :

« .. في التبلدية اجتمعوا الاهل وقرروا ان يطلبوا من المهدى ان يتأخر ويغزو احد الخلفاء لمقابلة جردة هكس وذهبوا للمهدى وقالوا له ان الدنيا امطار وطين وبعوضة فأن استحسن تأخير المهدى وارسال احد الخلفاء لمقابلة الجردة ، فسألهم المهدى وهل عرضتم هذه الشورى على خليفة الصديق فأجابوه سلبا فامرهم بأن يستشيروه في الأمر .

فلما ذهب أكابر الأمراء الى خليفة الصديق أكرم وفادتهم وأجلسهم كعادته فعرضوا عليه هذا الأمر فشكرهم على شفقتهم على المهدى وقال لهم أن الشفقة على المهدى من تمام الايمان ولكن على ما علمت بأن هذه الجردة مقبلة علينا بكامل القوى والاستعدادات الحربية فأن عدد جيشها ٣٦ ألف جندى بخلاف المتطوعين والاتباع ومعهم ٣٦ مدفع كروب وكل مدفع بمقامة أورطة .

وهذه النار لايمكن مصادمتها الا بنور المهدى . وفي الحال امر خليفة المهدى بضرب أم باى فجاءنا المهدى حالا بأمر الاستعداد الحربي حاملا فروته وقائدا حصانه فخرجنا للغزوة وبيتنا بأبوصفيه[١٠] .. »

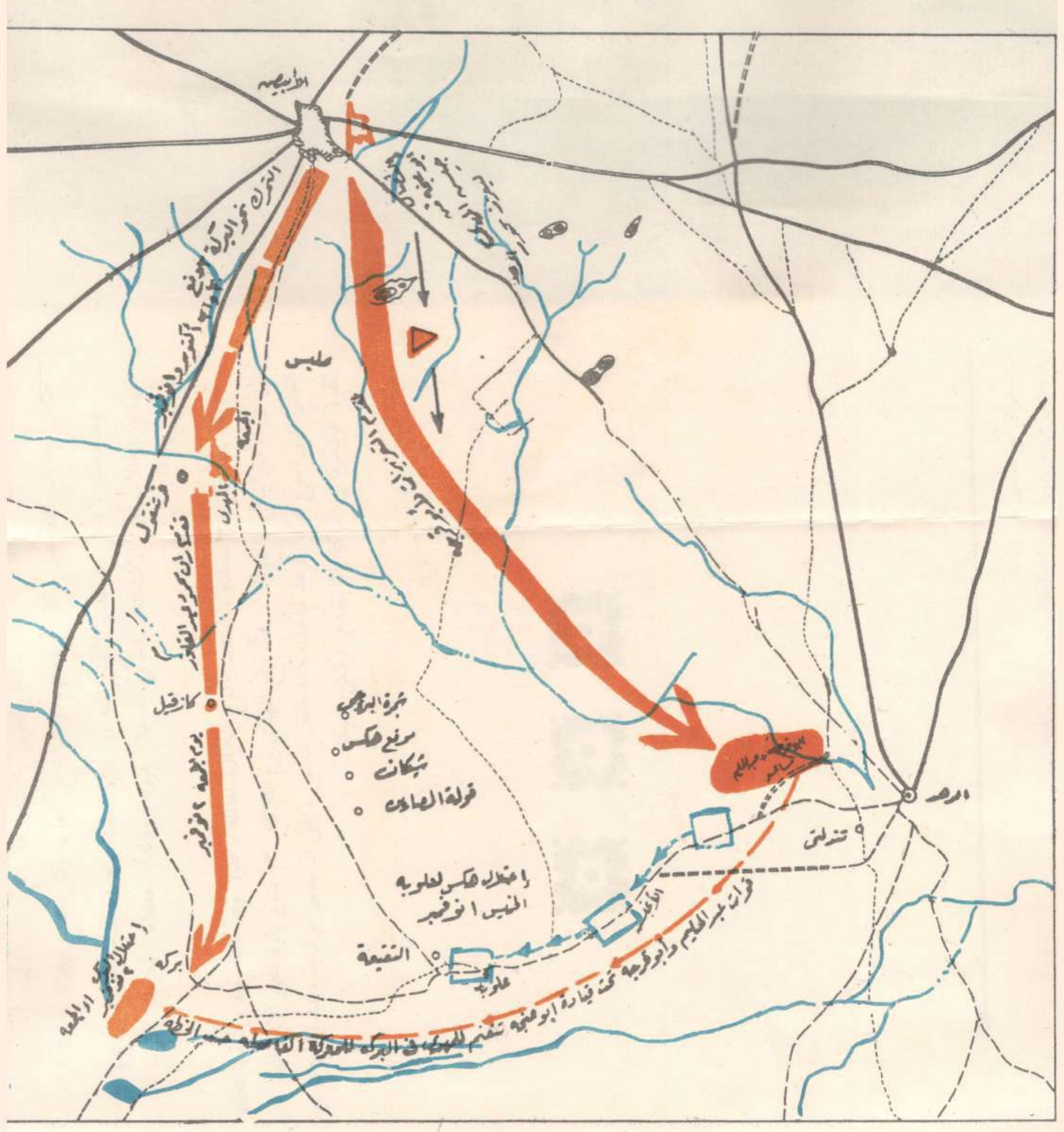
بعد ان حسم أمر القيادة ، امتدت اذرع الكماشة الهائلة ـ طولا وضخامة وقوة ، لتنفيذ مخطط المهدى الاستراتيجى الرائع[١١] . فقد دفع المهدى يوم الثلاثاء ٣٠ اكتوبر بقوة المحور الاول لتعزز عبد الحليم الذى اسرع عائدا للرهد ليأخذ مكانه خلف هكس ، على ان ينضم أبو قرجة وعبد الحليم فيما بعد للقوة الرئيسية في البركة اذا تقدم هكس نحوها .

١٠ ـــاوراق على المهدى ص ٤١ .

١١ ـــانظر خريطة رقم (٢) « الخطة الاستراتيجية الاولى » .

الخطة الإستراتيجية الأولى



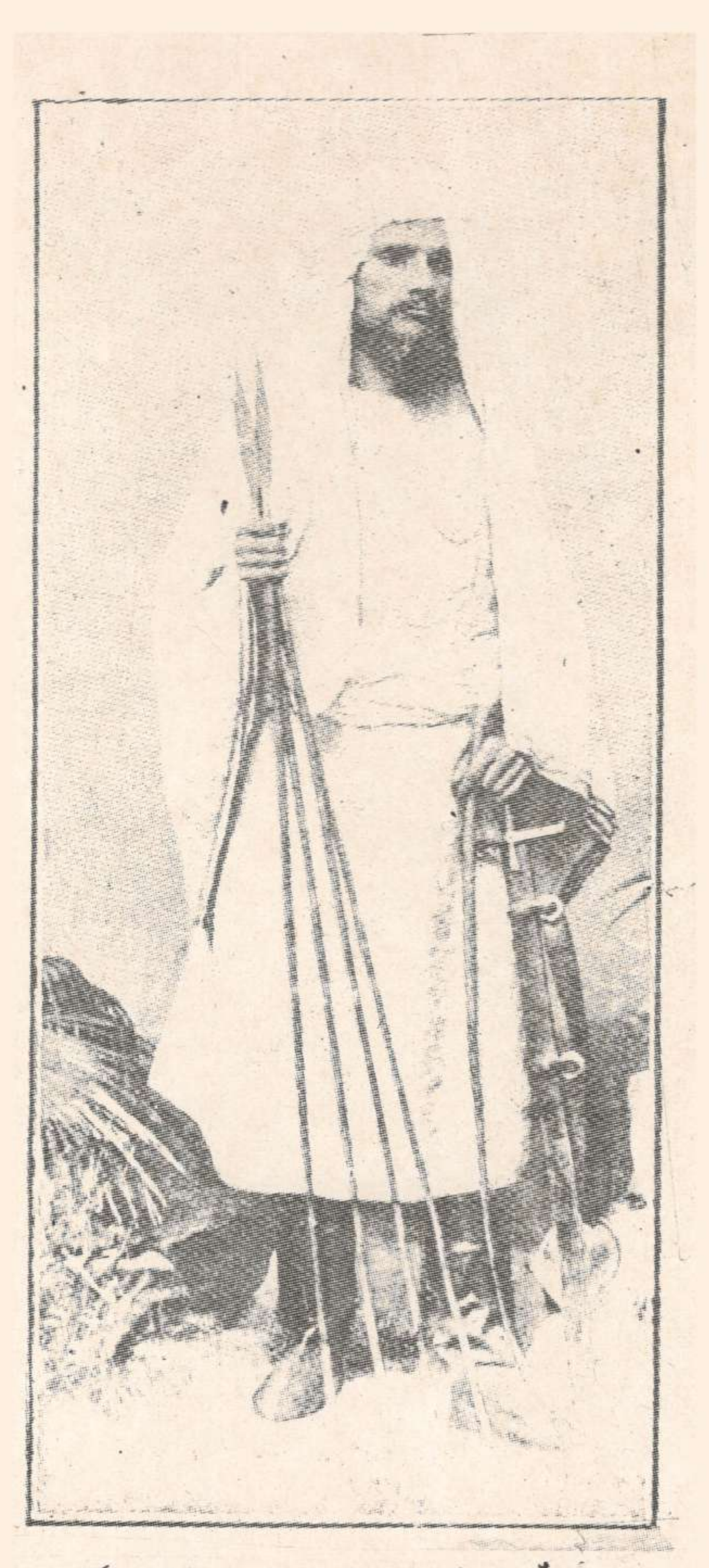
س الرسم/ ١ : ٢٥٠٠٠٠



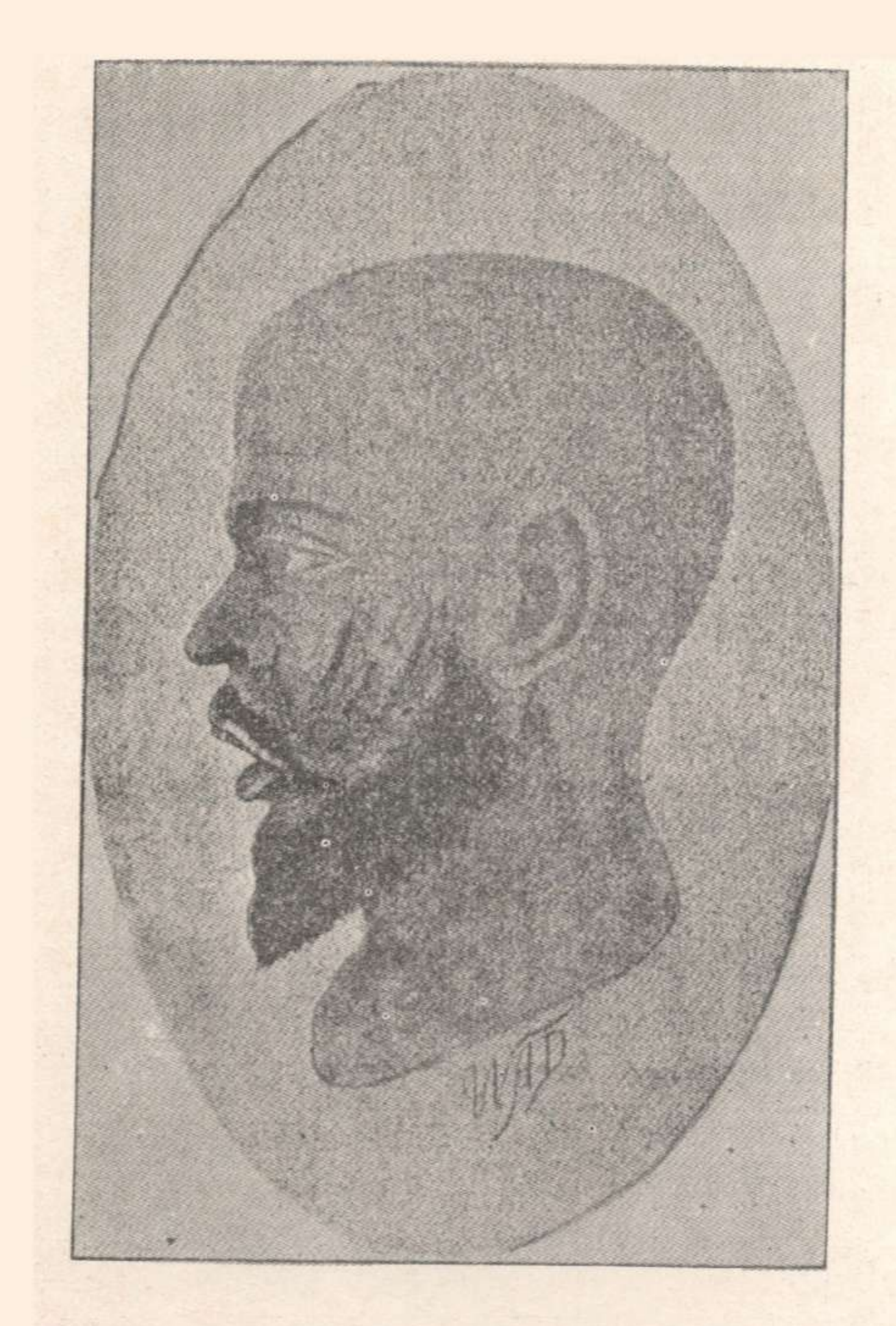
محمد احمد المهدی



الجنرال هكس



الأب اوهرڤلدر احد المصادر الرئيسيه لمعركة شيكان



عبد الرحمن النجومي – قائد الهجوم الامامي في معركة شيكان وهذه الصورة مأخوذة من لوحة رسمها أحد الضباط لجثة ود النجومي بعد مقتله في معركة توشكي



مصرع الجنرال هكس



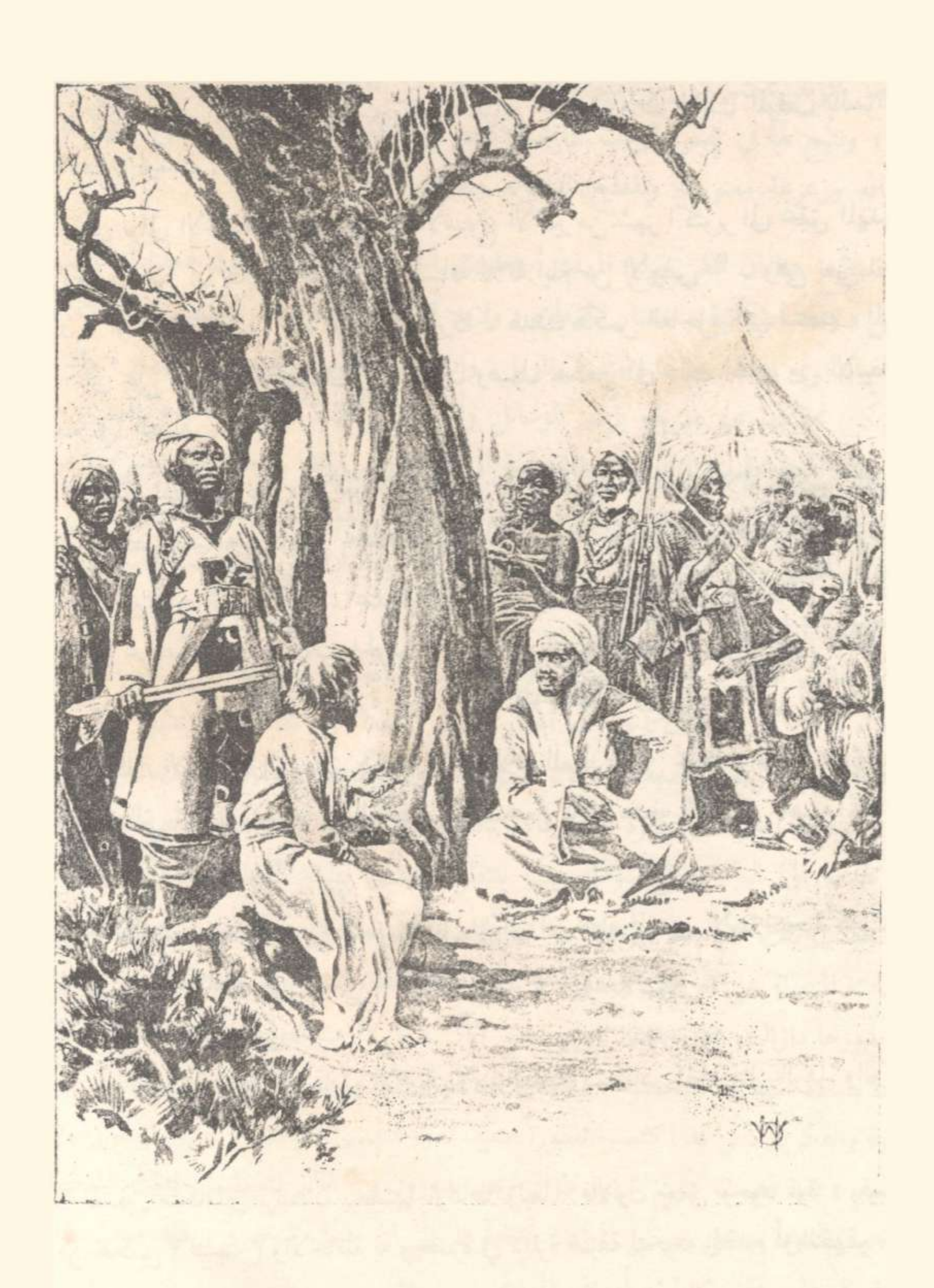
الكولونيل فركهار—رئيس اركان حملة هكس



الجنرال هكس و ضباطه



لوحه تمثل سيرة حملة الجنرال هكس



لوحة تمثل مجادلة دينية بين المهدى والاب اوهرفلدر.

وفي اليوم التالى ، الأربعاء ٣١ اكتوبر ، تقدم المحور الثاني [١٢] الذى ضم الرايات الرئيسية الثلاث بقيادة الامير يعقوب وموسي ود حلو وعبد الرحمن النجومى بالاضافة الى قوة المهدى النارية الاساسية ، جهادية حمدان ابو عنجة بدون قائدهم الشهير . وخلف هؤلاء جميعا سار النساء والأطفال .

كان تقدم القوة بطيئا ومنتظما ، وتميز بذلك الجلال وتلك الرهبة اللذين يميزان تحركات الجيوش الكبرى .

فقد ادى المهدى صلاة الصبح فجرا خارج معسكره الضخم ، حيث امتدت على مساحة هائلة من الأرض عشرات الالوف من اكواخ القش ، اعطاها ظهره ليؤم المصلين من جيشه المتورم بتعزيزات القبائل الاخيرة ، وبعد الصلاة انتظمت راياته العديدة تحت ثلاث مجموعات كبيرة ، تقدمتها الراية الزرقاء بقيادة يعقوب فالخضراء ، ثم الحمراء ، يحف بها الفرسان على صهوات جيادهم المتخايلة على دوى النحاس . ومع الجلبة العظيمة الممتزجة بالصياح والاناشيد والزغاريد ، ارتفع صوت المهدى الجهورى بالأدعية المتصلة .

تحركت الكتل البشرية ببطءفي البداية ، ثم اسرعت خطوتها قليلا لتكشف عن مساحات متزايدة من الرمال كلما انحسرت عنها الامواج البشرية التي حجبت الآفاق ، وهى تغيب حينا وتظهر حينا فوق

---

١٢ —تلك هى الصورة العامة التي تقدمها المصادر المختلفة عن تحركات المهدى . الا ان تلك المصادر تتفاوت لتتفق حينا وتختلف حينا اخر في تقديرها لقوة كل من المحاور الثلاثة حسب الموقع النسبي لكل منها . فحسن كاتب الامير مساعد يشير الى المحور الاول المعزز لعبد الحليم بأن المهدى بعث بكل المحاربين القادرين . ويجدر بنا ان نأخذ تلك العبارة بمنتهى الحذر . فتلك القوة لم تضم بينها الرايات الثلاث – التي لحق بها المهدى وعسكرت في فرتقول كما يذكر الكردفاني ولا جهادية حمدان من حملة الاسلحة النارية – كما يذكر محمد عبد الرحيم وتؤيده في تلك اوراق على المهدى ، ولا مجموعة محمود عبد القادر التي انفصلت عن القوة الرئيسية فيما بعد ، وارسلت لاحتلال البركة – كما تتفق اغلب المصادر – الكردفاني – محمد عبد الرحيم – ونجت . ويمكن أن يعزى اختلال تقدير حسن كاتب الامير عبد الحليم – وهو على سرير المرض كما ذكر – الى توهمه ان مرافقه حمدان ابو عنجه لهذه القوة يعني ان كل حملة الاسلحة النارية كانوا معها – ولكن الاب اوهرولدر يذكر ان حمدان انفصل عن جهاديته وتركهم مع المهدى في الايض ورافق القوة ، اما لقيادة كل المجموعة او لاستكشاف قوة هكس تمهيدا للمعركة القادمة ، ثم سرعان ما انضم اليه جهاديته مرة اخرى .

واتفاق اغلب المصادر بما فيها الكردفاني . ومحمد عبد الرحيم (الذى افلح في تقديم صورة لاتتناقض مع المصادر الرئيسية حول قوة محور البركة) تدل على ان قوة منهل البركة التي رمز اليها كاتب عبد الحليم ببقية جيش المهدى .كانت هى القوة الرئيسية وان قوة عبد الحليم كانت قوة فرعية .

اوراق على المهدى ص ٢٦ .

الكردفاني ص ٢٢٨ .

اقوال كاتب عبد الحليم ص ٧ – ٣ / ١١ / ١٧٥ / أ .

محمد عبد الرحيم – النداء في دفع الافتراء ص ١٤٤ / ١٤٥ .

« القيزان » والوهاد الى ان غابت عن الابصار في الافق الشرقي البعيد ، وما ينفك صوت المهدى يلاحقها بالدعاء .

ساد صمت القبور بعدها على المعسكر كأنه ما كان يموج قبل ساعات بالحركة ويعج بضجيج البشر والدواب . فقد اخلى المعسكر[١٣] تماما ، ولم يبق غير المهدى وخلفائه ومجموعة صغيرة من الاسرى الاوروبيين ، وضعوا تحت امرة عبد الله ود جباره الذى تركه المهدى خلفه ليدير شؤون الابيض الخالية [١٤].

وفي اليوم التالى – صبيحة الخميس ١ نوفمبر – شرع المهدى وخلفاؤه[١٥] في اللحاق بالجيش في تقدم سريع متصل على ظهر بعيره الابيض ، تحيط به كوكبة صغيرة من الفرسان .

اما في الجانب الآخر ، فكان غريبا ان تزدحم المنطقة المحيطة بهكس بهذه التحركات الضخمة وهو على مقربة منها ، دون ان يحس او يعلم بنوايا المهدى وتحركاته على وجه التحقيق ، فيا عدا شذرات من المعلومات يلتقطها من أدلائه .

ولايعزى الفضل في ذلك الى تكتم المهدى ، بل يوجه اللوم الى هكس الذى اقفل نفسه داخل زريبته واحكم الرتاج مفضلا الركون الى استطلاع حفنة من الادلاء لايثق في نواياهم ، دعك من أحكامهم ، ضاربا عرض الحائط بأبجديات مبادئ الحرب التي تستوجب ارسال مجموعات قوية مسلحة للاستكشاف يقودها ضباط مقتدرون مدربون ، ولنر الآن ماذا كان يجرى في الجانب الآخر .

لانستطيع ان نصف احداث الاسبوع الاخير لحملة هكس بالهدوء الذى يسبق العاصفة . فمنذ بدايته ، يوم الاثنين ، كانت الاحداث تسير ، وتشير ، كالاجواء التي تسبق نهاية الملاحم العظيمة ، الى قرب وقوع الحدث الكبير . ففوق المربع المنكوب ، رفرفت عشرات الجوارح[١٦] والصقور باعداد تتزايد يوما بعد يوم ، كأنما كان كل منها يسارع لدعوة الآخرين ويطير انباء الوليمة الدامية المنتظرة ،

---

١٣ — 13. Ohrwalder P. 85.

١٤ — ذكر محمد عبد الرحيم أن المهدى استخلف عبد الصمد حاج شرفي على الابيض وخالف شقير كلا المصدرين وذكر انه استخلف ابنه عبد الله عبد الصمد .
شقير ص ٧٢١ .
النداء في دفع الافتراء محمد عبد الرحيم ١٢٤٣ .

١٥ — م . م ١ / ٣ / ١٧٩ (أقوال كاتب الامير عبد الحليم ص ٧ .

١٦ — 16. Ohrwalder P. 77 .

وليمة ضيوفها الطير وادامها البشر . وحوله واصلت جماعات ابو قرجة وعبد الحليم الشرسة غاراتها من كل الجهات . أما داخل المربع فقد ساد جو كئيب متوتر مشحون بالشائعات والانباء المتناقضة والمؤمرات بين القادة أنفسهم ، وبين علاء الدين واعوان المهدى المنبثين داخل الزريبة . وقد جرت المشاحنة الاخيرة على أعلى المستويات ، حين تذمر علاء الدين من تدخل هكس في عمل اطقم المدافع اثناء اشتباكها بالانصار الذين هاجموا المربع في يوم الاحد ، ثم صفت الامور بينهما لفترة وجيزة زار اثناءها الجنرال علاء الدين وعقدوا اجتماعا[17] ثنائيا ناقشا فيه المعلومات التي قدمها الأسير حول تحركات المهدى الأخيرة .

وقد اشار عباس بك في يومياته الى تشككه وتشكك اغلب ضباط الحملة بأن المعلومات المتضاربة التي تصلهم لم يكن المقصود منها إلا تضليلهم فكتب في يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر معلقا على استجواب أسير الكولونيل فركهار « وعرف أن الامام سيحضر بجيوشه لمقاتلة الجردة المصرية بالرهد ، هذا ثم حضر آخر يوم من تاريخه وعرف ان الامام الشقي لن يحضر الآن ولن يترك الابيض وقد عين فرقة خياله لانضمامها الى الفرقة الموجودة الان لمعاكستنا[18] لحين وصولنا ، ولقد دعا كافة العربان للحضور الى الابيض واغلبهم موجودون هناك الان منتظرين وصول هذه الجردة – ولكثرة كلامهم وتلونهم في الاقوال ، يصعب تصديق هذه المعلومات كونهم من الدراويش المعتقدين في هذا الشقي .. »

قرر هكس وعلاء الدين استئناف التقدم في صباح اليوم التالى نحو علوبة . لكنهما تطرقا قبل ان يختم الاجتماع للمؤامرة الجديدة[19] التي اطلت برأسها ، والتي تتصل بأمر عبد الرحمن بك بانقا[20] وتذمره وتصرفاته المريبة[21] . وقد اتفقا على ان يترك الموضوع برمته لعلاء الدين لمعالجته منفردا .

وعند المساء استدعى علاء الدين عبد الرحمن بك وقابله بوجود سكرتيره عباس بك . فبدأ بالسؤال المعهود عن الأبيض واستحكاماتها وسكانها . وابدى عبد الرحمن بك برودا اثناء المقابلة وتحدث بطريقة جافة لاتخلو من استفزاز ، كما لم يسمع علاء الدين ماود سماعه من التفاؤل بالنجاح للحملة بل « وابدى عبد الرحمن بك غاية أسفه الوحيد على وجوده معنا خشية من علم الشقي محمد احمد لينتهز فرصة اعدامه قبل وصولنا الى الابيض وكرر ذلك مرات ولم يظهر منه حاشيات حسنة

---

١٧ —يوميات عباس بك ص ١٤٦ .

١٨ —كما نرى كانت تلك المعلومات صحيحة ، ومقدم المعلومات يشير الى رايات التعزيز التي ارسلها المهدى لتعزيز ابو قرجة وعبد الحليم ، وسخرية الامر تبدو في أن قيادة الحملة التي كانت تصدق كل المعلومات في البداية ، اصبحت تتشكك حتى في المعلومات الصحيحة الصادقة .

١٩ —يوميات عباس بك ص ٤٦ .

٢٠ —يوميات عباس بك ص ١٤٧ .

٢١ — 21. Wingate P. 84.

بشأن نجاحنا من عدمه .. » فوجئ علاء الدين بلهجة عبد الرحمن العنيفة ، فأضمر في نفسه أمرا وصرف عبد الرحمن . وفي الاجتماع الذى عقد في اليوم التالى ، تمخض الأمر اخيرا عن اعتقال[٢٢] عبد الرحمن بك ومصادرة ممتلكاته ورقيقه .

وقد مر يوم الاثنين دون مناوشات من جانب الانصار . وقبل انتهائه أصدر هكس ، أمتدادا لجهوده المستمرة لرفع روح ضباطه المعنوية ، منشورا يعلن فيه ترقية القائمقام وهى الى رتبة اميرالاى . ويبدو ان محاولته افلحت قليلا في تخفيف شعور الضباط بالقنوط المخيم عليهم ، فقد زار علاء الدين وسكرتيره وعدد من الضباط هكس في خيمته ، وامضوا النصف الاول من الليل في سمر مع الجنرال والكلولونيل فركهار وانصرفوا في الحادى عشرة مساء بعد الاتفاق النهائي على التحرك في اليوم التالى نحو علوبة.

---

٢٢ —يبدو ان قضية عبد الرحمن بانقا . احد عيون المهدى على هكس ، قد شغلت حيزه كبيرا من اهتمام كبار ضباط الحملة في الاسبوع الاخير ..فعباس بك يذكر انه في اليوم التالى — الثلاثاء — تسلم علاء الدين وثيقة الادانة الرسمية لعبد الرحمن بانقا . فقد وصلت رسالة من ٣ جي اورطة تحمل اقرارا من احد خدم عبد الرحمن يشي فيه بسيده ويوضح اتصالاته مع المهدى فاستدعى علاء عبد الرحمن وواجهه ثم استغرق معه في حوار طويل حول خيانته وعن افضال الحكومة الخديوية واسباغها عليه النعم والرتب والشرف « فهل لك شرف تبادر به بعد شرف الحكومة الحالى » فاجاب عبد الرحمن بك مستقبحا شرفه الحالى قائلا « انى الزائد — فامتزج سعادته بالغضب من قباحة هذه الالفاظ » .

بعدها امر علاء الدين بسجنه وتوزيع خدمه واتباعه على الكتائب ومصادرة متاعه وحاجياته . ثم ابلغ هكس اثناء العشاء بالاجراءات التي اتخذها واقترح هكس معاقبته عقوبة أشد .

وتمهيدا لمحاكمته عند وصولهم الى الابيض واثبات التهمة عليه قضائيا ، امر علاء الدين بأخذ اقوال مكتوبة من كل اتباع عبد الرحمن لتكشف عن نشاطه وتعاونه مع المهدى فأخذ اولها :—

« ادريس تابع عبد الرحمن بك مسجون في ٣ جي بيادة — بالاستفهام من المذكور عن بعض الحوادث اورى على أنه في بعض الاحيام يبرر خروج سيده المسمى عبد الرحمن بك من القلعة فيتقابل مع عربان الياس باشا سرا وبالحملة تقابل معه في نهر البليات الذى اقمنا به يومين فضلا عن كونه مرتب اثنين عبيد من عبيده وهما قسم وعلى وهؤلاء مراسله ما بينه وبين الاشقياء » .

في اليوم التالى اخذ اقرار آخر يوضح ان الامركان اخطر كثيرا وان تعاون عبد الرحمن مع المهدى لم يكن مبعثه الخوف وحده فاتصاله بالمهدى بدأ قبل ذلك بكثير — في الخرطوم — « اسمى سناده زول بطرف سيدى المذكور والذى اعلمه جيدا بأن شخص يدعى حسين من تجار كردفان حضر بطرف سيدى ونحن بالخرطوم قبل قيامنا الى السفرية هذه وحضر له جواب من عند والده بكردفان بنوع السر .. واما معلوميتي في سفريتي هذه هو ان سيدى اخذه واعطاه مكالمة مع توابعه قسيم ومكى لكونهما دواما كانوا يتأخرون في الطريق ويحضروا بعد الناس بعد ضرب الخيم ووضع العفش .. »

اما الاعتراف الكتابي الثالث وهو من احد خدم عبد الرحمن بك ايضا ، فقد افصح بالاضافة الى المعلومات المذكورة بأن عبد الرحمن بك خرج بنفسه من الزريبة وقابل رسل والده في الرهد.

مخابرات ٣/١١/١٧٩/ أ .

يوميات عباس بك ص ١٤٧/ ١٤٨/ ١٤٩ / ١٥٠ .

مع خيوط الفجر الرمادية الاولى شق سكون المعسكر صفير بوق الاستيقاظ المنغم ، وتسارعت نغماته المتوترة المتقطعة لتلاحق الجنود وهم يلمون أفرشتهم ويفركون عن اعينهم النعاس ، وعندما انتظم الجنود اخيرا في صفوف متمايلة خلخلتها نسائم الفجر ، واعياء السيقان والارجل ، كانوا اشبه بأسوار قلعة جورش الاسطورية عندما تداعت اسوارها على اصداء مزامير الرهبان .

رفع العلم وعزف البوق السلام الخديوى . وفي تمام الساعة السابعة ، شرع مربع هكس في التقدم من البديرية قاصدا علوبة . وقد وصف عباس مسيرتهم القصيرة في صباح ذلك اليوم – الاربعاء ٣١ أكتوبر – بأنها مضت عبر غابات متصلة ، أستطاع المربع أن يشق طريقه خلالها بخطى حثيثة منتظمة لم تدم طويلا ، فقد صادف ذلك اليوم بدء تنفيذ مخطط المهدى الجديد . فبعد نصف ساعة بالضبط من تحرك هكس من البديرية هاجم الانصار المربع واجبروه على التوقف في نقطة الاغبش . ولكن توقفه وبناء الزريبة لم يزدهم الاجرأة ، فتزايدت ضراوة الاشتباك واستمر قصف النيران لساعات طويلة . لم تتجاوز خسائر المربع أكثر من جنديين . الا ان قرائن الاحداث تشير الى معركة نهارية طويلة . فالشغل الشاغل لعباس بك عدا تدوين يومياته في نهاية ذلك اليوم انما كان في متابعة تطورات قضية عبد الرحمن بانقا ، فلم يسهب في وصف اشتباك الصباح سوى ان أكد ان الاشتباك استمر صباح الاربعاء وضحاها . ولم يدع الانصار الزريبة وشأنها الا بعد مغيب الشمس[٢٣] حين استوثقوا من ان المربع سيبيت ليلته في نفس البقعة ، فقد شاهدوا الغبار المتصاعد من حفر الخنادق .

لقد بدأ المهدى السباق ، وتبدو لنا الآن عملية عبد الحليم وابو قرجة في ذلك اليوم عمليه تعطيلية ما القصد منها الا اجبار هكس على التوقف لتتهيأ لجحافل المهدى المتقدمة نحو البركة فسحة من الزمن حتي تصلها في وقت مريح . فرايات عبد الحليم وابو قرجة التي طالما كبح المهدى جماحها واجبرها على التفرج على المربع من بعيد ، ارخى لها العنان الان لتلتحم مع العدو وتجبره على التوقف مرارا . كانت اشتباكات ذلك اليوم هى اولى ثمرات رحلة عبد الحليم الخاطفة الى الابيض وكانت تلك هى البداية ، وسنرى ان هكس لم يتمكن من أجتياز اكثر من بضعة أميال في الايام الستة القادمة .

وعندما أمر بتشديد الزريبة وأوى الى خيمته ، ما كان يدرى ان ما شاهده اليوم وقومه كنشاط معاد عادى ، كان بداية الانطلاق في تنفيذ مخطط ضخم .

امضي هكس كل يوم وليلة الاربعاء ٣١ اكتوبر في الاغبش[٢٤] واستعد للتقدم في فجر الخميس ١ نوفمبر . وفي سعت ٧٠٠ بدأ التقدم نحو علوبة . شقت الحملة طريقها وسط أشجار متفرقة تتشابك حينا وتتباعد حينا ، وسار هكس مع اركانه في المقدمة على الطريق الضيق تاركا مربعه الضخم يتعثر وسط الاشجار ويبدو جنود اضلاعه الجانبية كالاشباح السارية وهم يتقدمون بين الحشائش الطويلة .

---

٢٣ – عبد الرحمن زكي – المجلة التاريخية المصرية نوفمبر ١٩٥٤ ص ١٥٦

٢٤ – يوميات عباس بك ص ١٥١ .

لم تخل مسيرة الساعات الاربع التي عبرها هكس من مناوشات الانصار ، الا ان هكس اصر على التقدم ورفض التوقف . وعندما بدت في الافق البعيد مياه فولة علوبة المستوية المترقرقة[٢٥] ، تنفس هكس الصعداء ، وحث جواده على السير الى ان اشرف على البركة واختار بقعة جنوبها ليعسكروا فيها .

ولكن الانصار لم يدعوه لينعم بالراحة طويلا ، فقد كان رجال عبد الحليم في انتظاره . لقد بعث عبد الحليم بمقدميه من حملة الاسلحة النارية لمعرفة نواياه اولا ، ولبث البلبلة والارتباك ثانيا ، فأختبأ هؤلاء وسط الاشجار التي حفت بالبركة . وشاء حظ هكس ان يقع اختياره على بقعة تقع امام الاشجار التي اختبأ بينها هؤلاء مباشرة ، ومكث الانصار مختفين في سكون تام وهم يرقبون اعداءهم في صمت حتي تلاشت الجلبة التي تصاحب اللحظات الاولى بعد توقف الجيوش المتحركة ، حين يعلو صراخ القادة بالاوامر لتوجيه الوحدات لاماكنها المخصصة . وعندما بدأ الجنود يخففون من اثقال المتاع من ظهورهم وظهور الدواب . فتح الانصار نيرانا متصلة من بعد عشرة أمتار[٢٦] .

كان توقيت المباغتة محكما ، فقد وجه في لحظات الاسترخاء التي تعقب السير المنهك الطويل ، وسرعان ماساد الهرج والمرج كل الحملة بينما كان جنود الكتيبة الثالثة يتواثبون لاختطاف سلاحهم ثم ينبطحون ارضا لتجنب الرصاص المتطاير . وتمكن اخيرا فرسان الباشبوزق من اتخاذ مواقع رماية وجهوا منها نيرانا متصلة استطاعت اسكات بنادق الانصار . وفي تلك الاثناء تمكن هكس من السيطرة على بقية المربع وامر الجنود بالرقاد ارضا . وظلت القلعة في حالة تأهب واستعداد لمدة خمس دقائق عقب توقف النيران . بعدها صدرت الاوامر بتشييد الزريبة وحفر الخندق المعهود . واستغرق الجنود في الحفر المضني .

وعندما بدأت ظلال الاشجار تتطاول مؤذنة بهبوط المغيب ، ساد السكون زريبة هكس ، لم تقاطعه الا تحركات الديدبانية الرتيبة بين فينة واخرى . ولكنه كان سكونا قصير الاجل . اذ فتح الانصار ، الذين لم يبتعدوا كثيرا عن الزريبة لعلمهم بعجز فرسان هكس عن مطاردتهم ، نيرانا متقطعة ، تناوب مدفعان من مدافع الكروب مع الديدبانية في الرد عليها ، فصمتت بنادق الانصار بعد فترة قصيرة وساد السكون مرة أخرى .

ويبدو أن توتر الموقف جعل هكس يتوقع هجوم الانصار بين فينة واخرى . فعقب كل اشتباك كان الجنرال يأمر بالاستعداد لمواجهة هجوم شامل « وتأخذ القلعة في الاستعداد خوفا من ان يكون موجودا خلافهم اكثر منهم عددا للهجوم بحيلة كهذه علينا » .

---

٢٥ — بينما تتفق يوميات عباس بك مع مصادر الانصار تماما في تاريخ وصولهم لعلوبة ، نجدها تخالف اغلب المصادر الاجنبية — بما فيها شقير وونجت — اللذان ذكرا ان هكس وصل يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر . بينما تؤكد يوميات عباس ان هكس وصلها يوم الخميس ١ نوفمبر سعت ١٠٣٠ .

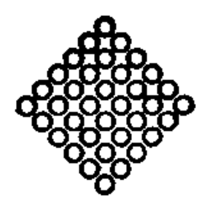
اليوميات ص ١٥١ .

م م ٣ / ١١ / ١٧٩ / أ .

٢٦ — يوميات عباس بك ص ١٥٢ .

ازدحم يوم الخميس بالاحداث ، ولم يقتصر على مناوشات الانصار فقط ، فقد شهد نشاطا في مجال آخر ، في الحرب الخفية ، حرب الاستخبارات ، فبعد نجاح الدليل فضل الله في المهمة السابقة لبركة الصراخنة ، والمكافآت المالية التي نفحها به هكس ، بعث مرة اخرى في بداية الاسبوع الاخير من اكتوبر ليستكشف خور ابو حبل . وارسل معه زياده في الحرص ، الشيخ محمد من ابناء قبائل المنطقة[٢٧] . ولما تأخرت عودتهما ساور الشك قيادة الحملة في انهما وقعا في يدى المهدى او ان فضل استمرأ نفحة المائة ريال المجيدى وهرب بها . وظلت قيادة الحملة في انتظارهما على أحر من الجمر لمعرفة آخر الانباء عن المهدى[٢٨] . وفي ظهر يوم الخميس ، وبينما انشغل الجنود بتشييد الزريبة ، لاح في الافق البعيد شبح رجل يعتلى صهوة جمل مسرع . وعند اقترابه اتضح انه الدليل المفقود فضل الله ، فأخذ فور لعلاء الدين وبدأ استجوابه :—

« وعلمنا أنه حضر للأبيض وسلموه للشقي محمد احمد هو والرجل الآخر الذى ارسل معه في اليوم المذكور لاستكشاف خور النيل وان الرجل الاخر قد اعدمه محمد احمد . واما هو فقد سجن مدة طويلة وبعد تحليفهم على المصحف الا يخون المهدى ارسلوه مع الفرقة[٢٩] التي حضرت بخور الرهد من الابيض لمحاربتنا وبعد قيامه معهم مدة ثلاثة عشر يوما حضر لنا يوم تاريخه وبالاستفهام عن حالة

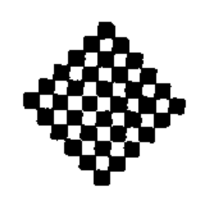


٢٧ —تتفق يوميات عباس واقوال حسن بارودى – وهما شاهدا عيان – على ماجرى لفضل الله . الا ان كلا منهما تعرف على احد الرجلين دون الاخر فبينما يعرف عباس بك فضل الله بالاسم ، اشار الى الشيخ محمد « برفيق فضل » . وعرفت اقوال حسن بارودى الاخير دون الاول . واشار شقير ونجت الى فضل الله بأنه « عبد » من الدويم .
يوميات ص ١٥٢ .
اقوال حسن بارودى ١٧٩/١١/٣أ .
شقير ص ٧٢٠ .

٢٨ —يبرز شقير اهمية مهمة فضل الله بالنسبة لهكس حست يعزى كل تأخير هكس في تلك المنطقة الى انه كان في انتظار عودة فضل الله .
شقير ص ٧٢٠ .

٢٩ —يقصد رايات ابو قرجه وعبد الحليم مساعد .

وصوله وما فعله معه الاشقياء ، وما هى اجراءات الشقي محمد احمد بكردفان اورى بتفصيلات ماوقع له بعد قيامه طرفنا . وقد وجه سعادة الحكمدار بسجنه بالحديد[٣٠] بالنظر للايضاحات التي اوضحها .. ولكن » كانت تلك اخر عبارة سطرها عباس بك ، فهنا توقفت يوميات عباس بك في تلك اللحظات الحرجة . تلك الوثيقة الثمينة التي تعتبر مصدرا رئيسيا موثوقا لتلك المعركة الغامضة التي كان الهلاك نصيب من اشترك فيها من حملة هكس ، ماعدا قلة قليلة من الرتب الدنيا لم تستجوب الا بعد سنين طويلة . وبذلك حرم مستكشفوا تاريخ السودان من معرفة حقائق سطرها قلم كاتب ، لو غضضنا النظر عن اسلوبه الركيك ، تحدث من موقع هام ، من قلب قيادة هكس وعلاء الدين ، فأتاح له مركزه وتدريبه العسكري المنتظم أن يقدم وصفا مرتبا لما دار بين الكواليس في المراكز العليا . وكم يود المرء لو نجا كاتب تلك الاسطر من الموت واخذ اسيرا ليكمل لنا الفصل الختامى من كبرى الملاحم السودانية . ولعله من سخريات القدر ان تتوقف اليوميات قبل اربعة ايام[٣١] فقط من الطامة التي حاقت بجيشه ، فقد لاحق عباس الاحداث حتي يوم الخميس ١ نوفمبر . وبعد اربعة أيام أسدل الستار الختامى على حملة هكس .



٣٠ — يوضح حسن البارودى ان سبب اعتقاله وتكبيله بالسلاسل هو قيامه بتوزيع منشورات وانذارات المهدى بكميات كبيرة ، التي بعضا منها على طريق الحملة لتنشر بين جنود الحملة وضباطها كانذار أخير . وقد افلح فعلا في توزيع جزء كبير منها ، خلاف ما بعثره على طريق الحملة ، والتي جزءا اخر في اماكن متفرقة من الزريبة ليقرأها الجنود ، وضبط متلبسا فتم اعتقاله ونستشف من المصدرين كليهما ان هكس لم يتسلم انذار المهدى الا يوم ١ نوفمبر اى بعد حوالى اسبوعين من تحريره .
وفي استجوابه اوضح ان اغلب قوة المهدى تحركت للبركة وان المهدى مع القلة القليلة التي بقيت في الابيض سيلحق بها « هذا يعني ان فضل تمكن من التسلل من راية ابو قرجة في يوم ٣٠ أو ٣١ اكتوبر » .

٣١ — من المحتمل ان عباس سطر يومياته الى آخر لحظة يوم ٤ نوفمبر فالنسخة الاصلية بخط يده — التي توجد منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة الخرطوم قسم السودان — تتوقف فجأة في نهاية الصفحة — بما يرجح الاحتمال بأن هناك صفحات اخرى تمزقت اثناء انتقالها من يد ليد الى ان عثر عليها في جيب أحد قتلى الانصار في معركة كررى .

كازقيل ... أم الملبس

« ..ولو اتخذ هكس طريق الملبس وعاد الى الرهد ، لربما تغير مصير الحملة .. »

نادرا في المعارك قديمها وحديثها ، ما نجد قائدا حاز على انباء مفصلة عن خصمه ، كتلك التي حصل عليها المهدى واشتغلها لاقصي حدود ولا نملك الان . ونحن نتأمل أحداث الايام الاخيرة لمعركتنا منذ تحرك المهدى من الابيض . الا أن نشبهها لفرط سرعة ردود الفعل من كلا الخصمين ، بمباراة شطرنج حامية الوطيس ، تتكشف فيها علانية خطط كل من القائدين وتحركاتهم امام عدوهم . حين يصبح المحك الحقيقي للابداع والمهارة هو المقدرة على اجبار الخصم على اتخاذ مسلك معين ، لا مفر له منه ولا مصلحة له فيه .

فقد برزت على طاولة اواسط كردفان ملكات المهدى وخياله العسكرى الملهم في اولى معاركه كقائد محترف يتولى ادارة احدى المعارك السيالة الكبرى . فمسرح معركته الوشيكة هنا ، ما كان محصورا كمعاركه السابقة . ليس كجزيرة أبا ، ولا جبالا وكهوفا كقدير وجرادة ، ولا مدينة مسورة متخندقة كالابيض ، بكل سماتها المميزة من حركة محدودة ومسرح محصور واستراتيجية جامدة ذات وجه واحد ، يترك فيها القائد لعدوه المبادرة لحين المعركة التكتيكية . بل هنا من الرهد الى الابيض ، مسرح واسع متشابك المسالك والطرق ، أتيحت للمهدى فيه حرية المناورة وأجراء تحركات واسعة لراياته وفرقة وتطبيق استراتيجية ناضجة تمخضت عنها خططبارعة متتالية ، أتيح فيها للتشكيل القتالى الجديد لجيشه المعزز بالاسلحة النارية مجال للعمل بمقدرة وبراعة منقطعة النظير.

كان سير المهدى في اليوم الاول ، الخميس ، وئيدا . فقطع مسافة قصيرة وحط رحاله في قرية ابو صفية خارج مشارف الابيض[٣] ، وامضي ليلته فيها مع ركبه الصغير . ولكن خطوته اسرعت وجد في السير المتواصل منذ صباح اليوم التالى واستمر فيه طوال النهار حتي لحق بمؤخرة جيوشه في فولة فرتنقول في عصر نفس اليوم[٤] .

وكشأن الجيوش في فترات سكونها بعد الحركة الدائبة[١] . حين يصبح تصيد الاخبار وتداولها الشغل الشاغل ، تميزت أستراحة جيوش المهدى القصيرة في فرتنقول بانتشار الاشاعات وتناقلها بين المقاتلين وتبلورت اخيراً في هيئة نقاش وجدل ثار في ضحى الجمعة بين المهدى وثلة من مستشاريه .

---

٢ –

٣ – الكردفاني ص ٢٢٧ .

٤ – أوراق على المهدى ص ٢٦ .

١ – محمد عبد الرحيم ص ١٤٣ .

أبان فيها هؤلاء خشيتهم من أن يتمكن هكس من الوصول الى البركة قبل المهدى فأن هكس ، حسب الاخبار المتلاحقة التي تصلهم ، يجد في السير للوصول الى البركة ومسافته أقرب اليها منهم [٢]

وعلى الرغم من استبعاد المهدى لتلك المخاوف مؤكدا لهم بأنه لن يسمح لهكس بالوصول الى منهل البركة أو غيره بعد الان . حسب خطته الاستراتيجية الاصلية للسيطرة على موارد المياه ، الا انه نزل عند رأى معاونيه « لتطييب خاطر الاصحاب [٨] » وامر بتشكيل قوة خفيفة مختلطة من راية محمود عبد القادر ، أوكلت مهام القيادة فيها الى قيادة مزدوجة وهو تقليد كان يتبعه المهدى في تلك الايام ، حيث كان يراعى تمثيل الجانبين . المعنوى والديني في القيادات العسكرية . فقد أوكلت القيادة الى محمود عبد القادر أحد أمراء راية الاشراف وضياء الدين عبد الله رئيس النواب كان قوام تلك القوة المختلطة ألف فارس ونخبة من المشاة منتقاة من الشبان الاقوياء . وقد أمرت بأن تنفصل وتسرع الخطى الى البركة . وتحتلها قبل وصول هكس . وأن تقتحمها وتشتبك بهكس ان وجدته قد احتلها او يشرف على احتلالها . على ان يلحق بهم المهدى وينجدهم بالقوة الرئيسية التي كانت تتقدم بخطواتها الثقيلة المتمهلة .

كان تقدم محمود سريعا متصلا . فقد أشرف على البركة في النصف الاول من ليلة الجمعة فوجدها خالية فأحتلها وتم تأمينها[٩]

وقد تمخضت عملية محمود الصغيرة المحدودة عن نتائج بعيدة المدى فاستجواب حسن البارودى يشير الى ان احتلال محمود للبركة أدى الى تغيير رئيسي في مسار الحملة برمته . فجريا على العادة المتبعة ، أرسل هكس في ٢٩ أكتوبر [١٠] دورية استكشاف مكونة من دليلين ، ترمز اليهما أقواله « بالدليل الكنزى والدليل البقارى » لاستطلاع البركة والتأكد من خلوها من الانصار تمهيدا لتقدم الحملة نحوها كما كان مقررا . فصادف استطلاعهما تواجد محمود في البركة . ويبدو أنهما شاهدا بداية دخوله واحتلاله لها ، واصابهما الفزع ظانين أن قوة محمود انما هى جزء بسيط من

---

٢ – تقديم الكردفاني لتبليغ المهدى بتلك المعلومات يبدو وكأنما علم المهدى لاول مرة في فرنتقول بتوجه هكس الى البركة ، ومن ثم اتخذ هو قراره بالتوجه اليها وهو في فرنتقول « ثم بلغ المهدى عليه السلام وهو بالمنهل المذكور انهم قاصدون منهل البركة » بينما يؤكد كاتب الامير بد الحليم مساعد ان المهدى أمر جيشه بالتحرك نحو البركة ، بعد ان علم بتوجه هكس باشا اليها وهو في الابيض . بل بدأ تقدم الرايات نحو البركة قبل يومين – يوم الثلاثاء – من تحركه هو من الابيض .
المرجح أن المعلومات الاضافية التي وصلت للمهدى في فرنتقول كانت عن حرج الموقف وعن مكان هكس المحدد واقترابه ، وان مسافة هكس للبركة اقرب من مسافة المهدى اليها . الكردفاني ص ٢٢٨ .
١٧٩/١١/٣أ – أقوال كاتب الامير عبد الحليم ص ٧ .

٨ – الكردفاني ص ٢٢٩ .

٩ – محمد عبد الرحيم ص ١٤٤ .

القوة المخصصة للبركة . أو ان غبار الفرسان ولد لديهما انطباعا بان ذلك هو جيش المهدى الرئيسي . فقد ذكر حسن البارودى :

« وبعد فترة قصيرة من وصول العبد من الابيض ، عاد الجاسوسان اللذان ارسلهما هكس لاستكشاف البركة وابلغاه بان كل الخوارج تجمعوا في البركة وان اعدادهم لا تحصي .[11]

وسنرى بعد قليل ما فعلته عملية محمود عبد القادر في الجانب الاخر داخل زريبة هكس

أما المهدى . فقد امضي نهار الجمعة في فرتنقول وبات ليلته فيها ثم تحرك فجر السبت نحو البركة .

ونستطيع ان نحكم الان من شذرات المصادر التي استجوبت فيما بعد ، بأن جيش المهدى[12] لم يتقدم من الابيض كتلة واحدة ، بل حافظ على الفواصل الزمنية لتحركه المرحلى الذى انقسم الى ثلاثة اقسام اى تحرك الثلاثاء والاربعاء والخميس من الابيض على التوالى ، وأن تواريخ التحركات التي قدمها الكردفاني كان المقصود بها تحرك المهدى ورئاسته وليس كل الجيش الرئيسي الذى تميز بانتشار فرقة على طول الطريق بين فرتنقول والبركة .

ولو أضفنا لهذا الجناح – جناح البركة – قوات مساعد وابو قرجة جنوب شرق هكس وهى التي اصبحت الان تحت قيادة ابو عنجة ، ثم قوات التعزيز المتجهة اليها لاكتملت لنا الصورة الى حد ما . وهى تشير الى أن تحرك المهدى كان أشبه ، بالحصار الذى تضربه القوات الحديثة الان على جيوش اعدائها المحاصرة : نقاط أستراتيجية هامة محتلة أحتلالا ثابتا –كالبركة علوبة – فرتنقول – أشبه بأوتاد يرتكز عليها السياج . وبين تلك النقاط ماجت بقية جيش المهدى بالحركة : هو وبقية جيشه الرئيسي في الطريق من فرتنقول الى البركة ، والتعزيزات في طريقها من الابيض لعبد الحليم مساعد[13] في علوبة والرهد ، ثم قسم آخر يتجه من البركة الى علوبة . ولعل هذا يفسر الارتباك والغموض وتضارب الاقوال والمصادر التي تحدثت عن المعركة ، كما يفسر لنا ، كما سنرى بعد قليل ، التفاوت الزمني بين توقيت تلقي كل من تلك الاجنحة والفرق المتباعدة لانباء تحركات هكس .

أمضت الزريبة ليلة هادئة . فقد انشغل كلا جناحى الانصار – جناح المهدى وهو في طريقه الى البركة ، وجناح ابو عنجة ، بأنفسهم وبتحركاتهم الضخمة ، فابتعدت عناصر الازعاج عن الزريبة وساكنيها وتركوهم يمضون ليلتهم في سبات عميق ساهمت عدة عوامل في سريانه بين صفوف الجنود المتخشبة من الرقاد : نسائم بركة علوبة الرطبة المنعشة . والبطون الملأى بوجبة

---

١١ – اقوال حسن البارودى ص ٣٢ م م ١٧٩/١١/٣/أ .

١٢ – Intarregation of battle survivers, Aglin S.N.R. voll XX P. P. 144 — 105.

١٣ – مخابرات – اقوال كاتب عبد الحليم مساعد ص ٨ .

١٤ – انظر خريطة رقم (٥) « شيكان – السبت »

طيبة . والحلوق المبللة بالمياه الباردة بعد طول ظمأ ، والاجساد المنهكة بعد مشقة سير وقتال . ولكن في صباح اليوم التالى – يوم الجمعة – ومع دبيب الحياة في الزريبة ، بدأت الاحداث تتحرك مرة اخرى ، فقد وصل رسولا هكس[١٤] اللذان بعثهما لاستكشاف البركة .

ولعلنا نذكر ان نية هكس الاصلية منذ ان غادر الرهد ، وحتى تلك اللحظة ، كانت الاتجاه نحو الابيض بطريق البركة ، ولكن عندما وصل رسولاه اللذان بعثهما لاستكشاف البركة للتأكد من امتلائها بالمياه ،وخلوها من الاعداء ، وأفادا لخيبة أمله ، بأمتلائها بكليهما بالمياه والانصار ، اسقط في يده ، وعادت البلبلة المعهودة ، لتسود اوساط القيادة العليا للحملة . فدعا هكس لاجتماع تداولى لاعادة النظر في أى طريق يسلك للابيض على ضؤ المعلومات الجديدة .

وفي ذلك الاجتماع استمع كبار ضباط الحملة[١٥] الى مقترحات ونصائح الادلاء لاستخلاص رأى محدد حول أسلم الطرق للوصول الى الابيض . وقد تطور النقاش الى ثلاثة آراء محددة قدمها أثنان من الادلاء البارزين[١٦] ، مثل رأى كل منهما مصالحه ومخاوفه وتجربته الشخصية[١٧]

فالرأى الاول الذى قدمه الدليل الكنزى الذى عاد حديثا من البركة بعد تجربة احتكاك بالانصار ، ولازال يعاني من رهبة المشهد ، كان يحبذ الابتعاد وتجنب الانصار ووضع اكبر فاصل ممكن تجنبا للاصطدام بهم ، آملا في تجاوزهم والالتفاف حولهم . ومن ثم كان مسار الطريق الذى اقترحه يضرب شرقا الى اقصي ما سمحت به الطرق المطروقة وسط الاشجار . فقد اقترح العودة شرقا الى الرهد والتزود بمياه يومين ثم الطعن شمالا في اندفاعة سريعة الى الملبس ومنها الى الابيض [١٨]

ويمكننا الان أن نرجح بأن هذا الطريق كان أسلم المسالك لهكس ، اذا وضعنا في الاعتبار ان هدف الجنرال الرئيسي كان ان يجنب جيشه المضعضع مواجهة غير متكافئة مع المهدى ، وسط

---

١٤ – يذكر ونجت أعتمادا على اقوال حسن البارودى او وصول الادلاء من البركة كان في اليوم الرابع لوصولهم لعلوبة ونتج هذا من خطأالتقدير المبدئي لوصول الحملة لعلوبة يوم ٢٩ بدلا من يوم الخميس ١ نوفمبر كما ذكر عباس بك أى انه مكث يومين فقط في علوبة يوم الخميس والجمعة . ومن يوميات عباس بك يمكننا ان نستنتج ان تلك الاحداث وقعت في يوم الجمعة اذ ان هكس غادر علوبة في يوم السبت ٣ نوفمبر بأتفاق اغلب المصادر.

اليوميات ص ١٤٣ .

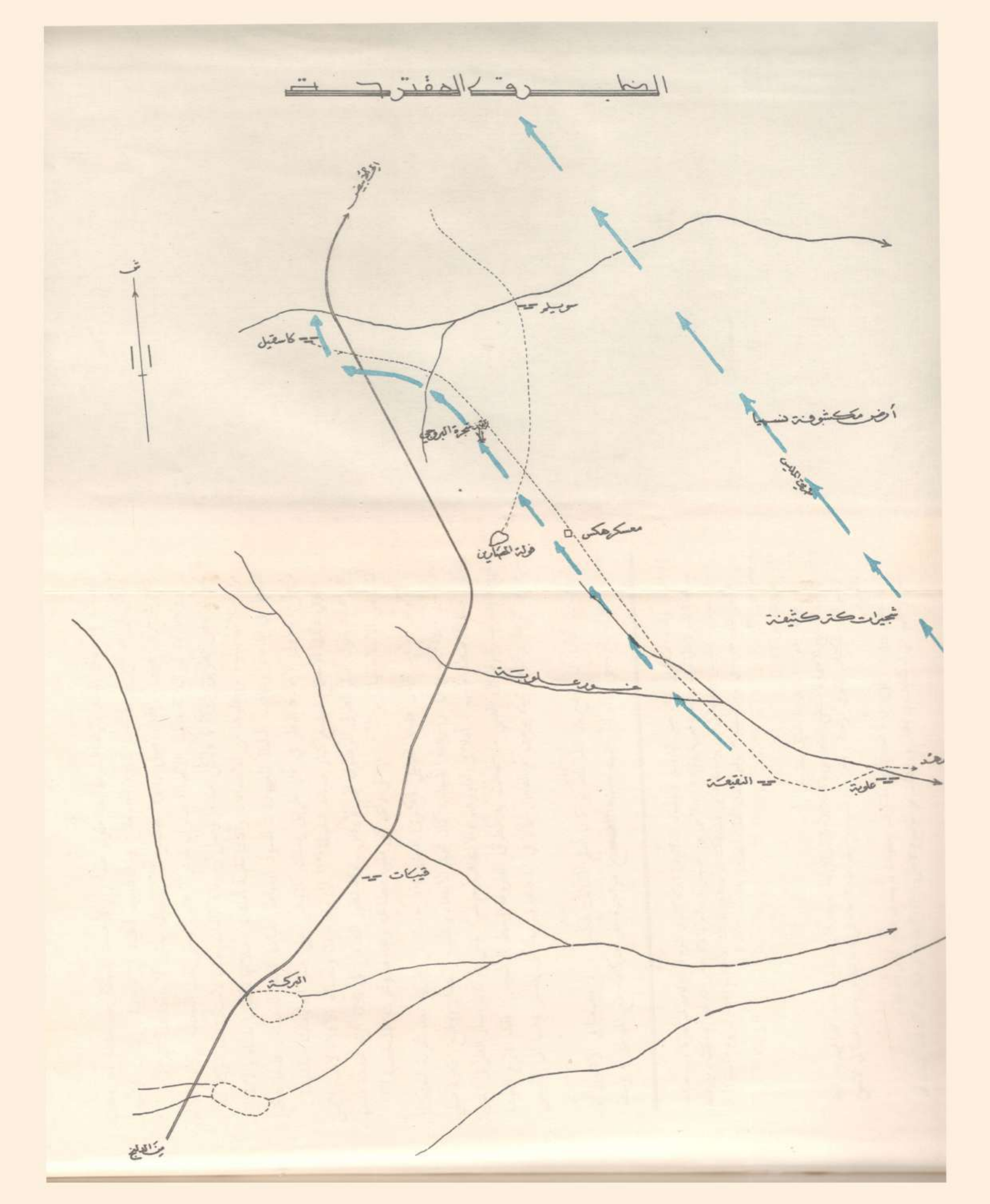
١٥ – البارودى ص ٣٢ .

١٦ – أنظر خريطة رقم (٣) خريطة الطرق المقترحة .

١٧ – في تلك الاسابيع الاخيرة لا نستطيع ان نعثر على ذكر للادلاء الكبار الاربعة . ويبدو ان رئاسة الحملة فقدت ثقتها فيهم منذ تخبط ارائهم عند استكشاف المياه في سراخنة ، ولعن هذا يفسر بزوغ نجم هذه الاسماء التي سيطرت على مصير الحملة في الاسبوع الاخير .

١٨ – كتب أجلن **E.F. Aglin** في « السودان في مذكرات ومدونات » بعد ان مسح ارض المعركة .

ولعلى لن اتهم بانني قد شططت في الخيال ، وانحرفت عن الموضوع الاصلى – اذا ذكرت هنا ان هكس لو اتخذ هذا المسلك أى


الطرق المقترحة
سويلو
كاسقيل
الشجرة البرجي
معسكر هكس
أرض مكشوفة نسبيا
شجيرات كتر كثيفة
خور علوبة
النقيعة
علوبة
قيبات
البركة

احراش كردفان بمصادر مياهها السرابية ، ثم المسارعة الى الابيض خلسة واحتلالها لخوض معركته الفاصلة في ظروف مناسبة،هذا اذا لم تتبدد جيوش المهدى اثر احتلاله للابيض كما كان هكس يتمني ، فيجنبه تبددها المواجهة الحاسمة .

ثم قدم الرأى الثاني الذى نصح به كنه « الدليل البقارى » الذى أتهمه ونجت فيما بعد انه كان احد عيون المهدى ، وان الهدف الحقيقي من وراء تقديمه لذلك الاقتراح كان استدراج هكس الى موضع الهلاك ، او على الاقل الى بقعة ما يصبح هكس عندها في متناول يد المهدى .

أفتتح كنة حديثه [١٩] معددا مساوئ الاقتراح السابق مندداً بأنه طريق ملتف طويل يجشمهم المتاعب ويفقدهم زمنا ثمينا هم في أمس الحاجة اليه ثم قدم رأيه وهو ان تتزود الحملة من غلوبة بمياه تكفي ليومين ثم يتقدمون لكازقيل ومنها الى الابيض .

ولو القينا نظرة سريعة على الخريطة سنرى ان المسلك الذى اقترحه كنه يتخذ الطريق الغربي ، الاكثر ميلا والتصاقا ، بل يدفع بهكس الى احضان المهدى الذى امتدت ذراعاه وتوزعت جحافله بين فرتنقول والبركة .

ولعل ذلك الاقتراح هو الذى جعل ونجت يتشكك في ان كنة كان من رجال الطابور الخامس للمهدى في الزريبة [٢٠] .

وقد اعترض الدليل الكنزى على اقتراح كنة ورفضه رفضا باتا . ولكن اعتراضه ، انطلاقا من معلوماته الشخصية ، بني على اسباب جانبية أو هي من الاسباب الحقيقية ، فمشاهدته لطلائع محمود جعلته يظن بأن المهدى في البركة ، بعيدا في الغرب ولا تمثل جيوشه تهديدا أثناء التقدم نحو الابيض . فضرب على النغمة المعتادة – المياه وقلتها في كازقيل – ثم قدم اقتراحا بديلا ، ملخصه انه ان كان لابد من اتخاذ طريق كازقيل فالأصوب تقسيم الحملة الى قسمين : قسم يتقدم بطريق كازقيل وقسم آخر يتقدم بطريق الملبس .

ويوحي اقتراحه البديل بأصراره على الابتعاد شرقا ولو بجزء من القوة ، بأنه رأى الكارثة

العودة الى الرهد والتقدم بطريق الملبس ، لكان مصير الحملة مختلفا . فقد قبطي أسلم على يد المهدى ثم أرسله لجمع الزكاة في تلك الايام من سكان المنطقة المنحصرة بين الابيض والرهد بجهة الملبس بأنه وجد ان سكان المنطقة تلك كانوا يبتهلون سرا لانتصار حملة هكس وكانوا على اتم استعداد لمعاونته الى اقصي حد ممكن .

بالطبع ليس من السهولة تصديق تلك الرواية ، خصوصا اذا وضعنا في الاعتبار ايمان سكان كردفان برسالة المهدى وولائهم الصادق له . ولكني وودت تسجيل ذلك هنا من باب الخيال التاريخي الذى يبدأ دائما ب « لو » .

١٩ – مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ – بارودى ص ٣٤ .

٢٠ – كتب ونجت بعد ان حقق في موضوع الدليل : –

« كان كنة من عرب الغديات ، التي انضم اغلب رجالها للمهدى . ومن هنا كان الاحتمال كبيرا انه قدم اقتراحه متعمدا القاء هكس في طريق المهدى وقد هرب من صفوف هكس وانضم الى الانصار قبل المعركة .

٢١ – مخابرات ١١/٣/أ – بارودى ص ٦٣ .

قادمة وبذل جهدا صادقا لتفاديها . فعلى الرغم من أن اقتراحه الاصلى باتخاذ طريق الملبس ، كان يمثل احد أطواق النجاة الممدودة للجنرال . والذى كان يجب التمسك به للنهاية . الا ان اقتراحه الجديد على سوئه . كان يمثل الحد الادنى لتفادى الكارثة الشاملة او تخفيف وقعها . و كن عيوب فكرة التقسيم في حد ذاتها طغت على وجاهة الاقتراح وأدت الى حسم النقاش لغير صالحه .

وعندما تبلور النقاش ، سرعان ما اختفي الاقتراح الاصلى الداعى الى اتخاذ طريق الملبس ليبرز الى الوجود اقتراحان محددان :

١ –تقسيم القوة الى قسمين : قسم يتجه الى الابيض بالطريق الشرقي عبر الملبس ، وقسم يتخذ طريق كازقيل .

٢ –أقتراح كنة بالتقدم مباشرة نحو كازقيل .

وكالعادة تحزبت القيادة العليا وتفرقت آراؤها في تأييد احد الافتراضين . فسرعن ما تبني علاء الدين الرأى القائل باتخاذ طريق الملبس وبالطبع اتخذ هكس الرأى المخالف . معارضا فكرة تقسيم الجيش الى قسمين فكل الجيش اما في هذا الطريق او ذلك .أما تقسيم الحملة .. فلا ثم لا . ثم حسم هكس النقاش أخيرا بترجيحة لاقتراح طريق كازقيل . [٢٢]

ويعزوالبارودى غلبة مدرسة كازقيل [٢٣] الى ان مقدم الاقتراح كان يستمتع بثقة القيادة واركانها ، وصادف ذلك انحسار نفوذ كبار الادلاء ، وكان كنة يعتبر المرجع الاساسي في تلك المنطقة فهو من جبل الداير ، فكان طبيعيا ان يظن فيه الدراية بمسالكها . ثم ان كنة دافع دفاعا حارا عن رأيه مستبعدا المخاوف التي ابديت من دفن الابار فمن السهولة حفرها مرة اخرى والتحصل على المياه لانها قريبة من سطح الارض .

اتخذ هكس القرار الاخير ، فسعى الى حتفه بظلفه ، ودق بيده مسمارا كبيرا في نعشه وبدأ غروب شمسه السريع .

ان حملة هكس تبدو لنا الان كاحدى تلك المشاريع العسكرية التي يحفل بها تاريخ الصراع البشرى ، خاسرة من بدايتها . ونستطيع ان نلمح في اغلبها قرارا يتخذ في لحظة معينة ، يمثل نقطة التحول وبداية الانحدار والتردى السريع نحو الهاوية السحيقة . ولا شك أننا شاهدنا مواقف

---

٢٢ – مخابرات ٣/١١/أ– بارودى ص ٦٣ .

٢٣ – المرجح ان من الاسباب ضعف مدرسة الملبس ان مقدم الاقتراح كان يمثل رأى قناوى بك الذى تدل الاحداث الاتية على مثل « المعارضة » ضد هكس وعلاء الدين في اقوال البارودى ، وصف الدليل الكنزى :
كان الادلاء من النوز العوبة في يد قناوى بك الذى كان يصدر توجيهاته لهم سرا ، ثم يقدم هؤلاء استشارتهم ونصائحهم بايعاز من قناوى– وكأنها اراؤهم الشخصية .
مخابرات ٣/٧٩/١١/أ– البارودى ص ٦١ .

عديدة شبيهة مرت بها الحملة خلال مسيرة الاسابيع السته ، ومنذ أن عقد هكس اجتماعه الاول في الدويم وقرر اتخاذ طريق الرهد ، الا ان ما حدث داخل خيمة هكس في ليلة الجمعة الاخيرة كان يعد من اخطر قرارات الجنرال الانتحارية المتخبطة . ويمكننا ان نبتلع بدون صعوبة تذكر ، تعليل ونجت بأن الدليل قد قاد هكس متعمدا نحو المهدى ، رغم رأى مؤرخين آخرين يرفضون مبالغة ونجت في تجسيم الدور الذى لعبه ادلاء هكس في مصير الحملة [٢٤] وسواء صح هذا الرأى أو ذاك فأنما يعزى اتخاذ الاحداث لذلك المجرى الى الظلام الدامس الذى اطبق على المربع من كل صوب ،وجعل هكس يتحسس مواقع أقدامه بأيديه أو بأيدى أدلائه - الواجفة المرتابة ، فقد أجبره مخطط المهدى البارع على البقاء فيه حتي اللحظة الاخيرة .

أنفض الاجتماع في النصف الاول من الليل وباتت الحملة ليلتها في نفس الزريبة . وفي الصبح الباكر- السبت ٣ نوفمبر- فغرت الزريبة فاهها الواسع وافرغت شاغليها لينتظموا في الصفوف المعهودة . وبدلا من ان يتجه غربا ، استدار مربع هكس الهائل نحو الشمال الغربي .. نحوكازقيل [٢٥]

وفي صباح ذلك اليوم ، نحس لاول مرة بأن الجنرال قد بدأ يدرك أن الزمن ، ذلك البعد الحاسم غير المرئي ، هو صاحب القول الفصل في تلك المرحلة الحرجة من مسيرته ، فصمم على قطع المسافة التي فصلته عن كازقيل في وثبتين . وامضي كل نهاره يسير بجد وسط الطريق الشائك ، ولم ينظر الى الوراء قط ، ولم يعر ادني التفاتة الى المشاق التي تعرض لها المربع ، وصفوفه تتعثر وسط الاشجار المتشابكة وقادتهم يحاولون عبثا المحافظة على الشكل الهندسي للمربع . ولم يتوقف هكس الا بعد ان عبر عشرة أميال [٢٦] من بحر الاشجار المتلاطم ، واوقف مسيرة اليوم في قرية تدعى أم ريح على بعد ثلاثة اميال ونصف من قرية صغيرة تدعى شبهين ، دخلت المنطقة التي تحيط بها التاريخ باسم ... شيكان .

اوقف هكس التقدم بعد الظهر [٢٧] . واصدر تعلياته بالمبيت في تلك البقعة . وانطلاقا من تجاربه الاليمة في الليالى الماضية مع مناوشات الانصار ، وواضعا في الاعتبار ان عدوه قد غادر الابيض .

---

٢٤ - جهاد في سبيل الله ص ٥٣ .

٢٥ - مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ البارودى ص ٣٣ .

٢٦ - 26. S.N.R. vol XX 143 — 1973.

٢٧ - محمد عبد الرحيم ص ١٤٤ .

واتخذ المبادأة . امر هكس بتشييد زريبة اشبه بالموقع الدفاعي يتناسب سمكها مع جسامة الاخطار المحيقة به . وهى الزريبة الوحيدة بين عشرات الزرائب التي اقامها هكس في مساره الطويل التي طال عمرها . واصرت على البقاء . وقاومت آثار الزمان والطبيعة فامتد عمرها الى نصف قرن من الزمان بعد تشييدها [٢٨] .

اختار هكس موقعا يبعد قليلا من دغل كثيف من شجر الطلح . وشيد زريبته في شكل مستطيل شطره طريق علوبة – كازقيل الى نصفين . فامتدت واجهتها الامامية الى ٢٧٠ ياردة ، بينما بلغ ضلعها الايمن ٣٠٠ ياردة .

شرعت الكتائب في تحسين الموقع [٢٩] بأزالة الحشائش والاشجار من الركن الجنوبي الشرقي ، اما تحوطا من مناوشة الانصار من الخلف كعادتهم . او لان النباتات عاقت تحسين الدفاعات فاضطروا لازالتها . وانتشرت جماعات السرايا المخصصة لقطع اغصان الاشجار في مدى قريب ، بينما بدأت عملية الحفر المضنية لاحاطة السياج بخندق متصل . استخدم التراب المستخرج من حفره كمتراس ترابي ، وكسياج ثالث لحماية الجنود [٣٠] .

أستغرق تشييد الزريبة والخندق وتجميع الحيوانات والمتاع كل اليوم ولم يعود الجنود لداخل الزريبة الا عند صلاة العشاء . وبعد الصلاة مباشرة . وفيما الجنود يتوجهون الى مواقع مبيت وحداتهم فتحت عناصر أستكشاف الانصار نيرانها ، وقد كانت تراقب الموقف من بعيد ، واطلقت عدة أعيرة نارية افلحت في اعادة الجنود مرة اخرى الى الخنادق . واستعدت كل الحملة تأهبا لتلقي الهجوم المتوقع . أمر هكس بأطفاء كل الأنوار ، فساد الظلام كل الزريبة لفترة من الزمن . وعندما تلاشت اصداء انفجارات رصاص الانصار ولم يعاودوا الكرة ، أصدر هكس توجيهاته للجنود بالعودة الى مضاجعهم . فساد السكون والظلام الزريبة مرة اخرى حتي الصباح . واستغرق الجميع في سبات عميق . كانوا في امس الحاجة اليه ، فقد كانت تلك اخر ليلة تذوق أعينهم فيها النوم .

---

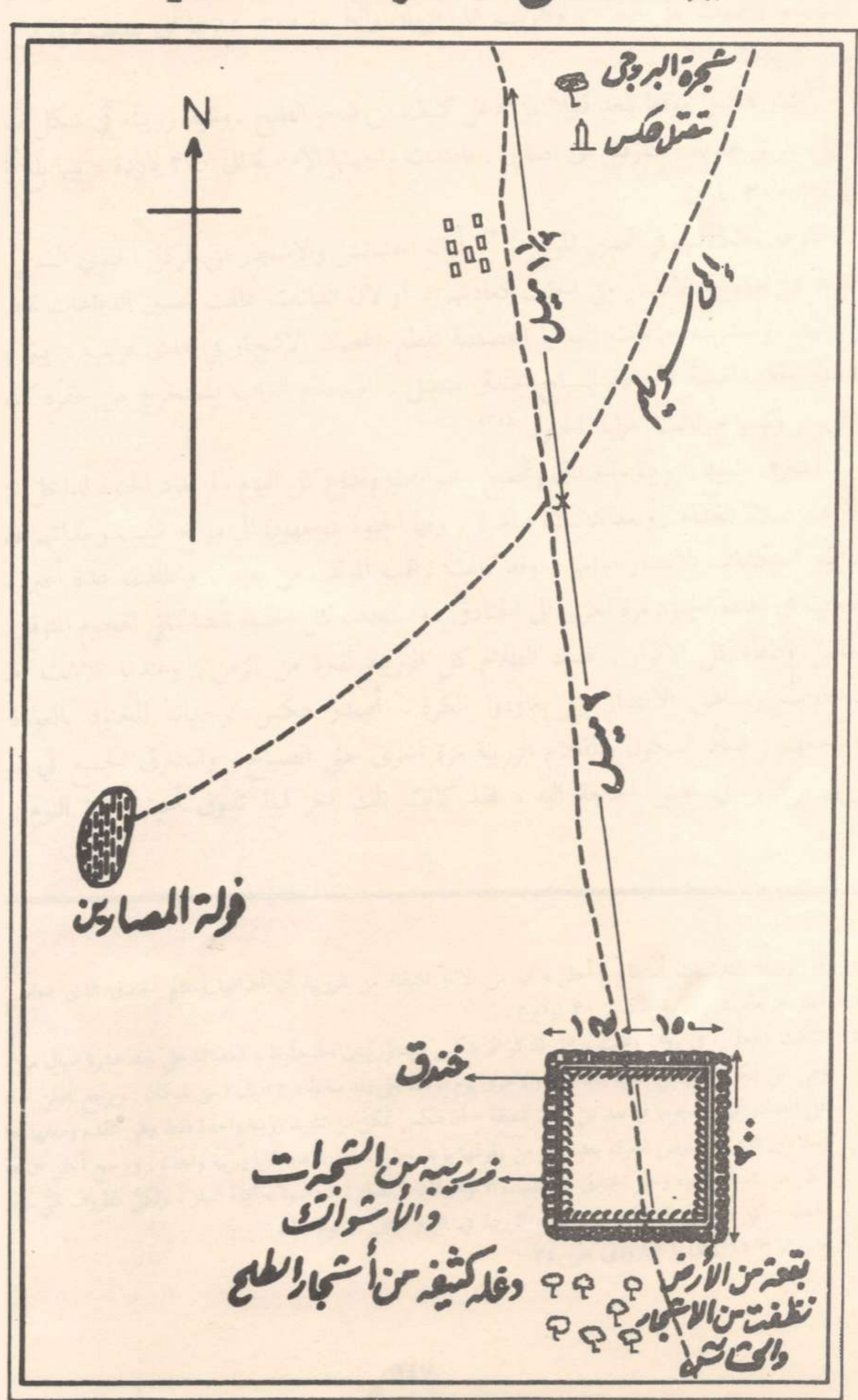
٢٨ – في اواسط الثلاثينات أستطاع « أجلن » ان من الاثار المتبقية من الزريبة أن أطرافها ومعالم الخندق الذى احاط بها .

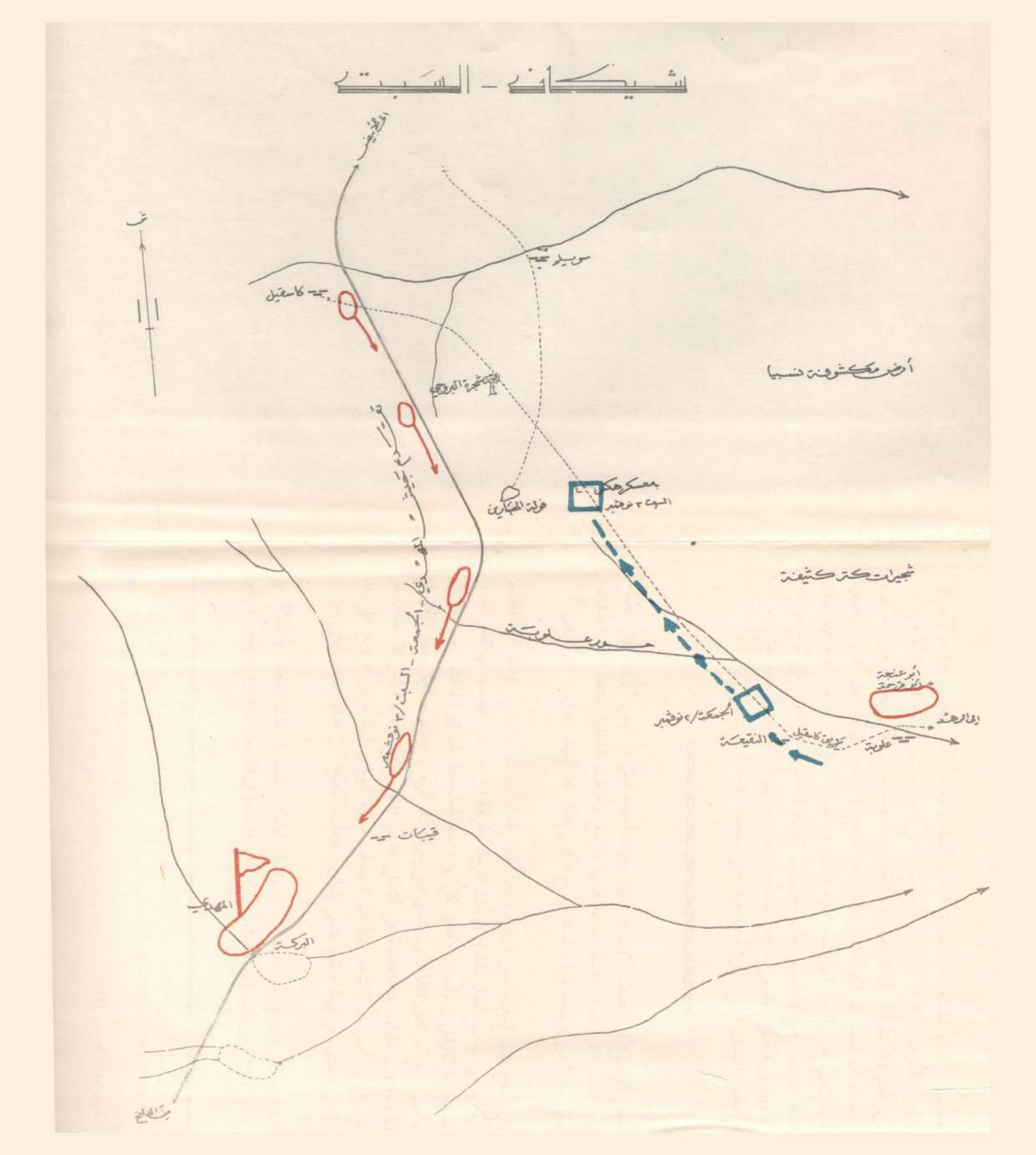
٢٩ – انظر خريطة ٤ (زريبة هكس ٣٠ نوفمبر) .

٣٠ – تشكك « أجلن » في رواية ونجت ، التي تذكر ان هكس شيد زريبتين بعد علوبة ، احداهما على بعد عشرة اميال من علوبة وهى التي تمكن اجلن من تحديد مكانها ، والاخرى يوم الاحد على بعد ساعة « ٣ اميال » من شيكان . ويرجح أجلن – اعتمادا على المصادر التي استجوبها فيما بعد من اهالى المنطقة – ان هكس تمكن من تشييد زريبة واحدة فقط وهى المقدم وصفها اعلاه . وسلاطين الذى زار ارض المعركة بعد اشهر من وقوعها يؤيد اجلن ، فقد شاهد بقايا زريبة واحدة . ويرجح أجلن ان هكس تمكن من تشييد الزريبة وحفر الخندق يوم السبت ٣ نوفمبر لان الانصار لم يتعرضوا له اثناء النهار ، ولكن الظروف التي مرت بها الحملة – كما سنرى – لم تمكنه من تشييد الزريبة في اليوم التالى – يوم الحد –

٣١ – مخابرات ١٧٩/١١/٣أ البارودى ص ٣٤ .

زريبة هكس السبت ٣ نوفمبر





شيكان - السبت
سويلو
كاسقيل
أرض مكشوفة نسبيا
معسكر هكس
السبت ٣ نوفمبر
شجيرات كثيفة
خور علوبة
أبو عنجة
الجمعة /٢ نوفمبر
النقيعة
طريق كاسقيل
علوبة
إلى الرهد
المهدي
البركة

الحصــار

«غدا يوم الاحد نتوجه اليم وفي صبيحة الاثنين بعد امرنا لكم بمحاربتهم . أذا تأخر أحدكم لاصلاح نعله لايدركهم أحياء..»
المهدى في البركة

لابد ان شبكة استخبارات المهدى امضت تلك الليلة في نشاط محموم . فلو كان لنا ان نحكم بالنتائج لوجدنا أنها لم تفلح فقط في ان تضع بين يديه ، وفي فترة تقل عن أربع وعشرين ساعة نبأ قرار أتخذته قيادة عدوه العليا بل أفلحت كذلك في ايصاله لكل الرتب في صفوف المهدى حتي اصبح سرا (١)

---

١ – ان تشكك اجلن الساخر من تقديم ونجت للمعركة له كثير من المبررات ، لا سيما بعد ان صدر الان كتاب « سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى » للمؤرخ اسماعيل عبد القادر الكردفاني الذى يعتبر بمثابة التاريخ الرسمي للمهدية ، بالاضافة الى اوراق على المهدى التي توضح كثيرا من الامور التي كانت خافية عن تحركات المهدى في الايام التي سبقت المعركة ، واصبحت الآن في متناول يد الباحث ، فقد كتب اجلن « ومن الادلة التاريخية التي فحصتها اعتقد ان المهدى غادر الابيض يوم الجمعة بكل مقاتليه وهو يظن ان هكس يتجه للبركة ، حسب نيته الاصلية . وطالما ان جيش هكس وصل الى علوبة يوم الخميس ١ نوفمبر ، كما نعلم الان يوميات عباس ، فمن المحتم ان القرار بالسير نحو شيكان » اتخذ غالبا يوم الجمعة . اذن كيف تسني للمهدى الذى غادر الابيض يوم الجمعة ٢ نوفمبر ان يعرف تغيير خطط هكس ؟ صحيح ان عددا من ادلاء هكس كانوا يعملون لحساب المهدى وقد يكون المهدى أمرهم بجذب الجيش نحو شيكان حيث تسهل مهاجمته . ولكن حتي لو سلمنا بذلك فلا يمكن ان يكون المهدى واثقا كل الثقة من نجاح الادلاء في اقناع هكس .. »

ويستخلص من كل هذه الأدلة نقطة هامة لم ترد على لسان ونجت ، وهى ان المهدى وصل فعلا للبركة . « وان شهادة شاهدى العيان تجعلني اجزم بان المهدى بنفسه ذهب للبركة .. » فتقديم ونجت للمعركة يوحى بان المهدى ادار المراحل الاولى للمعركة من الابيض ولم يتقدم للبركة . بل ارسل جيوشه فقط وتحرك هو من الابيض لشيكان – التي يقدمها ونجت وكأنها كانت ارض قتال مثالية وموقعا للايقاع بهكس . بينما تؤكد المصادر ان شيكان لم تكن مثالية لذلك الحد – وهناك عشرات الوديان المشابهة على طول طريق المربع . ولكنها مثلت نقطة اللحاق والصدام بهكس ولم تخطر ببال المهدى الا بعد يوم السبت – نتيجة لظروف معينة املتها تحركات هكس – فهى انسب موقع بالنسبة للمنطقة التي كان يعسكر فيها المربع كما سنرى ، كذلك لم يشر ونجت قط الى تحرك جيش المهدى ، او الجزء الاكبر منه من البركة نحو كازقيل – ويبدو ان ونجت تأثر بأقوال حسن كاتب الامير مساعد لحد مبالغ فيه ، حين ذكر ان القوة الرئيسية التي بلغت ٤٠ الف أنضمت لعبد الحليم في الرهد . وكل هذا نتيجة لعبارة حسن « وارسل المهدى كل المقاتلين ». (انظر ص) بينما نعلم نحن الان من المصادر العربية – الكردفاني ومحمد عبد الرحيم وعلى المهدى ، ان القوة الرئيسية للمهدى اتجهت من الابيض نحو البركة ووصلتها واحتلتها . أما تخمين أجلن الخاطئ بأن المهدى تحرك من الابيض يوم الجمعة ٢ نوفمبر وهو الخطأ البسيط الوحيد في مقاله ، فيعزى الى محاولته التوفيق الزمني بين الاحداث . فان المنطق يحتم ان علم المهدى بتغيير هكس لرأيه واتخاذه قرار السير نحو كازقيل ، يجب ان يكون بعد اتخاذ القرار أى بعد يوم الخميس . وكل ذلك الارتباك يعزى الى اعتماده على رواية ونجت التي تصر على ان المهدى علم بذلك وهو في الابيض . بينما نعلم الان من المصادر المهدوية بأن المهدى كان قد وصل البركة قبل وعلم بقرار هكس وهو في البركة .

وفيما عدا ذلك الاختلاف البسيط نجد ان تقديم اجلن يتفق تماما مع المصادر السودانية . فمصادره هو الآخر سودانية من جانب المهدى .

محمد عبد الرحيم ص ١٤٤ – الكردفاني ص ٣٢٠ .
اوراق على المهدى ص ٢٦ .

معلنا ، بل مصدرا للاشاعات ، وعادت البلبلة التي أثارتها الخشية من سباق هكس للبركة ، ولكن بنغمة مختلفة هذه المرة ، وهي الخوف من افلات هكس والتفافه حولهم ، وتسلله للأبيض الخالية الا من النساء والاطفال ، واصبحت الصيحة الجديدة هي التي عبر عنها على المهدى « هل يتعاقب الجيشان .. ؟ » [٢]

لقد تركنا المهدى يوم السبت وهو في طريقه للبركة ، فوصلها في الظهر . وما ان حط رحاله بها حتي هرع اليه عدد من امرائه كانوا في انتظاره على احر من الجمر لتبليغه النبأ الجديد ، ولحسم البلبلة التي سرت في المعسكر بعد ورود خبر تغيير هكس لاتجاهه وتوجهه نحو كازقيل بدلا من البركة .

ومن تطابق اقوال المصادر المختلفة في تحقيق « آجلن » مع الذين شاركوا في تلك الاحداث ، يبدو ان سرعة سريان النبأ من داخل خيمة هكس حتي وصوله الى رجال المهدى اتخذت الوجه الاتي —:

بينما كان المهدى لازال يتحرك نحو البركة ، بدأ انتشار نبأ اتجاه هكس الجديد . اما حقيقة بثه من داخل خيمة هكس الى خارج الزريبة فأمر يحوط به ضباب كثيف ، وتتراوح الاحتمالات بين انه كان نتاجا لنشاط استخبارى عادى بالمراقبة البعيدة التي لم تتخل عنها دوريات ابو قرجة ومساعد لحظة واحدة ، وشاهدت تحويل هكس لاتجاه المربع وخمنت هدفه الجديد — كازقيل — بدلا عن البركة . او ان المعلومات الجديدة اخترقت متاريس الزريبة واشواكها عبر اتصال مباشر بين من حضروا الاجتماع او من علموا بتفاصيله من اعوان المهدى ،ونستطيع الآن ان نحصر عددا منهم ، مع العناصر المتقدمة من رجال مساعد وابو قرجة . على كل ألمت الحلقة الضيقة من امراء الانصار التي احاطت بالزريبة بالنبأ في زمن مبكر لا يتجاوز بضع سويعات من اتخاذه . اما وصوله للقاعدة العريضة للانصار فتلك قصة أخرى :—

والمرجح ان رسل الانصار التي بعثها ابو عنجة لتبليغ المهدى ذلك النبأ ، لم تتمالك نفسها اثناء بحثها عنه ، فاذاعته بين افراد الرايات الذين قابلوهم في الطريق . ومن مقارنة المصادر المختلفة ، وبالاخص مصادر آجلن ، يمكننا الجزم ان تلك الرايات التي انتشرت في طرق المنطقة انقسمت الى عدة اقسام جزء منها كان من المجموعة التي ارسلها المهدى من الابيض لتعزيز مساعد لحين تولى حمدان ابو عنجة قيادة الجناح الثاني ، ومعظمها من بقية جناح الجيش الرئيسي المتجه من الابيض الى البركة وتوزعت حسب تفاوت سرعة الرايات في السير ، وعلمت بتغيير هكس لاتجاهه وهي في الطريق .ولعل هذا يفسر وصول الانباء لرايات البركة قبل او في نفس الوقت الذى وصلت فيه للمهدى . على أية حال ، الثابت ان ابو عنجة حسم الموقف واتخذ قرارا سريعا بمباداة من جانبه ، فبعث برسله لتأمر الرايات المتحركة نحو البركة لتعدل أتجاهها وتسير شرقا نحو كازقيل ، بدلا عن البركة ، ثم حدد لها (فولة المصارين) لتتجمع فيها.

---

٢ — جهاد في سبيل الله ص ٥٥ .

ذلك هو الانطباع الذى يتولد لدى المرء عند اطلاعه على استجواب اجلن للشيخ بله سراج احمد النور – من سكان البركة – والذى بلغ من العمر عند استجوابه عام ٣٧ ، حوالى الثمانين عاما :–

«كنت اسير بالقرب من قيبات في طريقي الى البركة للحاق بالمهدى ، وعندما مالت الشمس للمغيب وصل الينا فارس مسرع اخبرنا بان هكس قد حول اتجاهه من النقيعة واتجه شمالا نحو كازقيل بدلا من اتجاهه الغربي نحو البركة . فحولنا اتجاهنا نحن بدورنا لجهة الشرق نحو كازقيل .وشققنا طريقنا وسط الغابات والحشائش بدلا عن الدروب المطروقة اختصارا للزمن الى أن اشرفنا على معسكر هكس فشاهدنا اضواء المعسكر تلمع من بعيد بين الاشجار ومن ثم بتنا هناك – ورقدنا قريبا من معسكر هكس ، وفي الصباح انضم الينا المهدى . واثناء مكوثنا في تلك البقعة كنا نتزود بالمياه من « فولة المصارين » .

اما رواية الشاهد الثاني الذى استجوبه اجلن،الملك الطاهر طويان الدود ، ملك التامات ، فتؤيد استنتاج آجلن من ان حمدان بصفته القائد المسئول عن الجناح الثاني – مسرح علوبة – حسم الموقف بسرعة وتصرف منفردا واتخذ ثلاثة اجراءات في وقت واحد .ارسل ليبلغ المهدى بتغيير هكس لاتجاهه ، وكلف نفس الرسل او غيرهم بان يأمروا كل الحشود المتجهة الى البركة لتحول اتجاهها الى كازقيل . وعندما بدأ هؤلاء في التجمع ، استخدمهم ليضرب حصارا محكما حول هكس ، لمنعه من التقدم والافلات حتي يؤخره لحين وصول المهدى من البركة ليقود المعركة. فقد اصبح قطاع حمدان – قطاع علوبة – على ضوء التطورات الجديدة هو مسرح المعركة الرئيسي [٣] .

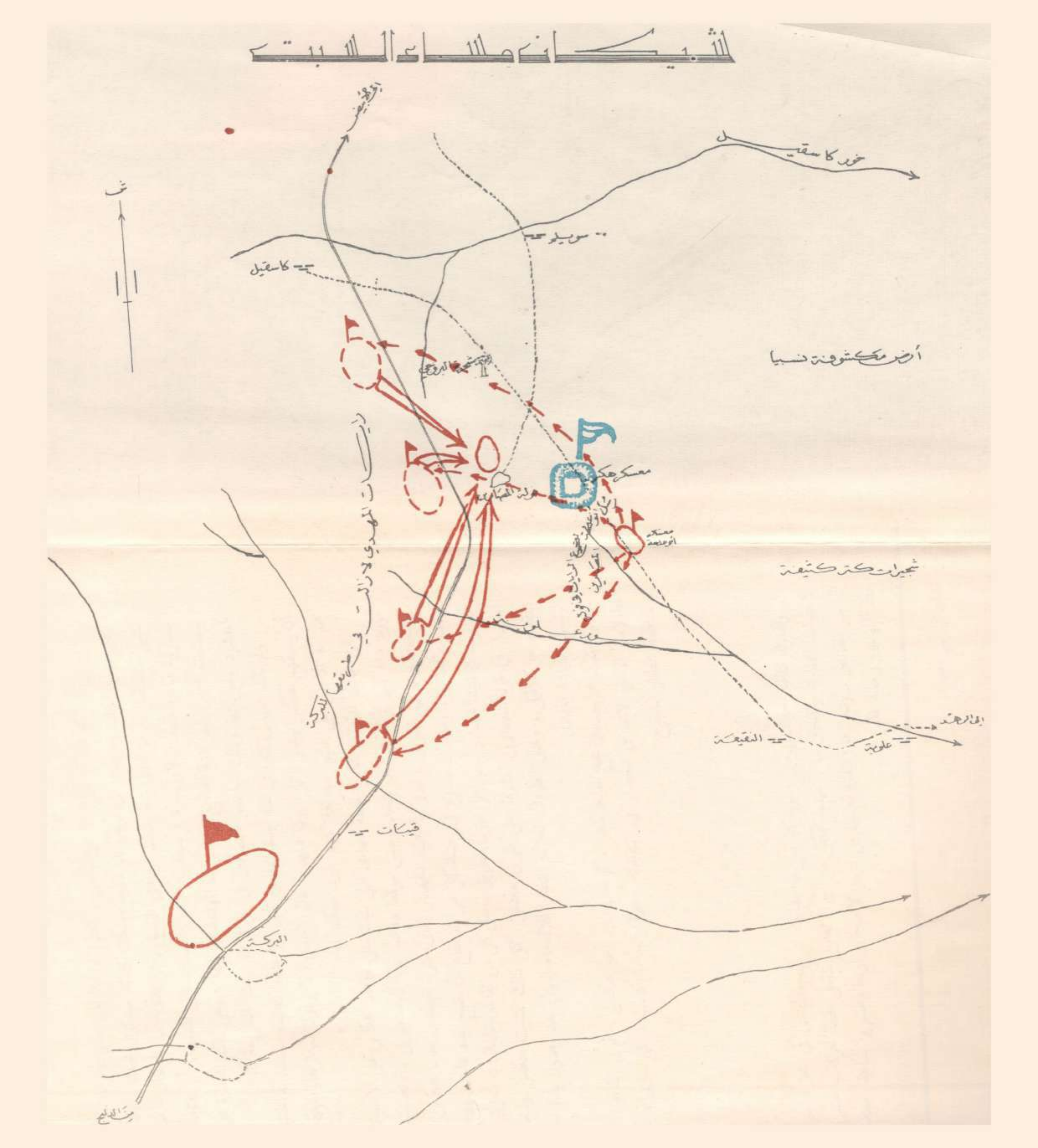
فقد ذكر الملك طاهر الدود

« سرنا عبر فرتنقول ووصلنا كازقيل في الصباح . ولما كانت كازقيل مسقط رأسي فقد عرجت عليها لا تمون من منزلى. اما المهدى فقد ذهب الى البركة.

وفي تلك الاثناء ، ركب شقيقي لعلوبة للانضمام لابي عنجة ولكنه عاد الينا يوم السبت ليخبرنا بأن هكس آت نحونا من النقيعة . ولذلك بدلا من أن نتجه الى البركة ، حولنا اتجاهنا لمركز الحشد الجديد في فولة المصارين ، التي سميت بذلك الاسم منذ زمن طويل ، حين وقع قتال قبلى في تلك المنطقة وكانت مصارين القتلى تتدلى من مناقير الجوارح التي التقطتها من جثثهم . وفي الفولة قابلنا المهدى .. »

---

٣ – انظر خريطة رقم (٦) شيكان مساء السبت .


شيكان مساء السبت
خور كاسقيل
كاسقيل
أرض مكشوفة نسبيا
معسكر هكس
النقيعة
البركة

ومن كل احداث الاسبوع الاخير لهكس ، الذى تميز بالمناورات والتحركات العديدة ، تشير عملية الحشد والحصار الى موهبة ابو عنجة وملكاته كقائد عسكرى محنك ، وكأنما كانت تنبئ بالمستقبل الباهر الذى ينتظر ذلك الجندى الباسل . فمن هنا — من شيكان — حيث تولى مسئولية قيادية منفصلة لاول مرة ، سطعت للاعين الصفات التي اشتهر بها أبو عنجة فيما بعد وخلدت اسمه كأشهر قادة المجاميع في سنوات المهدية العاصفة ، وهى تلك المقدرة على تجميع الحشود وتحريكها وذلك الحدس الصادق في اتخاذ القرارات السريعة .

ولم يغال المهدى كثيرا في ثقته بجيشه وقادته حين تنبأ عندما كاشفه مستشاريه بخشيتهم من أن يسبقهم هكس ويحتل منهل البركة قبلهم ، بأن الاعداء « لا يردون منهلا بعد منهلهم الذى هم به الا من بقي منهم بعد هلاكهم فيرد معكم الماء [٥] ... »

فمن خلال الاطار الشامل لخطة المهدى التي بنيت على حرمان هكس من الاستيلاء على مورد مياه كبير يمكنه من ان يتخذ ويحسن موقعا دفاعيا قويا لامد طويل ، وتصميمه على مهاجمته وهو في الطريق ، تبرز لنا أهمية الحصار الذى ضربه حمدان حول هكس بمجرد مغادرته لعلوبة ، وحمدان يسارع في حشد كل من استطاع ان يضع يده عليه ، ورسله قد انتشرت كما تنبئنا مصادر آجلن على طول الطريق لترسل كل من تقابله وتقفف به لتعزيز قوات الحصار في فولة المصارين المشرفة على طريق هكس . كل ذلك لتثبيت هكس ومنعه من التقدم نحو كازقيل ، وخلق الظروف الملائمة انتظارا للاقتحام النهائي بعد وصول بقية الجيش الرئيسي بقيادة المهدى .

ولا شك ان حمدان نجح نجاحا باهرا ، كما سنرى في تأخير هكس ، ثم في ايقافه ، رغم محاولات الاخير لاختراق الحصار في انتفاضة اخيرة يائسة ، كانت ، كما سنرى ، أشبه بانتفاضة الطائر المذبوح .

* * *

وللمرة الثانية خلال يومين ، وبحركة سريعة مفاجئة ، افلح المهدى في مجاراة سرعة الاحداث الطارئة واللحاق بها ، عندما تمكن من اجراء تعديل شامل لخطة تحركات عشرين الفا من المقاتلين ، وتنفيذها في فترة قصيرة من الزمن لا تتجاوز أربعا وعشرين ساعة . فعندما حط المهدى رحاله ظهر

---

٥ — الكزدفاني ص ٢٣٠ .

السبت في البركة [٦] كانت حشوده قد علمت قبلاً بنبا تغيير هكس لاتجاهه ، واثقلت الشائعات [٧] والهمسات هواء البركة الرطب ، وازدادت كثافتها وسرعة تناقلها حتي تفتقت اخيرا عن المحادثة الشهيرة التي جرت بين المهدى والشيخ أبراهيم ود الحاج – الشهير بالترجاوى – كما سجلتها اوراق الكردفاني :

« ... ثم أن المهدى عليه السلام ارتحل صبيحة يوم السبت التالى ليوم الجمعة المذكور من منهل فرتنقول المذكور . وفي ظهر ذلك اليوم نزل بمنهل البركة فأتي اليه أبراهيم بن الحاج الشهير بالترجاوى ومعه جماعة وقالوا له يا سيدى : الناس يقولون ان القلعة تقصد مدينة الابيض حتي شاع الخبر في الجيش بذلك . وانهم عدلوا عن قصدهم للبركة وأرادوا التوجه لمدينة الابيض ليستأصلوا من فيها ويحوزوا النساء والذرية . وأرجف الناس بذلك حتي قالوا للمهدى عليه السلام يا سيدى نتوجه للابيض قبلهم . فلما رأى المهدى عليه السلام شفقة الناس على اهاليهم وابنائهم هناك قال : أيها الناس انصتوا ، ثم بزق في كفه اليسرى وقال : أى شئ هذا ؟ فقالوا : بزاق يا سيدى ، ثم طرحه على الارض فشربنه في الحال . فقال للناس : هل ترون لهذا البزاق أثرا ؟ فقالوا له : لا . فقال : نحن كالارض وهم كالبزاق . ثم قال عليه السلام : اذا طار الطير ينزل في أى شئ ؟ فقالوا له : ينزل على الارض . فقال لهم انهم كالطير ونحن كالارض . أيها الناس اثبتوا واطمئنوا ونزلوا رواحلكم واستريحوا فلا قدرة لهم مع قدرة الله . ثم قال غدا يوم الاحد نتوجه اليهم وفي صبيحة يوم الاثنين بعد امرنا لكم بمحاربتهم اذا تأخر احدكم لاصلاح نعله ..لا يدركهم أحياء [٨] .. »

وفي فرتنقول حدد المهدى المكان ، أذ ذكر لهم ان العدو لن يرد موارد للمياه بعد النقيعة وفي البركة حدد الزمان . وفي عصر يوم السبت بدأت تبدو لاول مرة معالم معركته القادمة : يوم الاثنين ، في مكان ما على طريق كازقيل بين النقيعة وفولة كازقيل .

بدأ المهدى في تهيئة المسرح الجديد لمعركته الوشيكة . وهو على ذاك المدى القريب ، وبتلك الثقة والجزم بموقع عدوه ونواياه و الطريق النهائي الذى سيسلكه اصبح في مقدوره وضع خطته الاستراتيجية

٧– تذكر اوراق على المهدى ان البلبلة كادت ان تدفع بالخليفة عبد الله الى تغيير كل المخطط والعودة الى الابيض :
« .. ووصل المهدى والبقية عند العصر . فلما بلغ هكس وصول المهدى للبركة ارسلوا جاسوسا من الحوازمة ليفتش المهدى فقال للمهدى ان هكس قصد الابيض لانه بلغهم فاضي – وبناء عليه نبه خليفة على المهدى كل الانصار بأن يأخذوا كفايتهم من الماء استعدادا للقيام للابيض . وبعد ذلك بقليل اتضح للمهدى ان الرجل كاذب وخائن – فلا نشعر الا وجروه من جواده ورأيناه مكتوف وفتشوه فوجدوا عنده النجهات والاشياء التي زودها بها هكس . فلما انفضح امره اعترف .. » .
وبمضاهاة اوراق على المهدى مع تقرير حسن البارودى يتضح لنا ان الرجل المذكور أعلاه هو شخص خلاف الشيخ محمد الذى ورد ذكره في الفصل السابق الذى اعدمه المهدى للتباعد الزمني بين الحادثتين .
اوراق على المهدى ص ٢٧ .
٨– الكردفاني ص ٢٣٠ .

النهائية التي تهدف هذه المرة الى تطبيق خطته التكتيكية التصادمية مباشرة . فبرزت لنا هذه المرة خطة مفصلة واضحة الملامح والتقاطيع ، خلافا لخطته الأولى بعمومياتها وتحركاتها التخمينية واحتمالاتها المتعددة .

ويمكننا الان ان نجزم بان خطته الجديدة قسمت الى مرحلتين ، لكل منهما أهداف معينة . المرحلة الاولى كانت تهدف الى :-

١ - اكمال الحصار حول هكس على طريق كازقيل حتي يتمكن أبو عنجة من شل حركته طيلة ليلة السبت ويوم الاحد ثم :

٢ - تعطيله حتي يتاح للمهدى قطع المسافة من البركة الى مسرح المعركة .

٣ - تجميع كل حشوده حول هكس في فولة المصارين .

تتابعت كل تلك المراحل لتمكن المهدى من تنفيذ المرحلة الاخيرة وهى الهجوم العام الشامل بكل حشده وتحت قيادته الشخصية .

وقد وقع العبء الاعظم في تنفيذ المرحلة الاولى على عاتق حمدان [٩] [١٠] ، وأمضي كل أصيل السبت وليلته في تجميع من استطاع وضع يده عليه من المقاتلين محاولا ايقاف سيل الرجال الزاحف نحو البركة وتحويل اتجاهه لمنطقة الحصار .

وقد كان اختياره أو اختيار المهدى لفولة المصارين كمنطقة للتجمع موفقا ، فبالاضافة لمزاياها الادارية ، كوفرة المياه بها ، كانت موقعا تكتيكيا مثاليا ، فلم تبعد اكثر من ميلين عن طريق هكس هدف الاقتحام النهائي ، وهى قريبة للحد الذى يمكن المهدى من اطلاق الهجوم والوثوب على هكس من وضع مريح ، وهى ايضا بعيدة للدرجة التي تكفل حماية الرايات من انظار هكس ونيرانه في فترة الحشد والتجمع ثم الفتح والانتشار .

وقد شرع المهدى في تنفيذ مخططه الجديد بتحويل حشده الى الجناح الشرقي وتقوية الحصار المضروب حول هكس . وكما فعل بالامس حين كان بفرتنقول واقتطع من جيشه الرئيسي قوة خفيفة الحركة بقيادة محمود لتسارع وتسابق الزمن لاحتلال البركة ، اعاد اليوم نفس المبادرة بنجاح . [١١]

فعقب مناقشته للترجماوى ومباشرة بعد انفضاض المجلس ، وجه المهدى بتعزيز أبو عنجة بقوة ضاربة سريعة الحركة مزودة بمصادر نيران قوية [١٢] ، لتقوية رايات الحصار حتي تستطيع الوقوف في وجه هكس اذا حاول خرقه أو اخذ المبادأة باشتباكات حاسمة يزج فيها باعداد كبيرة هدفها هذه

---

٩ - Wingate 87

١٠ - Ohrwalder 87

١١ - الكردفاني ص ٢٣٢ .

١٢ - محمد عبد الرحيم ص ٢٤٥ .

المرة أضعاف فعالية هكس القتالية :

« ... ليشنوا الغارة هم والاصحاب الذين بمقابلة العدو بشيكان مخافة هروبهم وتفرقهم في بطون الاودية والجهات . والقصد حصرهم في مكان واحد الى ان يحضر المهدى عليه السلام .والمهدى عليه السلام حاضر في أثرهم [١٣] »

لذا كان تكوين القوة كالاتي : [١٤] [١٥]

١ - « امير السرية » الشيخ ابراهيم الترجماوى وينضوى تحت قيادته :

(أ) امير الجهادية فضل المولى صابون وتحت قيادته « ٤ الف - ٧ ألف » من حملة الاسلحة النارية [١٦]

(ب) عدد مقارب من الفرسان تحت قيادة محمد عبد الرحمن النصرى .

كان تكوين هذه القوة المطعمة في حد ذاته حدثا هاما في مسارح حروب القرن التاسع عشر ، فهو تطبيق مبكر سبق به المهدى الاخيرين لفكرة المشاة الراكبة **Mounted infantry** والتي لم يحسم النقاش حولها حتي نهاية القرن [١٧]

وفكرة المشاة الراكبة تعتمد على تكوين قوة يدمج فيها الفرسان والمشاة تجمع بين محاسنهما دون عيوبهما ، فهى تستغل خفة حركة الفرسان وقوة نيران المشاة ، وتستبعد قصورهما الذى يكمن في ضعف نيران الاول، وبطء حركة الاخير، مما أضفى تطويرا أستراتيجيا جديدا لاستخدام الفرسان . [١٨]

فحتي نهاية القرن كان العسكريون ينظرون الى الفرسان والمشاة نظرتين منفصلتين تماما : فهناك سرعة حركة الفرسان واستغلالها التكتيكى المحدود أثناء المعركة لصدمة الجياد والاسنة البيضاء ، او توليها عمليات ممهدة للمعركة التكتيكية ، كالاستكشاف ، وفي الجانب الاخر كانت هناك نيران المشاة الكثيفة المؤثرة في ساحة المعركة التكتيكية ، ولكن بقدرة محدودة من الحركة لا تتجاوز بضعة اميال في اليوم الواحد .

---

١٣ - الكردفاني ص ٢٢٢ .

١٤ - كان حسن النجومى امير قوة الفرسان اصلا ولكن في لحظة استعراض الصفوف قبل التحرك أبدى شيئا من الخيلاء مما اثار امتعاض المهدى .
جهاد في سبيل الله ص ٥١/٥٢ .

١٥ - تسمى وثائق المهدية في تلك الفترة التجريدة المنفصلة عن قيادة المهدى بالسرية .

١٦ - قدر وارنر P. WARBER عدد بنادق الرمنجتون في ايدى الجهادية ب ٦٠٠٠ بندقية وذكر تشرشل ان عدد الجهادية في البداية لم يتجاوز ٥٠٠٠ جهادى . هذه ارقام ليست مستبعدة اذا وضعنا في الاعتبار ان المصدر الرئيسي للجهادية كان حامية الابيض التي بلغ تعدادها ٦٠٠٠ مقاتل شكل جنودها الجزء الاكبر من جهادية ابو عنجة .

١٧ - بالاضافة الى بنادق الرمنجتون اشتملت القوة النارية المتحركة للانضمام لابو عنجة على بضعة مدافع رشاشة كما ذكر وارنر ، اما تشرشل فقد اشار الى وجود مدافع كروب ومدافع جبلية .

١٨ - 18. The theory and practice War, Ten essays presented to sir

كان تطبيق المهدى البارع لتلك النظرية وعلى نطاق واسع بألوف من الجياد وبالاسلحة النارية وحامليها ، من بين أضافات المهدى الكبرى لفكر المهدية العسكرى ، وسنرى ان جيوش المهدية تمسكت بتلك النظرية وواصلت تطبيقها بنجاح لسنوات بعد وفاة المهدى [١٩]

وقد شرعت القوة المكونة حديثا في التقدم مباشرة نحو فولة المصارين ، فغادرت البركة في النصف الاول من ليلة السبت [٢٠] ، وقد تقوست ظهور الجياد التي حملت ثقلا مضاعفا ، فقد اردف الفرسان جهادية ابو عنجة على ظهور جيادهم ، وكان هؤلاء قبلا مثقلين بحمل بنادق « الرمنجتون » الثقيلة [٢٢] ، التي سندرك حجمها الضخم من اثر نيرانها الفتاكة [٢١] التي انصبت على مربع هكس في الليلة التالية .

أستغرق الفرسان والجهادية كل ليلة السبت في سير سريع متصل ، فأشرفوا على معسكر حمدان [٢٣] في فجر الاحد ٤ نوفمبر . ولكن قبل وصولهم كان حمدان قد اكمل دائرة الحصار حول هكس . فوجدوه محيطا بالحملة « أحاطه السوار بالمعصم » على حد تعبير كل من الكردفاني [٢٤] ومحمد عبد الرحيم .

فقد ذكر الاب اوهرفلدر ان الدائرة بدأت تضيق حول هكس منذ أن ارخى الليل سدوله . وامتثالا لتعليمات المهدى بالبدء فورا في الحصار القريب المحكم ، امضي حمدان بقية ليلة السبت ساهرا ليحث زحف الألوف البطئ لتسرع وتعسكر حول زريبة هكس .واكتمل الحصار قبل الفجر : عبد الحليم وابو قرجة خلف هكس على بعد بضعة اميال ، وبقية التعزيزات في فولة المصارين غرب الزريبة . وعندما اشرفت عليهم طلائع التعزيزات النارية الراكبة بقيادة الترجاوى ، سارع حمدان وقذف بها مباشرة [٢٥] شرق وغرب المعسكر خلف الاشجار [٢٦] .

أما المهدى فقد تقدم بخطى أخف واسرع هذه المرة . فقد غادر البركة متجها نحو فولة المصارين في صبيحة الاحد . ولا يمكننا ان نجزم هل سلك الطريق الرئيسي الذى يصل بين البركة – والمصارين –

---

١٩ – راجع كرى ص٩ ٢٦٩ . B. H. Liddle Hart on his 70th birthday by Micheal Haward.

٢٠ – محمد عبد الرحيم ص ١٤٥ .

٢١ – 21. Ohwalder P. 87.

٢٢ – 22. Warner P. 61.

٢٣ – محمد عبد الرحيم ص ١٤٥ .

٢٤ – الكردفاني ص ٢٣٢ .

٢٥ – مخابرات –البارودى .

٢٦ – الكردفاني ص ٢٣٢ .

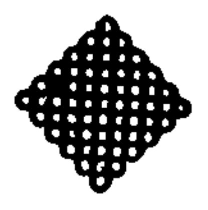
٢٧ – الكردفاني ص ٢٣٣ .

وكازقيل الذى اتخذته جحافلة . أم اتخذ طريقا فرعيا مختصرا عبر الاشجار . يكاد الزمن القصير الذى استغرقته وثبته السريعة ان ترجح الاحتمال الاخير . فقد وصل في الضحى الى المصارين وحط رحاله بها .

أما جحافله فقد تقدمت خلفه على الطريق الرئيسي واستغرقت نصف نهار الاحد حتي وصلت الى المعسكر الجديد بالمصارين . تولى الخليفة عبد الله اول الخلفاء القيادة العليا ، وتولى عبد الرحمن النجومى القيادة الفعلية طول مسافة الطريق .

بعد تكامل الجيش ، امر المهدى بحشد كل راياته في نفس أصطفاف عرضة الجمعة (٢٨) فأجتمعت جيوشه تحت شمس الضحى تظلها مئات الرايات التي رفرفت فوق رؤوس المقاتلين مشيرة الى الوحدات والقبائل المتعددة . استظل المهدى بظل تبلدية ضخمة ووقف خطيبا في تلك الجموع (وحثهم على الجهاد والصبر في مواطن اللقاء ووعظهم بمواعظ بليغة)(٢٩) وعندما التهبت الالوف بالحماس ، ظانة ان الهجوم العام سيعقب خطابه ، كبح جماحهم بادئا بتنويرهم بتوقيتات خطته وان غدا ، وليس اليوم ، سيطلق طاقاتهم التي ظل يزكى أوارها لعدة شهور خلت . وان « اليوم ليس لكم رده في مقاتلتهم وانما يكون هلاكهم غدا (٣٠) » .

ولكن جاء خطابه بعد فوات الاوان ، فعلى بعد بضعة اميال قليلة جنوبا ، كان جناحه الثاني بقيادة ابو عنجة قد اشتبك بهكس في نفس اللحظة التي كان يلقي فيها خطابه تقريبا . فقد بدأت المرحلة الاولى من معركة شيكان ... بدأ الهجوم الاول .



٢٨ – نفس المصدر ص ٢٣٣ .

٢٩ – 29. Warner P. 29.

الهجوم الاول

تمطت الزريبة ولملمت اطرافها ، فخلعت رداءها الشوكى الاخضر الثقيل ورمته خلفها ، وخرج المربع عاريا من تحصيناته وخندقه ، ليتسربل من جديد برداء رهيف متماوج نسجت خيوطه[1] من خيول الفرسان ، وطرزت اركانه الاربعة بطاريات المدافع وقد برزت فوهاتها خارج الخندق منذرة متوعدة . وعندما تسلقت الشمس الافق الشرقي وعبرت مسيرة ساعة من رحلتها المقوسة ، وجدت مربع هكس يجد السير على محور طريق كازقيل[2] .

وامام المربع ، كاصبع القدر المشير نحو المصير الكالح ، سار الدليل كنة تحت حراسة ثلة من الفرسان ، وخلفهم عبثت نسائم الصباح بعلم القيادة الذى رفرف عاليا فوق جواد هكس مفشيا مكانه وسط الصف الامامى .

شكلت جدران المربع من مشاة الالآيات على النحو التالى[3] [4] :-

الالاى الاول بقيادة الامير الاى سليم بك عوني في المقدمة بجهة الشمال .

الالاى الثاني بقيادة الامير الاى السيد بك عبد القادر في الضلع الايسر- بجهة الغرب .

الالاى الثالث بقيادة الامير الاى اللواء ابراهيم حيدر باشا في الضلع الايمن لجهة الشرق .

الالاى الرابع بقيادة الاميرالاى رجب بك الصديق احتل الضلع الخلفي للمربع .

ولكن لم تمض مسيرة ساعة حتي اضطر المربع للتوقف ، اذ تعرض لهجوم مفاجئ خاطف[5] التحم فيه الجيشان وتعرضا لاختبار حقيقي زج فيه الانصار لاول مرة بحشد كبير من الرجال[6] والنيران كانوا يضنون بتعريضه لنيران المربع طوال الاسابيع الاخيرة .

يكتنف الغموض لحد ما الظروف التي تمخضت عنها المرحلة الاولى من معركة شيكان - ماهى اهداف الهجوم ؟ وهل امر به المهدى اساسا ؟ وقد تعزى تلك الشكوك التي دارت حول علم المهدى

وموافقته على الهجوم الى ان ابو عنجة كان قد قطع شوطا بعيدا في التحضير ، بل وفي اطوار ومراحل قبل ان يصل المهدى الى فولة المصارين .

---

١ - مخابرات ١٧٩/٣/٣/أ اقوال حسن البارودى ص ٣٤ .

٢ - مخابرات - رسم كروكى مرفق ص ٣٥ .

٤ - مخابرات - ١٧٩/١١/٣/أ - ص ٣٤ .

٥ - محمد عبد الرحيم ص ١٣٦ .

٦ - أخطأ كل من سلاطين واهرفلدر في تاريخ هجوم ابو عنجة فذكرا انه شن في يوم السبت ٣ نوفبر . بينما تجمع بقية المصادر على ان اشتباك ابو عنجة وقع صباح الاحد ٤ نوفمبر .

ومن ناحية اخرى لايشير مؤرخ المعركة الكردفاني ، ولا اوراق على المهدى ، اشارة قاطعة الى ان امر الهجوم صدر من المهدى كشأنه في سرد وقائع المعركة . بل على العكس ، نجده يبرز عزوف المهدى عن القتال في ذلك اليوم[٧] . الا ان قرائن [٨] الاحوال تدل على خلاف ذلك . فان هدف الهجوم ، الذى يمكننا ان نستنبطه من مسار المعركة ، والسرعة الخاطفة التي اطبق بها حمدان على عدوه ، ثم انفصل بها عنه ، ترجح ان عملية الهجوم كلها كانت جزءا من مخطط كبير ، وحلقة من سلسلة من الاشتباكات بدأت في ذلك اليوم وختمت بالعملية الكبرى في صباح اليوم التالى .

فقد انحصرت اهداف هجوم ابو عنجة في اجبار هكس على ايقاف التقدم وتعطيله ، ليتيح للمهدى فسحة من الزمن يسارع خلالها لينضم لبقية جيشه في فولة المصارين في زمن مريح يمكنه من لم شمل راياته استعدادا للمعركة الفاصلة . كان ذلك هو هدف ابو عنجة الرئيسي . وتوالت بعد ذلك الاهداف الثانوية – تكبيد المربع اكبر خسائر ممكنة واشاعة الرعب بين صفوفه تمهيدا لمعركة الغد . كان واجبه اذا تسديد ضربة اليمة وان لم تكن قاتلة .

ومنذ فجر الاحد استغرق ابو عنجة في نشاط محموم استعدادا للمواجهة المنتظرة .

وقد قوى ساعده بعد وصول تعزيزات الاسلحة النارية بقيادة الترجماوى واصبح في وضع يمكنه من توجيه ضرباته مواجها نيران المربع ، وكأنما كان في انتظار هؤلاء على احر من الجمر لينتزع المبادرة وينتقل من الحصار الى الهجوم ، فشرع في حشد قواته قبل بزوغ الفجر . وعندما انضم اليه رجال عبد الحليم مساعد وابو قرجة قاد كل رجاله مسافة قليلة ثم توقف مخلفا مجموعة عبد الحليم وابو قرجة الاصلية خلف زريبة هكس ، بمسافة لاتتجاوز ميلا واحدا ، بعد ان عززها بجزء كبير من مجموعة الفرسان التي انضمت اليهم في الصباح الباكر .

أما جهادية الاسلحة النارية فقد قسمها الى مجموعتين بقيادة عبد الله ود النور ومحمد النصرى ، فتقدم بهما شمالا متجاوزا هكس ، ثم انثني مرة اخرى نحو طريق كازقيل فأمر بانتشار المجموعتين في مواجهة عريضة يسار ويمين الطريق اتجهت الى الجنوب ، نحو زريبة هكس[٩] .

وعندما غمر ضوء الشمس اعالى الاشجار وتسلل بين اغصانها ، كشف وميض الضوء المنعكس من مواسير البنادق اللامعة عن صفين من اكتاف الرجال المتلاصقة ، اشبه بحائطين يعترضان طريق

---

٧ – الكردفاني ص ٢٣٤ .

٨ – أوراق على المهدى ص ٢٧ ، ٢٨ .

٩ – محمد عبد الرحيم ص ١٤٦ .

هكس ، الامامى اقصر قليلا من الحائط الخلفي ، فقد ارتكز رجال الصف الامامى على ركبهم فظللت رؤوسهم مواسير بنادق الصف الخلفي .

كان مخطط حمدان ذكيا ، سهل التنفيذ عند الالتحام وعند الانفصال ، معركة اعتراضية تكفل فيها بنادق الجهادية الامامية غطاء ساترا من النيران ، يجذب نيران العدو وانظاره بعيدا عن مجموعة الالتحام الخلفية من الفرسان والسلاح الابيض بقيادة مساعد وابو قرجه فتنقض على الضلع الخلفي لاختراقه والالتحام بصفوفه من الخلف ، ثم الانفصال بسرعة والعودة الى مواقع الحصار.

اسرعت خطوة المربع ، فزايلها الارتباك والتعثر الذى صاحب بداية التحرك ، ولما مضت عليهم قرابة نصف الساعة في الطريق ، انتظمت الخطوة واكتسبت تلك السمة الميكانيكية المعهودة في سير المجاميع المدربة .

احس هكس بأن ثمة شيئا يجرى في الخفاء . فقد لمح عن يمينه ، بقدر ما اتاحت له الرؤية [11] بين الشجيرات ، اشباح تجمعات الانصار الذين تبعوه خطوة بخطوة ولفتت نظره اعدادهم الكبيرة ولكنه لم يعرها اهتماما كبيرا ظانا انها الملاحقة المعهودة التي اصبحت عادة يومية منذ تقدمه من الدويم ، او رجح انها ستتمخض على الاكثر عن مراشقة بعيدة بالنيران ، لذا واصل السير وقد حجب الهدف البعيد - الأبيض - عينيه عن الخطر القريب .

وعندما استدار بجواده لجهة اليسار متابعا انحناء الطريق اصطدمت عيناه فجأة بصفوف ابو عنجة العريضة التي اعترضت سبيله من مسافة لاتتجاوز الف ياردة ، وبينما كانت عيناه تتجولان منقبة بين صفوف حمدان من اقصاها الى اقصاها ، وقبل ان يرفع يده اليمني مشيرا للمربع خلفه بالتوقف ، فتحت صفوف حمدان نيرانا حامية متصلة .

فقد شاهد حمدان وهو يجلس على صهوة جواده قيادة المربع [12] التي تقدمت امامه في هيئة مربع صغير استدارت غربا وواجهته ، ولكنه تمهل ريثما انكشفت كل مواجهة الكتائب الامامية وتدفقت بقية الاضلاع في منعطف الطريق ، فعلا هتاف حمدان بصوته الجهورى ، آمراً جنوده باطلاق نيرانهم . وهنا اشار هكس الى البروجى ليأمر كل المربع بالوقوف . فطغى صوت البوق على دوى

---

١١ . ١٧٩/١أ ص ٣٤ .
١٢ . ٢٣٣ .

الرصاص في صفير حاد رتيب كاد يصم اذان من كانوا بقربه . تموج الصفير مرتفعا او منخفضا مرة او مرتين عندما توقف عازفه ليلتقط انفاسه المتوترة المعتصرة من رئتين كادتا ان تنفجرا . وهو يجاهد عبثا ليبلغ نداء الوقوف الى الصفوف الخلفية المتدافعة والتي احس بضغطها على الصفوف الامامية حتي زحزحتها من أماكنها قبل أن تتمكن اخيرا من الوقوف .

حجب دخان البنادق الكثيف صفوف حمدان عن اعين المربع لمدة من الزمن . فلاتكاد تنقشع سحابة الدخان من فوق رؤوس الجهادية بعد ان يزيحها النسيم الجنوبي برفق ، حتي تحل محلها سحابة اكثف واحلك اثر تجدد عاصفة النيران ، وقد افلحت صفوف حمدان في انتاج كمية وافرة من النيران في زمن قليل ، اذ استثمر النمط الجديد المستحدث لمجموعات النيران « **Volleys** » بفواصلها الزمنية القصيرة خير استثمار . فقد تبادل الصفان التعبئة ثم فتح النيران بينهما ، فتميز دوى الانفجارات بايقاع منتظم رددت اصداءه الاشجار ، وضاعف من وقعه الغبار المتصاعد امام المربع عند ارتطام الطلقات بالارض الرملية .

كانت المسافة التي فصلت بين الخصمين ابعد من مدى بنادق الرمنجتون ، فتسللت طلقات قليلة بين صفوف المربع واصابت مقتلا ، الا ان وقع المفاجأة كان عظيما ، وضاعت لحظات ثمينة قبل أن يأمر هكس جنوده بايقاف التقدم والرد على نيران العدو ثم توجيه مواسير المدافع لقصف صفوف حمدان . فكان رد فعل هكس متأخرا .

وما ان انطلقت المجموعة الاولى من بنادق المشاة ، حتي تحول انتباه هكس بعيدا عن الخطر الماثل امامه . فقد ترامى للاسماع صوت ضجة مرتفعة انبعثت من الضلع الرابع منبئة بأن شيئا رهيبا يجرى في الخلف . فقد بدأ المحور الخلفي هجومه مطابقا لنيران المحور الامامى . وكأنما كان وابل الرصاص الذى اطلقه حمدان عند رؤيته للمربع بمثابة اشارة البدء لمحور عبد الحليم وابو قرجه ، الذى ظلت جحافله تلاحق المربع خطوة بخطوة من مسافة قريبة مستترة بالحشائش والشجيرات التي احاطت بالطريق .

تدافع فرسان مساعد وخلفهم المشاه في موجات متلاحقة حملتهم الى الضلع الخلفي للمربع واخترقه الفرسان [١٤] ليجدوا انفسهم في وسط المربع ، فعاثوا فيه يمنه ويسرى [١٥].

احس الامير الاى رجب ، قائد الآلاى الرابع ، بأن صفوف رجاله قد تهشمت وتبعثر جنوده تحت وطأة سيل الرجال والخيول الكاسح ، فأدار جواده وواجه الهجوم منفردا وهو يهيب بضباطه

---

١٤ – شقير ص ٧٢٢ .

١٥ – Wingate. Shiekan 4th. and 5th Nov. 1883. Journal of the Royal Service Institute. London 1964 vol 109 P. 62.

الثبات ولم شعت رجالهم الذين تفرقوا ايدى سبأ . وسرعان ما غمرته هو الآخر امواج الهجوم [١٦] وعزل عن بقية رجاله ، فسقط صريعا اثر طعنة حربة قاتلة .

سادت البلبلة والارتباك الضلع الخلفي بعد مقتل قائده وسرت حتي وسط المربع حيث تدافعت الدواب المذعورة المثقلة بالاحمال لتنطلق يمنة ويسرة ، مداهمة العدو والصديق على السواء . اما الاضلاع الجانبية فقد غرس جنودها اقدامهم في الارض فاقامت نيران بنادقهم جدارا ساخنا من النيران وقف حائلا بينهم وبين اندفاع الفرسان ، فحول هؤلاء ثقلهم للداخل نحو قلب المربع ، ماعدا فارسين سددا هجومهما مباشرة نحو الضلع الايمن حتي التصقت جيادهما بفوهات البنادق [١٧]، فصرعا وسط صفوف الجنود واستطاع هؤلاء التعرف على احدهما – الامير عمر الياس ام برير – رفيق ابو قرجة ومساعد في مسيرتها الطويلة .

وكان احد فرسان عمر الياس – ادريس الخندقاوى – يتمتع بقوة بدنية خارقة ، فداهم طقم احد المدافع الجبلية وازاحهم عن المدفع وتسربل بحبال المدفع فلفها حول صدره وجره بعيدا خارج المربع [١٨] وعاد مرة اخرى لخضم المعركة .

ادرك هكس ان ثقل الهجوم الاكبر انما يتركز على محوره الخلفي ، فقد شاهد اختراق الانصار للضلع الخلفي ، ثم مصرع افضل قادته ، وتابعت عيناه تسلل الانصار افرادا ثم جماعات ، فميز انتشارهم السرطاني في ادرع المربع وقلبه حين تعرف على جببهم المرقعة وهى تبدو كالبقع البيضاء وسط خضم اللون « الكاكى » فقر رأيه على توجيه جهده لايقاف الخطر الخلفي ، وان يصمد هو ويتحمل نيران صفوف ابو عنجة الامامية . وهنا ارتكب الجنرال خطأ جسيما .

فعند تقديره السريع للموقف في تلك اللحظات ، استخلص ان العدو الامامى لايمثل الا قوة مناوشة بالنيران فقط . فقد شاهده ساكناً للدقائق طويلة دون ان تبدو عليه نية التحرك او الاقتحام . فاستدعى الامير الاى سليم عوني قائد الالاى الاول « الضلع الامامى » وطلب منه ان يهب لنجدة الالاى الرابع واقفال الثغرة التي تزايد خرقها بين لحظة واخرى ، ثم امر قائدى الضلعين الايمن والايسر – الالايان الثاني والثالث [١٩] بأن ينثنيا للداخل حتي التحمت مقدمتا الضلعين ، فاتخذت

---

١٦ – مخابرات ١٧٩/١١/٣أ ص ٣٧

١٧ – سلاطين ص ٢٢٩ .

١٨ – اشتهر ادريس الخندقاوى منذ ذلك اليوم بكنية « ابو مدفع » وقد اشترك ادريس في اغلب مواقع المهدية التي تلت شيكان وخصوصا معارك الشمال – الخرطوم ، ابو طليح ، دنقلا – حيث قتل في معركة فركة مايو ١٨٩٦ . محمد عبد الرحيم ص ١٤٦ .

١٩ – مخابرات ١٧٩/١١/٣أ مخطط كروكى مرفق لاشتباك ٤ نوفمبر ص ٣٤.

المربع هيئة مثلث بمقدمة مدببة ، بدلا عن المقدمة الافقية المستوية .

ولكن حمدان لم يمهل المربع طويلا ، فقد لمح جلاء الضلع الامامى عن مواقعه . وفي لحظات الارتباك التي انقضت في اعادة تنظيم الصفوف استخلص حمدان قلة منتقاة من الفرسان وقادهم في هجمة خيالة شرسة . اعقبتها مجموعة اخرى من مشاة الجهادية ، استطاعت الاطاحة برأس المثلث في اللحظات الاولى من الالتحام . ولكن الضلع الايمن فتح وابلا من نيرانه على حمدان فسقط جواده تحت قدميه [٢٠]، وصرع فوزى أحد كتبة المهدى ، كما اصيب الامير عبد الله ود النور في صدره وسقط من جواده . اما حمدان فقد امتشق حسامه وداهم اقرب فارس من فرسان الباشبوزق فصرعه واعتلى جواده . ثم استدار ليشرف على انسحاب فرسانه وهم يحملون جثث القتلى والجرحى تحت غطاء من نيران الجهادية . استغرق التحام حمدان بمقدمة هكس دقائق قليلة . وخفف الارتباك الذى عم كلا الجانبين من ضراوة الالتحام ، فلم يتمكن أى منهما من خصمه وتساقطت قلة قليلة من رجال كلا الجانبين [٢١].

استدار الامير الاى سليم عوني مبعوث الجنرال لنجدة الضلع الخلفي لجهة اليمين [٢٢] متجاوزاً الضلع الايمن ثم توقف مراقبا انتشار سرايا الالاى في التشكيل القتالى . ولما استوثق من تماسك الصفوف ، اتجه جنوبا للضلع الخلفي ، واسرعت خطوته حتي اشرف على ميدان القتال الجنوبي .

هاله ما شاهد من افلات زمام الموقف وتدهوره . وبعد ان درس الموقف بسرعة ، جمع عزيمته وقرر القيام بهجوم مزدوج على قسمى العدو . من كانوا خارج المربع ، ومن تسللوا داخله . فشق رجاله طريقهم ببطء خلف الجماعات الملتحمة من الانصار والجنود حتي تلامست مقدمه السرية الاولى مع الطرف الجنوبي للضلع الايسر، وبذلك افلح في سد الثغرة الخلفية واغلق المربع بصفوف الرجال مرة اخرى ، ففصل بين الانصار الذين ولجوا داخل المربع واولئك الذين كانوا يقاتلون خارجه ، ثم وجه نيرانا حامية لقلب المربع [٢٣] حصدت كلا من الدواب والانصار وهم على وشك

---

٢٠ – الكردفاني ص ٢٣٤ .

٢١ – مخابرات ٣/١١/١٧٩/ص ٣٥ .

٢٢ – نفس المصدر .

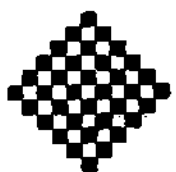
٢٣ – شقير ٧٢٢ .

الجلاء من وسط المربع ، فتراجعوا وهم يقودون امامهم اعدادا كبيرة من الجمال المحملة بالامتعة [٢٤] والذخيرة ، الهبوا ظهورها بالسياط فتدافعت خارج المربع محدثة ضجة عظيمة .

ولكن تدافع الجمال لخارج المربع اسفر عن ثغرة جديدة بين صفوف الآلاى الاول ، تسلل عبرها الانصار وانضموا لاشقائهم الذين صمدوا امام وطأة النيران المتجددة ، فتراجعوا جميعا بانتظام امام زحف الصف الخلفي المعزز ببقايا الالاى الرابع ، التي التقطت انفاسها وعادت الى المعركة ، تساندها نيران المدافع التي اعلنت عن وجودها بعد طول صمت بقذائف متتالية ، امدت فرسان الباشبوزق بحيوية مفقودة فتجمعوا مرة اخرى بقيادة عباس بك وهبي وعززوا جناحي الالاى الاول في زحفه البطئ نحو انصار ابو قرجة ، وعندما تخلف المشاه بعد تجاوزهم ميدان المعركة واصل الفرسان ضغطهم حتي تزحزح الانصار من مواقعهم وتقهقروا خلف الطريق ، فابتلعتهم الاشجار والحشائش التي قذفتهم قبل دقائق ، واطبق الصمت مرة اخرى على جنوب المربع .

اجتمع شمل المحورين بعد برهة من الزمن على بعد اميال قليلة يمين الطريق – محور ابو عنجة ومحور ابو قرجة . وبعد ان أعاد حمدان تنظيم المجموعتين وجه بدفن القتلى . كان من بين القتلى الامراء حداد حاج خالد، وهاشم ابو ريالات وفوزى[٢٥] كاتب المهدى ، والامير عمر الياس باشا ام برير ، دفنوا بملابسهم كاملة[٢٦] كما ارسل الجرحي ومن ضمنهم الأمير عبد الله ود النور والامير عبد الحليم مساعد [٢٧]الى معسكر المهدى في المصارين .

عندما نحاول تقييم هجوم الاحد الصباحى ، ضمن الاطار الشامل لكلى معركة شيكان ، تبدو لنا عملية حمدان ابو عنجة الاعتراضية وهى اقرب لنشاط تحسسي على نطاق واسع منها الى عملية منفصلة ، ولو تجاهلنا اتجاه بعض من كتبوا عن الاشتباك الصباحى باعتباره المرحلة الاولى من المعركة الكبرى ، فسنجد ان العملية حققت اهدافا كبرى حتي داخل ذلك الاطار الضيق – أى باعتبارها عملية تمهيدية لاغير.



---

٢٤ – ذكر ابراهيم فوزى ان الانصار غنموا في موقعين متر اليوزكانت تجرها الجمال التي قادوها لخارج المربع . السودان بين غردون وكتشنر. ابراهيم فوزى باشا ص ١٤٥ .

٢٥ – كان فوزى عامل تلغراف في مدينة الخرطوم قبل انضمامه للمهدى واشتهر باسم فوزى التلغرفجى ونظرا لضغينة قديمة مع غردون الذى وجه اليه اساءة فقد خرج صباح ذلك اليوم وقد اقسم الا يعود الا اذا قتل هكس . محمد عبد الرحيم ١٤٦ ، على المهدى ص ٢٢٣ .

٢٦ – الكردفاني ص ٢٣٣ (٢٧)محمد عبد الرحيم ص ١٤٦ .

وبغض النظر عن اثرها الفعلي الملموس ، وهو تكبيد المربع عددا لايستهان من الجرحى والقتلى احدهم من كبار قادة هكس . والاستيلاء على عدد من الجمال المحملة بالمؤن والذخيرة . فنحن نستطيع ان نرى ثمارها غير المباشرة الخافية عن العيان ، والتي تمثلت في عدة مجالات . اولها اظهار نقاط الضعف والقوة في المربع . فقد برزت حقيقة تكتيكية هامة وضحت لابي عنجة منذ اللحظات الاولى من الاشتباك الا وهي تدهور فاعلية مدفعية هكس ، احد اركان الحملة القوية والتي شكلت خطرا مميتا للانصار ، فقد تدني مدى مدفعية الكروب من ٦٠٠٠ ياردة الى ١٠٠ ياردة (٢٩). اما نقطة الضعف الكبرى كعب اخيل ، فهي الضلع الخلفي مفتاح الطريق الى بطن السلحفاة وقلب المربع . وسنرى الى أى حد تمكن المهدى من استغلالها في التحامه النهائي صبيحة اليوم التالى .

انقشعت سحائب الغبار رويدا رويدا ، وخفتت اصداء انفجارات المدفعية المتقطعة وهي تجاهد عبثا للحاق بمؤخرة رجال عبد الحليم ، فساد الهدوء المربع المتوتر للحظات قليلة ، قطعه الجنرال حين امر باعادة تشكيل المربع وعودة الالايات الى مواقعها الاصلية . اعيد الالاى الاول الى المقدمة وتظمت صفوف الالاى الرابع وعين نائب رجب بك قائدا للالاى ، ثم انثني الجنرال عائدا لوسط المربع حيث اشرف على تقسيم الامتعة والذخائر التي تساقطت من ظهور الجمال النافقة والهاربة .

وخلال مروره بين صفوف الجنود الواجمين ، احس الجنرال بآثار الهزة العنيفة التي اصابتهم بعد صدمة المعركة الخاطفة . فقر قراره على ايقاف التقدم والمبيت في تلك البقعة ، وامر بتشييد الزريبة (٣٠) الشوكية وقفل راجعا الى وسط المربع انتظارا لنصب خيمة القيادة .

---

29. S,N.R. vol XX P. 144 — 145. -٢٩

٣٠ - عندما عاين آجلن ارض المعركة بعد حوالى خمسين عاما . فشل في التعرف على أى اثار متبقية من زريبة او خندق الاحد - عكس الزريبة التي أقامها هكس يوم السبت التي تمكن من تحديد مكانها ومعالمها . وقد دفعه ذلك الى ترجيح الاحتمال بان هكس لم يشيد زريبة يوم الاحد على الاطلاق . مفسرا ذلك بان المربع تعرض لقتال مستمر اثناء النهار والليل حتي فجر الاثنين فلم يتسن للجنود وقت كاف للحفر وبناء الزريبة .

ولكن يبدو ان الرياح وتقلبها فعلت فعلها اثناء الخمسين عاما التي انقضت منذ انشاء الزريبة فمحت اثارها من الوجود او انها كانت زريبة رهيفة لم يكتمل انشاؤها . فشقير وحسن البارودى يؤكدان ان هكس اقام زريبة بعد اشتباك ابو عنجة وقبل حلول الظلام . شقير ص ٧٢٢ .

مخابرات ١/١٧٩/١١/٣ .

وكالعادة اثناء عمليات الحفر الرتيبة المنهكة ، تجمع الضباط في ثلل صغيرة لتجاذب اطراف الحديث ، الا ان وتيرته اختلفت هذه المرة ، وسادتها المرارة والحسرة . فقد كان للهجوم النهارى اثر عنيف بين ضباط الحملة . وارتفعت الهمسات في الاجتماعات الجانبية مشيرة بالاتهام والتقصير للقيادة العليا ، ولكنها كانت تخفت كلما اقترب موكب هكس او علاء الدين وتتبدل النغمة حين يقف بينهم مستفسرا متفقدا .

ولكن الجانب الآخر ، جانب المدنيين لم يكلف نفسه مشقة المداورة والمداراة عندما عقدوا اجتماعا طويلا حضره قناوى بك وبساطى بك وحمد التلب والشيخ على كرم الله ، فعلا صوتهم بالتذمر والسباب للحملة وقادتها ، ثم انفض الاجتماع بعد ان اجمعوا على مواجهة هكس وعلاء الدين مواجهة اخيرة . فتدافعوا نحو خيمة الاخير واحاطوا به وتناشبوه بالصياح قبل ان يسمح لهم حتي بالجلوس .

وفي ذلك الاجتماع الصاخب وقف علاء الدين وحيدا يرد على سيل من الاتهامات التي قذفها في وجهه قناوى وبساطى بك . وقد اتهم قناوى علاء الدين بالتقصير [٣١] وعدم الكفاءة وانه ضللهم في الخرطوم ممنيا اياهم بالنصر المبين وبالوظائف الكبرى والاوسمة ، ولكنهم لايرون امامهم بعد هجوم اليوم الا مصيرا مظلما وفناء محتوما ، وعدد الاخطاء التي ارتكبتها القيادة لاعتمادها على آراء أدلاء عديمي الخبرة لايركن اليهم . ساردا فواجع مسيرتهم منذ ان اتخذت قرارها المشئوم بتفضيل الطريق الجنوبي على طريق بارا . مخالفا كل النصائح التي قدموها له ، وكرر نفس الخطأ البارحة حين رفض نصيحة الدليل الكنزى بالعودة للرهد واتخاذ طريق الملبس . ثم هدد قناوى بسحب كل رجاله والانفصال بهم من الحملة ثم شق طريقه وحيدا الى الابيض .

أطرق علاء الدين واجما اثناء تلك المشادة الكلامية ، واجاب اخيرا بأنه برئ من معظم تلك الاخطاء ولكنه لم يكن له حول ولاقوة حينئذ ، وليس له حول ولاقوة الآن ، لذا اقترح عليهم مقابلة هكس ، فهو سيد الكلمة الاخيرة [٣٢].

عندها هب التجار والاعيان واقفين والغضب يفيض من جوانحهم وسارعوا نحو خيمة الجنرال . وقد دهش هكس لاقتحامهم خيمته بدون استئذان . وامتزجت دهشته بالغضب عندما دعاهم للجلوس ثم علم من خلال المترجم ميخائيل ان علاء الدين قد ارسلهم اليه . وقد احس الجنرال من انفعالهم وتعابير وجوههم ان المترجم يحاول ان يخفف من وقع كلماتهم . فكان رد هكس جافا . فقد

---

٣١ - مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ ص ٣٦ .

٣٢ - نفس المصدر ص ٣٧ .

اخبرهم بأن شؤونهم وهمومهم يجب ان تبلغ علاء الدين بصفته حاكما للسودان ومسئولا عن المدنيين في الحملة ، فمسئوليته تنحصر في الشؤون العسكرية فقط . فليعودوا الى علاء الدين ويتشاوروا معه ويصلوا لرأى محدد سيعطيه هو كل الاعتبار في قراره الاخير.

خرج تجمع المدنيين من خيمة هكس وقد تزايد سخطهم ، وصاح احدهم أنه لن يسمح لنفسه ان يصبح العوبة بين علاء الدين وهكس ، كالكرة يتقاذفونها فيما بينهما . فقر الرأى على عدم العودة الى علاء الدين ، وعاودوا الاجتماع ، وعاودوا لعن علاء الدين وإلقاء اللوم على سوء ادارته وتقصيره .

ارتفعت اصوات المجتمعين لفترة من الزمن حتي اصبحت اشبه بالصياح ، ثم خفتت رويدا رويدا حتي تلاشت ، عندما طغى عليها دوى الرصاص الذى انطلق من وراء الاشجار ، فقدكرت مجموعة من الجهادية عائدة بعد سويعات من الهجوم الاخير وفتحت نيرانها على المربع ليحرموا عدوهم من االاستجمام او تحسين موقعه الدفاعي .

ساد الهرج والمرج اضلاع المربع مرة اخرى . فقد خشي الجنود من ان الاشتباك كان مقدمة لهجوم عاصف جديد ، وكان التعب قد اخذ مأخذه منهم اثر يوم قتال متصل ، فثقلت حركة اقدامهم وهم يستجيبون لتعليمات ضباطهم للاستعداد وأخذ مراكزهم ، وقد فت اليأس والقنوط في عضدهم وبلغ بهم السأم مداه ، فتقدم الدكتور جورجى بك الحكيم طبيب الحملة نحو بعض الجنود مواسيا ومشجعا فأصابته طلقة في معدته وسقط يتلوى على الارض ، ولكنه استجمع قواه وزحف الى داخل الزريبة[٣٣] حيث تجمع حوله الضباط وهم يحاولون عبثا اسعافه والتخفيف من آلامه . الا ان الجرح كان قاتلا فلفظ انفاسه بعد نصف ساعة .

وتحت وابل الرصاص المتطاير من كل الاتجاهات ، دفن كلا الضابطين بطقوس الدفن العسكرية . قاد علاء الدين مراسم دفن الاميرالاى رجب وقتلى الجنود المسلمين ، بينما اشرف هكس وضباط الحملة الاوربيون على دفن القائمقام جورجى بك . خيم على ساحة الدفن شعور غريب وكان مشهد الجنازة رهيبا ، فقد اختلط دوى الرصاص الحقيقي الصادر من وراء الاشجار ، بانفجارات الرصاص الاجوف المنغمة المنتظمة التي اطلقت اثناء مراسم الدفن العسكرية .

وبعد انتهاء الدفن عاد هكس مطرقا يجر قدميه نحو خيمته . كان يوما ثقيل الوطأة على الجنرال ، ختم حصاره الدموى بفقد قائدين من ضباطه العظام بالاضافة لمجموعة اخرى من الجنود والدواب المحملة بالذخيرة وبلغت بوادر التمرد والعصيان وسط حلفائه من التجار والاعيان . لذا اضمر هكس

---

٣٣ – نفس المصدر ص ٣٧ .

امرا في نفسه ، فأرسل واستدعى ياوره ليدعو الى اجتماع عام يضم العسكريين والمدنيين .

توافد المجتمعون الى خيمة هكس في الظهيرة . حضر الاجتماع :

الجنرال هكس

علاء الدين باشا

اللواء مظهر باشا

الكولونيل فاركهار – رئيس الاركان

عباس بك

قادة الالايات الاربع

قائد فرسان الباشبوزق الاميرالاى عباس بك وهبي

قائد المدفعية

قناوى بك

حمدى بك

بساطى بك

محمود احمداني بك

حمد التلب بك

الشيخ على كرم الله

بالاضافة الى المترجمين

استهل الجنرال الاجتماع مستعرضا الموقف موضحا ان هجوم اليوم ، بالاضافة الى المعلومات التي توفرت لديه ، تؤكد ان المهدى بكل حشده قد اصبح قريبا ، وان مخططهم الذى وضع في الاجتماع السابق قد أصابه الخلل ، فقد وضع على اساس ان المهدى في البركة وان الحملة يمكنها ان تتجاوزه متسللة الى الابيض متجنبة الاصطدام به . وقد يعزى ذلك لسرعة المهدى في اللحاق بهم ، او لتلكؤ المربع ، أو للاشتباكات المستمرة ، المهم ان المعركة الفاصلة قد اصبحت وشيكة . لذا دعاهم لهذا الاجتماع للتشاور في اتخاذ قرار نهائي يتفق عليه وينفذ فورا .

ران صمت ثقيل على الخيمة ، ومضت عدة دقائق لم يستجب فيها احد لاقتراح هكس . فأعاد حديثه مرة اخرى . قطع الصمت قناوى بك متسائلا : « هل لى ان اعلم كمية الذخيرة المتوفرة لكل مقاتل ؟ » فالتفت المجتمعون الى حمدى بك الذى استمهلهم لحظة وابرز مفكرة صغيره اختلس النظر اليها ثم رفع رأسه وأجاب « عشرون دستة لكل مقاتل » .

وقع ذلك النبأ وقع الصاعقة على المجتمعين ، فقد نبههم الى امر لم يخطر لهم على بال من قبل ، واتجهت الانظار نحو قناوى بك الذى هب وانفجر حديثه :

« هل هذا كلام يا سعادة الباشا ؟ عشرون دستة لكل مقاتل ؟ انها لاتكفي لقتال نصف ساعة في وجه هجوم مثل الذى اكتوينا بناره اليوم[٣٤]

ثم دار على عقبه وخرج مسرعا من الخيمة وقد اعمى الغضب عينيه ، فاصطدم بحسن البارودى داخلا الخيمة يحمل صينية رصت بها فناجين القهوة ، فتبعثرت الفناجين والاطباق على أرض الخيمة وانسكبت القهوة على ملابس قناوى ولكنه لم يعرها التفاتا وخرج لايلوى على شئ .

بهت المجتمعون اثر خروج قناوى ، ومضت لحظات طويلة قبل ان ترتفع الاصوات مرة أخرى مؤذنة بمعاودة الاجتماع .

اقترح سليمان بك عوني : « نبقي في مكاننا الى ان نستوثق من مكان الانصار ثم نختار طريقا آخر يمكننا من تفاديهم . اما الى الابيض او الى النيل ».

فهتف احدهم معترضا : «سنهلك كلنا بالعطش لو تسمرنا في مكاننا هذا . لنشق طريقنا عنوة بين الانصار الى كازقيل ولو ادى ذلك الى الاصطدام بهم » .

فأصر سليمان على رأيه قائلا : « ان الحل الامثل هو الانسحاب لاننا في موقف ضعيف ، ذخيرتنا قليلة لاتمكننا من خوض معركة دفاعية متكافئة دعك من معركة هجومية نجلى بها الانصار عن مورد مياه كازقيل[٣٥] ».

قلب هكس وجوه الرأى المختلفة طويلا ، ثم طلب منهم التفاكر في الامر والعودة له ليلا ليستمعوا الى قراره ، ولكنهم لم يتمكنوا من زيارته تلك الليلة او الليالى التي اعقبتها ، في تلك الليلة جدت احداث أخر .

قاد حمدان الجهادية بعيدا عن المربع لمسافة لاتتجاوز مرمى البندقية فتركهم[٣٦] هناك بعد ان راجع موقف ذخيرتهم ، واعدا اياهم بارسال المزيد . كانت تعليماته لقادتهم فضل المولى صابون والزاكى طمل والنور عنقره هى مواصلة زشق المربع بدون توقف على الا يسرفوا في استخدام الذخيرة . وبعد ان زار رايات عبد الحليم وابو قرجة قفل راجعا الى رئاسة المهدى في فولة المصارين .

---

٣٤ – من المدهش حقا ان تتضاءل كميات ذخيرة الحملة الى هذا الحد ، بعد تكديس هكس لتلك الكميات الهائلة من الذخائر المختلفة في بداية الحملة ، بل كانت كمياتها الضخمة احد الاسباب الرئيسية التي اثقلت خطى المربع . وهناك احتمالان تسببا في هذه الورطة : اولها ان الاشتباكات التي خاضها المربع طوال مسيرة الاسابيع كانت اعنف من الوصف الذى قدمه عباس بك اليوميات وانها استنزفت كميات كبيرة من الذخيرة ، او ان عدد الجمال حاملة الذخيرة التي اقتلعت من داخل المربع وغنمها رجال مساعد وابو قرجة في هجوم الصباح كان كبيرا وقلل من مخزون الذخيرة المتبقي .

٣٥ – مخابرات ٣/١١/١٧٩/أ ص ٣٧ .

٣٦ – مخابرات ص ٣٨ .

كان الرصاص ينثر فوق رؤوس الانصار الذين تفرقوا الى مواقعهم الجديدة في فولة المصارين بعد ان صرفهم المهدى اثر خطبته النارية الطويلة .

ومن موقعه القريب تحت التبلدية ، وهو في متناول رصاص العدو ، لم يعر المهدى التفاتا الى الاغصان التي تحطمت حوله واوراق الاشجار التي تساقطت فوق ملابسه ، بل شرع مباشرة بعد وصوله في الاستعداد لمعركته التي انتظرها طويلا . فأرسل احمد سليمان مرة ثانية [٣٧]ليكرر تحذيره للرايات من الاشتباك اليوم ، داعيا اياهم لضبط النفس . ثم بعث مستدعيا الخلفاء وامراء الرايات ومستشاريه المقربين . كل هذا وهو ينتظر على احر من الجمر نتيجة المعركة المحتدمة . وعندما بدأ دوى الرصاص يخفت رويدا رويدا وتتباعد الطلقات مؤذنة بختام اليوم ، تقدم المهدى مسافة قصيرة الى الامام لاستقبال قائد الهجوم . فصادف ثلة من الجرحى محمولة على الاكتاف ، وكان اول من صادف عبد الله ود النور الذى مد يده وصافحه المهدى ودعا له بالخير وسأل عن الذين استشهدوا . ولما انبأه بوفاة فوزى بادى كاتبه المقرب ، دعا قائلا « فاز فوزى » [٣٨]ثم علم باستشهاد عمر الياس ام برير فاستدعى والده وواساه وقرأ الفاتحة على ارواح الشهداء . ثم صرف همه لامر المعركة . فقد بدأ اعضاء مجلسه الحربي في التوافد للاجتماع .

وقد حضر ذلك المجلس كبار الامراء وانضم اليه حمدان ابو عنجة فقدم تقريرا مفصلا عن قوة العدو وتسليحه ومواقعه . وكان هؤلاء بعض من حضر المجلس :

١ — الخلفاء الثلاثة .
٢ — امراء الريات ، ود النجومى – الامير يعقوب – الامير موسي ود الحلو .
٣ — حمدان ابو عنجة – امير الجهادية والسلاح النارى .

قاضي الاسلام
الترجماوى
الياس باشا ام برير
عبد الرحمن بانقا
اسكندر بك

استمع المهدى الى مجموعة من الآراء لاتحدثنا الوثائق او الاقوال السماعية عن اصحابها ولا عن ماهيتها ، ولكنها بلا شك ساهمت في صقل المخطط النهائي العبقرى الذى نفذ صبيحة اليوم التالى واسدل به الستار الختامى على حملة الجنرال هكس .

٣٧– اوراق على المهدى ص ٢٧ .

٣٨– نفس المصدر ص ٢٨

الخطـــة

على مدار تاريخ الصراع البشرى المسلح وحتي يومنا هذا، لا زال الصدام الهائل الذى احتدم على سهول كردفان في ضحى يوم الاثنين من اواخر عام ٨٣ ، يبرز مثالا رائعا لابداع الفن العسكرى في مزج الخيال والتخطيط بواقع التنفيذ والتطبيق . فاختيار مسرح الالتحام المثالى الذى فجر فيه المهدى طاقات جيشه الحبيسة ، والسرعة الخاطفة التيازاح بها آلافاً من الجنود المسلحين المدربين من حيز الوجود ، وذلك الختام الخرافي الشبيه بأساطير الاولين حين تبتلع الارض جيوشا بأكملها ، كل ذلك يدل دلالة لا شك فيها ولا جدال على انه كان نتاجا لتخطيط إستغرق كل اصيل يوم الاحد عقب مجلسه الحربي الاخير ، فتمخض عن ذلك المخطط الفذ .

فلقد تابعنا باعجاب الاستراتيجية الساكنة التي اتبعها المهدى مع هكس منذ ان فارق النيل استراتيجية سلبية تميزها سلسلة من تكتيكات حرب العصابات : تهرب من المواجهة في مناطق مقفرة بعد اخلائها من سكانها ، واشتباكات صغيرة بأطراف مربع العدو حتي تخدرت اعصابه وتوغل في متاهات كردفان . وهنا عندما حانت اللحظة الملائمة ، كشف المهدى القدع عن وجهه الحقيقي وابرز قبضته المخبأة . فعندما دنت اللحظة الحاسمة ، خطط لمعركة تقليدية كبرى ، تخلى فيها تماما عن تكتيكات العصابات وغموضها وتسترها ومراوغتها بعد ان استنفدت اغراضها ، فبدا لنا بين ليلة واخرى وهو يتحرق شوقا لمعركة تعرضية تصادمية كبرى يزج فيها بكل حشده بلا هوادة ويفصل فيها الخطاب نهائيا [1] .

فبدلا من العمليات الليلية ، نجده يختار وضح النهار – ضحى يوم الاثنين – وعوضا عن

١- ليست لدينا بالطبع وثيقة مكتوبة تحدد خطة المهدى – ولكني اعتمدت في تقديم الخطوط العامة والتفاصيل على الافعال التحضيرية التي قام بها المهدى قبل ان تبزغ شمس الاثنين ٥ نوفبر واتفقت عليها جميع المصادر، وراجعت مطابقة تلك التفاصيل على الارض مع المخطط الكروكى الذى قدمه البارودى عندما استجوبه ونجت عام ١٩٨١م، ورسمه ونجت بقلمه. وايد تلك التفاصيل الرئيسية – وبالاخص تقسيم المحاور الثلاث والتوقيت والمكان – الكردفاني وعبد الرحيم وابراهيم باشا فوزى وبقية المصادر:

١٧٩/١١/٣/أ – مخابرات – استجواب حسن البارودى – مخطط كروكى لمعركة شيكان ص ٢٣٤ .

٢ – ١/١٧٩/١١/٣ – مخابرات اقوال حسن حبشي ص ٨ .

٣ – الكردفاني ص ٢٣٤ .

٣ – اوراق على المهدى – جهاد في سبيل الله – ص ٥٢ .

٥ – محمد عبد الرحيم ص ١٤٧ .

٦ – شقير ص ٧٢٣ – ٧٢٤ .

٧ – 7. Journal of the Royal United Services Institution .

الطرق الضيقة والاشجار والحشائش الطويلة التي سترت تحركات راياته اثناء مناوشات الاسابيع الستة . نجده يسعى ثم يقع اختياره على وادى شيكان ، بقعة الارض الوحيدة المكشوفة في طريق المربع الى كازقيل ، لتمكنه من اطلاق جماح فرسانه واستخدام مجاميع المشاة ، متجاهلا قوته النارية التي ظلت اصداء نيران بنادقها تتردد حتي فجر يوم المعركة ، مفضلاً حرمانها من الاشراك في الالتحام النهائي ليتيح لحشود الفرسان والسلاح الابيض حرية الحركة والمناورة بكل الجهات والالتحام يدا بيد بهدف الابادة الكاملة لكل عدوه .

وقد كان اختيار المهدى لتلك البقعة التي تبرز فجأة في طريق الجنرال لكازقيل موفقا للدرجة التي تجعل المرء يشك في ان الطبيعة نفسها قد ساهمت في تهيئة المسرح لتلك الملحمة العظيمة ، وان الجنرال قد سعى لحتفه بظلفه عندما عسكر مساء السبت في مدخل الوادى ، فلفت نظر المهدى الى المعالم الطبوغرافية البارزة في تلك المنطقة ، حتي وقع اختياره عليها لتشهد اسدال الستار الختامى لملحمة الاسابيع الستة .

في منتصف خور علوبة وهو يتجه من الغرب للشرق يتفرع خور صغير قصير العمر – كما تظهر الخرائط القديمة والحديثة – لا يمتد عمره لاكثر من الف متر قبل ان تبتلعه الرمال [٢] .

على ان مجرى الخور يشق طريقه وسط واد متسع منبسط خال من الاشجار ، مما يدل على ان الخور الصغير له فورات وغضبات تكتسح امامها الاشجار في مواسم الامطار الغزيرة ، فالمجرى

---

٢ لقد فعلت السنوات فعلها في ارض المعركة وتكاتفت عوامل الطبيعة والانسان فغيرت وبدلت تلك المعالم تماما . فبالاضافة للزحف الصحراوى الذى امتد لتلك المنطقة طوال هذا القرن ، يبدو ان غابة شيكان كانت مصدرا مربحا لقاطعى الحطب والاخشاب . فبين زيارتي الاولى لارض المعركة عام ١٩٦٤ وزيارتي الاخيرة عام ١٩٧٥ لاحظت تغيرا طفيفا ولكنه لا يخفي على العين المدققة .

وفي زيارتي الاخيرة اعتمدت في الوصف المقدم اعلاه على اقوال الملك محمد الطاهر عمدة كازقيل الذى صحبني لمكان الموقعة . واوضح الحالة الطبيعية للغابة في ايام صباه – قبل زيارة آجلن الذى اعترض على وصف ونجت وسلاطين للغابة .

لقد وافق العمدة على ما نفاه اجلن من عمق الوادى ، ولكنه اكد غزارة الاشجار العملاقة التي كانت تحف بالوادى من الجهات الثلاث حتي تجعله مظلما اثناء النهار . وقد ذكر انه كان حاضرا عندما شيد النصب التذكارى في مكان مقتل هكس .

أما ما تبقي الان من تلك المعالم في ارض المعركة فهى التبلدية التي قتل تحتها هكس والنصب التذكارى الذى شيد في مكان مقتله على شكل مسلة صغيرة . والى الجنوب قليلا شيدت لجنة الاحتفال بذكرى شيكان عام ١٩٦٥ قوس نصر في مكان الموقعة الرئيسي – التي اشتهرت (بالمعظمة) لكثرة عظام الموتي التي ظلت مكدسة لسنوات طوال في تلك البقعة .

ولا زالت بعض الآثار هنا وهناك تدل على زريبة هكس التي امضي ليلة السبت بداخلها والى جهة الغرب قليلاً لازالت التبلدية التي صلى تحتها المهدى ووجه رجاله نحو الهجوم تقف بالقرب من فولة المصارين حيث اقيم ضريح لقتلى الانصار الذى دفنوا في تلك البقعة في ضحى المعركة .

اقوال عمدة – عمدة كازقيل . شريط مسجل – فولة المصارين – ١٩٧٥/١٢/٤ .

خال من الاشجار فيا عدا تبلدية عملاقة قاومت وهن الزمن واندفاع السيول لتقف صامدة في نهاية الوادى ، ولا زالت تقف هناك حتي الآن .

ينتهى طرف الوادى الشمالى بعد تجاوزه التبلدية ، عند صفوف كثيفة من الاشجار العالية تقف سدا منيعا في وجهه . ولكن تلك الاشجار ما هى الا جزء من كتل اشجار اخرى ضخمة متزايدة الكثافة تحيط بالوادى من جهاته الثلاث ، شمالا وشرقا وغربا . تلك هى غابة شيكان .

وصفت غابة شيكان بأنها غابة كثيفة مظلمة يعلو عواء الذئاب بين جنباتها منذ مغيب الشمس . اما ما يجعل الغابة تبرز عالية وسط تلك المنطقة التي تغطيها اشجار الكتر والطلح ، فهو التكاثف والزحام المفاجئ لنوعين من الاشجار العملاقه . اشجار ضخمة تدعى محليا « بالصباغ » تكاد تلى اشجار التبلدى ضخامة وارتفاعا ، وأخرى فارعة غبراء اللون اشبه باشجار البان تدعى (بالليون) .

كانت غابة شيكان اشبه بمصيدة ابدعت الطبيعة في صنعها – مدخل واسع يغرى بالدخول ويتسع لمواجهات الجيوش ، وعندما تتوغل به لثلاثة اميال او اربعة تجد ان الباب قد اغلق في وجهها من الامام ما عدا فتحة ضيقة يتخذها طريق كازقيل للشمال . فكأنما قيس الوادى وفصلت الغابة على رايات المهدى الثلاث ، لتحتله من الامام واليسار واليمين مستترة باشجار الغابة ، تاركة باب المصيدة مفتوحا ليشقه طريق كازقيل وهو يحمل صفوف المربع المترنحة نحو قلب المصيدة .

كان ذلك مسرح المعركة ، اما العناصر الهامة الأخرى التي تحكمت في بنيان خطته فقد تدرجت على النحو التالى:–

التوقيت : حدد تحرك هكس توقيت الاقتحام ، أى في نصف الساعة أو الساعة التي تفصل بين مكان مبيت المربع ثم وصوله ارض القتال – وادى شيكان .

وكان ذلك هو الركن الاول في مخطط المهدى . الاصطدام بهكس وهو متحرك ، وليس قبل ذلك او بعده . ومن هنا تتضح لنا رغبة المهدى في تجنب اقتحام موقع دفاعى ثابت ، حتي ولو كان دفاعا مؤقتا كالذى اعتاد هكس ان يبيت بداخله كل ليلة ، حارما خصمه من ميزات المعركة الدفاعية الثابتة بنيرانها المضبوطة المواجهة من مدافع وجنود اقدامهم ثابتة على الارض .

ارض القتل : على طول امتداد الطريق الضيق المتبقي بين مكان المربع وكازقيل ، يقف وادى شيكان بأرضه المستوية معلما بارزا يلفت النظر كأقرب مسرح يتسع لتحركات عشرين الف مقاتل ، همهم الوحيد هو مساحة من الارض تكفي لتسخين اقدامهم واكتساب قوة دافعة تحملهم الى المربع لتحقيق صدمة السيوف والرماح .

كان ذلك هو المكان والزمان ، أما ميكانيكية العملية واطوارها فقد قسمت الى مرحلتين رئيسيتين :-

المرحـلة الاولى :

المحور الاول : عملية قصف تمهيدى متصل بنيران بنادق الجهادية طوال ليلة المعركة بقيادة حمدان ابو عنجة تهدف الى تدمير وتعطيل اكبر جزء ممكن من افراد ودواب العدو وزعزعة معنوياته وحرمانه من الراحة طيلة ليلة المعركة .

التوقيت : منذ غروب شمس الاحد وحتي فجر الاثنين .

القوة المخصصة : كل جهادية حمدان ابو عنجة بالاضافة الى جهادية الرايتين الحمراء والخضراء .

المحور الثاني : بعد انفصال حملة السلاح النارى ، يتقدم في الفجر محور الاقتحام الرئيسي الذى يضم كل فرسان ومشاة السلاح الابيض من فولة المصارين ، ليحتل مواقعه حول وادى شيكان شمال الزريبة لاكمال حصار المربع وتهيئة كمين شيكان الاكبر .

المرحـلة الثانية :

شـيكان الكبرى [٣]

كانت هذه هى المعركة الرئيسية التي ادخر لها المهدى معظم طاقاته القتالية ، تمثل الضربة الحاسمة وقمة نشاطه العسكرى في الاسابيع السته . وتبدو لنا كل أفعال المهدى خلال الشهور الماضية افعالا تمهيدية لهذه اللحظة الفاصلة .

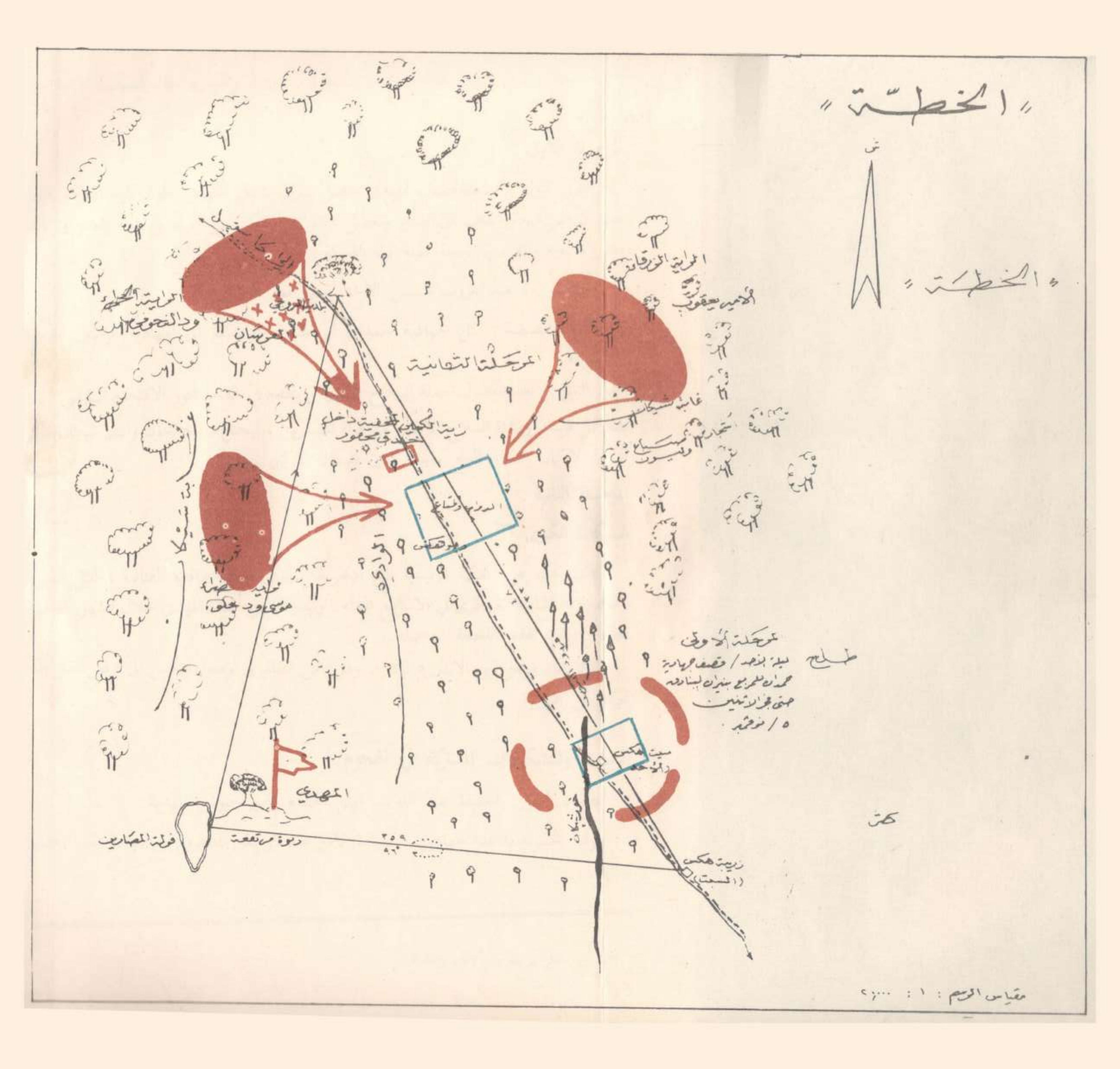
التوقيت : ضحى يوم الاثنين ٥ نوفمبر . وهو الزمن التقديرى لوصول هكس الى ارض القتل بعد تحركه من الزريبة .

الرايات والتشكيلات المشتركة في الهجوم:-

القيادة العليا : الخليفة عبد الله — اول الخلفاء وامير جيوش المهدية .

الراية الحمراء ما عدا جهاديتها : بقيادة الامير عبد الرحمن النجومى – القيادة العليا الخليفة شريف .

٣ــ انظر خريطة رقم «٧» (الخطة) .



" الخطـة "
المرحلة الثانية
المرحلة الأولى
الوادي
المهدي
مقياس الرسم

الراية الزرقاء : ما عدا مجموعة جهادية حمدان ابو عنجة : بقيادة اميرها يعقوب السيد محمد .

الراية الخضراء : ما عدا جهاديتها – بقيادة موسي ود حلو .

تفاصيل المراحل وتخصيص المحاور :

لقد قسم المهدى قوات الاقتحام الى اربعة محاور – ٣ محاور اقتحام رئيسية – ومحور خلفي رابع يكون عنصر « توقيف » . أما محاور الاقتحام فهى :

محور امامى يعترض طريق هكس مباشرة ، وقد وقع عليه عبء الاقتحام الرئيسي ، ومحور ايمن ومحور ايسر على يمين ويسار الطريق يأخذان مواقعهما بين الاشجار التي احاطت بوادى شيكان .

وعند اقتحام المحور الامامى يندفع المحوران من بين الاشجار ويهاجمان اضلع المربع الجانبية في وقت واحد ، ومن ثم يتطورالهجوم الى هجوم عام .

المحور الامامي :

مجموعة هجوم مختلطة – فرسان ومشاة – من الراية الحمراء معززة برايات صغرى من الراية الزرقاء . كان هذا المحور بقيادة امير الامراء عبد الرحمن النجومى ، وقد وقع عليه العبء التعرضي الاكبر .

كان ود النجومى أحكم من ان يعرض وحداته لمناطحة امامية مع هكس في وضح النهار والأخير يستمتع بذلك التفوق الساحق في النيران . ولذلك وضع ود النجومى مخططا ذكيا يمهد به للأقتحام ، فقسم قوة الاقتحام الامامية الى مجموعتين واوكل اليهما بعمليتين منفصلتين حسب الترتيب الزمني التالى :–

العملية الاولى .– فصل عبد الرحمن النجومى مجموعة فدائية صغيرة ودفع بها امامه في طريق هكس لتندس وتعمل وسط صفوف المربع فتفاجئ صفوفه الامامية من الخلف . أرسل الامير عبد الرحمن النجومى في ليلة الاحد تلك المجموعة التي تمثل جزءا هينا من حشد الاقتحام ، الى طريق كازقيل ، فحفرت خندقا [٤] عميقا اختبأت داخله وغطيت فتحته من اعلى بأغصان الاشجار والحشائش وقد وضعت القوة في وسط الطريق ، فلم يك للمربع محيص من المرور فوقها . كان المخطط يرمى الى ان يترصدوا مختبئين حتي يقترب المربع منهم او يمر فوقهم ، فيبرروا من مخبئهم فجأة وينتشروا داخل المربع يمنة ويسرة لاثارة الذعر حتي تعم الفوضي وترتبك صفوف المربع وتتكسر اضلاعه ، فتطيش نيرانه الموزعة بين صفوف ود النجومى الماثلة امامه ، والخطر المندس وسط صفوفهم

العملية الثانية : بعد خروج المجموعة الفدائية من مخبئها بالمربع ، وفي لحظات الارتباك والذعر السائد يطلق ود النجومى اشارة اقتحام الهجوم العام للمجموعة الرئيسية لتندفع للاقتحام والاطاحة بصفوف المربع بعد تعرضه لمفاجأة المجموعة الاولى .

محور الهجوم الايمن :

المكون من مجموعة الراية الزرقاء بقيادة الامير يعقوب – يحتل مواقعه بين الاشجار يمين الوادى ويندفع للالتحام ثم ينحدر مقتحما الضلع الايسر للمربع بمجرد التحام المربع بالمحور الامامى .

محور الهجوم الايسر :

بقيادة الامير موسي ود حلو–ينحدر من يسار الوادى للالتحام بالضلع الايمن للمربع ليتواكب اقتحامه مع اقتحام المحور الايمن .

المجموعة الخلفية :

وهى تضم مجموعة جهادية حمدان ابو عنجة ومجموعة ابو قرجة وعبد الرحيم مساعد ، تتابع المربع وتظل خلفه . فهى اقرب ما تكون لمجموعة مطاردة وتعقب لاصطياد فلول المربع المنسحبة .

يعتمد نجاح الخطط التكتيكية اساسا على مقدرة واضعيها على تحسس الظروف والتوقيت الملائم لاختيار لحظة معينة تمثل أدنى درجات استعداد العدو ، واستغلالها لتوجيه ضربات موقوتة يتفاوت ثقلها حسب مواقف الضعف والقوة التي تمر بها جيوش الخصم .

وقد تتأتى تلك المواقف عن ظروف معينة خارجة عن ارادة القائد ودون تدبيره المسبق ، وذلك حين تتدخل عوامل الطبيعة والارض . وقد يدبر القائد العسكرى تلك الظروف ويفرضها فرضا على خصمه ساعيا لتهيئة الاحوال بزمن طويل قبل المعركة الفاصلة ، وذلك هو الهدف الاسمى الذى ترمى اليه كل التدابير والتحركات الاستراتيجية التي يتجشمها القائد قبل المعركة التكتيكية بزمن طويل . وقد لا تسنح له الظروف بتهيئتها الا مع بداية المعركة التكتيكية او قبلها بيوم او

---

٤ — نرى هنا مثالا مجسما لالاعيب ونجت التاريخية وتحريفه للحقائق لتلائم اغراضه – في النسخة الاصلية لاستجوابه لحسن البارودى – ذكر البارودى « ولكن كانت هناك مجموعة من العصاة اختبأت داخل حفر حفروها في مسار الجيش »
بينما ذكر ونجت في كتابه عن لسان البارودى :
« بينما اختبأ بعض العصاة في منخفض مغطى بالاشجار يقع في وسط السهل ، وفي طريق مرور الجيش » وكأنما كان المنخفض هيئة طبيعية موجودة من قبل وليس خندقا او حفر حفرها الانصار . وقد تعجبت في البداية ما الذى يعنيه ونجت من هذا التعديل الطفيف واستشرت صديقي الدكتور (كلارك) الذى اكد لى ان خبرته بأساليب ونجت ونظراته لاحداث الثورةالمهدية ترجح له ان هدف ونجت هو حرمان الانصار من نعمة المقدرة على التخطيط الذكى والخداع .
مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ – أقوال حسن البارودى .
– سلاطين مائة الف مقاتل ، اوهرولدر خمسون ألف – شقير خمسون الف – ابراهيم فوزى خمسمائة الف .

يومين . لكن المهم ان تنصب الخطط والتحركات والاجراءات سواء منها ما يندرج تحت النشاط التكتيكي او الاستراتيجي ، في مجرى واحد يتجه بوجه رئيسي نحو هدف تليين مقاومة العدو اثناء ساعات المعركة التكتيكية ، حتى يصبح قطعة لينة يسهل ابتلاعها ، بدلا من قطعة المقاومة الصلبة التي تقدمها مواجهات الجيوش بعد استعدادها .

ولو غضضنا الطرف عن مخططات المهدى الاستراتيجية ، بتياراتها المتشابكة من تنبؤات وتحركات وعوامل نفسية عديدة تابعناها باعجاب عبر مسيرة الجنرال بأسابيعها الستة ، وحصرنا انظارنا في نشاطه التكتيكي في يومى الاحد والاثنين بعد ان حدد توقيت المعركة ومكانها ، فسرعان ما يتضاعف اعجابنا مع تلاحق انفاسنا في متابعة الاحداث المتفاقمة في ليلة الاحد وصباح الاثنين وتبهرنا الحقائق التالية :

ان مجرد تحقيق ذلك الانتصار الساحق على تلك القوة الضخمة وابادتها في أقل من ساعة في صبيحة اليوم التالى ، دون تفوق عددى يذكر ، بل بينما كان التفوق واليد العليا في الحقيقة الى جانب الجنرال ، من حيث حجم النيران وحشود المدفعية ، انما يؤكد ان الفضل يعزى الى تخطيط ذكى واستخدام محكم للأمكانات المتاحة للمهدى عوضا كثيرا من جوانب الضعف والقصور في جانبه ، ولا يعزى فضل ذلك الانتصار الساحق ابدا الى تفوق المهدى العددى كما ذكر الاوروبيون – (الذين جنحوا الى المغالاة والمبالغة المتعمدة فقدروا تعداد جيش المهدى (٢٠٠٠٠ مقاتل) اضعافا مضاعفة ، خلافا لما اثبتته مصادر ونجت الاصلية نفسها ، والتي اخفاها عمدا منساقا وراء التبرير المفضل : فالاوروبيون في القرن التاسع عشر ، ما كانوا يقرون للعقل الشرقي بميزات التخطيط المدروس والتدبير الحسابي الهادئ البارد ، بل يعزون انتصاراتهم الى الغلبة العددية وفوران الحمية والشجاعة العمياء .

وقد يبدو لنا للوهلة الاولى ان المهدى ، بسعيه المفاجئ للمعركة النهارية المكشوفة في ذلك الوادى المفتوح ، قد تخلى عن مبدأ المفاجأة ، ذلك المبدأ الجوهرى في المعارك التكتيكية ، ولكننا سرعان ما نستدرك أنه لم يبتعد لحظة واحدة عن تكتيكاته الذكية التي طبقها في ابا وقدير وجرادة . وانه وازن بين مزايا معركة استنزافية طويلة يتلفح فيها باستار الظلام وظلال الاشجار متجنبا شر نيران المربع ، وبين معركة نهارية فاصلة يزج فيها بكل حشده وما يستلزمه ذلك من ارض مكشوفة لصدام المشاة وكر الفرسان ، وضوء قوى تتكشف فيه تفاصيل صفوف عدوه اثناء المعركة الالتحامية النهارية . وعلى الرغم من اختياره المسلك الاخير ، الا انه استعاض عن اقتصادية الاختيار الاول بسلسلة من التدابير تكفل له التخفيف من مقاومة عدوه الى اقصي حد ممكن ، وعندما نستعرض تسلسل خطة المهدى نجد ان تلك الاجراءات تنحصر في ثلاثة مواقف :–

١– قصف جهادية حمدان الليلى المتصل لكسر روح المقاومة المربع في قبل المعركة.

٢ –مفاجأة كمين عناصر القوة الفدائية المختبئة تحت اقدام جنود هكس ، حيث تبرز كالنبت الشيطاني بين صفوفهم وهم في لحظات الاستعداد لمواجهة العدو الامامي . ويمكننا ان نتصور الآثار المميتة التي يمكن ان تولدها عملية من هذا القبيل وفي تلك اللحظة . وقبل ان يفيق المربع من دوران رأسه تسدد له الضربات الثلاث في وقت واحد

٣ – الهجوم بثلاثة محاور مع التوزيع الاقتصادى وتقدير ثقل كل محور وموازنته مع الاهداف والاغراض التكتيكية ، تجنبا للاسراف في جهه ، مما قد يترتب عليه القصور في جهة اخرى . وقد كان الهجوم بمحاور واتجاهات متعددة من تكتيكات المهدى المفضلة ، كما شاهدنا هجومه على زريبة الشلالى في جبل جرادة وكما سنشاهد في اقتحامه خندق الخرطوم . فالهجوم من محور واحد مهما تركز ثقله لابد ان يتعرض لخسائر اكبر لسهولة تركيز العدو عليه ، عكس الهجوم المتعدد الاتجاهات والمحاور الذى يشتت جهود ونيران المدافعين ، خصوصا في اللحظات الاولى من تطور الهجوم حين يصعب اكتشاف حجم محوره الرئيسي .

ليلـــة حمـــدان

مالت الشمس للمغيب وانحسرت اشعتها عن رؤوس الاشجار ، مفسحة المجال للظلام الزاحف من الافق الغربي ليعتم معالم مسرح الصدام الوشيك واحدا بعد الاخر : فولة المصارين التي تجمعت حولها جيوش المهدى – طريق كازقيل – ثم مربع هكس في لحظات الهدوء الوحيدة التي نعم بها في ذلك اليوم ، وقد بدت اضواء المصابيح المتراقصة تلمع من بعيد بين الاشجار فاضحة مواقع الآلايات بالزريبة .

كانت ليلة الاحد ليلة حالكة [1] الظلام ، لابد ان حمدان قد تمني مثلها لتنفيذ مخطط المهدى للمرحلة الاولى من معركة شيكان .

وقد تصاعدت الاحداث منذ اصيل الاحد مؤذنة ببدء المرحلة الاولى . وحدد المهدى توقيت تحرك الجهادية للمعركة الليلية بعد صلاة العصر وتلاوة الراتب [2]، ليصلوا زريبة هكس في المغرب ويبدأ الاشتباك بعد حلول الظلام .

وبينما علت همهمة الجهادية بتلاوة الراتب بعد الصلاة ، كان قائدهم لازال مجتمعا مع المهدى والخلفاء ، وخرج من الاجتماع ليشرف على التجهيزات الاخيرة قبل التحرك نحو المربع . واستعدادا لمعركته النارية المرتقبة ، امضي حمدان الزمن المتبقي لمغيب الشمس وهو يشرف على تموين جنوده بالذخيرة ، واستوثق من قادة الجهادية الثلاثة الكبار – فضل المولى صابون والنور عنقرة والزاكى طمبل من ان كل فرد من المقاتلين يحمل على الاقل مائتي طلقة .

وقبيل المغرب ، تجمعت رايات الجهادية خارج معسكر المهدى وتقدمت خلف قادتها نحو مربع هكس ، فشقوا طريقهم متلصصين بين الاشجار في هدوء تام ، ثم توقف ابو عنجة وتجمع حوله امراء الجهادية ، ليشرح لهم تفاصيل العملية الوشيكة .

لم يتحدث حمدان كثيرا ، فقد كانت اهدافه واضحة ومحددة ، ولم يبق الا توزيع راياته توزيعا محكما ، وبثها في شكل دائرى يحيط بالمربع من كل الجهات .

وعندما اشتدت الظلمة خطت رايات حمدان خطواتها الاخيرة نحو الزريبة وتوقفت بالقرب من « الديدبانات » الذين بدت اشباحهم المتحركة من خلال غصون الزريبة ، ثم استدارت لتأخذ كل راية مكانها المحدد لتكمل دائرة الحصار التي كادت تلتصق باطراف الزريبة . تلاحمت اكتاف الجهادية في صفوفهم المتراصة ، وتكدست صناديق الذخيرة بين الصفوف ، واتخذ اغلب الجهادية

١– Ohrwalden P. 88

٢– الجهاد في سبيل الله ص ٥٥٢

مواقعهم خلف سيقان الاشجار الكثيفة التي كفلت لهم حماية طبيعية من نيران المربع ، وتسلل جزء منهم الى الاشجار الكبيرة ، فتسلقوا أعاليها واندسوا بين الاغصان الكثيفة .

ساد الظلام ، وكتم الجنود أنفاسهم ، واخذوا مواقعهم بين الاشجار وفي اعاليها ، وعبئت البنادق . تهيأ المسرح ولم تبق الا اشارة البدء من حمدان ، لتبدأ احداث ليلة الاحد – ليلة حمدان ابو عنجة .

جلس الجنرال في مكتبه الصغير بداخل خيمته وقد احاط به رئيس اركانه وبقية الضباط الاوروبيين . ومنذ مغيب الشمس كان الحديث يدور حول امور صغرى بعيدة عن الاحداث الكبرى التي عصفت بهم طوال الايام الماضية ، وكأنما كان كل واحد منهم يجاهد مغالبا نفسه كي يتحدث لسانه بغير التساؤلات والمخاوف التي اضطرمت داخل عقله ، وهو يخشى ان يكون البادئ بطرح السؤال الذى شغل بالهم جميعا « وما العمل الان ؟ » .

ظل الجنرال صامتا ساهما . صحيح ان عينيه فقدتا الكثير من بريقهما وانحني ظهره قليلا ، ولكن وجهه الاشيب الوقور كسته طمأنينة غريبة ، معبرة عن الراحة النفسية التي يحس بها المرء وهو يتنفس الصعداء عقب قرار حاسم اتخذه فازاح عن كاهله هما ثقيلا ووضع حدا للانهاك العقلى والنفسي ، فأن كان الجنرال قد ظل مهموما مؤرقا طيلة الايام الماضية ، وهو يقلب وجوه الرأى المختلفة مع تضارب النصائح والمقترحات ، فقد قر قراره اليوم – هو الآخر – على مواجهة المهدى غدا ، وشق طريقه عنوة . اما الى الابيض – الى الامان – واما الى الفناء .

ولابد ان شريطا طويلا من الذكريات مر عبر خاطره ، منذ ان طوحت به الاقدار في ارجاء المعمورة سعيا وراء حروب الامبراطورية المترامية الاطراف : من سهول الهند ايام التمرد الهندى ومطاردة قبائل الباتان في الحدود الشمالية ، الى قمم الهضبة الاثيوبية الشاهقة عبر مسيرة الجنرال نابير الاسطورية لتأديب الامبراطور الخرافي ثيودور . وقد افلح في الخروج منتصرا سليما من كل تلك المحن ، واضاف مجدا جديدا عقب كل حملة ، فهل ياترى ينجلى هذا الموقف الكالح عن مجد جديد يضاف الى سجله الحافل ؟ ولكن المخاطر كانت اعظم هذه المرة . فهو يواجه عدوا ذكيا يختلف تماما عن التصور الذى استمده مما تناقلته الصحف وما سمعه في القاهرة عندما اضطلع بمهمة سحقه . فقد وصفوه بأنه يقود شرذمة من أشتات قطاع الطرق همهم السلب والنهب ، وتارة اخرى انه يتصدر جموعا من القبائل الهائجة لارابط بينها غير التعصب الديني ، واهم من ذلك انها لاتستخدم الاسلحة النارية . ولكن ها هو اليوم كلما خطا خطوة واقترب من عدوه المتربص تكشفت له مفاجأة جديدة ، فعزوفه عن الاسلحة النارية قد غدا هراء ما بعده هراء بعدما شاهد اليوم استخدام الانصار للاسلحة النارية بطريقة متفوقة على النمط الذى تتبعه الجيوش الاوربية نفسها ، والهجات الخرقاء في

وجه النيران المتفوقة التي منوه بها ، اصبحت امنيات بعيدة المنال . فها هو لستة اسابيع يسعى وراء عدو زئبقي كالسراب ، كلما اقترب منه ، اختفي وتباعد .

ومنذ تلك اللحظة التي عزم فيها على مواجهة المهدى في اليوم التالى ، حدد الجنرال معالم معركته القادمة . فقد احس بعد اشتباك اليوم ان اصطفاف المربع التقليدى ، الذى نادى العسكريون دائما بأنه التشكيل المأمون اثناء التقدم ، ليس بالتشكيل الملائم لمعركة الغد . فقد حدت الاشجار الكثيفة والطريق الضيقة من فاعليته كثيرا ، كما كانت الصفوف العريضة – وبالاخص الصف الخلفي – عرضة للاحتراق من الوهلة الاولى لاقتحام الانصار ، لصعوبة السيطرة على الصفوف المنتشرة المترامية الاطراف . فعزم على التقدم صباح الغد بتشكيل مختلف . يقسم فيه الوحدات المقاتلة في الحملة الى ثلاث مربعات – مربع يتقدم في الامام . وخلفه مربع ايمن واخر ايسر ليقاتل كل مربع كوحدة متماسكة قائمة بذاتها يسهل السيطرة عليها وتستضيع انتاج اكبر كمية من النيران في كل الاتجاهات وأن تتعاون فيما بينها بنيران البنادق والمدفعية ، محاولة لدرء خطر الاختراق الذى يسهل في حالة الصفوف الطويلة والمواجهة العريضة .

قطع هكس صمته الطويل ، والتفت الى ضباطه ليتفاكر معهم حول السير لليوم التالى . فاجتمع رأيهم على الموافقة عليها مع اضافة بعض التعديلات الطفيفة كمواقع المدفعية وخيالة الباشبزق .

كان الجنرال ادرى بمعنويات جنوده المزعزعة عقب الارهاق والقتال الصباحى العنيف . واحس ان من واجبه الترفيه عنهم قليلا ليدخلوا معركة الغد وهم احسن حالا ، مؤملا في ليلة هادئة ينعمون فيها بنوم طويل يمسح عنهم كلل الابدان واشجان الاذهان ، فاستدعى قائد فصيلة الموسيقي وامره بأن يختار بقعة من الارض يقيم عليها احتفالا موسيقيا . ثم ابلغت الوحدات لتسمح للجنود بارتيادها . [٣] وامر قادة الوحدات بأن يسخوا قليلا في تعيينات العشاء .

بعد قليل رصت مقاعد الضباط امام الفرقة الموسيقية ، وخلفهم تراصت صفوف الجنود وقد افترشوا الارض قعودا واوقدت المصابيح لتبدد الظلمة التي اكتنفت ارجاء المعسكر ، ومع اللحن الاول والثاني انقشع جو الكآبة تدريجيا وتمايلت الرؤوس والاكتاف وتطايرت التعليقات المرحة من بين صفوف الجنود ، وقد حلقت الذكريات بالافئدة ، فهزهم الحنين للاوطان والديار .

تلاشت اصداء النغمات الاخيرة للفاصل الاول والتهبت الاكف بالتصفيق وعلت هتافات الاعجاب . تريث قائد الفرقة المزهو حتي خفت الضجة فرفع عصويه الرفيعتين بحماس عاليا ، وقبل ان ينزلهما مؤذنا بانسياب الالحان من افواه الابواق النحاسية ، تعالت للاسماع ضجة من مكان آخر ، صادرة من فوهات البنادق والمدافع . فقد بدأت معزوفة حمدان ابو عنجة .

٣- Slatin P. 241

فبعد ما وثق حمدان من توزيع راياته واحكام الحصار حول المربع ، وعندما ترامت الى اذنيه الالحان الصادرة من وسط الزريبة أدرك ان اللحظة الملائمة قد دنت . فاشار الى أقرب امير بفتح النيران . انطلقت عاصفة من الطلقات نحو الزريبة ، وسرعان ما استجابت بقية صفوف الارباع وتوالى اطلاق النيران من بقية الجهادية من اليمين واليسار ومن أعالى الاشجار .

كان وقع المفاجأة اليما على الالوف المتراصة حول الفرقة الموسيقية . فهى المرة الاولى التي يتعرض الانصار لهم في الظلام ، وكان اختيار التوقيت بارعا ، فقد سدد حمدان مفاجأته في لحظة استرخاء ... وكتب الميجور هيرلث في مفكرته عن تلك اللحظات :

« انها لايام عصبية . فنحن الان نعسكر داخل غابة ، وكلنا يقاسي من شعور مخيم باليأس والقنوط . امر الجنرال الفرقة الموسيقية ان تعزف بعض الالحان عسي ان يروح عنا ذلك قليلا ، ولكن ما ان بدأت الفرقة العزف ، حتي تطايرت طلقات الرصاص من كل الجهات فتوقفت الموسيقي . وبدأ تساقط الرجال والجمال والبغال . فتزاحمنا جميعا في بقعة واحدا . وتلاحمت الصفوف والتصقت فاصبحنا هدفا كبيرا لا يمكن ان تخطئه طلقة . اننا نعاني من الارهاق والتعب ولاندرى ما الذى نفعله وما هو المصير ... امر الجنرال ببناء الزريبة وتعزيزها . اليوم الاحد .. يوم عيد ميلاد شقيقي ... هل يا ترى يكتب لى ان اراه مرة اخرى .. واتحدث اليه لساعة واحدة فقط . الطلقات تتساقط بكثرة بيننا ... »

ولكن محاولة بناء الزريبة باءت بالفشل . فقد ارتفعت صيحات الضباط لجنودهم بعد تلاشي موجة النيران الاولى ، واستطاع بعضهم لم جماعات من الجنود سارعوا بها الى اطراف سياج الزريبة الشوكى استجابة لنداء الجنرال لتعزيز السياج خشية اختراق الانصار له . ولكن النيران المتزايدة العنف ردتهم على اعقابهم الى وسط المربع حيث تجمع الوف الجنود والدواب .

على بعد اميال قليلة غرباً وقف المهدى يؤم المصلين لصلاة العشاء وقد امتدت خلفه مئات الصفوف من المصلين الذين كانت حافة البركة تموج قبل قليل بصخبهم وضوضائهم ، ولكن ها هم مرة أخرى تتحد اصواتهم واجسادهم في السجود والركوع والوقوف والتكبير خلف الامام الفاره القامة . أكمل المهدى صلاته ، ولكنه لبث جالسا لبرهة طويلة من الزمن قبل ان يقف على قدميه ويتجه نحو التبلدية . لم يقم واعظا كعادته في الايام الاخيرة ، ولم يتجمع حوله مجلسه المعتاد ، بل مضي وحيدا الى التبلدية فجلس تحتها ، وظل في جلسته تلك حتي فجر اليوم التالى . ولم يغمض له جفن تلك الليلة ، فقد تلا كل سور القرآن الكريم .

بين معسكر الجيشين ، كانت هناك قافلة تحث السير باحثة عن احدهما أوكليهما . كان على رأس القافلة رجل مسن تجاوز الستين عاما يدعى الشيخ سام أو الشائب سام كما يلقب البقارة مسنيهم،ترك الشيخ دار التعايشة قبل اسابيع وتوجه على رأس مجموعة من الرجال والنساء والاطفال باحثا عن المهدى لمبايعته . ولما وصل الابيض علم انه قد تحرك للبركة . فجد في السير الى البركة ليلحق به وبالمعركة الفاصلة ، فاشرف عليها في الظهيرة ، وهناك علم ان الركب قد فاته وان المهدى ترك البركة وتقدم صباح اليوم الى هكس ، فأنثني شمالا وهو يسابق الزمن للحاق بالمعركة .

شاهد الشيخ اضواء معسكر هكس تلمع [٤]بين الاشجار وتعالى الى سمعه دوى الرصاص فظنه معسكر المهدى . فدنا من الاضواء وبعث بأحد ابنائه ليخطر الخليفة عبد الله بوصولهم حتي يسمح لهم بدخول المعسكر . اقترب الفتي من الزريبة وسرعان ما تبين الحقيقة ، فقد ميز زى جنود هكس الكاكى وخوذاتهم الصوفية وهم يتدافعون في فضاء المعسكر تجنبا للطلقات المتساقطة بينهم . فاسرع عائدا الى والده واطلعه على الموقف واقترح عليه الانسحاب بعيدا وان يعود هو للبحث عن معسكر المهدى . اطرق الشايب سام وحدق امامه مليا في الزريبة المتوهجة ، ثم التفت الى ابنه متسائلا « لم تكبدنا كل هذه المشاق . وما الذى جاء بنا الى هنا من دار التعايشة ؟ » فاجاب ابنه « لنفوز بالجنة » . فاستطرد والده . « تلك هى الجنة أمامنا الان » ثم امتشق حسامه واشار الى ابنائه وتبعوه فانبطح على الارض وتدحرج بجسمه الى ان تجاوز السياج الشوكى الى داخل الزريبة وهب واقفا والتحم مع اول جندى صادفه ، فتكاثر عليه الجنود وصرع بعد قليل وهو داخل الزريبة .

كانت ليلة الاحد ليلة طويلة . وحتي قبل انقضاء الثلث الاول من الليلة الملتهبة كانت معاناة الجنود قد فاقت طاقة البشر ، فقد تعرضوا لساعات متصلة لجحيم نيران الجهادية التي برزت بكثافتها منذ اللحظات الاولى ، وتزايدت شراستها واشتد عنفها بعد تقدم الليل ، ثم اتخذت نمطا ميكانيكيا رهيبا : تعبئة البنادق فاطلاقها فاعادة تعبئتها ، فالهدف قريب وواضح يملأ العين ويغني عن التصويب أو التدقيق ، والجنود مدربون والذخيرة وفيرة . وقد اصبحت الزريبة بعد منتصف الليل كالبؤرة المضيئة من توهج نيران البنادق المتصلة : اكثر من خمسة آلاف جندى يحيطون بالزريبة ويطلقون بنادقهم من مدى قريب لايتجاوز بضع ياردات . اطلق كل منهم مايزيد على المائة والخمسين أو المائتين [٥]من الطلقات ، وهو رقم قياسي في ذلك العصر ، وكان مشهد المنطقة المستعرة رهيبا كما وصفها الملك الطاهر طويان الدود والشيخ بله سراج النور .

٤- أقوال سام الزبير سام شريط مسجل- نيالا - يونيو ٧٣

٥- Ohrwalden p. 86

« لم يسمح لنا المهدى بالهجوم ذلك اليوم ، فقصفنا الزريبة بالبنادق قصفا متصلا في تلك الليلة . وكانت نيراننا كثيفة ومتزايدة العنف حتي تعرت الاشجار من لحائها ولمع بياض سيقانها وكأنها غسلت غسلا بالصابون » [٦]

وحتي بعد ان امر الضباط باطفاء كل المصابيح ، كشف وهيج الطلقات المتصل عن الصورة المخيفة التي آلت اليها حال الزريبة . فالفضاء الذى كان يموج حركة وضوضاء قبل ساعات ، تكدست وسطه الان مئات الجثث من الجنود والدواب وهم في لحظات النزع الاخير بلا يد تمتد لاسعافهم ، فقد استحال الوصول اليهم من خلال جحيم النيران . واصبحت الجثث نفسها بعد قليل ساترا يقي الاحياء [٧].

باءت بالفشل محاولات الجنرال في ابراز أى مظهر لمقاومة منظمة امام حشد النيران . والقلة من اطقم المدفعية التي وصلت لمدافعها وافلحت في اطلاق مدفعين أو ثلاثة [٨] لم تجد فتيلا ، فقد شوهدت داناتها ترتفع في السماء عاليا فوق رؤوس الاشجار التي كمن تحتها وبينها الجهادية .

أفلت زمام الموقف منذ الساعات الاولى للاشتباك من يد القيادة العليا ، ووقف الجنرال وهو يرقب دمار جزء كبير من جيشه دون ان تتاح له فرصة القتال . لقد تقوضت خيام الضباط فتجمعوا في اماكنهم مع جنودهم ، وانكمشوا متلاصقين خلف كل مايمكن اتخاذه كساتر من النيران كصناديق التعيينات وجوالات الحبوب وجثث الحيوانات والناس بل حتي صناديق الذخيرة . وقد اصابت واحدا منها طلقة فجرت ما به من ذخيرة في وجوه من اختبأوا خلفه ، فتطايرت الاذرع والسيقان عاليا واضيئت الزريبة بوهج الانفجار لعدة ثوان ، بينما تعالت للاسماع هتافات الجهادية من بين الاشجار بلهجتهم الركيكة :

« ده المهدى المنتظر » [٩]

كان مشهداً مروعاً ، ووصف اغلب من عاصروا المعركة بأن الجزء الاكبر من جيش هكس أبيد تلك الليلة [١٠] . وتكشف للاعين خطأ الجنرال المميت باغفاله حفر الخندق المعتاد [١١] ليقي جنوده الرصاص المتساقط فأمضوا ليلتهم غنيمة سهلة في العراء تحصدها نيران ابو عنجة .

٦- SNR XX 1937 P. 145

٧- سلاطين

٨- مجلة ونجت

٩- سلاطين ص ٢٤٢

١٠- اوهرولدر ٨٦.

١١- يرجى آجلن أن احداث اليوم المزدحم بالقتال لم تسمح بحفر الخندق

وفي زحمة الاحداث المتلاحقة لم يلحظ الضباط شرذمة من الرجال [١٢] تسللت من داخل الزريبة فجاوزوا سياجها الشوكي خلسة وانضموا لجنود ابو عنجة . وكان من بينهم كنه– دليل الحملة [١٣].

وفي الاركان القصية من الزريبة التي لم تطلها نيران الجهادية ، ازدحمت بقعة الارض الضيقة بالضباط والجنود . وفي احدها التف التجار والاعيان المدنيون حول قناوى بك يتدارسون الموقف في حديث متقطع تداخلت فيه الانفجارات ، مجبرة اياهم على قطع الحديث بين فينة واخرى ، حين تنخفض رؤوسهم تجنبا للطلقات المتطايرة .

تصدر قناوى بك الاجتماع واصبح الحديث اقرب الى الصياح حتي يصل الى اذان سامعيه ، وتزايد هيجانه وهو يشاهد امامه مصير الحملة الذى اصبح محتوماً صاح قناوى :

« لو اعيد لرجالى الان سلاحهم [١٤] وذخيرتهم لشققت طريقي عنوة وعدت للخرطوم . لكن كيف السبيل الى ذلك الان ، وقد اصبحنا كالنساء بعد تجريدنا من سلاحنا ولم يبق امامنا الان الا ان نموت كالفئران ؟ » .

وقبل ان ينتهى حديثه لمح وجه بساطى بك يلمع في الظلام فصاح في وجهه « انت بيننا هنا أيضا ؟ » ثم كال له السباب متهما بساطى بانه جاسوس لعلاء الدين وطرده من المجلس الصاخب ، فابتعد بساطى ساخطاً وذهب مباشرة الى علاء الدين ، وحاول بعض التجار اثناءه ، ولكنه اصر ودخل على علاء الدين وهو يشكو قناوى . ولما عاد هؤلاء واخبروا قناوى بمقابلة بساطى لعلاء الدين باشا ، تزايد سخطه واسرع واستدعى كبير معاونيه وأمره امام التجار بان يجمع بنادق القتلى وذخيرتهم ويسلح بها رجاله وان يلموا متاعهم كي يغادروا الزريبة في الصباح وسيقودهم هو نحو الخرطوم ، فشرع الاخير في [١٥] في تسليح الرجال من بنادق القتلى والجرحى .

وتجاوزت الساعة الرابعة صباحا ، ولم تزل اصداء نيران الجهادية تتردد في جنبات الزريبة . وعندما لاح ضياء الفجر في الافق الشرقي وهو يكشف شيئا فشيئا عن حصاد حمدان الدموى من الجيش المحطم ، كان مصير الحملة المحتوم قد اتضح للجنرال وقادته ، فقد تلاشت آمال الجنرال في النجاة أو النصر مع تلاشي الظلال الاخيرة لليلة الاحد .

١٢– ونجت ص ٨٨

١٣– ونجت ص ٨٩

١٤– Cair/int 3 - 11 - 179 A P. 39

١٥– نفس المصدر ص ٤٠

وعندما غزا الشيب رأس الليلة الحالكة السواد ، تباعد دوى رصاص الجهادية وخفت الى ان توقف نهائيا . تجمع رجال حمدان حول قائدهم وانسحب بهم بعيدا عن نظر عدوه . وهكذا لم يتسن لجنود الزريبة ان تقع إبصارهم على ذلك العدو الذى ظل يفتك بهم ليلة كاملة . وللمرة الاولى منذ التأم شمل الحملة في الخرطوم قبل شهور لم تسمع انغام بوق الاستيقاظ ، فقد كان كل واحد مستيقظا .

ادار الجنرال هكس بصره حول الحطام والجثث والجرحى والاسلحة المبعثرة ، ولكنه تمالك نفسه وطلب من ضباطه بصوت ملؤه الأسي تنفيذ المخطط وان تقسم البقية الباقية من الآلايات الى ثلاث مربعات استعـدادا للتقدم نحو الصدام النهائي . وبدأت معركة شيكان .



الاثنين ... ٥ نوفمبر

مـــــــا زال آخـــــاذا يـــــرن بمســـمـــمــعى
رجـــــــع الملاحـــــــم فوق تـــــلك الاربــــع
شـــيـــكـــان تـــعـــرفـــهـــم وهـــا هى لم تـــزل
تـــتـــلو نشـــيـــد الـــنـــصر غير مـوقـــع

ادريس جماع

بدد ضياء الفجر حلكة الظلمة التي أحاطت بمعسكر المهدى ، فاضحا تحركات الرجال وهم يتجولون كالاشباح بين ارجائه ، وكلما ازداد الضياء وضوحا نشطت حركة الاشباح وتزايدت أعدادها وهى تتجمع في مجموعات صغرى، تأتلف فيما بينها لتتحد في ثلاث مجموعات كبرى – الراية الزرقاء . فالخضراء فالحمراء . وقبل ان يعلن المؤذن صلاة الفجر وبدء اليوم ، انطلق حمدان أبو عنجة منشدا بصوته الجهورى من صهوة جواده المتبختر امام صفوف الراية الزرقاء :

نحن أصـــحـــاب المنـــتـــظـــر يـــا ســامـــعـوا
نحن اذا رأيـــنـــا الـــعـــدو لـــلـــقـــتـــال ســارعـو
نحن لأهـــل الـــقـــتـــال نـــزعـــزعـو
ولـــديـــار أهـــل الـــكـــفـــر نخرب ونشـــلـــعو
أنـــا حـــمـــدان أبو عـــنـــجـــة لـــلـــرجـــال أوجـــعو
أنـــا ســيـــف المنـــتـــظـــر لهامـة الـــكـــافـــر يـــفـــقـــهـوا
نحن لـــــلــــــمشركين نــــــردعو
فـــيـــنـــا خـــلـــيـــفـــة رسول الـــلـــه يـــا قـــارعـو
نـــقـــطـــع دابـــر كـــل من لـــيـــنـــا يـــدارعو
اذا حـــمى الوطـــيـــس لـــلـــعـــدو.. [1]
نجنـــدل الابـــطـــال ولـــلـــحى نخلـــعـوا[2]

وعندما حاذت صفوف الراية الزرقاء مكان المهدى هتف حمدان (الخير قرب) فابتسم المهدى وأجاب (صدقت يا حمدان – الخير قرب) فقد كان ذلك هو اليوم الموعود .

١- الشيخ محمد ادم ص٨٤
٢- نفس المصدر .

ومن موقعه تحت شجرة التبلدية . مرت صفوف الرايات بالمهدى في طريقها لتأدية صلاة الصبح . وكأنما أصبحت تلك الشجرة النبيلة معلماً تاريخيا يرصد المعركة مراحلها وأطوارها . فمن تحت تبلدية الابيض كان المهدى يعظ جنوده لاسابيع خلت . وتحتها وقف مستظلا يشاهد خروج جيوشه للبركة . وأمام تبلدية المصارين وقف ذلك اليوم يؤم المصلين في فجر المعركة ومنها تقدم ليقود المعركة الفاصلة . وعلى جذع تبلدية شيكان لقي عدوه حتفه وسطر الفصل الختامى لمعركة الاسابيع الستة .

اصطف المصلون بمجموعاتهم الثلاث الكبرى . فمن اليمين مجموعة الراية الزرقاء بجموعها الكثيفة وفي الوسط الراية الخضراء بقيادة موسي ود حلو براياتها الفرعية : [٤]

البشير عجب الفيه : راية دغيم

قرشي ود احمد : راية دغيم

محمد ابراهيم الهريلة : راية دغيم

ابراهيم ابو عاشة : راية دغيم

سراج الدين أبو خويدم

عبد القادر ود مديح : حسنات

جاد الله ود بليلده : عبابدة

ابو بكر عامر : عمارنة

وفي اليسار الراية الحمراء بقيادة ود النجومى ومكين ود النور وميرغني سوار الدهب والياس أم برير [٥] .

وقبل أن تتقدم الرايات للصلاة . تسللت مجموعة صغيرة من صفوف ود النجومى وتوجهت نحو الوادى . كانت تلك راية الكمين المبثوث في باطن الارض . والتي كلفت بالاختباء داخل خندق في طريق الحملة .

تماوجت الصفوف خلف الامام وهى تقف وتركع وتسجد مكبرة . وختم الامام صلاته ثم التفت الى جنوده المصلين ووقف فيهم خطيبا [٦] . كان حديثه هذه المرة موجزا ، وختمه طالبا من جنوده ألا تثنيهم نيران القتال عن ترديد العبارة التي كان يوصيهم دائما بذكرها عند رؤية العدو (اللهم ربنا وربهم . نواصينا ونواصيهم بيدك انما تقتلهم أنت) . واتحدت اصواتهم مرة أخرى مستجيبة لندائه

٤- الشيخ محمد ادم ص ٨٢ .

٥- مخابرات ٥١/١٠/١ - اقوال ابراهيم نصر الله .

٦- الكردفاني ص٢٣٥ .

وهو يعطيهم بيعة جديدة ليرددوا مقاطعها بعده.[٧]

ومع شروق الشمس [٨] انتظمت المجموعات الثلاثة في مسيرتها نحو غابة شيكان . تصدر الخليفة عبد الله أمير جيوش المهدية الصف الامامى [٩] ، بينما تقدمت المجموعة الاولى بقيادة عبد الرحمن النجومى أمام بقية الجيش [١٠]

وسرعان ما أخلى معسكر البركة تماما ، وانتقلت الضجة والضوضاء من ضفاف الفولة الى طوفان الرجال الهادر وقد اختفت بين أمواجه الحشائش والاشجار الصغيرة . كانت حركة المجموعات على الرغم من ضخامتها ، قصيرة وسريعة تنم عن الحيوية والتصميم الذى عهدته جيوش الانصار في تقدمها الى المعارك .

كان يوم الاثنين يوما حارا [١١] ، ضاعف من حرارته التوتر الذى ساد الصفوف ونفس المقاتلون عن حماسهم بشتى الوسائل :

«كانوا خلقا لا يعد ولا يحصي منهم من يبكى متشوقا للقاء ربه ، ومنهم من ينم ومنهم من يتكلم بالترجمة السريانية [١٢] » .

ولما قاربت الساعة الثامنة ، كانت الشمس قد علت السماء واشتدت حرارتها.ومن جهد السير السريع ، ابتلت الوجوه والملابس بالعرق المتصبب ، ولكن المسيرة كادت أن تصل الى غايتها ، فقد أشرفت طلائع ود النجومى على غابة شيكان أخيرا . أوقف الامير عبد الرحمن النجومى التقدم الى أن تجمعت خلفه كل حشود الرايات الثلاث ، فأعاد تنظيم رايته واخترق الغابة متجاوزا الوادى الذى كمنت في وسطه راية الكمين [١٣] ، بعد أن حفرت مخابئها وغطت أعلاها بالحشائش والشجيرات . وبوصوله طرف الوادى الشمالى ، توقف ود النجومى واستدار جنبا ، فاصطف فرسانه خلفه واتجهوا نحو مدخل وادى شيكان معترضين طريق الحملة [١٤] . سدت مواجهة النجومى العريضة الكثيفة فتحة الوادى تماما ، واختفت أجنحتها المترامية داخل الغابة نفسها [١٥]

٧– الشيخ محمد ادم ص٨٢.

٨ مخابرات اقوال كاتب الامير مساعد ٣/١١/٧٩/أ

٩– مخابرات ٣/١١/١٧٩/أ–ص٥٤.
اقوال حسن البارودى

١٠– حقائق الاخبار فيما وراء البحار – اسماعيل سرهنك – الجزء الثاني ص ٤٦٢.

١١– اقوال بله سرلج النور

١٢– الشيخ محمد ادم ص٨٢.

١٣–

١٤– اقوال البارودى ص ٥٤ – ٣/١١/١٧٩/أ.

١٥ سرهنك – حقائق الاخبار فيما وراء البحار ص ٤٦٢ ج٢

أما الراية الزرقاء – أضخم الرايات عددا – فقد تقدمت خلف الامير يعقوب الذى شهر حربته الطويلة عاليا ، وكأنما أبرزها لحماية قطعة القماش العريضة السوداء وهى تخفق شامخة متحفزة متفاخرة بحشودها التي أحاطت بالوادى من جهة اليمين . كمنت تلك الحشود الضخمة في الغابة فابتلعتهم أشجارها المرتفعة وسترتهم تماما .

فصل الوادى بين تلك الحشود وبين صفوف الراية الخضراء بقيادة موسي ود حلو التي احتلت الجانب الايسر ، واختفت هى الاخرى بين أشجار الغابة [١٧] [١٨] .

بعد قليل سكنت الجلبة وخيم السكون على الالوف المتربصة . وفيما عدا رايات النجومى التي كانت تخفق في نهايته ، كان مظهر وادى الموت بريئا لا ينم عن الخطر الكامن [١٩] .

توقف ركب المهدى والخلفاء تحت تبلدية ضخمة لا تبعد الا مسافة قليلة عن مواقع جيشه ، فترجل المهدى ومن بعده الخلفاء ، وامتدت يده الى أبريق الوضوء [٢٠] فتوضأ وقام على فروته متجها صوب القبلة.كانت صلاة طويلة ، أطال فيها الركوع والسجود حتى ألهبت سياط الشمس الواقفين من خلفه فقد أزف الضحى وبدت في الأفق البعيد طلائع هكس [٢١] [٢٢] .

على مسافة لا تتجاوز ميلين ربض أبو قرجة بين فرسانه المشاكسين يرقبون فريستهم وهى على وشك الارتماء في الفخ المنصوب . كانوا على صهوات جيادهم منذ الصباح الباكر ، على أهبة الاستعداد لوخز المربع برماحهم الطويلة ان تأني او تواني في اندفاعه نحو أنياب الموت الفولاذية المشروعة أمامه[٢٣] .

ولكن الجنرال لم يكن في ذلك اليوم بالذى ينتظر من يحثه أو يدفع به للقاء المهدى . فقد عيل صبره . وعلى الرغم من مشهد حطام الزريبة المجللة بسواد الحرائق ، وباحمرار دماء الجثث ، فان اصراره لم ينثن عن جعل اليوم يوم الفصل الحاسم . فشهد صباح الاثنين آخر مجالس حرب الحملة ، ضم المجلس علاء الدين وحسين مظهر وقادة الالايات وأركان الحملة الاوروبيين . كان اجتماعا قصيرا ، فقد خيم الوجوم على المجتمعين ولم ينبس أغلبهم ببنت شفة خلال المداولات ، بل اقتصروا على الاستجابة بهز رؤسهم موافقين وهم يديرون أعينهم بين الجنرال المتحدث بلغة لا

١٧- ابراهيم فوزى ص١٥١.
١٨- محمد عبد الرحيم ١٤٦.
١٩- البارودى ص ٤٣- ١٧٩/١١/٣/أ.
٢٠- حلو ص ٨٥.
٢١- اوراق على المهدى – اقوال بخيت القنبور – ص ٢٨.
٢٢- محمد عبد الرحيم ١٤٦.
٢٣- محمد عبد الرحيم ١٤٧.

يفهمونها والياس ميخائيل الذى ترجم حديثه الى اللغة العربية . ولكن العيون المحمرة المسهدة تحدثت بالكثير . ولم يسمح الجنرال هذه المرة بالنقاش المستفيض والاخذ والرد الذى اتسمت به الاجتماعات السابقة ، بل قدم شرحا موجزا لخطة السير الجديدة وتقسيم الحملة لمربعات ثلاثة وطلب تنفيذها بلهجة حازمة مقتضبة .

انصرف قادة الآلايات من الاجتماع وتوجهوا الى جنودهم لتنظيم بقايا الآلايات في هيئة وحدات متماسكة . وقبل أن يتفرغ هكس لتنفيذ خطة السير الجديدة ، تحول انتباهه الى مشكلة اخرى اطلت برأسها بعد أن ظلت تختمر طيلة الليلة الماضية . ألا وهى تمرد قناوى بك .

اذا نفذ قناوى وعيده . فقد انتهز فرصة انشغال القيادة والضباط قبل الفجر ، فجمع كل رجاله وسلحهم ببنادق الجرحى والموتى [٢٤] وعند بزوغ الفجر ، تجمع رجاله خارج الزريبة واتجه بهم شرقا نحو النيل ، وقد عزم على شق طريقه خلسة بعيدا عن الطرق المطروقة . وقبل أن يبدأ مسيرته لمحه أحد ضباط الحملة ، فأنبأ علاء الدين باشا بان قناوى ورجاله قد انشقوا عن الحملة واتجهوا غربا . فبعث علاء الدين بأحد أركانه ليثنيه طالبا منه العودة الى الزريبة .لكن قناوى قابل مبعوث علاء الدين بسخرية واستخفاف ورفض العودة ، فارتد الضابط لعلاء الدين خائبا .وهنا توجه علاء الدين الى هكس وأبلغه نبأ تمرد قناوى . استمع هكس الى علاء الدين صامتا ، ولكنه أدرك على الفور خطورة العصيان واثاره على معنويات جنوده المهتزة ، فسارع وانتدب أحد الضباط الاوروبيين ، وكان معروفا أن قناوى يخشاه ويضع له وزنا كبيرا ، ورافقه مترجم الحملة الياس ميخائيل لاقناعه بالعودة . قابل المبعوثان قناوى ، وبعد نقاش طويل امتثل أخيرا وقاد رجاله عائدا للزريبة . ولكن الجنرال كان قد عزم على حسم الموضوع نهائيا ، ففصله من رجاله وضمه الى قيادة الحملة ، ووزع رجاله على الآلايات لتعزيزها . ويعزى تأخر الحملة في التحرك صباح ذلك اليوم أساسا لعصيان قناوى اذ استغرق اقناعه والعودة به للزريبة وتوزيع رجاله وقتا ليس بالهين أتاح للمهدى دقائق ثمينة كان في أمس الحاجة اليها لتوزيع راياته ذلك التوزيع المحكم .

نفض الجنرال يديه من مشكلة قناوى بسرعة وتفرغ لتنظيم سير الحملة فأمر الجنود بتركيب حراب البنادق استعدادا للالتحام المنتظر وخرج المربع متجاوزا الزريبة [٢٥] وقبل أن تقطع الحملة نصف الميل الاول من مسيرتها ، كانت قد قسمت الى ثلاث مربعات واتخذت تشكيل وترتيب السير النهائي .

٢٤- مخابرات – اقوال البارودى ١٧٩/١١/٣/أ ص ٤٠.

٢٥- اقوال على الجلة.

تقدم هكس أمام المربع الامامى وحوله الضباط الاوروبيون وحرسه الخاص ، وخلفهم مباشرة تثاقلت خطوات البغال التي كانت تجر أربعة من مدافع الكروب ، أخذت مكانها بين رئاسة الحملة والمربع الامامى الذى تكونت أضلعه من صفوف الالاى الاول وبقايا الآلاى الرابع .

قاد علاء الدين المربع الثاني الذى تقدم يمين المربع الامامى وخلفه واحتفظ بنفس الفاصل - ٣٠٠ ياردة - بينه وبين المربع الثالث في اليسار بقيادة اللواء حسن مظهر (٢٦) . عززت المربعات بالمدفعية ، فوضع مدفع (كروب) في كل ركن من أركانها وتوسطت رشاشات المتراليوز الصفوف الامامية ، بينما تكدست الامتعة والبقية الباقية من الجمال المثقلة في بالاحمال في وسط المربعات (٢٧) وامتدت صفوف فرسان الباشبوزق المزدوجة فأحاطت بدورها بالمربعات الثلاثة في شكل مثلث هائل مزدوج الاضلع (٢٨) .

وفي منتصف الثامنة أخذت المربعات الثلاثة ، بقايا حملة هكس التي غابت في غياهب كردفان منذ ستة أسابيع (٢٩) تخطو خطواتها الاولى من مسيرتها الاخيرة ، تاركة خلفها صفوفا طويلة من أكداس الجثث والحيوانات والامتعة المحترقة ، نفضتها عن ظهرها واتخذت وجهتها نحو الشمال الغربي - الى كازقيل .

انتظمت خطوة السير بعد قليل خلف الجنرال . فبرزت من أضلع المربعات حراب البنادق الطويلة ببريقها ولمعانها في بريق الشمس الساطع ، وبدت من داخلها أعناق الجمال المشرئبة بخطواتها الوئيدة وانتصب الفرسان جالسين على صهوات جيادهم وسيوفهم تلمع ، واتجهت فوهات المدافع للامام .

كان مشهد الحملة من البعد ينم عن حشد عسكرى منيع يبعث الرهبة في النفوس ، ولكن لو تمعن المرء بناظريه خلال الغبار الثائر من تحت أقدام الجنود والدواب واقترب من الحشد ، لصافحت عينيه مشهدا آخر ، ولتبين أن المخبر يختلف عن المظهر الخداع ، فالجنود يجرجرون أقدامهم وهم ينوؤن بحمل سلاحهم وقد تقوست ظهورهم تحت وطأة المتاع الثقيل ، وعلت الوجوه تعابير جامدة تشي بما اعتمل في القلوب الواجفة المترقبة (٣٠) .

لقد أتت عملية حمدان أكلها . وأفلحت في أن تدفع لكماشة المهدى التي فغرت فاهها على بعد



٢٦- محمد عبد الرحيم ص ١٤٧.
٢٧- كروكى معركة شيكان - صباح الاثنين ٥ نوفمبر ١٧٩/١١/٣/أ.
٢٨- اقوال كاتب الامير عبد الرحيم مساعد - كروكى المعركة ١٧٩/١١/٣/أ.
٢٩- محمد عبد الرحيم ، قدر وقت التحرك بالساعة السابعة ١٤٦.
٣٠- اقوال حسن حبشي - مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ ص ٧.

ميلين ، صفوفا متهالكة أضناها السهر ، وعصفت بعزيمتها نيران أبو عنجة المتسلطة طيلة ليلة كاملة. (٣١)

امتد زحف المربعات الثلاثة البطئ لساعات متصلة وبدت في الافق غابة شيكان . دغلة كثيفة ميزتها أشجارها العالية عن بحر الشجيرات الممتد حولها الى مد البصر (٣٢) . معلم طبيعي عادى يصادف المرء عشرات مثله في كردفان . ولكن الجنرال كان خير من يعلم ، بخبرته المستمدة من اشتباكات الاسابيع الماضية ، ان خضرة أشجار كردفان لا تستر الوديان والمياه فقط . فأشار بيده طالبا ارسال فارس للاستطلاع يصحبه (بروجى) للانذار المبكر باقتراب العدو وتحركاته ، على أن يستطلعا الى مدى نصف ميل ثم يبلغ البروجي الى الخلف باصطلاحات البوق العسكرية المتعارف عليها (٣٣) .

انطلق الفارسان وعبرا نصف الميل الاول وتلفتا يمنة ويسرى فلم يشاهدا شيئا مريبا ، فتواترت نغمات البوق الى مسمع الجنرال وترجمت له (منطقة مأمونة لا يوجد عدو) فحث الجنرال السير الى أن وصلهما وأشار عليهما عن طريق المترجم ان يتسلقا اعالى الاشجار في نصف الميل القادم حتي تمتد الرؤيا لمدىٰ أطول .

لحقت المربعات في تلك الاثناء بركب الجنرال ، فاستأنف المسيرة مرة أخرى ، وانطلق الفارسان حتي غابا عن أنظاره بين انحناءات الطريق . وقبل أن يخطو بجواده عدة خطوات ، لحق به أحد ضباط الفرسان وأبلغه أن مجموعة كبيرة من الانصار تتعقبهم ، فسأل عن عددها وأوصاف راياتها . ولما استمع الى اجابة الضباط أدرك أن أصدقاءه الالداء الذين تعقبوه من النيل قد عادوا الى رفقته مرة اخرى . وكان محقا في تخمينه فقد كانت تلك هى مجموعة ابو قرجة في تعقبها المألوف ، عدا اختلاف يسير هذه المرة ، فبدلا من المراقبة البعيدة التي كانت سمة تقدمهم في الاسابيع الماضية ، ضاق اليوم الفاصل بين القوتين ، وبدلا من الركوب المسترخى على صهوات الجياد ، والسيوف والرماح المعلقة على الجنوب والظهور ، كانت الرماح مشرعة والبنادق في الايدى .

أمر هكس بعدم الالتحام أو التعرض لهم ، فقد انحصر همه في تخطى الغابة التي امتدت على بعد ميل منه ، ليصل بعدها الى أرض وصفت بأنها مفتوحة نسبيا يضمن فيها ميادين المرمى المناسب للبقية الباقية من مدافعه وبنادقه . وعلى كل حال ، كان ظهور مجموعة أبو قرجة ذلك الصباح بادرة طيبة في حسبانه ، فأبو قرجة كان أهون الشرين اذا قيس بزوار الليل الذين أقضوا مضجعه ليلة الامس .ومن ناحية أخرى قد يعني ظهوره ان المهدى قد قرر امهالهم ذلك اليوم ، أو انه لايزال في البركة بحشده

٣١- اقوال كاتب الامير عبد الحليم مساعد - مخابرات ص ٩.

٣٢- SNR VOL XX P 143

٣٣- SNR VOL XX P 142

الاكبر. ولكن تبدل الموقف فجاة وانقلب راسا على عقب. فقد ترامت الى الاسماع اصداء نداءات البوق وهي تحمل نذر شر مستطير. توقف الجنرال واستمع الى الترجمة الفورية لاصطلاحات البوق اللاهثة (عدو أمامنا مباشر – يقدر بألفين – بخمسة ألف – عدو في اليسار، عدو في اليمين، خمسة الاف عشرة الاف. عدو في كل الجهات – عدو في أعالي الاشجار – عدو في السماء.. لا يعد ولا يحصي)[٣٤].

فعندما توقف الفارسان بعد نصف الميل الثاني، تلفتا يمنة ويسرة فلم يشاهدا شيئا مريبا، اذا اخفت الاشجار حشود المهدى وكاد (البروجى) ان يبث الاصطلاح المتوقع (أرض خالية من العدو) ولكن الفارس المرافق اقنعه بتسلق اغصان تبلدية سامقة تطاولت اغصانها العليا للسماء. تسلق عازف البوق وتوقف عند احد الاغصان القريبة واجال بصره يمنا ويسارا فلم ير شيئا وهم بالهبوط. ولكن رفيقه صاح به ان يتسلق اعالى الشجرة كما وجه الجنرال. فعاود التسلق متذمرا الى ان وصل الاغصان الرفيعة العليا للشجرة الضخمة. وعندما امتد بصره للامام اصطدمت عيناه بحشود المهدى التي سدت الافاق. فقد كانت التبلدية التي تسلقها تتوسط نهاية الوادى تقريبا (٣٥) تجمد الدم في عروقه، وانقضت عدة ثوان قبل ان يفيق من هول المشهد ويبدأ رد فعل يديه، ثم لسانه، ثم بوقه، فتدافعت مقاطع نفيره السريعة، والتقطتها اذان ضباط وجنود الحملة، خافتةفي مبدأ الامر، وهي تزداد قربا ووضوحا من الأذان المرهفة، حتي جسمتها العقول بدورها، فاصبحت دويا يصم الآذان عندما ترجمتها الى معان واوصاف.

أوقف هكس التقدم ليستوثق من حسن انتظام الصفوف والمدافع. فقد حانت اللحظة الحاسمة التي طال تفاديها. فاستدار بجواده للخلف ليشرف على الاعداد النهائي للتقدم، ففوجئ بمشهد مخيب للامال.

فقد هزت أصداء النفير صفوف الحملة هزا عنيفا وكان لها وقع غريب. فعندما وعت العقول ما استقبلته الآذان من معان، توقفت الارجل غريزياً. ولكن المقاطع السريعة ظلت تلاحق أسماعهم، ولاحظ هكس على الفور أثرها في توقف الجنود وتخلخل الصفوف، وفي تعابير الذعر التي علت الوجوه، بينما تعلقت به الانظار في انتظار قراره.

شد الجنرال من قامته وجمع عزيمته وبدأ في نثر التعليمات لمن حوله من الضباط، ولكنه لاحظ تعلق أسماعهم المشدودة بصفير البوق. فأحس بالضيق ثم الحنق على النغمات وعازفها وقرر ايقافها بأى ثمن، فاستدعى الكولونيل فركهار وطلب منه أن يأمر عازف البوق بايقاف نفيره العالى. فتقدم

٣٤– الشيخ محمد ادم ص ٨٢.

٣٥– سميت هذه الشجرة بشجرة البروجي وتعرف بهذا الاسم حتي الآن في خرائط كردفان الرسمية.

فارسان وهما يصيحان ويشيران الى (البروجى) بايقاف العزف ، ولكن هيهات ، فقد اتجه هذا ببصره بعيدا نحو الانصار وأصبحت المقاطع تصدر عنه تلقائيا بدون وعى . وهنا أمر هكس بقتله . فتقدم اثنان من القناصة من مهرة الرماة وقذفوه بعدة أعيرة اصابته احداهما فسقط هاويا من الشاهق . وقد تعلق جسده بين أغصان الشجرة السفلى وظلت جثته ثم هيكله العظمى وملابسه الرسمية المهترئة في مكانها ذاك لعشرات السنين ، وأصبحت معلما من معالم معركة شيكان [٣٦]

ران صمت ثقيل بعد أن سكن صفير البوق ، ووقف الجنرال يرقب المربعات وهى تسوى صفوفها وتعدل أماكن المدافع ، والضباط وهم يتخذون مواقفهم في وسط الصفوف الامامية ، ثم أدار عينيه بنظرة أخيرة واستدار بجواده مرة أخرى واتجه للشمال . وعندما تمايل العلم الكبير الذى رفرف فوق جواده منبئا عن تحرك الحملة ، ارتفع دوى (الطبلة) في ايقاع منتظم استجابت له الاقدام ، فاتحدت الخطوة مرة أخرى وانطلقت على طريق كازقيل ، واشرفت أخيرا على غابة شيكان في الساعة العاشرة تماما [٣٧] .*

اقتربت المربعات من غابة شيكان ، ولاحت أخيرا مقدمة هكس وهى تنحدر نحو الغابة . ووقعت عينا المهدى أخيرا على ذلك العدو الذى كان شغله الشاغل طوال الاشهر الاخيرة ، فترجل من جواده .

أصلت المهدى سيفه وكبر ثلاثا ثم أعاده الى غمده وفرش فروته تحت التبلدية وكبر مصليا [٣٨]

٣٦- على الرغم من ان «البروجى» كان في متناول يد الانصار بل وفي وسط راياتهم تقريباً الا انهم تركوه ولم يمسوه باذى حتي لا ينكشف اختباءهم بين الاشجار . وقد قتل الدليل على يد هكس كما تتفق روايتي محمد ادم حلو واجلن ، فقد ذكر اجلن وتعرف هذه هذه الشجرة بشجرة البروجى نسبة للقصة المتداولة حتي الان ومفادها ان هكس ارسل البروجى للاستكشاف وامره بتسلق الاغصان العليا ، وعندما ملأت حشود الانصار عينيه باعدادهم الضخمة كان تقريره المرسل بمقاطع البوق يبعث على الهلع والفزع التي اجبرت هكس على اصدار الامر بقتله فقد حطمت مقاطع البوق معنويات جنوده ويقال ان هيكله العظمى ظل معلقا باغصان الشجرة في مكانه ذاك لسنين عديدة....»

ودارت رواية محمد آدم حلو في نفس المعني :-

«... وهكس طلع عسكرى واحد شجرة طويلة وقالو له صيح لنا نضرب من أى جهة . قال العسكرى : اضرب يمين - يمينا وشمالا وصباحا وغرب واضرب السماء فوق الناس التي السما اكثر وهكس امر بقتل العسكرى وقتلوه وقال هكس دخل الخلل ..»

محمد ادم ٨٦

٣٧- تقدير محمد عبد الرحيم في الساعة السابعة والنصف .

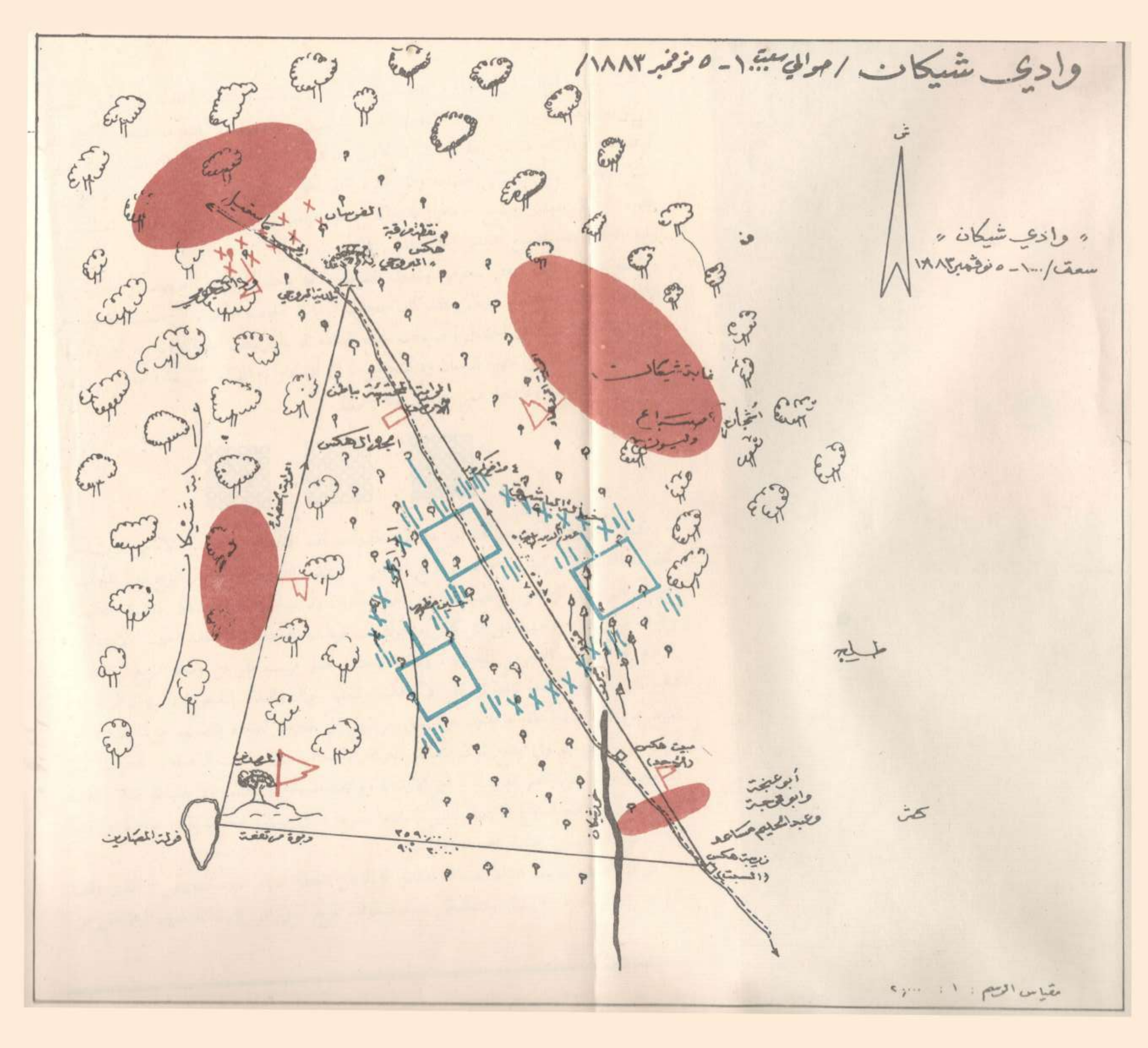
وتقدير بخيت القينوز الساعة العاشرة.

اوراق على المهدى ص ٢٨.

محمد عبد الرحيم ص ١٤٦.

* انظر خريطة رقم (٨) «وادى شيكان - الساعة العاشرة» ٥ نوفبر ١٨٨٣.

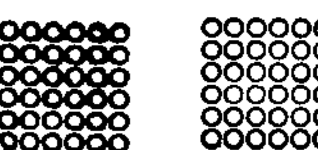
٣٨- محمد عبد الرحيم ١٤٨

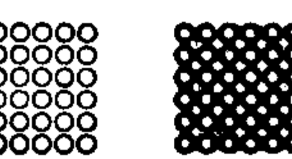


وادي شيكان
٥ نوفمبر ١٨٨٣
ش
وادي شيكان
٥ نوفمبر ١٨٨٣
غابة شيكان
خور شيكان
فولة المصارين
ربوة مرتفعة
زريبة هكس
أبو عنجة
وابو قرجة
وعبد الحليم مساعد
الفرسان
مقياس الرسم

ترامت دعواته الحارة الى الخلفاء من خلفه وتابعت الجموع البعيدة المتحفزة قامته الفارغة في سجوده وركوعه لبرهة قصيرة ، ثم تحول انتباهها لجهة الجنوب ، فقد شدت أبصارها لفتحة الوادى التي تدفقت منها طلائع هكس وقد كادت أن تحاذى أطراف الرايتين الخضراء والزرقاء اللتين حفتا بجانبيه اسئل عبد الرحمن النجومى حسامه والقي نظرة اخيرة على جناحي وصفوف فرسانه ، ثم ظل يدير بصره تارة الى المهدى والمربع الامامى الذى تقدم نحوه مباشرة ، وأخرى الى البقعة التي اختفت تحتها راية الكمين وقد أصبح هكس على بعد ياردات منها (٣٩) .

لمح هكس فرسان ود النجومى يسدون الطريق أمامه وخلفهم تتزاحم صفوف (الحرابة) بين الاشجار ولكنه لم يشاهد غيرهم ،فقد كان حجاب الرايات الجانبية محكما ، بل عميت بصيرته حتي عن الراية التي كمنت في الخندق وأصبحت تحت أقدامه تقريبا . توقف الجنرال وتراجع بجواده ببطء الى الخلف دون ان يولى ظهره لفرسان ود النجومى ، الى أن تجاوزته المدافع الاربعة الامامية ثم الصف الامامى من المربع وعندها غمز جواده مرة أخرى .





كمن أمير راية الكمين ساكنا آمرا مقاتليه بالهدوء ، فقد اقترب ربع هكس الامامى تريث حتي تجاوزته المدافع الأ ربعة ، ثم صف المربع الامامى . وعندما أصبحوا في وسط المربع بين الدواب ، كبر أميرهم وقفز الى أعلى ، فهب جنوده وهم يكبرون وتواثبوا من قاع الخندق كالنبت الشيطاني وهوت سيوفهم ورماحهم على كل كائن متحرك كان توقيت المفآجأة محكما. فقد أتجهت الابصار الى الامام نحو صفوف النجومى البعيدة ، ولكنها بوغتت بخطر قريب قفز من وسط المربع . انطلقت الحيوانات الجريحة صائحة نائحة في كل الاتجاهات وتبعتها الجمال والبغال المذعورة ، بينما تواثب اتباع المربع من الحمالين والرعاة يجاهدون عبثا لشق طريقهم الى خارجه للنجاة بأنفسهم من السيوف التي هوت على ظهورهم وفي بضع ثوان انتقلت المعركة الالتحامية الى صفوف الاضلع ، فحولت بقية انظارها ونيرانها نحو الخطر القريب ، فعم الارتباك ولم تجد صيحات هكس ولا ضباطه فتيلا لاعادة تنظيم الصفوف أمام اندفاع الانصار الذين انتشروا بسرعة البرق بينها ، فوقفت بقيتها عاجزة عن فتح نيرانها على المهاجمين خشية اصابة زملائهم .

صرف الخطر القريب انتباه الضباط لدقائق قليلة عن الخطر البعيد – ود النجومى – الذى وقف متحفزا . وقد أحس بالارتباك والتخلخل يسود صفوف المربع ، وترامى الى اذانه دوى الرصاص من

٣٩- مخابرات اقوال البارودى ١٧٩/١١/٣/أ – ص٤٤.

داخل المربع ايذانا بالتحام راية الكمين ، فأدرك أن اللحظة المرتقبة قد حلت اخيرا . كبر النجومى بصوت عال وانطلق بجواده "وخلفه صفوف الفرسان الامامية التي انحدرت كالسيل الجارف ، وتدافعت بفاصل قصير ووراءها الصفوف الخلفية ، وهم يحاولون شق طريقهم بين الاشجار التي أجبرتهم على تفاديها فعوقت اندفاعهم للأمام ولكنهم سرعان ما تخلصوا منها وانطلقوا بسرعة مضاعفة للحاق بالصفوف الامامية "[٤٠] – وخلفهم جميعا تدافعت صفوف المشاة بأقصي سرعة حملتهم بها الاقدام [٤١] .

ضاق الفاصل بين صفوف ود النجومى والمربع الامامى واوشكت القوتان على الصدام – صفوف الجنود حة . وهنا فقط تنبهت أطقم المدافع الامامية الى الخطر الرئيسي ، بعد أن جذب انتباهها الى الخلف لبرهة من الزمن ، فأطلقت عدة دانات أصابت عددا قليلا . اهتزت الأرض عقب الأنفجار وعلا الغبار فحجب قلب الموجة الأولى من الفرسان .وعندما انقشع الدخان والغبار ، كان هؤلاء قد أطبوا على المربع وأطاحوا بالصفوف الامامية ، واشتبكت صفوفهم الخلفية في التحام مباشر بالسلاح الابيض مع أضلع المربع المضطربة وهى عاجزة عن التدخل ،وسرعان ما تهاوت صفوفها تحت ضربات السيوف المتلاحقة ، وحسم الاشتباك بسرعة عندما انضمت موجات المشاة التي تدفقت عبر ثغرةالفرسان وأجهزت على البقية الباقية من تشكيل المربع ، وقضت على مظهر المقاومة الهينة التي أبدتها الصفوف المضطربة وعلى الرغم من قصر المدة التي استغرقتها معركة المربع الاول ، الا انها اتسمت بالعنف والضراوة وبلغت ذروتها في الدقائق الاولى . فمن رواية القلة ممن اشترك في القتال وتحدث فيما بعد ، يمكننا ان نستخلص أن رجال النجومى تمكنوا من الالتحام القريب بالأسنة منذ اللحظات الاولى ، وأن القتال تطور بسرعة الى أن اصبح اشتباك يد بيد .

وقد لوحظ ان القتال كان التحاما بالسلاح الابيض دون نيران البنادق ، ففقدت مربعات هكس ميزة تفوقها النارى منذ اللحظات الاولى ، وترتب على ذلك ان نسبة القتلى والجرحى من جانب النجومى كانت ضئيلة للغاية . بينهم الامير عبد الحليم مساعد الذى أصيب بجرح في يده [٤٤] .

أدرك الجنرال بعد تراجعه الى وسط المربع ، ان المربع الامامى قد فقد قدرته القتالية كوحدة متماسكة بعد أن تعرض لهجوم مفاجئ من باطن الارض ،وفضل ان ينفض يديه منه لانقاذ ما يمكن

٤٠– اقوال الجلة

S NR Vill P 121

٤١– نفس المصدر ص ١٢٢

٤٢– اقوال كاتب الامير عبد الحليم مساعد ص ٩.

٤٣– اقوال كاتب الامير عبد الحليم مساعد ص ١٠.

انقاذه من المربعين الآخرين . وقد قدر ان نيران المربعين تكفي لايقاف الهجوم الامامى ، الذى ظن أنه يمثل كل قوة المهدى ، فقد كانت المحاور الجانبية – الرايتان الزرقاء والخضراء – مستترة خلف الاشجار ، فاتجه راكضا بجواده نحو المربع الثاني .

ولكن معركة المربع الثاني كانت فتيلا على وشك الاشتعال . فالدقائق القليلة التي استغرقتها معركة المربع الاول ، أتاحت للمربع الثاني مهلة من الزمن لكى يستعد لمجابهة الهجوم الامامى . فدفع بالمدافع والرشاشات الى للامام ، وترجل فرسان الباشبوزق من جيادهم وأقاموا جدار ساترا أمام المربع الثاني (٤٥)

.

راقب قائد المربع الايمن سير المعركة المحتدمة امامه وحين اشتم بوادر انهيار المربع الاول ، اتخذ قراراً جريئا . فقد علم أن الانصار لابد واصلوه ان هم قضوا عليه فصمم على ايقاف الهجوم بأى ثمن ، وكان ثمنا باهظا (٤٦) فقد أمر أطقم المدفعية بتوجيه نيرانهم الى المربع الأول على العدو والصديق . كان أثر نيرانه على المربع ماحقا . ولكن على الصديق دون العدو . فقد كان انتشار فرسان ود النجومى ومشاته وتغلغلهم وسط صفوف الحملة سريعا حتي استحال توجيه النيران نحوهم . كان موقفا كريها وجد جنودالآلاى الثاني أنفسهم فيه وهم يحصدون زملاءهم حصدا ، ولكنهم سرعان ما أجبروا على تركه جانبا فقد تحولت أنظارهم ونيرانهم الى جهة الشرق بعيدا عن هدفهم المزدوج فقد بدأ هجوم الراية الزرقاء بقيادة الامير يعقوب من جهة اليمين .

فمنذ اقتحام الراية الحمراء واشتباكها مع المربع الامامى ، تأهب الامير يعقوب لخوض المعركة . حدد الامير هدفه ، المربع الايمن ، اقرب المربعات اليه . كانت كل الظروف مهيأة لهجوم ناجح وتحقيق مفاجأة تكتيكية سريعة ، فظهور صفوفه المندسة بين الاشجار كانت مباغتة تامة للمربع ، فقد كان اختفاؤها محكما ، وانحدار الارض الهين يمكن فرسانه من انقضاض سريع ، وانشغال المربع بالمعركة المحتدمة أمامه يتيح لهم عبور الدقائق الحرجة بين ظهورهم وأطباقهم على صفوفه في أمان نسبي

كبر الامير يعقوب واغمد سيفه وأشرع حربته الطويلة ودعا بالدعاء الذى أوصاهم به المهدى ثم أطلق العنان لجواده ، ومن خلفه انطلقت جموع فرسان الراية الزرقاء الكثيفة – أكبر رايات المهدية وأكثرها عددا وقوتها الضاربة الرئيسية .

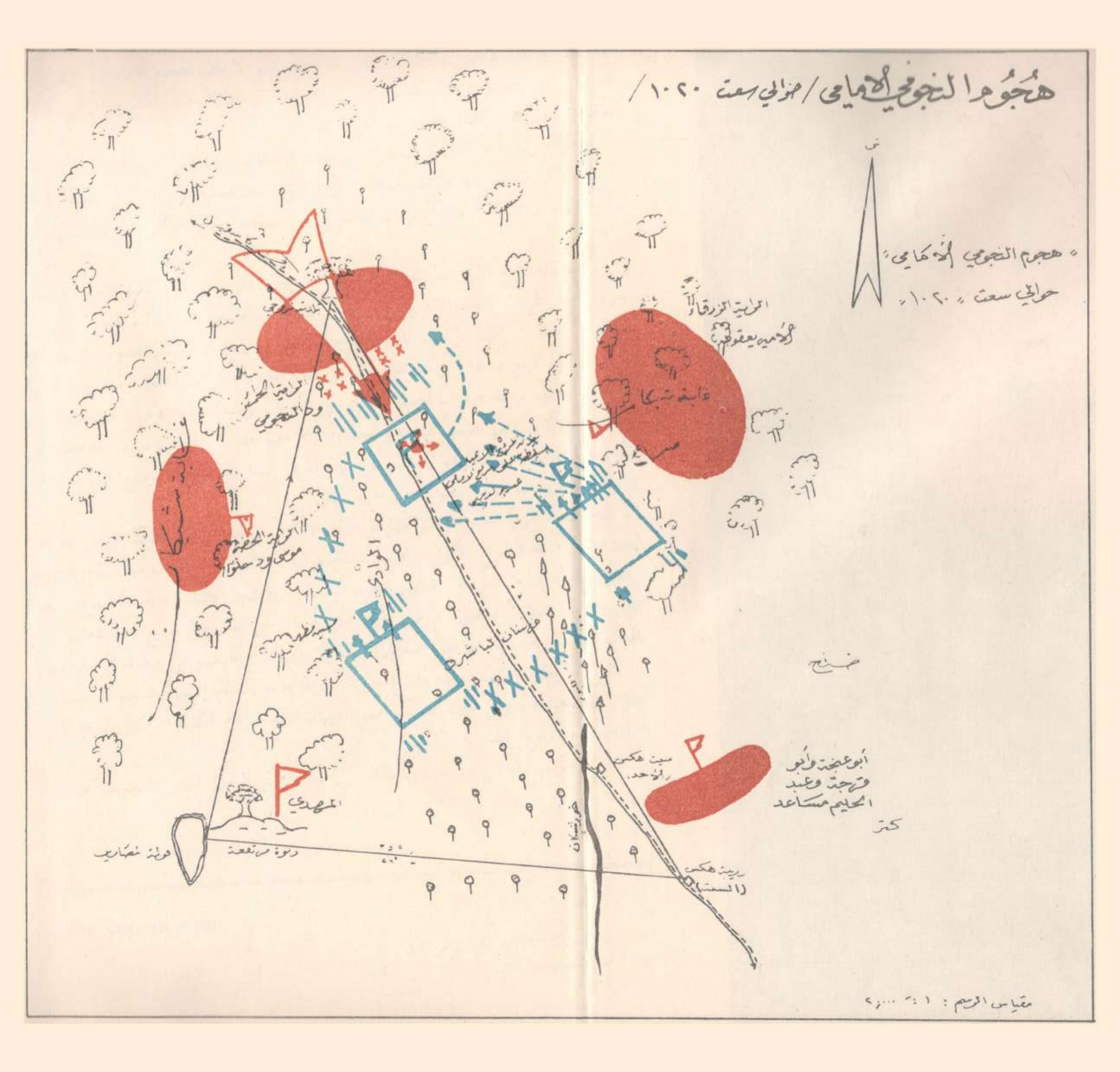
فاضت جوانب الوادى بالرايات والرجال (٤٧) وغمر سيل الرجال الهادر الشجيرات فاختفت

SNR VOL XX P 140

٤٥–

٤٦– مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ البارودى ص ٤٤.

٤٧– نفس المصدر ص ٤٥.


هجوم التجوعي الامامي / حوالي سعت ١٠٢٠ /
هجوم التجوعي الأمامي
حوالي سعت ١٠٢٠
غابة شبكا
الزاوية الزرقاء
الوادي
المهدي
أبو عنجة وأبو قرجة وعبد الحليم مساعد
خور شمبات
مقياس الرسم

تحت أقدامها . وبمواجهتها العريضة ،كادت الراية الزرقاء أن تحتوى كل مربعات الحملة ، الا أن قلبها والجزء الاعظم منها وجه هجومه نحو المربع الثاني .

ودون انتظار لتعليمات ضباطهم هذه المرة ، حولت صفوف المربع الايمن نيرانها نحو الخطر الجديد الذى دهمهم من جهة الشرق . والذى كانت قوته تتعاظم بين فينة وأخرى كلما أفرغت أشجار الغابة صفا جديدا من صفوف الراية الزرقاء . وجه علاء الدين أطقم رشاشات (المترااليور) بفتح نيرانها على صفوف الراية الزرقاء ،فاستدارت نيرانها الكثيفة نحو جموع الفرسان التي انطلقت بأقصي سرعتها . تساقط عدد منهم ما بين قتيل وجريح ،ولكن بعضهم استجمع قواه في قفزة أخيرة أوصلتهم لصفوف فرسان هكس . وقد وصف على الجلة ، في شهادته في معركة شيكان ، كثافة نيران الرشاشات التي انصبت عليهم في تلك اللحظات .

فقال : (عاقت الاشجار الكثيفة اندفاع جيادنا ، ولكنها عاقت تحركات المربع ايضا. وعندما اندفعنا للهجوم بخيولنا انطلقت في وجوهنا طلقات الرشاشات التي لم أرها من قبل . قتل جوادى تحتي وجرحت في خمس مواضع من جسدى ولكني عشت بحمد الله . قتل كثير من رجالنا وخيولنا وجرحوا أثناء الاقتحام وتساقطوا على الارض ، ولكنهم استجمعوا قواهم وواصلوا الاقتحام على أقدامهم ، وخلفنا تقدم المشاة واخترقنا جانب المربع وانتقل القتال الى وسطه حيث الجمال والدواب) (٤٨)

ولكن الزمن الوجيز الذى أتيح لنيران الرشاشات لصب نقمتها لم يمكنها من صد اندفاع الفرسان فقد عبروا مسافة تعرضهم القصيرة بسرعة فائقة ولم تلبث الرشاشات نفسها أن اختفت تحت أرجل جيادها وأسكتت نيرانها فأزاحوا صفوف الفرسان جانبا وأطبقوا أخيرا على صفوف المشاة والتحموا بهم . دام الالتحام بضلع المربع الايسر دقائق قليلة استماتت فيها الجانبان ، ثم سرعان ما انجلى الموقف ورجحت كفة الانصار بانضمام المشاة المتاخرين ودخولهم للمعركة ، فانهار الضلع الايسر وتفككت بقية الاضلاع ودارت المعركة بين ثلل متفرقة ثم انتقلت الى وسطه بين الدواب (٤٩) .

وفي دقائق قليلة بلغ التحام المربع الثاني قمة عنفه . فقد تميزت معركة الراية الزرقاء بأنها كانت أشرس الاشتباكات الثلاثة ،واستغرق فيها الجانبان بكل جوانحهم حتي شهد قائد الهجوم نفسه بأنه ظل سنين عديدة اذا استعاد ذكرياته عن معركة شيكان ، لا يذكر أنه كان يسمع شيئا أو أنه قتل او جرح جنديا من جنود هكس ، الا عند انتهاء المعركة ، حين وجد حربته وملابسه ملطخة بالدماء . فقد مرت تلك اللحظات العنيفة وكأنما احتكرت الايدى القابضة على السيوف كل الاحاسيس ، فلم

٤٨- اقوال على الجلة ١١٠٠

٤٩- مخابرات - أقوال محمد يعقوب من فرسان الباشوزق ١٧٩/١١/٣/أ ص٢.

تترك لبقية الحواس شيئا لتسجله في العقول والذاكرة [٥٠] .

وبدخول الراية الزرقاء للمعركة بأعدادها الكثيفة ، انتشر الانصار في جنبات الوادى الذى كان حكرا لمربعات هكس وحدها . وما زالت مؤخرة الراية من الصفوف الخلفية تجاهد عبثا وسط الزحام للوصول الى الصفوف . ويقفز جنودها هابطين من الاشجار مهرولين للحاق بالمعركة . بل لم يتمكن كثير منهم من الوصول لاعدائهم حتي نهاية المعركة ، وبذلك تحققت نبوءة المهدى حينما وعد جنوده بمعركة سريعة خاطفة تحسم في دقائق معدودة [٥١] .

أما صفوف المربع المستوية ، فقد تفتتت وتناثر جنودها واشتبكوا في قتال انفرادى ضارى ، كان من أبرز سماته تهافت الانصار على الموت وطلب الشهادة . وقد روت أوراق على المهدى انطباعات أحد المقاتلين عن تلك اللحظات فجاء فيها :– [٥٢]

(واناكان معى خمسة أنفار من الانصار وكنا نقاتل جميعا وسط الحملة . فقصدت أحد الضباط وطعنته بالحربة وكانت متينة فلم تدخل فيه فضربني بسيفه في يدى ليرمى مني الحربة فسليت السكين وطعنته بها فأرديته قتيلا ، ووقعت فوقه فاجتمع على خمسة من العساكر فضربوني بماسورة البندقية فوق رأسي حتي أغمى على ولم اع شئ . فأيقنوا أني ميت وتركوني وبعد مدة جاء الانصار بعد انجلاء الواقعة فحملوني على ظهر جواد ، فصحيت في الطريق بصحة تامة ولم أشعر بأى تعب ولا بمقدار قرصة النملة والحمد لله على ذلك) .

وفي نفس اللحظة التي انحدرت فيها الراية الزرقاء من يمين الوادى ، بدت طلائع الراية الخضراء وفرسانها من جانبه الايسر .وفي الدقائق القليلة التي فصلت بين المحورين ، وقبل انقضاض الراية الخضراء على المربع الثالث في اليسار ، تكررت نفس الاحداث المريعة التي شهدتها معركة الراية الزرقاء . فقد أمر قائد المربع جنوده بتوجيه نيرانهم نحو المربع الثاني – تماما كما فعل الاخير قبل أن يتعرض هو نفسه لهجوم الراية الزرقاء . ومن ذلك المدى القريب الذى لا يتجاوز الثلاثمائة ياردة ، كان لنيران البنادق أثر فتاك – الا أنها كانت أضعف من أن توقف اندفاع الراية الزرقاء ، فتحمل كلا الجانبين وطأتها الى أن أسكتتها طلائع الراية الخضراء التي بدت نذر اقتحامها المرتقب من بين جذوع الاشجار [٥٣]

٥٠– اقوال سام الزبير – شريط مسجل – نيالا يونيو٧٣.

٥١– الكردفاني ص ٢٣٠.

٥٢– اوراق على المهدى ص ٢٩، ٣٠. أقوال محمد مولى الرباطابي.

٥٣– البارودى مخابرات ١٧٩/١١/٣/أ ص٤٥.

وقد اتضح لهكس وهو يقفز بجواده بين المربعات ، مؤملا في العثور على مظهر مقاومة جادة في اى منها لتلتف حولها بقية الفلول ، ان مصير المربع الثالث . أمله الاخير . لن يكون بأحسن من سابقيه . بل كان اسوأ حظا ، فقد حطمت أضلاعه ونهشت احشاؤه وانهارت مقاومته في وقت وجيز للغاية ، اذ تعرض المربع الثالث لهجوم من أكثر من محور واحد . فقد برزت مقدمة فرسان الراية الخضراء من الغابة واتجهت نحو هدفها القريب بقيادة الامير موسي ود حلو وحوله تواثب كبار امراء دغيم وكنانة ، وقبل أن يرفع المربع نيرانه المسلطة على المربع الثاني ليسوى صفوفه لمواجهة الخطر الجديد برز تهديد اخر من اتجاه مخالف [٥٤]

في تلك الاثناء تمكن ود النجومى من القضاء نهائيا على المربع الامامى ،حتي بقاياه التي تمثلت في شراذم من الجنود وقفوا وقفتهم الاخيرة يقاتلون بحراب البنادق . سرعان ما طرحت مقاومتهم جانبا ،وأخذ ود النجومى في تنظيف ساحة المربع تدريجيا موجها راياته الصغرى نحو تجمعات الجنود والفرسان . وبعدها التفت الى ساحة المعركة ومسحها بنظرة سريعة ليحدد أين يوجه جنوده بعد انتهاء المرحلة الاولى . حدد هدفه الجديد . وكان المربع الثالث .

وعندما التحم فرسانه بضلع المربع الامامى ، كانت حربة موسي ود حلو قد وجدت مقتلا في الضلع الايسر [٥٥] مؤذنة بافتتاح معركة دموية ثالثة بدخول فرسان الراية الخضراء ومشاتها . وبذلك وضع المربع الثالث بين قطبي الرحى ، أطبقتا عليه ، وسحقت جانبيه ، فكان انهيار الصفوف سريعا . في دقائق برز المشهد المعهود : تحطم الصفوف فاختراق الانصار للمربع واندفاع جزء منهم نحو وسطه . لتجد الصفوف نفسها محصورة بين نارين ، عدو يهاجم في الصفوف الامامية . وعدو ينهش الظهور من الخلف ، من داخل المربع [٥٦]

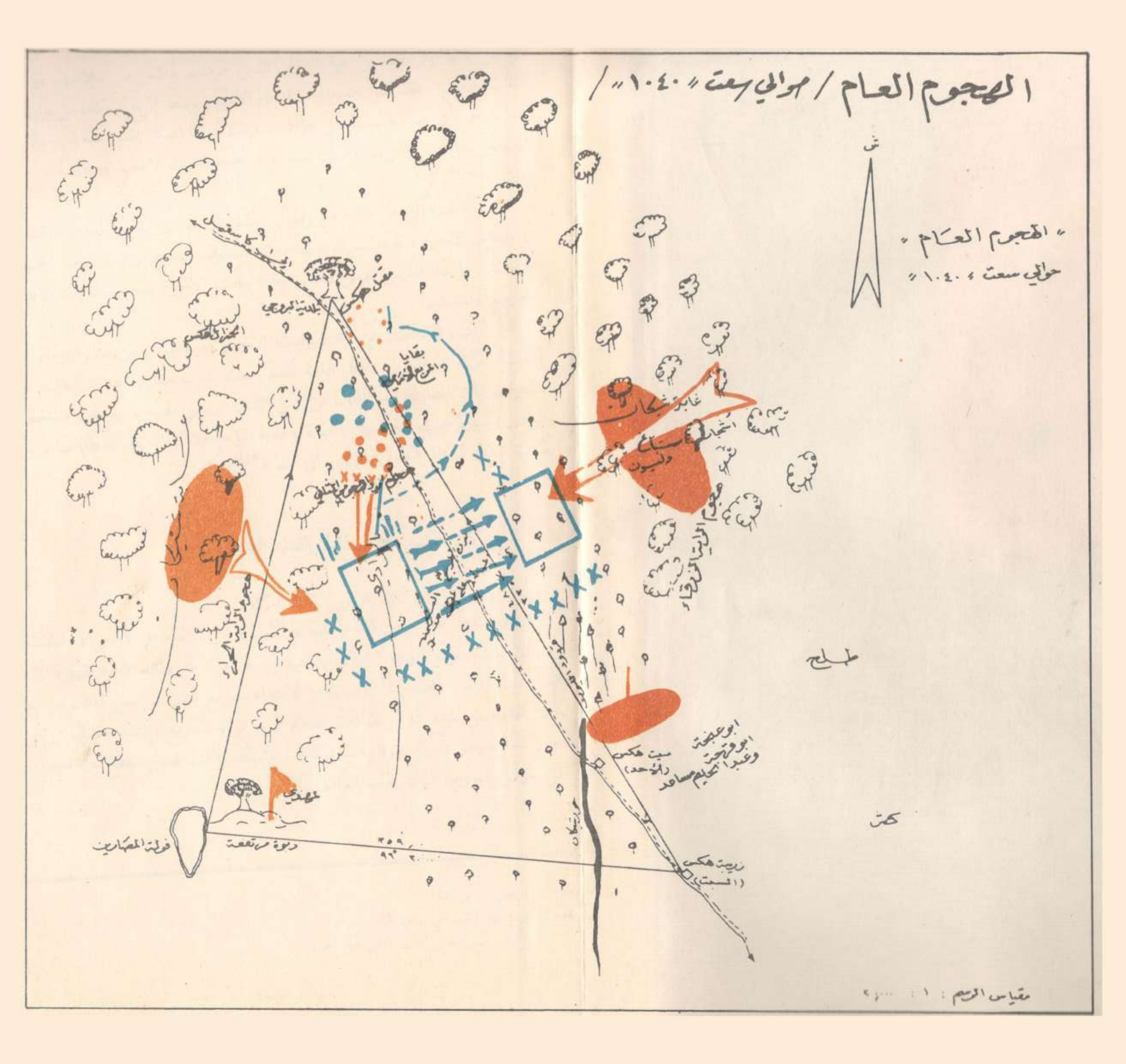
وبين صفوف ود النجومى ، كانت هناك جماعة صغيرة من الفرسان تتقدم في الصفوف الامامية دائما ، سواء في اقتحام المربع الاول أو الثالث . ولكنها لم تكن تعني بالقتال . بل كان شغلها الشاغل تفحص وجوه جنود هكس وجرحاهم وقتلاهم بحثا عن رجل واحد ،هدفهم الاول هو انقاذ ه واخراجه حيا منْ معمعة القتال الدائر .كانوا أولئك من اتباع بانقا موسي أرسلهم من معسكر المهدى لاخراج ابنه عبد الرحمن المعتقل . عثروا أخيرا على ضالتهم المنشودة في المربع الثالث ، الذى كان معقلا احتفظ فيه هكس بالتجار المدنيين ممن شك في ولائهم . وجدوا بغيتهم موثقا [٥٧] فاختطفوه

٥٤- حلو ص ٨٤.

٥٥- انظر خريطة رقم (١٠) «الهجوم العام».

٥٦- ابراهيم فوزى ص ١٥١.

٥٧- بارودى - ص ٤٨.



الهجوم العام / حوالي سعت "١٠٤٠" /
ش
"الهجوم العام"
حوالي سعت "١٠٤٠"
بقايا
ساحل
كت
قولة المصاريف
ربوة مرتفعة
مهدي
بيت هكس
(الأحد)
ابو عجة
ابو فرحة
وعبد الحليم مساعد
غابة شجان
مقياس الرسم : ١ :

اختطافا من بين انياب الموت وحلوا وثاقه وسلحوه بحربة طويلة وخرجوا به بعيدا عن المعركة . كان عبد الرحمن بانقا أوفر حظا من بقية المدنيين الذين جردهم هكس من سلاحهم ووضعوا وسط المربع الثالث لحمايتهم ، فقد قتلوا جميعا بعد اقتحام الانصار لوسط المربع . وكان من بينهم قناوى بك الذى أصابته حربة في صدره فسقط من جواده ، وكان جوادا أصيلا اشتهر بحبه له ، ولما أحس انه يوشك أن يغمى عليه من النزيف ، استل سيفه وبتر أقدام الجواد الامامية وهتف (لن يعتلى ظهرك أحد بعدى) [٥٨] .

وبعد انقضاء أقل من ساعة من وصول هكس الى الوادى وتكبير المهدى ، كانت معركة شيكان في لحظاتها الاخيرة ، وتحولت المربعات ذات الصفوف الصلبة الى شراذم من الجنود تفرقوا في كل الجهات ، ما عدا قلة من حرس هكس وقفوا وقفتهم الاخيرة يصدون هجمات الانصار حتي نفذت ذخيرتهم واستسلموا .

اما الوادى فقد امتلأ عن آخره برايات الانصار وفرسانهم الذين صالوا وجالوا في أطرافه . ثم انتقلت المعركة تدريجيا الى داخل الغابة نفسها حيث بدأت مطاردة بقايا المربعات التي لاذت بها . استغرقت تلك المطاردة زمنا أطول من زمن القتال الرئيسي نفسه . وشملت مساحة كبيرة من يمين الوادى ويساره حيث لجأت بقايا الحملة ، ظانة انها ستجد الامان بعد اصطدامها براية أبو قرجة التي سدت منفذ النجاة الجنوبي المؤدى الى علوبة [٥٩]

أين كان هكس خلال ذلك القتال العنيف ؟

يروى البارودى عن تحركات هكس أثناء المعركة :

(عندما تقهقر هكس من المقدمة للمربع الاول . أدرك ان المربع الامامى قد تفشت فيه الفوضي وعم الارتباك صفوفه ، وأدرك أنه لن يستطيع ادارة المعركة من داخله فعاود تقهقره الى الخلف لجهة اليسار هذه المرة . ويحتمل أنه كان ينوى الانضمام للمربع الثاني ليواصل القتال من بين صفوفه ، ولكن اقترابه من المربع الايمن صادف اقتحام الراية الزرقاء للمربع وانتشار مقاتليها في كل الجهات ، فحول اتجاهه وشق طريقه عنوة وحوله أركانه ، مشتبكا في قتال قصير متقطع بين أشجار الغابة الى ان حل بأرض مزروعة شمال غرب الوادى .

٥٨- بارودى - ص ٤٨.

٥٩- جرح عبد الحليم - مساعد اثناء ذلك
أقوال حسن حبش كاتب الامير عبد الحليم

ولكن انسحابه من أرض المعركة لم يخف عن أعين الانصار ، فتبعه بعضهم الى أن لحقوا به . فأبادوا معظم حراسه ثم أحاطوا به مكونين حوله دائرة حصرته وسطها وشرعوا في مناوشته بالحراب (٦٠)

وقف الجنرال وسطهم يقاتل بشجاعة وظل يطلق عليهم النار من غدارته حتي نفذت ذخيرته فقذف بحربة أصابت ظهره فسقط صريعا .)

٦٠- تضاربت الاقوال في وصف تفاصيل مصرع هكس وتحديد قاتله الا انها اجتمعت على انه غادر ارض المعركة ووقف وقفته الاخيرة تحت ظل تبلدية تبعد مسافة قليلة من المربع الثاني كما توضح رواية حسن البارودى المذكورة اعلاه .

ويتفق مصدران على ان هكس حاول الاستسلام او حاول الهروب - اسماعيل عبد القادر «فهجم الجميع وفتكوا بالجنود واخذ هكس يصرخ بأعلى صوته خذوني اسيراً ، فابتدره فارس بطعنة . وهكذا كان هلاك حملة هكس» .

ولكن الرواية السماعية المحلية الشائعة حتي الان هي ان هكس شخصيا قاتل منفردا بشجاعة ومن بينها اقوال على الجلة :-

«اما عن مقتل هكس فانا لا اعلم التفاصيل بالضبط فلم اكن في نفس البقعة التي تعرض فيها ولكن عندما عدنا في المساء لارض المعركة اشاروا الى جسد ملقى تحت اشجار التبلدى وقالوا هذا هو هكس .كان هكس حقيقة رجلاً شجاعاً بل اشجع الشجعان ممن عرفت . ولكن الذى قضي عليه كان عدم كفاءة ادلائه »

اما اقوال الملك الطاهر طويات الدود الذى شهد تفاصيل مقتله - فتدور في نفس المعنى «قتل هكس وهو يقاتل بشجاعة تحت التبلدى ، وقد شاهدت قتاله بنفسي » .

أما اوراق على المهدى فتشير الى ان هكس لم يقف وقفته الاخيرة وحيدا « فقد وجد هكس باشا وسط شرذمة من الانجليز محيطة به في شكل كردون ومربوط كل منهم مع من يليه بشكل حرصا عليهم من الهروب والتفرق فقتلوا جميعا كتلة واحدة » .

وكتب الاب اوهرولدر رواية تقترب في تفاصيلهامن رواية البارودى :- « تؤكد رواية الدراويش الذين اشتركوا في المعركة ان هكس كان آخر من سقطوا من جنود الحملة ولقد افرغ غدارته فقذف بها للارض وامسك سيفه بيده اليمنى ثم وقف منتظرا هجوم الاعداء عليه احاطوا به وجرحوا جواده فترجل وقاتل بشجاعة حتي أصابته عدة طعنات من حرابهم سقط صريعا .

اما عن قاتل هكس فهناك ثلاث روايات ، رواية حسن البارودى . ورواية محمد ادم حلو ورواية محمد سلمان الذى ضمنها كتابة « صورة من البطولة » فالاولى تذكر ان هكس قتل بحربة قذفها نحوه الخليفة محمد شريف والاخيرة تذكر « حضر الشيخ احمد البدوى ولد عبدالصادق فوق فرس حمراء رأوه الأنصار الذين طاردوا هكس قتل هكس وشال سلبه جزمة وبرنيطة وحزام وهو مقيم بالسوكى بقرب القلع عراج .» اما رواية محمد سلمان فتذكر ان قاتله صبي صغير من أهالى القطينة يدعى عبدالله ود سلمان ارسله اهل القطينة في الاصل لابو قرجة لنجدتهم عند تقدم هكس ، ولكنه استمرأ الجهاد ومكث مع جيش المهدى واشترك في المعركة بهدف واحد وهو قتل الجنرال هكس .

محمد آدم حلو ص٨٥.
جهاد في سبيل الله ص ٥٣ - ٥٤ .
الكردفاني ص ٢٣٥ - الاب اهرولدر ص ٨٧ .
اقوال الملك الطاهر طويان الدود
اسماعيل سرهنك - حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ثان - ص ٤٧٦
١٧٩/١١/٣/أ ص ٤٧-٥٠
محمد سليمان - صور من البطولة ص ٥٣

تضاربت المصادر في وصف مصرع هكس وكيفية مقتله ومن الذى قتله [٦١] ومهما يكن فقد اجتمعت الاراء على أن هكس قتل وتعرف على جثته وفصل رأسه عن جسده وحمل الى المهدى في ضحى الاثنين. وبذلك هوى رمز القيادة ، وبسقوط علمها في يد الانصار ، وضع الختام النهائي رسميا لحملة هكس وطويت أحداثها في ثنايا التاريخ [٦٢] .

أما علاء الدين فقد روت أوراق على المهدى لحظاته الاخيرة : [٦٣]

(ولى علاء الدين هاربا فلحقه عبد الرحمن صغير فقتله . وقد اشترك معه في قتله بخيت ابن أخت عبد الرحمن النجومى . وذلك أنهما تشوقا لحصانه ، وقد كان من كرائم الجياد ، فتسابقا في مطاردته فأدركه بخيت فطعنه فلم يصب منه مقتلا فالتفت وأطلق عليهما عيارا من بندقيته (أم روحين) فأخطأهما فطعنه عبد الرحمن صغير في أسفل بطنه ، فمد يده لطبنجيته ولكن عبد الرحمن صغير لم يمهله وضربه بسيفه فقطع يده فخر على الارض صريعا فتسابقا لحصانه . وكان بخيت جسيما وعبد الرحمن ضعيفا ، فسبق عبد الرحمن وقفز على حصان علاء الدين وطرده الى المكان الذى يقف فيه المهدى فبشره بهلاك علاء الدين فقال له المهدى (سبحان الله يا عبد الرحمن ، انت الصغير الجسم قتلت علاء الدين باشا الضخم الجسم) ثم تلا قوله تعالى فلم تقتلوهم لكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ثم قال (يا عبد الرحمن ان الذين نالوا الشهادة قد فازوا فوزا عظيما) .

وبعد مضي ساعة من الزمن من مواجهة الجيشين كانت رايات المهدى تضع اللمسات الاخيرة في تنفيذ مخططه العبقرى ، وقد اشتدت في مطاردة بقايا الحملة التي انتشرت شرق الوادى وغربه واستغرق تعقبهم بقية النهار وصباح اليوم التالى .

وفي مسرح الموقعة الرئيسي عكف مشاة الرايات الثلاثة على تنظيف بقية الوادى من فلول الحملة المبعثرة . وشيئا فشيئا تخافتت الانفجارات المتقطعة الى أن سكتت نهائيا ، معلنة عن الانهيار الفعلى لآخر مظاهر المقاومة الجادة لاربعة عشر ألف جندى .

بعدها علت منداة صغار الامراء والمقدمين وهم يجاهدون لتجميع مقاتليهم ، الذين حملتهم موجات الهجوم لأطراف الوادى البعيدة . لتأدية صلاة الظهر ولتفقد المفقودين والجرحى .

وعندما تجمعت رايات الانصار أخيرا وانحسرت صفوفهم عن الوادى تركت وراءها مشهدا مخيفا ، اذ كان حصاد المهدى الدموى ألوفا من جثث الجنود بملابسهم الرسمية ممن كانت أطراف الوادى تمتلئ بصخبهم وحركتهم وتهتز الارض تحت وقع أقدامهم المنتظم ، فأصبحوا بين ساعة وأخرى أما جثثا هامدة سكنت حركتها الى الابد ، وأما جرحى في النزع الاخير يغالبون الموت من جروح الحراب التي برزت أعوادها ، طويلها وقصيرها ، فوق الجثث مشيرة الى مطاعن سنانها الحادة المنغرسة في نهر من الدماء . وفي بعض أنحاء الوادى التي شهدت قتالا أشد ، تكدست جثث الجنود

٦١- تعرف على جثته حسن البارودى وجوستاف كلوتز.

٦٢- Slatin P 240

٦٣- اوراق على المهدى – جهاد في سبيل الله ص ٥٤.

كالتلال [٦٤] الصغيرة منبئة عن ضراوة المعركة وسرعة الالتحام وعن اثر رشاشات المربعات بعضها في بعض . وبلغ من ارتفاعها انها سترت قلة من الاحياء المدفونين تحتها [٦٥] الى أن سكنت فورة الالتحام وبردت الدماء الساخنة التي صعدت للرؤس أثناء القتال . فخرجوا مستسلمين في نهاية ذلك اليوم واليوم التالى ، على حد تعبير من عاصروا المعركة (ولثلاثة ايام كن الحى يخرج من الميت) [٦٦]

وهنا وهناك بين الاف الجثث التي طغى عليها لون الملابس الكاكية تناثرت قلة قليلة من قتلى الانصار بملابسهم البيضاء كادت ان تختفي بين أكوام الجرحى والقتلى من جنود هكس [٦٧] وقد قدر قتلى الانصار بمائتين [٦٨] كان من مشاهيرهم أبو أمية الطاهر وضؤ الدين عبد الله . وهو من قدامى المقاتلين وأحمد وعبد الرحمن التني ومحمد وعبد الرحمن النصرى أبطال عملية البركة وعبد الرحيم أحد المادحين للمهدى . ودفع الله الضو الشويحى وغيرهم نقلوا الى رئاسة المهدى فصفت جثثهم وتقدم المهدى من التبلدية وخلفه الخلفاء وصلى عليهم ودفنوا بأمر المهدى بما عليهم من الملابس كاملة [٦٩]

كانت الاحداث التي جرت في صباح الاثنين وضحاه ، والتكتيكات التي استخدمت فيها تمثل معركة أخرى من تلك المعارك الرومانسية التي نشاهدها الآن بأكملها مجسمة في اللوحات الشهيرة لرسامى القرن التاسع عشر ، حيث تستطيع العين المجردة تطويق كل مسرح القتال . ويستطيع كلا القائدين رؤية الآخر ، فيتراشقان بالنظرات والنيران في مساحة لا تتجاوز ميلين مربعين أو ثلاثة ، ثم يحسم الامر في يوم أو بعض يوم .

وقد اشرنا في بداية هذه الصفحات الى غياب المصادر المفصلة الموثوقة ، وثائقية كانت أم سماعية ، التي تحدثنا عما جرى في لحظات المعركة نفسها ، سواء كان من تصرفات القائدين ، أو تصادم الخطط وردود الفعل المضادة ، ما عدا القلة التي ذكرت آنفا . ولكننا حتى لو عثرنا عليها ،

٦٤- لقد ظلت اكوام عظام الموتى تملأ السهل الى عهد قريب واشتهرت تلك البقعة التي جرى فيها اشد القتال عنفا «بالمعضمة» لكثرة العظام بها . وقد أقام مجلس تنفيذى كردفان قوس نصر في تلك البقعة .
دليل معركة شيكان.

كتب على المهدى :-
«وقد حدث ما تنبأ به المهدى اذ ان جيش هكس هلك في زمن وجيز جدا . فقد ضبط محمد ود عريق الزمن حتي نهاية المعركة فبلغ ثلاثا وستين دقيقة وذلك منذ ان ترأى الجيشان وبدأ جيش المهدى في الزحف عليهم . اما بعد التحام الجيشين واستعمال السلاح الابيض فلم تدم المعركة اكثر من خمس عشرة دقيقة ....»

٦٥- الاحياء من جيش هكس قدروا بثلمائة ، كان منهم اثنان من الضباط برتبة ملازم ثان هما محمد احمد عزمى محمد عبد الرحيم ص ١٤٨ .

٦٦- حلو ص ٨٦.

٦٧- الكردفاني ص ٢٣٥.

٦٨- محمد عبد الرحيم ص ١٤٨.

٦٩- اقيم ضريح الان حول مدفنهم بالقرب من فولة المصارين.

فلن نقف على مثير جديد ، يزيح بعض الغموض عن الحالة التكتيكية الغريبة التي وجدنا أنفسنا أمامهم . فالمعتاد في تحليل المعارك أن نقيم تصرفات كلا الخصمين تكتيكيا . ولكن هنا في شيكان – كان هناك قائد واحد يفعل والآخر يستجيب . فالذى بدر عن هكس انما كان بكل بساطة مجرد ردود فعل سلبية ،وحتي في المبادرات التي اتخذتها مربعاته بقصف بعضها بعضا ، كان المهدى هو المستفيد من ورائها ، اذ تمشت مع سياق خطته وعجلت بنجاحها ، فأصبح مخططه يمضي للنهاية تقريبا بلا معارضة من جانب هكس .

وعندما نحاول تقييم تلك الساعات القليلة التي استغرقتها المعركة تقيما تكتيكيا بحتا ، غاضين الطرف عن عوامل الضعف التي ظلت تنخر في عظام الحملة مهيئة مصيرها المحتوم ، ان كانت من العوامل النفسية ، أو المخططات الاستراتيجية التي سادت في الاسابيع التي سبقت المعركة ووضعتها ذلك الموضع الذى وجدت نفسها فيه في ضحى الاثنين ، سرعان ما نستنتج ان السبب الفني الرئيسي في اندحار هكس وابادة جيشه انما يرجع الى عجزه عن استخدام مصادر نيرانه – وهى مصدر قوته الاكبر – ضد هجمات المهدى المتعددة . فلا هو استطاع ايقافها بنيرانه ولا استطاع تحميلها خسائر تذكر تليق بحجم جيشه وتسليحه .ويقف كشف الخسائر من الجانبين شاهدا : ٢٠٠ قتيل من الانصار مقابل ١٣٠٠٠ من جانب هكس . كان ذلك فيما يبدو هو السبب الرئيسي في تلك الهزيمة الشنيعة ، بحجمها لا بنتيجتها الختامية فقط . اذا ما الذى كبل أيادى هكس وحرمه من استخدام أكبر مصادر قوته وهى بنادقه ومدافعه ؟ .

وحين نحاول الرد على هذا السؤال ،تقفز الاجابة على الفور الى أذهان العسكريين . الارض . أرض المعركة ، أو مسرحها . ذلك العامل الحاسم الذى يفرض وجوده في ابجديات التكتيك ويظل عالقا بأذهان القادة مهما تفاوتت درجات مسؤولياتهم – من قائد الفصيلة صعودا الى قيادات مجموعات الجيوش . ولكنا في هذه الحالة سرعان ما نتجاوز مسرح المعركة في وادى شيكان بضع أميال الى جهة الغرب – الى تبلدية كبيرة لا زالت تقوم هناك حتي اليوم ، ثم الى المهدى نفسه ، فهو الذى اسبغ على بقعة الوادى وأشجاره ، عندما اختارها دون غيرها وكمن براياته حولها ، تلك المزايا والامكانيات التكتيكية ، مميزا اياها عن عشرات البقاع الشبيهة التناثر في طول كردفان وعرضها .

كتب الكثير عن (واد عميق تحيط به الاشجار من كل جانب) وان هكس (وجد نفسه مجبرا على اجتيازه) ، وظلت تلك هى النغمة السائدة عند تقييم معركة شيكان . ولقد كان ونجت مسؤولا عن ذلك ، ولعل له بعض العذر . الا أن نفس الاصرار على تلك المبالغة الجغرافية استمر حتي يومنا هذا . والغريب انه لا يتناول اشخاصا أو احداثا طواها التاريخ ، بل يتناول بقعة من الارض لا

SNR VOL XIII P. 140 —٧٠

زالت تقوم داعية كل راغب لزيارتها والتحقق منها ، وحتي لو سلمنا تجاوزا باحتمال التحول الطبوغرافي الذى شمل أرض المعركة ، وقلنا انه ربما دفن الوادى العميق ، فها هى أشجار التبلدى التي اشتهرت بها المعركة ، تبلدية البروجي والتبلدية التي وقف تحتها المهدى تقف مكذبة ، فلا ساقها دفنته الرياح الرملية ، ولا جذورها برزت من تحت الارض بأثر تعرية الرياح للتربة والاشجار الصغيرة ، وكانت تلك أول ملاحظة أبدها آجلن عند زيارته لارض المعركة قبل أربعين عاما . فحقيقة الامر اذا انما تكمن في براعة المهدى في استخدام الهبات الطبيعية الموجودة ، ذلك الاستخدام المثالى الذى عزز الانطباع بمزايا الموقع التكتيكية والطبوغرافية — فزاد الوادى عمقا ، والاشجار طولا وكثافة . فكلا الشقين من مكونات المعارك — الارض والجنود — يكمل احدهما الآخر ويضاعف الاستخدام الصحيح لاحدهما من مزايا الشق الآخر ويجسمها للاعين .

ويبدو أن الذى كان يبحث عنه المهدى — وعثر على بغيته منه في شيكان — ما هو الا حجاب من الطبيعة تختفي وراءه الحشود الكامنة ، أو ثلاثة أسوار تستر راياته الكثيفة ، تكون قريبة من عدوه حتي تمكنه من الانقضاض عليه عبر أقصر مسافة ممكنة ، فتجنبه الاصطلاء بنيران هكس ومدفعيته لدقائق طويلة . وهنا ترجح أهمية الغابة وأشجارها على الوادى العميق المنحدر ، ان كان له وجود . فأهمية الاخير انما كانت ستبرز لو كان تسليح الانصار الرئيسي من الاسلحة النارية ، لتنصب نيرانهم من عل على أعدائهم المحصورين .

وادراك المهدى لاهمية تقصير الزمن الذى تتعرض راياته خلاله لنيران المربع ، يقودنا هو الآخر لظاهرة جديدة برزت في معركة شيكان . فقد كان على المهدى أن يوازن بين عاملين في اختياره لمسرح القتال التكتيكى   أرض مفتوحة تستوعب حشوده وتتيح له التمدد والانطلاق ثم الاصطدام مع العدو وحسم المعركة في زمن وجيز . وتكفل له من الناحية الاخرى ساترا معقولا قريبا يمكن راياته من الاحتشاد والتجمع والاقتحام المستور — أى كل مواصفات أرض الكمين . وقد قادته تلك الموازنة الى الحل الامثل . الفرسان .

وللمرة الثانية خلال ذلك الاسبوع يقدم المهدى درسا جديدا في تكتيك الخيالة . فقد لوحظ أن الصفوف الامامية في هجمات الرايات الثلاث كانت مشكلة من الفرسان . وبذا نحى جانبا التصورات التقليدية لواجبات الفرسان ، التي انحصرت في استخدامهم للاستكشاف والمطاردة؛فقد استخدموا هنا كعنصر أساسي في الهجوم وفي صلبه ، كما استخدموا ليلة السبت كأداة ترحيل ادارية عندما نقلوا جهادية حمدان من البركة الى فولة المصارين . وتلك السمة — تقديم الفرسان ـتمخضت عن تكتيك جديد أبرزته معركة شيكان . وهو التركيز أولا على اختراق الصفوف والمربعات قبل الالتحام أو الاحتواء والتطويق **Envelopment** وان كان ذلك النمط قد شوهد لاول مرة في اقتحام أبو عنجة صباح الاحد ، فان تطبيقها على مستوى أكبر انما اثبت نجاحه في الهجوم الشامل صبيحة الاثنين ، وأصبح من تكتيكات المهدية الشهيرة التي طار صيتها الى ارجاء المعمورة وجعلت (كبلنج) يتغني بدهاء وشجاعة جنودها .فقد استخدم في أبو طليح وفي طماى والتب .

كان الهدف الأول للهجمات الثلاث المتعاقبة هو اختراق صفوف هكس ثم الوصول بسرعة الى قلب المربعات الهش ونهشه واثارة الاضطراب والفوضي . ولم يكن تطويق المشاة ثم الاشتباك التقليدي للصفوف مع الصفوف . وهو أمر يحرمه المنطق التكتيكي في غياب مدفعية ونيران تغطية مساندة لهجمات مشاة الانصار .

كانت تلك هي أركان عمليات المهدى التكتيكية الثلاث ، بالاضافة لعملية الكمين الصغيرة الذكية : اختيار المسرح – اقتحام الفرسان العاصف – الاختراق السريع ثم الانتشار وسط المربعات . ونستطيع أن نتلمس بسهولة اعتماد كل ركن على الآخر وان كل ركن من تلك الاركان كان يعتمد على حسن ترتيب وتنسيق للاسبقيات والمواقف . وقد حظيت معركة شيكان بالقائد الملهم الذى نسق الطاقات والتوقيتات ، ووجدت قبل كل شئ رجالا شجعانا لا يهابون الموت ، كان اقدامهم كفيلا بالسير بالمخطط الى نهاية النجاح الكامل .

وفي الجانب الآخر . ما الذى كان يمكن ان يفعله هكس في مواجهة ذلك المخطط المحكم ؟ وهل كان في مقدوره تفادى تلك المعركة الخاسرة ؟ .

يبدو لنا من تصرفات هكس صباح ذلك اليوم أنه كان هو الآخر راغبا في القتال حريصا عليه ، فقد كان في استطاعته . قبل دخول الوادى ، أن يقف موقف المدافع مفسحا مجال العمل لمصادر نيرانه المتفوقه . فقد حملت اليه نداءات عازف البوق انذارا مبكرا قبل مسافة معقولة . ولابد أنه وازن بين ليلة أخرى كالليلة السابقة يصطلى فيها بنيران الجهادية وهو يقبع عاجزا عن ردها . وبين المغامرة بالتقدم طامعا في عبور تلك المنطقة الحرجة التي كانت أشبه بعنق الزجاجة فام أمهله عدوه لتجاوزها الى كازقيل واستطاع احتلالها والدفاع عنها الى مالا نهاية – وأما اطبق عليه عدوه أثناء مروره بغابة شيكان وهو أمر الامرين .

وفي قراءة احداث المعارك العسكرية هناك حدود تقف عندها الافتراضات والاستنتاجات (لو) (ولو كان) (ولو فعل هذا أو ذاك) وحتي في المعارك الموثقة المرصودة أحداثها وتفاصيلها بدقة ، دعك من معركة لازال الكثير من أحداثها غامضا ، نجد أنفسنا دائما عاجزين عن اصدار حكم دقيق في صواب أمر ما أو خطأه ، فالحرب ما هى في النهاية الا نتاج لقرارات تصدر عن عقول بشرية يصعب التكهن بما كان يدور بداخلها . ولكننا بناء على المصادر المجتمعة لدينا عن صباح الاثنين ، نستطيع أن نجزم بأن قرار الجنرال بالتقدم نحو غابة شيكان – مع ما فيه من مخاطرة – كان هو القرار الصائب ، فلم يكن أمامه خيار غيره ، فما كان المهدى ليتركه ذلك اليوم ان توقف ليلا أو نهارا . اذ صح عزمه – كما تحدثنا المصادر – على فصل الخطاب ذلك اليوم .

بل يجوز لنا اصدار نفس الحكم على سلوك هكس وتصرفاته بعد اقتحام الانصار . فقد استحال عليه ممارسة اى تأثير قيادى امام الهجوم الكاسح والتطورات السريعة المذهلة التي آلت اليها حالة

مربعاته في ذلك الزمن الوجيز . لا سيما بعد الفوضي والاضطراب الذى ساد المربع الامامى عقب بروز راية ود النجومى الكامنة من تحت الارض . ويبدو لنا الآن ان التعديل الذى أجراه هكس بتقسيم جيشه الى ثلاث مربعات كان من الناحية الفنية . تكتيكا لاغبار عليه . فقد تمكنت المربعات فعلا من معاونة بعضها بالنيران – ولكنها نيران سلطت على العدو والصديق . بدل من أن توجه نحو الانصار قبل التحامهم بصفوف المربعات كما كان تقدير هكس . غير أن سقوط الفكرة نفسها لا يعزى الى خطئها بقدر ما يعزى الى مبادرة الانصار وكمين ود النجومى وسرعتهم الخاطفة في الوصول الى المربعات وخرقها وتمزيق أحشائها .

ولسبب او لآخر ، ساد الاعتقاد حتي يومنا هذا بأن جنود هكس لم يقاتلوا واستسلموا بسهولة ، وربما يعزى ذلك الانصاع الى الابادة الكاملة للحملة ، أو لقلة خسائر المهدى ، أو لقصر زمن المعركة . ولكن كما رأينا ، هناك أدلة قوية تشير الى أن القلة التي أتيح لها أن تقاتل قتالا متكافئا ، وقفت وقفتها الاخيرة بشجاعة وقاتلت حتي النهاية .

بعــد المعــركة

(وانتشر خبر المهدى في العالم الاسلامى كله فجاءته الوفود من الحجاز والهند ومراكش لزيارته وتحقيق دعوته ..) .

شقيــــر

هب الاب أوهرولدر من فراشه قائما ، فقد مزقت انفجارات المدفعية استار الصمت المخيم على المدينة الخالية . اهتزت الارض تحت قدميه عندما توالت الانفجارات بفواصل زمنية منتظمة ، وظل واقفا لبرهة قصيرة تنازعته خلالها عوامل الفرحة الطاغية ، ثم الخشية والاشفاق .[1]

ترى هل أفلح الجنرال هكس في هزيمة قوات المهدى وأشرف جيشه على مدينة الابيض وأعلنت مدفعيته بشائر الخلاص بعد طول انتظار ؟ هرع القس الاسير للخارج متسائلاً عن الخبر ، ولكن تعابير الوجوه وشذرات الحديث التي التقطتها أذناه ممن كانوا حوله من الانصار وهم يتبادلون التهاني أغنته عن السؤال .. وتدريجيا تكشفت الحقيقة المرة ، لقد هزم المهدى هكس هزيمة ساحقة صباح أمس وأباد جيشه ، وما كانت انفجارات المدفعية التي حسبها مقدمة جيش هكس ، الا بشائر النصر . عاد الاب أوهرفلدر الى مسكنه كسيرا يجر قدميه وقد أحنت الهموم ظهره[2] .

* * *

أما في مسرح المعركة ، فقد انشغل المهدى بتهدئة انصاره واخماد فوران حمية القتال ، ووقف عملية التقتيل والابادة التي استمرت حتي أرخى الظلام سدوله على الوادى . فبادر عند دخوله وادى شيكان باصدار تعليماته المشددة بألا يقتل الاحياء أو الجرحى بعد استسلامهم ، وظل حتي نهاية اليوم يبسط حمايته الشخصية على أعداد كبيرة من جنود هكس الذين استجاروا به . وبعد صلاة الظهر طاف بأرض المعركة متفقدا ، ثم وجه بأن يحضر اثنان من الاسرى أحدهما أوروبي للتعرف على الجثث ، فانتدب جوستاف جلوتز ومحمد نور البارودى وتفقدا الجثث وتعرفا على الشخصيات الهامة في الحملة . ثم أصدر المهدى عدة تعليمات على التوالى : فقد وجه بأن يفرز الفنيون والصناع المهرة في جهة منفصلة وان تجمع كل الادوية وتسلم لبيت المال ، وعينت راية أبو قرجة لجمع الغنائم وفرز

١–الاب اهرولدر ص ٨٩.
٢–نفس المصدر ص ٩٠.

الاسلحة والذخائر فظلت هذه مستغرقة في تنفيذ تلك المهمة لعدة أيام حتى بعد مغادرة المهدى للمنطقة[3] (*٤)(*٥).

وقد تجمعت من الاسلحة والذخائر كميات هائلة ضاعفت من قوة جيش المهدى الفتي وأكسبته منعة أسبغت على صفوفه سمات الجيوش الحديثة . فقد حصرت راية أبو قرجة ما لايقل عن عشرة آلاف بندقية وعشرات المدافع والافا من الدواب وأطنانا من المؤن والملابس امتلأت بها أرفف مخازن بيت المال . وقد قدر لهذا العتاد ان يساهم في أغلب معارك المهدية بدءا بالمعركة القادمة – الخرطوم – وانتهاءاً باخر معارك المهدية – كررى – مرورا بكسلا وأبو طليح ، القلابات ، ومعارك دارفور . وذلك الجانب كان أهون نتائج انتصاره شأنا .

وعند الاصيل غادر المسرح وكر عائدا الى معسكره في فولة المصارين مخلفا راية أبو قرجة (ومناديب) بيت المال لفرز الغنائم .

في يوم الاربعاء ثالث ايام المعركة غادر شيكان عائدا الى عاصمته فاتجه غربا[6] نحو البركة وحط رحاله بها . ومكث بها بضعة عشر يوما للاستجام حتى تلتقط جيوشه أنفاسها بعد عناء التحرك المستمر في الايام الماضية . ومن البركة سمح المهدى لعدد كبير من رجال القبائل الذين اشتركوا في المعركة[7] بالعودة الى ديارهم لحين استدعائهم ليلتقوا جميعا في ميعاد قريب حول أسوار الخرطوم .

ولكن المهدى شخصيا ذاق طعم الراحة لفترة قصيرة لم تدم اكثر من يوم أو يومين ، فقد بدأ مباشرة في التخطيط والتمهيد لمعركته القادمة – أكبر واخر معاركه – حصار الخرطوم وسقوط عاصمة الاحتلال وقلب البلاد النابض ، حين تعاظم مسرح معركته الاستراتيجية ووسع مئات الالوف من الاميال المربعة . ضمت مسارح قتال امتدت من الجزيرة الى ساحل البحر الاحمر شرقا ودنقلا شمالا ، وحين انثني عائدا لضفاف النيل يقود جيشا غطت جحافله الافاق . بعد ان فارقها قبل اعوام ثلاثة على رأس حفنة لا تتجاوز بضع مئات من الحفاة العراة .

٣–اوهرولدر ص ٨٧.

٤- البارودى ص ٤٩.

اصيب محمد نور البارودى – الذى كانت شهادته احدى الروايات الاساسية التي اعتمدها بحث لتوضيح خفايا معركة شيكان – بطلقة اثناء هروبه من المربع الاول اطلقت من المربع الثاني ، فاصابته في جنبه الايمن ولكنه زحف الى الشجيرات بعيدا عن ارض المعركة ليموت هناك في سلام. وكان بعض الانصار يجمعون صناديق الادوية فطلب منهم مرهما ليمسح به جروحه ، فأعطوه له ثم أخذوه الى الامير عبد الرحمن النجومى الذى استخدمه كممرض طوال السنوات الخمس التالية حتى معركة توشكى.

٦–الكردفاني ص ٢٣٦.

٧–بارودى ص ٥٣.

وقد اعلن المهدى رسميا بدء معركة الخرطوم في اليوم الثالث لوصوله الى البركة ، فحرر منشوره الاول لاهالى الخرطوم منذرا وواعظا :

« ... نعرفكم احبابي انه طالما تكررت لكم منا المخاطبات بالتأكيد والتشديد والتحريض الذى لا مزيد عليه بمرغوبية قيامكم في تقويم امر الدين وقتال الكافرين ... كنا منتظرين ومؤملين حصول غيره الهية منكم في هذا الخصوص فما بلغنا منكم خبر على حسب المطلوب ولا رأينا منكم علو همة في ذلك مع أنه فرض مؤكد عليكم من الله ورسوله ومنا . وفي علمكم أن التباطى في امور الدين غير لائق خصوصا في الجهاد بل هو خلاف المقصود لقول الله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم ... وقوله اذا قيل لهم انشزوا فأنشزوا – ومع هذا فمقامكم يقتضي بذل الجهد وعلو الهمة في الله ونحن لولا حسن ظننا بكم وقصد الخير لكم ما كنا نعتني بكم قدر هذا ونلاطفكم ونراودكم هذه المراودة التي لم يخطر بها على بالكم شئ . والحاصل يا احبابي ان ما مضي لايعاد ومن الان فصاعدا اتركوا المهاونة وقووا عزمكم وشمروا وقوموا في طاعة الله ورسوله وبوصول هذا اليكم نبهوا كافة من معكم من المسلمين وتحزبوا معهم في الله وقوموا لمحاصرة الخرطوم وسدوا طريقه من كل جانب وضيقوا على من فيه من الكفرة واقطعوا مرادهم والسكن وشنوا عليهم الغارات حتي يذعنوا ويسلموا الامر لله تعالى ورسوله . أو يصير هلاكهم كالذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال امرهم ولم تغن عنهم المدافع والصواريخ شيئا بل جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون فاجتهدوا في ذلك الحين ما نأتيكم ولا تترددوا كما سبق واعلموا انكم اذا فعلتم حكم اشارتنا نرضي عنكم ظاهرا وباطنا ونسامحكم فيما مضي ولا نؤاخذكم بشئ والا فلا نقبل لكم عذرا واصلا ونحن لاشك منصورون بالله تعالى لا بكم ولا بغيركم وانما انتم مضنونون بنا ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها . ومن خصوص الجردة التي رأيتموها وصلت الينا وقتلت يوم الاثنين الموافق ٤ محرم سنة تاريخه فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلازم انكم تشدوا حيلكم وتقوموا بكامل همتكم على الجهاد ومحاصرة الخرطوم واول كل شئ اجروا تقطيع السلك واخربوه رأسا وعلى أى الحالات بعد وصول هذا ترد لنا منكم الافادة بما يجرى لنعلم ما انتم عليه والسلام » .

وفي يومه الثاني عشر من مكوثه في البركة تجمعت راياته وزحف عائدا الى الابيض فدخلها دخول الفاتحين . ترك مشهد احتفالات النصر انطباعا لا يمحى من نفس كل من شاهدوه فقد ذكر سلاطين :

« تجاوز دخول المهدى للابيض كل ما قرأنا في كتب التاريخ من وصف لمظاهر الفرح الوحشي في احتفالات الاباطرة والملوك الفاتحين » . وأسهب الاب اوهرولد في وصف مشهد دخول المهدى الابيض .

« كان مشهد دخول المهدى للابيض حماسيا مثيرا . فقد تقدمت الرايات الملونة اولا ثم تبعتها الوف مؤلفة من صفوف الانصار يرددون اناشيدهم المنغمة « الله اكبر .. الله اكبر » وحولهم تدافع المقاتلون

يهزون حرابهم الدامية وهم يصيحون صيحات مخيفة تصم الاذان ، وخلفهم تقدمت الخيالة وعلى رأسها الخلفاء الثلاثة .

كان الركب يتوقف عن المسير بين فينة واخرى عندما تندفع ثلة فرسان من كل قبيلة بأقصي سرعة لجيادها وقد اشرعت حرابها وكأنها تهم بطعن عدو يتصدى لها ، ثم تعود كارة الى مكانها بين صيحات الاعجاب « ابشر بالخير » فتنطلق قبيلة اخرى وتكرر نفس الاستعراض .

وخلف الجميع سار الاسرى تتبعهم المدافع التي غنمت من الحملة وقد جرتها البغال الجريحة . وخلف الجميع سار ركب المهدى . وهو على ظهر جمل ابيض ارتفع براكبه العملاق فوق صفوف المشاة والخيالة واحاطت به ثلل من اخلص مخلصيه واكثرهم تعصبا وهى تردد « لا اله الا الله ، لا اله الا الله » تهدر كدوى الشلالات وقد حجبت سحب الغبار المتصاعد السماء عن الاعين ، وخلالها شوهدت اشباح اهالى الابيض وهم يلقون بأنفسهم في طريق المهدى وقد تعالت هتافات النسوة « مهدى الله — مهدى الله[٨] » .

كان لانتصار المهدى الساحق على هكس في ضحى الاثنين ٥ نوفمبر دوى هائل ، رددت أصداءه السهول والوديان فسرى سريان النار في الهشيم واجتاز قفار السودان الشمالى وكأنما حمل على ظهور الرياح الشمالية وليس على ظهور قوافل الجمال البطيئة . فبعد عشرة أيام من المعركة ، أى في منتصف نوفمبر ، انطلقت الشرارة الاولى[٩] . شائعة لايدرى أحد كيف عبرت متاهات السودان الشمالى لتستقر ثم تتداول في دواوين الحكومة وتنزل الى شوارع وأسواق القاهرة بسرعة البرق . وظلت الدوائر الرسمية ما بين مصدقة ومكذبة الى أن بلغها النبأ رسميا يوم ٢١ فبراير .

أما السودان ، مسرح النشاط العسكرى ، فكأنما كان انتصار المهدى هو القشة التي قصمت ظهر بعير الحكومة ، فقد أمسي نصر شيكان مددا معنويا قويا لحركات العصيان المتفرقة التي تناثرت في جهات السودان المختلفة كالفقاقيع هنا وهناك ، ولكنها بعد شيكان زاد هيجانها واتحدت أمواجها فطغى مدها وزبدها وغمر كل تلك الاصقاع . وبقيت الخرطوم كجزيرة وسط خضم متلاطم تنتظر بدورها مصيرها في لقاء قريب .

كتب شقير يصف حالة البلاد عقب انتشار نبأ انتصار المهدى :—

.. وكان هذا الانخذال العظيم الذى أصاب الحكومة في شيكان قد قضي على نفوذها في السودان

٨—الاب اهرفلدر ص ٩٢.

٩— Blunt, W. Gordon at Khartoum P. 85.

١٠—شقير ص ٧٢٥.

القضاء المبرم ، فان عقلاء أهل الجزيرة وغالب أهل الخرطوم والسودان كانوا قبل هذه الواقعة يترددون في اتباع محمد أحمد ، وينتظرون حربه مع هكس فلما علموا بما أصاب هكس وجيشه ورأوا عجز الحكومة وفدوا على المهدى بالأبيض أفواجا يبايعونه وفي جملتهم الملك ادم أم دبالو ملك جبل تقلى . وانتشر خبر المهدى في العالم الاسلامى كله فجاءته الوفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارته وتحقيق دعوته ..)

وقد ساد الاضطراب الخرطوم ، وسارعت جزعة بارسال النبأ تلغرافيا للقاهرة وأرسلت بواخرها النيلية لانتشال حامياتها من النيل الابيض . وبانتشار النبأ في أسواق المدينة بدأ رد الفعل الشعبي ، فبدت الخرطوم كسفينة غارقة يسارع ركابها بمغادرتها في هجرة جماعية . وكان أول من غادرها رجال الاعمال والبيوتات لتجارية بعد تصفية أعمالهم ، ثم تزايدت أعداد المهاجرين بعد ارسال المهدى لانذاره الاول لسكان الخرطوم .[١١]

وقد أحست الحكومة بتخلى سكان البلاد من حولها ، بعد أن كانوا في حالة ترقب وانتظار لما يسفر عنه الصراع المحتدم بعيدا عن عاصمتها ، وكان لسان حال السكان متمثلا في العبارة الشهيرة التي أطلقها أحد شيوخ مدينة الخرطوم (كان المهدى جيد لينا وكان ما المهدى شن لينا) ولما علمت القبائل بأن قائل العبارة سارع وبايع المهدى بعد انتصار شيكان ، لم يبق ثمة شك في دعواه . أو لم تكن أولى صفات المهدى المنتظر التي حملتها كتب الاولين (بأن راياته لا تهزم أبدا) فتدفقت على كردفان جموع الاعيان والقبائل وعلى رأسهم مشايخ الطرق الصوفية . فوفد اليه في الابيض السيد الشريف الهندى واستاذه الشيخ محمد الخير والشيخ محمد شريف نور الدائم الذى كان لعام مضي ينظم الشعر في ذمه وبطلان دعواه ، فأكرمهم المهدى وقربهم اليه وبعث بهم لرؤية أرض المعركة كشأنه مع أغلب زواره الكبار الذين وصلوه بالابيض ، ثم بعث بالشيخ محمد الخير عاملا على كل الجعليين ليضرب بسهم وافر في معركته الكبرى – معركة الخرطوم التي بدأ يلقي بشباكه الطويلة حولها .

أما غرب النيل ، وحتي حدود سلطنة وداى ، فقد سقط راكعا تحت قدميه[١٢] ، واعتبرت كردفان ودارفور منطقة مقفلة نهائيا في يد المهدى وتوج انتصاره الفعلى بسقوط اخر القلاع المحايدة أو المعادية في كردفان ودارفور – جبال النوبة – بانضمام الملك ادم ام دبالو ملك جبال تقلى واستسلام سلاطين وسقوط كل مديرية دارفور الشاسعة .

فبعد أسابيع قليلة من صدام وادى شيكان تصاعدت ألسنة اللهب ، وسيلة الاتصال الرئيسية بين

---

11. Slatin P. 243. —١١

١٢–سلاطين – الطبعة العربية ص ١٠٥.

الجبال ، تهيب بالرجال للامتثال لتعليمات الملك بالتجمع في الجبل الرئيسي . وعندما اكتمل عقد رجاله ، قادهم الملك ادم بنفسه وهبط من جبال النوبة واتجه بهم نحو الابيض متخليا عن مكمنه الحصين وسط الجبال ، ربما للمرة الاولى في عهده الطويل . فالملك الصلب الذى عزف عن الانصياع أو التبعية لكل العهود ، واوى المهدى في الجبال قبل سنتين نكاية وتحديا للحكومة ، ثم وقف محايدا خلال الصراع الدائر[13] ، ظل معتكفا بجباله مكتفيا بتقارير جواسيسه عن العراك المحتدم تحتهم في سهول كردفان خلال معركة الابيض وطوال مناوشات أبو قرجة وعبد الحليم لحملة هكس . ولما حملت عيونه نبأ اندحار هكس ، حسم رأيه وسارع هابطا من ملجئه الذى اوى أجداده لقرون عديدة مضت .

كان سرور المهدى عظيما بانضمام الملك آدم ، فقد كانت جبال النوبة تمثل ثقبا واسعا في ظل سلطانه الممدود على غرب النيل الابيض وخطرا داهما على مخططاته القادمة في زحفه نحو الخرطوم ، فاحتفل به احتفالا كبيرا : (وكانت أكبر قوة[14] في الجبال هى جيوش الملك ادم دبالو فجاء بجيوشه وأولاده مسلما لامر المهدية فاستقبله المهدى استقبالا رائعا واحتفل به وأطلق في تحيته أكثر من مائة مدفع وانزل في مكان خاص هو واتباعه وزاره خليفة الصديق عدة مرات ولكنه بعد مدة أظهر أنفة وتوقفا في تنفيذ أمر خليفة المهدى لانه كان يرى نفسه ملكا عظيما يحكم كل جبال تقلى فكتب المهدى في ذلك منشورا للملك ادم) .

ولم يخب فأل المهدى في تقديره لاهمية خضوع الملك آدم اذ سرعان ما وضحت مكانته وتأثيره على بقية سكان الجبال[15] ، فحذا حذوه بقية ملوك جبال النوبة وأرسلوا رسلهم لمبايعة المهدى[16] . أما دارفور ، التي كانت هى الاخرى تنتظر نتيجة المعركة بفارغ الصبر ، فقد أدت هزيمة هكس الى سقوطها كالثمرة المعطوبة بدون قتال حاسم يتوج عشرات الاشتباكات التي خاضها سلاطين ضد مادبو . فكان سقوطها ضربة من ضربات المهدى الاستراتيجية الرائعة .

وكان حاكمها رودلف سلاطين يمني رجاله بالاستبسال في بقعة الارض التي تضاءلت اليها مديرية دارفور الشاسعة ، وانحصرت حول مركز دارا ومركز الفاشر ، لحين انتصار هكس على المهدى .

وكتب سلاطين عن الملابسات التي دارت حول سقوط مديرية دارفور بدون قتال[17] :

١٣–اوهرولدر ص ٩٥.
١٤–جهاد في سبيل الله ص ٥٥.
١٥–جهاد في سبيل الله ص ٥٥.
١٦–اوهرولدر ص ٩٧.
١٧–سلاطين ص ١٠٧ – ١٠٨.

(وكنت في هذا أتسقط الاخبار عن حملة هكس وأحسب المدة التي يجب أن تصل في نهايتها الى الابيض حيث يتقاتل الفريقان وتقع الواقعة الحاسمة . وكنت أختلف الى السوق واتحادث مع الاهالى عن الاحوال وكلنا نعلم أن جيشا عظيما قد نفذ الى الابيض ولكن لم يكن أحد على يقين من النتيجة .

وأخيرا حوالى اخر نوفمبر انتشرت الشائعات عن هزيمة الجيش وكان على هذه الاشاعات مسحة من شك ولكننا مع ذلك تعلقنا بالامل . غير أنه بعد يوم أو يومين جاء الخبر الاكيد بأن الجيش المصرى قد هزم . فخيم علينا الغم جميعا لهذا الخبر . وهكذا قضي علينا بعد هذه الشدائد والخطوب أن نقع في يد العدو وقد سدت دوننا أبواب النجاة . ولكن هل بقي بصيص من أمل بأن الاخبار قد بولغ في روايتها ؟ ..)

وكان سلاطين قد بعث بخالد بك زقل نائبه الى المهدى لكسب الوقت ولمهادنة المهدى لحين انجلاء الموقف . وفي نفس الوقت أرسل رسولا سريا اخر تحوطا من مكائد زقل . ولكن زقل عاد وهو يحمل أمر المهدى بتعيينه أمير عموم دارفور بدلا من سلاطين . ووصلت هذه الانباء الى أذني سلاطين الذى فضل الانتظار الى أن يبلغه النبأ الاكيد من مبعوثة السرى للمهدى ولكن خاب فأله[١٨] .

(وفي ٢٠ ديسمبر ١٨٨٣ جاءني الرسول الذى كنت أرسلته الى المهدى وكان لابسا جبة فروى لى خبر الهزيمة المنكرة التي نالت الجيش وناولني خطابا من زقل يطلب مني فيه التسليم ويخبرني عن هزيمة المصريين ولكى يثبت لى هذه الهزيمة أرسل الى بعض تقارير الضباط ومذكرات فاركهار وأيضا مذكرات أو دنفان .

والخلاصة أن هذه الدعوة المهدية قد تغلغلت الى قلوب الضباط والجنود ، فقد كانوا قبلا ينصبون لها العداء ويكافحونها لاني كنت ألوح أمامهم بقوة الحكومة وعودة سلطتنا بنجاح حملة هكس وبالفوائد التي تعود عليهم اذا ثبتوا على الولاء الى حين يهزم جيش المهدى . وكنت أبذل جهدى لكى أثبت للجنود والضباط حتمية فوز الحكومة في النهاية ولكن جاءت هذه الهزيمة المنكرة فانقطع كل أمل ، وقد كافحت الدسائس من الداخل والخارج ، والقارئ يعرف مبلغ النجاح الذى أصبته في ذلك وكان يمكنني بواسطة الكمية القليلة من الذخائر لدى أن أقاتل بضع ساعات ، ولكن هل كان من المتيسر أن يخضع لى الضباط والجنود في مثل هذا القتال ؟ لقد ذهبت رغبتهم في القتال ولم يعد لى حق في أن أجبرهم على أن يضحوا بأنفسهم في قضية لم يعودوا يبالون بكسبها .

هذه هى الخواطر التي كانت تساورني عندما بدأ شعاع الفجر يقشع الظلام في تلك اللحظات التي لن أنساها في حياتي وانتهيت بعد التفكير الطويل الى أنه لم يبق لى سوى التسليم ، وان أرضي بأن

١٨-سلاطين الطبعة العربية ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠.

أكون محكوما لاولئك الذين كنت أحكمهم وان أخضع لأولئك الذين كانوا يخضعون لى . ويجب فوق كل هذا وذاك أن أكون صبورا ، واذا مارست هذه الخلائق في نفسي وروضتها عليها وحقنت دمى بها ونلت بها بعد ذلك حريتي فان هذه التجارب ستفيد بلا شك الحكومة التي أخدمها . ونهضت من فراشي وأنا على هذا العزم ولبست ملابسي الرسمية لآخر مرة اذ استبدلت بها بعد ذلك بجبة المهديين التي مثلت فيها دورا جديدا في حياتي) .

وهكذا تضاءلت امبراطورية الخديوى في السودان ، بعد أن ظلت في توسع وتمدد طيلة الستين عاما الماضية ، وعادت وانكمشت وتضاءلت منحصرة في سنار والخرطوم وسواكن وشريط النيل الضيق في السودان الشمالى . وقد أضاف سقوط دارفور وخضوع جبال النوبة عمقا استراتيجيا جديدا لجيوش المهدى فأصبح ظهرها آمنا وهى تتجه نحو الشرق والشمال في طريقها الى الخرطوم ، وظلت المديرية الفتية الى نهاية المهدية تقف ركنا اقتصاديا ودفاعيا هاما ، حيث أصبحت تمثل احتياطى المهدية الاستراتيجى الذى لا ينفد من المقاتلين .

* * *

في الصراع الدولى ، تتفاوت الوسائل التي تستخدم لاحراز المطالب والاهداف ، وتتدرج تحت عدة مسالك ، منها الضغوط الاقتصادية أو الدبلوماسية أو العمل السرى المسلح . ولكن النصر العسكرى الحاسم ظل حتي يومنا هذا هو أفضل وأسرع تلك الوسائل . فالحرب المسلحة تهدف أولا وأخيرا الى فرض ارادة أحد الخصمين على الآخر واجباره على اتخاذ قرار سياسي يحقق مصالح المنتصر . فالظروف النفسية التي يمر بها المهزوم ، والاحساس بالمهانة وتحطيم الارادة القومية المتمثلة في الجيوش – رمز اعتزاز الامم – هى الظروف المثلى التي تحقق فيها الامم المنتصرة مطالبها وتصفي فيها حساباتها المتراكمة .

وقد ظلت تلك هى القاعدة السائدة في الحروب حتي في الربع الاخير من القرن العشرين حين تعقدت المصالح والنزاعات وتشابكت وسائل الصراع ، فما بالنا بالقرن التاسع عشر ، فترة المد الاستعمارى المسلح ، حين كانت الدولة تتحمل ما لاطاقة لها به من تجهيز الجيوش وايصالها لاهدافها بزحفها البطئ على الاقدام والدواب المثقلة بالمؤن والمياه والذخائر ؟ فالنصر العسكرى في ذلك الزمان كان هو المحك الرئيسي لما يسمى الآن بالسياسة الدولية .

وقد كان الانتصار الساحق الذى أحرزه المهدى في وادى شيكان مثالا مجسما لتلك القاعدة . فما أن تحققت حكومة القاهرة من نبأ فناء جيشها حتي اتخذت قرارها باخلاء السودان . اذن فقد حقق النصر العسكرى هدفه السياسي المرحلي . ولو غضضنا الطرف عن بعض التحفظات التي شابت ظروف ونتائج المعركة لاستطعنا القول بأن نصر المهدى كان نصرا كاملا . وأول تلك التحفظات هى أن تحرير

السودان لم يكن وحده هدف المهدى الاكبر . بل كان هدفه الاكبر تحرير العالم الاسلامى . وثانيهما ان المهدى لم يكن هو صاحب المبادأة أصلا في تلك المعركة بالذات ، فقد تقدم عدوه نحوه وكان هو مدافعا . ولولا تعجل القاهرة لاحتدم الصراع النهائي في مكان اخر ، كما حدث فعلا بعد عام على ضفاف النيل .

وقد أحاطت باتخاذ ذلك القرار الذى لم يقدر له أن ينفذ على الوجه الذى أريد له ، عدة أزمات سياسية تصاعدت بين محورى لندن والقاهرة . فسارت الاحداث على النحو التالى :

كما ذكرنا من قبل ، كانت سلطات الاحتلال الانجليزية وعلى رأسها بيرنج تحبذ اخلاء فوريا لكل السودان ، فلم يمض على تورطها في احتلال مصر الا سنة واحدة اتسمت سياستها خلالها بالتنصل . فهى ترى أن احتلال مصر نفسها ما هو الا احتلال مؤقت وعبء ثقيل ترجو أن ينزاح عن كاهلها . فقد كان كرومر يؤمل حتى أوائل عام ٨٤ – أى بعد شهرين من المعركة – في استطاعته سحب قوات الاحتلال الانجليزية واخلاء مصر نفسها . وكتب لجلادستون (استطيع وعدكم بالانسحاب العسكرى قريبا اذا استطعت انت ان تبعد المحافظين عن كرسي الحكم خلال هذه المدة) . فان كانت الحكومة الانجليزية ترغب في نفض يدها من مصر ، فاخلاء السودان كان يصبح تلقائيا .

وتمشيا مع تلك السياسة عزم بيرنج على فرض قرار اخلاء السودان على الحكومة المصرية ، وظل طوال شهر ديسمبر يضغط ضغطاً متصلا على مجلس الوزراء البريطاني المتردد لانتزاع قرار نهائي ، فأمطره بوابل من برقياته المطولة التي كانت أشبه بالتفكير المسموع منها بالتقارير الرسمية . فاتخذت الحكومة البريطانية أخيرا قرارا حاسما باخلاء كل السودان اخلاء تاما ونهائيا .

ومن ناحية أخرى كانت هناك الوزارة المصرية وعلى رأسها شريف باشا ، الذى كان على علاته يمثل الحد الادنى لطموح ومشاعر القومية المصرية الناهضة ، التي لم تنس انتصارات العرابيين قريبة العهد . ولم يستطع شريف أن يتحمل فكرة اخلاء السودان نهائيا وأوضح أن هناك علاجا اخر غير البتر النهائي . فان كان وودهاوس قد ضن بالجيش المصرى الجديد الناشئ بالدخول في تجربة رهيبة في متاهات السودان لم يصلب عوده لها بعد ، فهناك جيش الاحتلال الانجليزى ، ثم هناك الجيش الهندى ، وفوق هذا وذاك هناك السلطان التركى وجنوده الاشداء المتمرسون . فان كان لابد من الاخلاء فليكن اخلاء جزئيا ولتحتفظ الحكومة بالخرطوم وطريق سواكن – بربر مفتوحا وتخلى بقية السودان حسب اقتراح هكس الاصلى الذى نسي في غمرة الاحداث . وقد حملت برقية بيرنج الصادرة في ٢٣ نوفمبر تلك المقترحات لوزير الخارجية – ايرل جرانفيل (ان ابلغكبأن الحكومة المصرية مصممة على محاولة الاحتفاظ بالخرطوم وفتح طريق سواكن – بربر وستركز كل جهدها على تحقيق هذين الهدفين) .

ومضت برقية بيرنج توضح مخطط الحكومة المصرية المزمع اتباعه نحو دارفور ، وكان لا يعلم بالطبع ان دارفور قد سقطت واستسلم مديرها وكل جنودها في نفس اللحظة تقريبا التي أرسل فيها برقيته :

(ولذا فقد تقرر البدء بمحاولة سحب الوحدات المصرية من دارفور ، ولو أفلحوا في ذلك فستعزز القوة المدافعة عن حوض النيل بحوالي ٥٠٠٠ جندى من جنود مديرية دارفور وستصدر تعليمات الى الضباط في مديرية بحر الغزال والاستوائية للانسحاب للخرطوم ان استطاعوا أما عن طريق النيل أو بطريق الفاشر. وسترسل الزوارق الى فاشودة لانتشال الحامية للخرطوم[١٩]) .

ولكن برقية بيرنج ، بعد أن حملت قرار الحكومة المصرية للندن ، ختمت بتوضيح رأيه الخاص :

(ولكني أشعر من البرقيات التي استلمتها من الخرطوم بأن الرأى العام السائد في منطقة النزاع هو استحالة الدفاع عن الخرطوم نفسها وان الافضل هو نقل العاصمة لبربر) .

وقد أفلحت عبارة بيرنج الأخيرة التي عززها بخطابات متلاحقة ، في حمل الحكومة البريطانية على اصدار قرارها أخيرا ، فحملت برقية جرانفيل رد الحكومة البريطانية الحازم :

(لقد تسلمت برقيتك التي تحدثت فيها عن السياسة التي تقترح الحكومة المصرية انتهاجها لمقابلة النتائج المترتبة على هزيمة جيش الجنرال هكس في السودان .

اننا لانستطيع تحمل أية مسؤولية جديدة تلقي علينا عبء عمليات عسكرية في السودان ، وعلى الحكومة المصرية تحمل كل الاعباء والمسؤوليات من مصادرها المالية وحدها) .

ثم أردفه بخطاب آخر اعترض فيه على استخدام وحدات هندية في السودان ، ولكنه لا يمانع في استخدام جنود عثمانيين لو وافق السلطان التركى على ذلك .

حمل بيرنج آراء الحكومة البريطانية الى رئيس الوزراء شريف باشا وزملائه الذين رفضوا رفضا قاطعا قبول فكرة التخلى عن الخرطوم . وكانت حجتهم انهم لو سمحوا للمهدى بالتقدم نحو الخرطوم فستنضم اليه كل القبائل الشمالية وتهدد حدود مصر الجنوبية نفسها[٢٠] .

ولكن الحكومة البريطانية رفضت التراجع عن قرارها وأجبرت شريف باشا على اصدار أوامر الاخلاء . وما كان شريف باشا بالذى يقبل أن يرتبط اسمه بقرار كالح كهذا ، فقدم استقالته من الوزارة في ٧ يناير ٨٤ .

١٩- 19. H.R. Russel, the Ruin of the Sudan P. 42.

٢٠- 20. Russel P. 43.

وقد ذكر د . شبيكة ان استقالة شريف وضعت دستورا جديدا في العلاقات بين الحكومة المصرية والادارة البريطانية التي كان يسودها نوع من الحوار والتفاهم (٢١) ، فوضعت تلك الاستقالة أسسا جديدة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وهى (الاستقالة أو الابعاد من كرسي الحكم لرئيس الوزراء الذى لا يستطيع أو لا يرغب في تنفيذ تعليمات ادارة احتلال) .

وكان بيرنج يتوقع شيئا من هذا القبيل وقد أعد للأمر عدته للدرجة التي اختار وزارة بريطانية لتتولى الحكم ان لم يعثر على رئيس الوزراء المصرى المنشود الذى يتولى تنفيذ اخلاء السودان . ولكنه وجد مطيته في نوبار باشا الارمني الاصل ، الذى كان يمثل كل ما تبغضه الحركة الوطنية المصرية .

وهكذا اتخذت كل عدة للانسحاب من السودان ، سواء أكان انسحابا كليا أو جزئيا وأصدرت التعليمات بالاخلاء . وكاد أن يتم ذلك لو لا تدخل احدى تلك الصدف التاريخية الغريبة .

فالاخذ والرد بين القاهرة ولندن ، وتدخل الصحافة البريطانية القوية بمقالاتها المطولة ، مكنت أحد الشخصيات المرتبطة بالسودان من التدخل . اذ أدلى جنرال تشارلس غردون بحديثه المشهور الذى نشر في جريدة (بال مول جازيت) طرح فيها أفكاره السقيمة عن معالجة الاوضاع في السودان . وكانت بداية لمئات الصفحات من كتابات غردون الشهيرة ، وبداية الشرارة في صفحة جديدة من تاريخ السودان وضعت المهدى في مواجهة بريطانيا نفسها . ولكن تلك قصة أخرى ...

٢١–د. شبيكة – تاريخ شعوب وادى النيل ص ٦٦٣.

١–صلاح محى الدين – وقفات في تاريخ السودان ص –

استراتيجية المهدى

كانت شيكان اعظم انتصارات المهدى ، فهى نقطة التحول الرئيسية في مسار الثورة . فما قبلها من معارك كانت كلها صعودا تدريجيا على درب النصر الأكبر الحاسم الذى توج به معارك كردفان . وما بعدها ، أى معركة الخرطوم ، كانت الظروف مهيأة حتي قبل تحرك المهدى نحو هدفه ، كان حشد المهدى وعتاده اقوى ، كانت حلقات الحصار الخارجية حول الخرطوم قد اكتملت ، كانت العاصمة ثمرة اكتمل نضوجها تنتظر من يقطفها .

ولكن هنا في شيكان كنت الظروف ادق والمخاطر اعظم . فهذ ثورة فتية كانت حتي أشهر قليلة تلوذ بالجبال محتمية من بطش أعدائها ، لم تتحول من الدفاع الى الهجوم وتنحدر من الجبال الا منذ أقل من عام . ولم يمض على تذوقها أول انتصاراتها الكبيرة الا ستة اشهر . وبينما هي تستجمع قواها لتنطلق الى أكبر اهدافها . وقبل أن تلتقط انفاسها لتبدأ زحفها نحو عاصمة أعدائها ، اجبرت على تأجيل أكبر أمانيها بعد أن بدت في متناول اليد . فقد تنمر عليها عدوها في انتفاضة أخيرة . وانقلب عليها مكشرا أنيابه بعد أن اعطاهم ظهره لاشهر طويلة ، أسرفوا هم في ملاحقته بالضربات وشد أذياله في نواحي البلاد المختلفة .

ألم يظل ساكنا غاضا الطرف لاشهر ستة وهم يحاصرون ثاني مدنه دون أن يهب لنجدتها ؟

وعندما سرت اليهم الطمأنينة حاسبين أن كل ما أمامهم ماهى الا فترة وجيزة للاستجمام والتجهيز قبل الوثوب والاجهاز عليه تبدلت الامور بين عشية وضحاها . فقد حملت ظهور القوافل النبأ الخطير. حملة ضخمة تشق قلب افريقيا متجهة نحوهم . فاق عددها كل الحملات الافريقية الشهيرة -- حملة نابير لتأديب ثيودور ، وحملة ولزلى لقبائل الاشانتي بل حتي حملة محمد على لغزو كل القطر السوداني بأكمله ، تجاوز عددها الالوف ، سلحت بأحدث الاسلحة الاوربية . واستورد جنودها من مصر نفسها . فهو سيواجه الرأس نفسه وليس الاذناب .

لم تكن الحملة الجديدة لقمة سهلة الابتلاع كسابقاتها ، التي كانت هزيمتها اقرب الى ناموس وحتمية التاريخ .

فعندما تقدمت نحوه حملات راشد والشلالى ، وعندما هبط من أعالى الجبال لسهل الابيض ، كان ذلك اثناء مد الثورة وفورانها واتاحت له الفواصل الزمنية بين الحملات الثلاث فسحة من الزمن للتعامل مع كل منها على حدة بارتياح ، مستغلا عوامل الخداع والمفاجأة ومكامن الجبال الحصينة فأفاد منها وكانت حصيلته من كل حملة دفعة قوية للامام .

ولكن هاهو عدوه يتقدم نحوه بحشد يتجاوز حشد اعدائه في المعارك الثلاث مجتمعة . ودفعة واحده ، واغلب الظن ان مسرح الصراع سيحتدم في السهل دون الجبل ، بثناياه وتعرجاته ومفاجآته ومزاياه .

كيف التعامل مع ذلك المكعب الفولاذى الهائل الذى يسعى اليه عبر بوادى كردفان كوحش خرافي وتقل المسافة بينهما يوما بعد يوم ؟

لم يكن امام الرجل الا سبيل واحد : الا وهو تسليخ اطراف ذلك المكعب الفولاذى وأذابته وتفتيته ، قلبه ان امكن أو أطرافه الرخوة ان لم يستطع الاولى . فأن لم يكن هنالك محيص من مواجهته – ولم يكن هناك فعلا محيص – فليكن ذلك في أفضل الظروف و ثرها ملاءمة .

في الشهور الوسطى من العام . والحملة مازالت تحتشد على ضفاف النيل ، حين لم يكن بوسع المهدى التنبؤ بمجرى الاحداث في الايام الحاسمة الاخيرة ، كان كل ما بوسعه هو وضع مخطط عريض كل هدفه هو التخفيف من غلواء عدوه ومنعته الى اقصي حد تتيحه له الظروف .

ومن هنا يمكننا تقسيم أستراتيجية المهدى التي خاض بها شيكان الى شقين – قبل الرهد ، وهى استراتيجية عريضة – وبعد الرهد عندما أصبح المربع على قيد ايام منه وتسارعت الاحداث ، واصبح بوسعه التنبؤ والاحاطة بتحركات الجنرال ونواياه من خلال جهازه الاستخبارى البارع .

فمنذ ان سرى اليه نبأ حشد كتائب الجنرال ونيتها بالتقدم نحو الابيض ، لم يكن امامه الا ثلاث خيارات : أما ان ينسحب أمام عدوه ليلوذ بالجبال مرة اخرى – او يتقدم نحو النيل ليحسم الصراع في منتصف الطريق او ان يقبع في الابيض منتظرا مدافعا . وقد اختار المسلك الاخير . وكان حكيماً حين فعل . فهو لو أنسحب جنوبا الى الجبال او غربا الى دارفور ، ولاتثريب عليه ان فعل . لفقد الكثير ، فالانتصارات المعنوية والتعبوية التي كللت أقامته بكردفان كانت ستصاب بنكسة خطيرة . وهى كانت انجازه الاكبر في تلك المرحلة .

وهو ان ترك مكمنه وتقدم للتصدى لعدوه . فسيواجه بحشد مهاجم في عنفوان حيويته ، يقاربه عددا ويتفوق عليه في العتاد والسلاح تفوقا ساحقا .

وماكانت ذكريات هجوم الابيض الأليمة لتغيب عن ذهنه حين اصطلى بنيران قوة مدافعة صغيرة ، دعك من حملة الجنرال بقضها وقضيضها وسلاحها الحديث .

والمسلك الاخير ، أى المواجهة الدفاعية كان موازنة دقيقة بين المواجهة ودونها شر ، وبين الدفع . وكل م يزيد عليه هو شر آخر . والمسلك الاخير هو الكفيل بتحقيق أول اهدافه وهو القتال في افضل الظروف .

فهو ان قبع بالابيض مدافعاً سيتاح له استثمار عاملين هما في الغالب الاعم في صف المدافع – الأرض والزمن .

فسعة اراضي كردفان ، وشمسها المحرقة ، وطرقها الشائكة وسكانها المؤيدون كانت هى امل المهدى في تسليخ اطراف المربع بقليل من النشاط المعادى . ولعل الصفحات الماضية . ابانت لنا أن دفاع المهدى كان دفاعا عدائيا جزئيا ، كما يجب ان يكون .

لقد ارتد الرجل مرة اخرى مدافعا بعد ان حمل راية الهجوم واقتحم عاصمة كردفان قبل اشهر قليلة . وذلك التلون والتقلب بين الهجوم والدفاع هو أول مايلفت النظر في استراتيجية المهدى العبقرية التي اتبعها في كردفان .

وقبل ان نمضي قدما بتقويم اسلاتيجية شيكان ، يستحسن ان نتوقف هنيهه ونعود الى الوراء قليلا ، فنجرى مسحا سريعا لكل الملحمة الكردفانية ، لنراقب ذلك التقلب البارع بين المسلكين . فشيكان ما كانت الا نتاجا وعصارة نحصادا لسنوات كردفان .

جرت العادة بين المحللين العسكريين ، عند تناول أحدى المعارك او الحملات بالدراسة ، ان تقدم من خلال ثلاثة معايير :– الاستراتيجية العليا ، والاستراتيجية العسكرية ، ثم الأداء التكتيكى . فمها تقدمت وسائل الحرب وتعقدت فلن نخرج عن هذه الانشطة الثلاثة .

ولعلنا قد أوضحنا في مجال سابق تعاريف مختصرة للانشطة العسكرية الثلاثة ، وقد يصعب علينا هنا التعامل مع هذه المعايير كل على حدة . وبالاخص الشقين الاولين– الاستراتيجية العليا والاستراتيجية العسكرية . فأن كانت الاولى بتعريفها :– « تسخير طاقات الدولة في خدمة المعركة » فنحن هنا لانتناول دولة بل ثورة . وان كانت الاستراتيجية العسكرية تخص قطاعا معينا من الدولة وهو قواتها المسلحة – فنحن أمام امة كلها جيش ، انضوى سكانها ، حتي نساؤهم ، في خدمة المعركة مباشرة . والهيئة التي ادارت الاستراتيجية العليا ، أى دفة الامور لكل الدولة ، كانت نفسها هى التي ادارت شئون الجيش . فقد انحصرت في المهدى وخلفائه .

ولكن حتي لو غضضنا الطرف عن تلك الظروف التي تجعل من اخضاع معارك كردفان لتلك المقاييس أمرا غير موضوعى فلابد لنا من التسليم في النهاية ومن خلال هذه المقاييس نفسها بأن نجاح المهدى كان نجاحا كاملا باهرا . فالمحك الاساسي للاستراتيجية العليا هنا انما ينصب على التعبئة ، تعبئة الجماهير وتعبئة مقاتليها وسلاحها وخيوها ومحاصيلها ومواشيها . ألم يعبر النيل الابيض في اغسطس ٨١ ببضع مئات من الرجال . وأنثني مواجها هكس في نوفمبر ٨٣ بحشد يزيد عن عشرين الف رجل تعززهم الاف الخيول ؟ لقد كتب موتسي تونغ كثيرا عن مبادئ التعبئة الثورية في الريف ، وما أمل من تحقيقه في سنوات الثورة لم يكن له نظير في التاريخ الحديث ، من حيث

عظمة الانجاز وقصر الأمد ، الا في ثورة المهدى السودانية .

وقبولنا لتعريف « ماو » للاستراتيجية العليا وتطبيقه هنا على علاته يضاعف من احساسنا بنجاح المهدى .

فقد كانت مهمته هنا أشق . فهى « خلق » « وصنع » هذه الامة أولا ، حتي تتولد منها الاداة القتالية الكفيلة بتحقيق اهداف دعوته ، ومانحسب ان كان له سبيل لتحقيقها الا بالجيوش والمعارك . ومن هنا كان أسهام المهدى الحضارى .

لقد وصفت الحرب بأنها « قطار التاريخ » فبين ألسنة لهيبها تنضج الشعوب ، وفيها تقدم الأمم أفضل مالديها من صفات الشجاعة ونكران الذات ، وتنطلق طاقات الابداع الحبيسة فتولد المخترعات العلمية لتطوير الاسلحة والعتاد ، وينتظم الافراد في مجموعات منتظمة منضبطة تعمل في سبيل الهدف الجماعى متناسية فروقها وحظوظها الطبقية والعنصرية . ولعل أبرز مايجذب انتباهنا من خلال اللمحات السريعة التي تعرضنا فيها لاحداث الثورة في كردفان هو التحول الحضارى الذى شمل تلك الجماعات المتنافرة .

فقد وحدت الثورة القبائل المشتتة في رايات منضبطة ودرب الوف المقاتلين على الاسلحة الحديثة ، وانشأت الجهاز القضائي وعين النواب للنظر في القضايا العامة والخاصة حسب نصوص الشرع المحددة الصارمة وليس بقانون القبائل الذى تداخل فيه العرف القبلى وفسره كل على هواه ، واكتملت ملامح الجهاز المالى « بيت المال » لتمويل الحملات وتموين الافراد ، وارتفع المستوى اللغوى والثقافي بقراءة الراتب اليومى بلغته العربية الفصحى ، وانتظمت حركة اصلاح ديني عام ليزيل الشوائب والبدع حتي تسهم بدورها في تنظيم الحياة اليومية للمجتمع الجديد . كانت تلك أهداف « الأستراتيجية العليا » خلال سنوات كردفان ، فقد رمت الى خلق الامة « والدولة » الموحدة حتي يصب منها المهدى قبضته الحديدية والارادة المباشرة لتحقيق أهداف دعوته – جيش المهدية .

وأن سخرت استراتيجيته العليا في سبيل أستراتيجيته الميدانية ولأهدافه العسكرية في البداية ، فقد كان لابد له من وضع الاخيرة في خدمة الاولى . فتلك الانجازات من تعبئة بشرية وروحية ومن أستنهاض حضارى في بناء أمته ، كانت في أمس الحاجة لفسحة من الزمن يبتعد أعداؤها الاقوياء عنها ليتفرغ لاشق أنواع البناء والتشييد – بناء الانسان . وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف سخرت المعارك والنشاط العسكرى في اعوام ٨١ – ٨٢ . فقد كانت استراتيجيته دفاعية بحتة هدفها ابعاد اعدائه عن مكمنه في الجبال . ومن هنا كانت معارك سهل كردفان ومعارك الجزيرة والنيل الابيض ، فقد أمسي حوض النيل سياجا لحمايته ، واصبحت سهوله وانهاره مراكز تعطيلية

للاشتباك البعيد بالعدو وشغله عن التقدم نحو مكمن الثورة وقلبها ونواتها الصلبة .
ولعلنا لن نمل تكرار أعجابنا بالاستراتيجية العريضة التي تحكمت في معارك المهدية في اعوام ١٨٨٢ – ١٨٨٤ .

فقد تلونت مواقفها ومرت بأربع مراحل : المرحلة الاولى هى فترة الضعف ، الهجرة والانسحاب عن العدو ثم الصمود في فترة دفاعية كان أهم اهدافها هى تجنب عدوه ، سواء حاميات السودان أو كردفان ، اكتفاء لشرها . ثم انقلبت الى استراتيجية هجومية حين قوى ساعده وحققت الثورة أهدافها العاجلة في التعبئة ، وكانت ابرز سماتها نزوله من مكمنه بالجبال ومهاجمة الابيض ، ثم تريث هنيهة وعاد الى انتهاج سياسة دفاعية ليستجمع قواه حين فاجأته حملة هكس وفضل العودة الى السكون والاستكانة للدفاع عن انتصاراته ، تاركا لعدوه الحبل على الغارب ليخترق نصف كردفان حتي أشرف على مدينة الابيض . ولكنه لم يلبث أن أخذ المبادرة مرة اخرى وعاد الى الاستراتيجية الهجومية بتقدمه العظيم نحو الخرطوم .
وقد افرزت تلك الملحمة الكردفانية الرائعة ، التي ازدحمت بالمعارك والحركات السريعة المتصلة ، دروسا وعظات عديدة ، أبرزها كانت عمليات الحصار .
ففي المسرح السوداني العريض ، أتيح للمهدى تطبيق عمليات الحصار بذلك النمط الفريد الذى تميز به وحده . وهو الحصار التدريجي الذى يبدأ بدائرة واسعة تضيق شيئا فشيئا الى أن تطبق على فريستها من كل الجهات .
ففي حصار الأبيض ، ثم حصار الخرطوم ، كان تساقط المدن ومفاتيح الطرق يتم في ايقاع زمني رائع يسير الى الهدف الاكبر وهو اسقاط الخرطوم . حتي حصار الابيض واحتلالها كان حلقة من حلقات حصار الخرطوم الذى بدأ بشبكة واسعة امتدت من سواكن وبربر والجزيرة والابيض ، ثم ضاقت الى الكلاكلة والحلفاية وامدرمان .

ولنعد الى استراتيجية شيكان . كان مخطط المهدى في المرحلة الاولى رائعا . فركيزة استراتيجية مرحلة النيل – الرهد كانت الاستنزاف دون المواجهة المباشرة . واعتمد في تنفيذها على عوامل عديدة . منها ماهيأته له الطبيعة وأحسن أستغلاله ، ومنها ما اجتهد هو فيه وصنعه صنعا .
فقد جعل كل السهل الاخضر الممتد من النيل حتي الرهد أرضا خرابا يبابا في وجه الجنرال ، وبرزت مقدرته الفذة في مدى سيطرته على أنصاره ومؤيديه . فلم يكلفه الامر سوى بضعة رسل بعث بهم على عجل قبل وصول الجنرال ببضعة أيام . فاستجاب السكان في انضباط رائع وأداروا ظهورهم لديارهم ومراعيهم بلاندم أو حسرة . وبدلا من أن يعبر الجنرال وزمرته بلادا تزدحم بالقبائل والمراعى

مني فيها مراسلو الصحف أنفسهم (برحلة عجائب) افريقية يسهبون فيها الوصف لقرائهم . خيبت اماهم بأرض شاسعة خلت تماما من الانسان والحيوان ، تواتر عليهم فيها مشهد واحد رتيب من الخضرة الكثيفة الممتدة الى مد البصر. خيم عليها صمت غريب لايقطعه غير وقع خطواتهم المتعبة وهم يتعثرون بين الحشائش والاشجار الغزيرة .

اغلب الظن ان ذلك كان هو كل تأثير طبيعة كردفان على مصير الحملة . أما النغمة المعهودة عن نغمة العطش ، وان العطش كان عدو الجنرال الرئيسي ، فأغلب الظن أن مؤرخي القرن التاسع عشر الاوربيين قد بالغوا فيه قليلا . صحيح أن التأثير النفسي للخشية من الموت عطشا كان مؤرقا . وان التفكير في المياه كان من هموم قيادة الحملة اليومية ، الا ان الامر لم يمتد لاكثر من ذلك . فقد تابعنا مفكرة عباس بك ، أوثق المصادر عن حملة هكس حتي الآن ، ولم نلحظ أذى جسديا جسيما أصاب الحملة من العطش فيما عدا في مسيرة يوم الاربعاء الشهيرة . وقد استخلص على المهدى نفس الحقائق من استجوابه لمن قاتلوا بشيكان .

كان ذلك صنع الطبيعة ، أما صنع البشر ، فالمؤكد ان مخطط المهدى لمجابهة مسيرة الجنرال من النيل وحتي الرهد كان يرتكز الى ثلاثة اعمدة :

١ – قطع خطوط امداد عدوه الخلفية .

٢ – تسليخ أطراف المربع .

٣ – الحرب النفسية بكل وسائلها من منشورات دعائية ، الى ظهور طلائعه يوميا متعقبة المربع خطوة بخطوة ،الى الازعاج اليومي بطلقات النيران .

كان الاول من تلك الركائز هو أهمها ، ولكن لم يتسن له العمل به لسبب بسيط ، وهو أن المربع لم تكن له خطوط امداد خلفية على الاطلاق . فقد بتر الجنرال أول وآخر حلقة اتصال بالنيل والخرطوم عندما سحب أولى نقاط الامداد الخلفية في شات ، وأصبح المربع يتقدم كتلة واحدة . فتساوى ما خلفها وأمامها . أما المعوقات الامامية ، فلم يثبت لدينا حتي الآن ان المهدى أقدم على محاولة لعرقلة تقدم الجنرال ، عكس الفكرة الذائعة التي رددها عدد من المؤرخين بأن المهدى وجه أنصاره بدفن الآبار التي تقع في مسار الجنرال . ومرة أخرى نجد مخطوطات على المهدى تتفق مع مفكرة عباس بك في نفي ذلك الخيال التاريخي غير المسند . فلم ترد في مفكرة عباس بك اشارة الى دفن الآبار – ماعدا مرة واحدة صادفتهم فيها بركة اسنة أفسدت مياهها المواشي التي وردتها قبل يوم أو يومين . وحتي تلك ، أغلب الظن انها كانت فعلا غير مدبر أتاه بعض الاهالى وهم ينسحبون مسرعين من وجه المربع الزاحف .

كان تنفيذ الركن الثاني من مخطط المهدى المرحلى ، استنزاف المربع وتقطيع أطرافه ، هو أروع مراحل الحملة كلها . فما أظن أن المهدى عندما تخيل معركته الازعاجية ، كان يحلم بتنفيذ أنجح من ذلك الذى حمل عبأه فرسان ابو قرجة .

ولعلنا نستطيع أن نعدد عشرات الاشتباكات والجروح الدامية التي أصابت أطراف المربع اثناء المسيرة الشهيرة من النيل حتي الرهد ، فقد تصاعدت الاشتباكات ومن خلفها حصيلة القتلى والجرحى حتي اليوم الاخير ، حين تطور التسليخ الى بتر الاعضاء الرئيسية في هجوم أبو عنجة النهارى والليلى في يوم الاحد ٤ نوفمبر.

لقد شن المهدى حربا نفسية ناجحة ضد الحملة . ولم يكن ليصيب ذلك النجاح لو لا ظروف الحملة نفسها التي أتاحت له مهلة من الزمن امتدت لاسابيع ست مارس خلالها ذلك التأثير النفسي المضاد . وهذه الحرب النفسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشق الثاني - تسليخ أطراف المربع بالاشتباكات والنيران . فالتأثير النفسي للمنشورات التي نثرها انصار أبو قرجة على طول طريق المربع ، لم يكن ليصبح ماحقا بذلك القدر ، لو لم تمهد له الاشتباكات المتصلة ومشاهد الجرحى والقتلى ودوى الرصاص المتواتر الذى انصب عليهم لاسابيع عديدة من بين الاشجار المظلمة . ويجب الا ننسي قسطا كبيرا من نجاح الحرب النفسية يعزى الى قيادة الحملة وضباطها . فقد أصاب السأم الجنود وضاقوا ذرعا بأخطاء القيادة وخلافاتها المتكررة ، وتيهها بين مقترحات الادلاء المتضاربة ، فأمسوا أرضا خصبة لبذور المهدى الدعائية .

كان السؤال الرئيسي الذى واجه المهدى في المرحلة الثانية والاخيرة من الحملة ، أى وثبة الجنرال من الرهد للابيض ، هو هل ينتظر الجنرال في الأبيض ، ام يتقدم بعيدا عنها ؟

وهنا وليس للمرة الاولى ولا الأخيرة . يبهرنا حس المهدى الاستراتيجى الصادق الذى يدفعه لتلك القرارات الحاسمة السريعة وذلك التقلب المفاجئ من مسلك لآخر ، فعندما حانت اللحظة الملائمة ، ترك الانتظار والاستكانة جانبا ، وتحول للهجوم ليحوز المبادرة مرة أخرى .

لم يغره نجاح استراتيجية الانتظار والاستنزاف . وأدرك انها قد استنفذت أهدافها وانها ستنقلب وبالا عليه لو تمسك بها للنهاية وترك عدوه يصل للابيض . كان قرارا صائبا . فلو دارت المعركة على مشارف الابيض لتحول موقف الجنرال من الضعف والتردى الى القوة والصحوة المفاجئة . فهنا سيتاح له ابراز تفوقه النارى في أرض مكشوفة نسبيا . وبالقرب من مورد مياه كبير. بل أن مجرد مشهد الابيض ، هدف تلك المسيرة الطويلة ، كان سيحلق بمعنويات الجنود المتهاوية الى افاق عالية ، فيخوضون غمار المعركة المرتقبة بثقة وأداء متفوق يختلف تماما عن أدائهم الضعيف الذى لمسناه في الاشتباكات السابقة .

ومن الجانب الآخر لم يكن جيش الانصار بالجيش المعد لخوض غمار معركة دفاعية ثابتة ، فلا تسليحه ولانيرانه ولاطبيعة مقاتليه كانت تهيئة لهذا الدور . كانت قصة الايام التالية لتحرك الجنرال من

الرهد هى ردود فعل من جانب المهدى لمحاولة مواجهة قرارات الجنرال المتضاربة المتغيرة . وهى تبدو لنا أقرب معارك التاريخ الحديث بخلفياتها وتحركاتها السريعة لمعارك هانيبال . وبالاخص معركة كاين فانحدار هنيبال من جبال الالب . وانحدار المهدى من قدير . وبحث الرومان الدؤوب عن هانيبال ، يماثل ملابسات شيكان تماثلا غريبا لو استعضنا عن ممرات الجبال بطرق كردفان الضيقة . بل حتي المصيدة التي أجبر هانيبال الرومان على دخولها ، وسد الرجال المنيع الذى قبع منتظرا خلف ستار رهيف من حلفاء هانيبال الايطاليين ليحسم الامر بظهور فرق المشاه الصلبة ، كان يطابق أحداث الايام الاخيرة من شيكان تماما .

لقد بنيت استراتيجية المهدى على الالتحام بهكس قبل وصوله الى مورد مياه كبير يمسح عنه أوجاع اسابيع السير المضنية وأحزانها . ومن هنا كان احتلاله للبركة . ومن هنا كان الحصار ، فقد كانت كل الدلائل تشير الى أن الجنرال متوجه اليها . ولكن الاخير لم يلبث أن عدل عن رأيه في اللحظة الاخيرة الى «كازقيل» فتلاحقت أنفاس المهدى وهو يلهث للحاق به وولدت فكرة نقل حشده النيراني على ظهور الجياد ، ابرع عمليات شيكان على الاطلاق . وسرعان ما تكدست راياته في المسرح الجديد واكتملت حلقة الحصار الضيقة الجديدة حول « فولة المصارين » .

كانت أبرز الدروس التي أفرختها المناورات السريعة البارعة هى الحصار المتحرك حول قوات متحركة ، ثم المقدرة الفائقة في نقل الحشود من مكان لآخر بما يوحى بآلة ادارية كفؤة ، كانت هى اعظم ثمار سنتي التعبئة والتنظيم والتدريب في جبال كردفان وسهولها .

لم تكن خفة الحركة وسرعة التنقل بالأمر الجديد على قبائل بادية كردفان ، فهى من خصائصهم الشهيرة . ولكن الجديد هنا كان نقل الالوف من الجنود النظاميين المسلحين وقد أردفوا على ظهور الجياد ، ثم نقل أكوام الذخيرة وتكديسها بتلك الكميات الضخمة التي مكنت الجهادية من الفتك بالمربع في الليلة الشهيرة (ليلة حمدان) .

وعندما أشرق صباح المعركة ، كانت استراتيجية المهدى قد حققت أهدافها كاملة . فقد قدمت للمعركة التكتيكية المنتظرة عدوا عاريا يتعثر على طريق (كازقيل) ، منهكا ظمآنا مسهدا عصفت نيران الجهادية بجنوده ودوابه .

وعندما أكملت الخيول مهمتها وأنزلت الجهادية على بعد خطوات من الزريبة ، وصب هؤلاء نيرانهم الكثيفة المحكمة طوال تلك الليلة ، كانت تلك ورقة المهدى الرابحة التي فاجأ بها عدوه . فقد كانت ايذانا بأن الجيش الفتي قد بلغ أشده كجيش حديث ، وبدأ صعوده ليصبح أقوى جيش افريقي . لقد تمثلت في تلك الليلة خلاصة (النقلة الحضارية) التي أشار اليها صلاح محى الدين

عندما كتب عن أبعاد شيكان الحضارية[1] . وأحداث تلك الليلة كانت هى السياج النفسي الذى حفظ استقلال السودان لخمسة عشر عاما قادمة . فالوصف المسهب الذى قدمه (أهرفلدر) عام ٩١ عن أحداثها ، كانت رادعا كافيا للدول الاوربية لكى لاتقدم على مغامرة طائشة كمغامرة الجنرال . فقد أدرك الاوربيون ان السلاح النارى الذى أرهب قبائل الزولو في جنوب افريقيا ـ والأمهره في هضاب اثيوبيا والاشانتي في غرب افريقيا ، لم يعد ذلك السلاح السحرى الذى لايقهر . فالانصار أيضا يستخدمونه بمهارة وباحكام .

والجانب الآخر ؟ جانب الجنرال . ما الذى كان بوسعه امام تلك المخططات المحكمة السريعة ، وحيال طبيعة الارض والطقس التي تعرض لها ؟ وهل كان في مقدوره اتباع مخطط آخر ، أو هل كنت هناك أى فرصة حقيقة في تحقيق النصر؟

أن الخطأ الاساسي الذى ارتكبه الجنرال ومن خلفه القاهره ، كان سوء تقدير قوة المهدى الحقيقية . فلو قدرت قوة قبضة المهدى على أهالى السودان بأجمعه ، ومدى نجاح دعوته وانتشارها ، لربما أمكن تجنب كارثة شيكان ، وتأخير سقوط الخرطوم سنة أو سنتين . ولكن ليس أكثر من ذلك . فقد كان انتشار الثورة سريعا ، وكانت امتداد أراضي السودان يعجل بحصر أى قوة وابادتها مهما عظمت فقطع الطرق أو المواصلات من الشرق والشمال كان ميسورا ـ ويبدو لنا الآن أن افضل مسلك كان يجب على القاهره اتخاذه هو الابتعاد عن طريق المهدى ، فأن لم يكن ذلك لاسباب العزة القومية فليكن حصر نفسها في أصغر مساحة ممكنة ، فان لم يمكنها ذلك فلتحتفظ بالنيل الابيض في محاولة يائسة لحصر المهدى في كردفان . اما اسوأ وضع كان يمكنها ان تجد نفسها فيه فهو التقدم للمهدى في عقر داره بعيدا عن مركز امدادها وتعزيزاتها وخطوط مواصلاتها الرئيسية . أى كانت الافضليات تسير بالترتيب التالى : اخلاء السودان – الاحتفاظ بالخرطوم فقط – الاحتفاظ بالنيل الابيض وأخيرا محاولة التقدم ومهاجمة المهدى . ولكنها بدأت من الاختيار الاسوأ . فقد اختارت أن تتقدم وتهاجم فكانت مجزرة شيكان ، ثم أصرت على أن تقف وقفتها الأخيرة فكانت مجزرة الخرطوم ، ولما صممت على الاحتفاظ بدنقلا كانت (ابو طليح) (وكربكان) وكان الانسحاب النهائي الى ماوراء حلفا .

ولبرهة وجيزة من الزمن، وفي لحظة صدق مع نفسه، ادرك الجنرال حقيقة الموقف، وقد رايناه يصارح (ماليت) في القاهرة بأن السبيل الأفضل هو التخلى عن مشروع التقدم نحو الابيض والاكتفاء بالدفاع عن النيل. بل نراه يتنبأ بأن المهدى سيهدد الخرطوم نفسها. ولكن نصر المرابيع الخداع، ثم امجاد العظمة الزائفة التي ساورتها عند ما رقي قائداً عاماً القت بضباب كثيف من الأوهام

١- صلاح محى الدين – وقفات للتمسك بتاريخ السودان .

أمام عينيه حجب عنها الحقائق . فكان ذلك التلهف على الاسراع الى الابيض . صحيح ان التمسك بالنيل الابيض لم يكن ليوقف المهدى الا الى حين . ولم يكن باستطاعة الحملة أن تحتفظ بمواقعها الا لفترة وجيزة ، ولكن كانت هنالك ميزات واضحة — فطرق امدادها وانسحابها الى الخرطوم كان مضمونا بواسطة البواخر النيلية .

في حشود الجنود والنيران كان الجنرال هو الاقوى عدة وعتادا وتدريبا . ولكنه بدد قواه بسلسلة من الاخطاء العجيبة الموقوتة بتفاوت زمني منتظم غريب . فهناك في يوليو قراره بالتخلي عن السياسة الدفاعية والتقدم نحو الأبيض . وهناك في سبتمبر اختياره الاخرق لطريق الرهد بدلا عن طريق بارا ، وهناك في أول نوفمبر قراره الاخير الذى الق به بين أنياب المهدى مباشرة باختياره لطريق (كازقيل) للتقدم النهائي نحو الابيض .

لقد تعرضنا في الصفحات السابقة لخطأ رأى الجنرال وقادته عندما فضلوا طريق الرهد على طريق بارا . أغلب الظن أنه لو اختار الاخير لما تبدلت الهزيمة الى النصر . ولكننا نستطيع أن نجزم بأن الجنرال كان سيقف وقفته الاخيرة في ظروف أفضل كثيرا من تلك التي أحاطت به في ضحى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ . فلو سلك طريق الرهد لاشرف على الابيض بعد مسيرة سريعة لاتتجاوز ثلاثة أسابيع بدلا من ستة . فهى هنا ستكون مسيرة محكمة مخططة تخطيطا صحيحا حيث يعلم الجنرال مواطئ اقدامه . فحلفاء الحكومة من الكبابيش كانوا خليقين بأن يقدموا كل عون ، أو على الاقل الاخذ بيده وارشاده الى موارد المياه . فحتي في طريق الرهد الذى سلكه الجنرال ، لعلنا قد أحسسنا ان المربع ظل يمضي في طريقه بأمن وأمان الى ماقبل خمسة ايام فقط من المعركة عندما توقفت يوميات عباس بك . فقد شغلت اليوميات بامور عادية حتي اليوم الاخير ، مثل اعتقال عبد الرحمن بانقا والتحقيقات الادارية . ولم يبد عليها ذلك الجزع الذى أشار اليه المؤرخون الاوائل ، مثل (ونجت) و (اهرفلدر) ، وتناقله المحدثون دون تحقق أو روية . وطريق بارا كان أحرى بأن يضعه في وضع أفضل منذ البداية .

لعلنا قد تعرضنا الى النواحي التكتيكية التي ابرزتها معركة شيكان في حينها ولم يبق كثير ليقال . الا ان بضع ملاحظات عابرة هنا وهناك لن تثقل علينا كثيرا .

وقد يبدو لنا ان نصر شيكان كان نصرا كاملا لاتشوبه شائبة ، أن كان تخطيطا أو تنفيذا أو نتاجا ، الا أن الباحث لايسلم أبدا بالكمال ، فلابد أن يجد ثغرة هنا أو هناك ، فالكمال لا وجود له في الحرب ، طالما انها فن ، قبل أن تكون شيئ آخر .

ولعل أحد المآخذ التي يمكن أن تؤخذ على المهدى هى تشكيله لصفوف الاقتحام في معركة شيكان . ولابد اننا قد احسسنا باصرار المهدى على تقليد معارك الرسول (ﷺ) والمعارك الاسلامية الاولى تقليدا حرفيا ، وذاك أمر طبيعى ، فالدعوة نفسها دعوة اسلامية تدعو الى العودة لطهارة الاسلام الاول ونقائه ، والدولة التي سعى لانشائها وكان الجيش أحدى مؤسساتها ، بل أكبرها ، هى دولة تقوم على أسس دولة الخلفاء الراشدين . والرجل استقي فكره العسكرى من دراسة التاريخ العسكرى الاسلامى ايام مجده المبكر . كان ذلك مبدأ سليما مامونا في البداية . وقد أدرك المهدى بعد قليل ، بعد أن تكبد ثمنا باهظا في هجوم الجمعة بالابيض . ان استقراء التاريخ العسكرى الاسلامى والتمثل به ينبغى أن يكون في مدار (الافكار) و (الروح) وليس في التفاصيل التضبيقية . في المفاجأة والابتكار والروح الهجومية الفدائية وفي خفة الحركة .

وقد نبهته صدمة هزيمة الجمعة في الابيض الى ذلك واعادته الى الطريق الصحيح مرة اخرى . فتحرر قليلا من ذلك الاسار ، فكان ادخال الاسلحة النارية . وكان تخليه عن تشكيل جيشه الى قلب وميسرة وميمنة ومؤخرة كما شاهدناه يفعل في المعارك المبكرة .

الا ان هناك أمر لم يستطع أن يتخلص منه ابدا . وظل يلازم جيوش المهدية الى اخر معاركها — كررى . كان ذلك تنظيم موجات الاقتحام ورصها في (صفوف) كصفوف الصلاة تماما .

يقول المرحوم العقاد ، عندما تعرض في دراسته للنمط العبقرى الذى أدار به خالد بن الوليد معارك العراق والشام (ينبغى ان نحصر في اذهاننا انه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال . وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أى النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب . والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر . ومجمل مايقال بعد هذا أن الصف هو أنسب الاوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف . وأن الكردوس أنسب الاوضاع لتطور قوة السلاح الضارب . لان الرماة بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف . وانما يأتي الضرب في العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات) .

لم يكن الهجوم في شيكان لينبههم الى ذلك الخطأ ، وليته فعل ، فقد كانت المعركة محصورة والمساحة ضيقة مما جعل الاقتحام يتم في وثبة واحدة من الاشجار الى المربع ، فلم يكن هنالك تقدم بالمعني التكتيكى المتعارف عليه ، وخطورة الامر تكمن أن شيكان كانت مدرسة المهدية القتالية الاولى . فهى أولى معاركهم (النظامية) ونتيجة النصر الباهر الذى أحرزه الانصار جعلهم يميلون غريزيا الى تقليد كل ماجرى في شيكان حتي مع اختلاف العدو وتباين الظروف .

المصادر العربية

١ ــ المخطوطات

(أ) يوميات عباس بك سكرتير علاء الدين باشا حكمدار عام السودان ، سجل يومى لتحرك الحملة من الدويم وحتي وصولها علوبة يوم الخميس ١ نوفمبر . مصوره « مايكروفيلم » في مكتبة جامعة الخرطوم – حققها ونشرها القائمقام عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربي في القاهرة مطبوعات مطبعة مصر عام ١٩٥٤ . والاخيرة هى التي نشير اليها في هوامش البحث .

٢ – مخطوطات دار الوثائق المركزية الخرطوم :

(أوراق على المهدى : منقولة بخط اليد من الاوراق الاصلية .

(١) حرب هكس باشا من ص ٢٦ الى ص ٤٢ .

(٢) حرب الابيض من ص ١ الى ص ٢٢ .

(ب) تقارير استجواب المخابرات (١ / ١٠ / ٥١) للضباط الذين اشتركوا في معارك كردفان .

(١) تقرير الصاغ ابراهيم عارف فبراير ١٨٩٠ .

(٢) تقرير البكباشي حسين محمد الشافعى ١٨٩٠ .

(٣) قائد الاوردى الجبلى حسين اغا .

(٤) اليوزباشي بالاستيداع على احمد الصاوى .

(ج) اوراق المرحوم محمد عبد الرحيم : تكوين حملة هكس وحملة النيل الابيض ومعركة المرابيع .

٣ – مخطوط الشيخ محمد ادم – مجموعة خاصة مهداه من السيد عبد السلام الخليفة – وصف لشاهد عيان من معركة أبا الى نهاية معركة شيكان من ص ٢٩ الى ص ٨٨ .

٤ – منشورات دار الوثائق :

(أ) منشورات الامام المهدى « الجزء الاول » الاحكام والآداب » تصوير بالزنكوغراف لطبعة مطبعة المهدية .

(ب) مخطوط « سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى » اسماعيل عبد القادر الكردفاني – تحقيق الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم .

٢- المصادر الثانوية

الكتب والدوريات

١ - نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان . بيروت ١٩٦٧ .

٢ - ابراهيم فوزى : الخرطوم بين غردون وكتشنر . القاهرة ١٩٠١ .

٣ - بروفسور مكى شبيكة - تاريخ شعوب وادى النيل - بيروت ١٩٦٥ .

٤ - محمد عبد الرحيم - النداء في دفع الافتراء - امدرمان ١٩٣٨ .

٥ - سلاطين باشا - السيف والنار في السودان - تعريب جريدة البلاغ ١٩٣٠ .

٦ - وقفات في تاريخ السودان - صلاح محى الدين . الخرطوم ١٩٧٣ .

٧ - محمد سليمان - صور من البطولة - الخرطوم .

٨ - عبد الرحمن الرافعى - عهد اسماعيل .

٩ - عبد الله محمد احمد - جهاد في سبيل الله - مقتطفات من اوراق على المهدى . الخرطوم ١٩٦٥ .

١٠ - القائمقام عبد الرحمن زكى - الجيش المصرى في عهد محمد على - القاهرة ١٩٣٩ .

١١ - القائمقام عبد الرحمن زكى - محمد على وعصره - ١٩٣٥ .

١٢ - أكرم ديرى - آراء في الحرب .

١٣ - فن الحرب - سن تزو - تعريب محمود حداد .

١٤ - عمر التونسي - تشحيذ الاذهان في بلاد العرب والسودان .

١٥ - دليل شيكان اعداد مجلس تنفيذى مديرية كردفان ١٩٦٥ .

١٦ - زعماء وادباء - كامل الشاوى - القاهرة ١٩٧٢ .

١٧ - سليمان محمد سليمان - ابو عنجة - الخرطوم .

١٨ - قسم الصحف - دار الكتب - القاهرة .

(أ) جريدة الوقائع المصرية - العدد ١٦٣٢ - ٣ مايو ١٨٨٣ « اخبار السودان » .

(ب) جريدة الوقائع المصرية - العدد ١٦٣٨ - ٩ مايو ١٨٨٣ .

EUROPEAN SOURCES

Manuscripts

a. Central Archives Department, Khartoum

(1) Cairo — Intelligence

(a) 3 - 11 - 179 - A Statements on the destruction of Hicks Pasha Army including :

(i) Statements by Mohd. Nur El Barudi ' Hicks Pasha attendant.

(ii) Statements by Hassan Habashi — Katib of Emir Abdel Halim Masaad.

b. 1 / 10 / 51 Statements of Kassala Chief Clerk Ibrahim Naser Alla on the composition of the Mahdi's Force at El Obied, and the strength of the tribes around him. Forwarded by a letter to Nauum Shuqair dated 15 - 10 - 1890.

c. 1 / 3 / 14 Officers of Hicks Pasha army.

d. 3 / 5 / 89 Routes in Kordofan.

e. 3 / 11 / 200 Report on the Sudan.

f. 1 / 10 / 51 Report on the fall of Kordofan.

g. 3 / 9 / 73 Reported Force of Enemy in the Sudan.

2. Secondary Sources

a. Books

(1) Blunt, W. S. Gordon at Khartoum, London 1911.

(2) Blunt, W. S., Secret History of the British Occupation on Egypt. London, 1907.

(3) Sir E. Baring " Lord Cromer " Modern Egypt. Part 1, 11 London 1908.

(4) Hill, Richard, Biographical dictionary of the Anglo Egyptian Sudan London 1967.

(5) Henry Russel. The Ruin of the Sudan, London 1892.

(6) Mc Michael, H. A. History of the Arabs in the Sudan, Vol 1, London 1922.

(7) Ohrwalder, Father Joseph, Ten Years captivity in the Mahdi's Camp, London 1893.

(8) Jamal Mohd Ahmed, Intellectual back ground of Egypatian nationalism, B. Lit thesis.

b. Periodicals :

Meckowi Sulieman Akrat collection of :

(1) Sudan Notes and Record. Vol VIII. " The Defeat of Hick's Pasha " by Sheikh Ali El Julla, as related by L. F. Nadler.

(2) Sudan Notes and Records, Vol XX, 1937 Sheikan Battle Field E. F. Aglen.

(3) Journal of the Royal United Service Institution, London 1964. Vol. 109. PP 56-62. Sir Ronald Wingate, Sheikan on the 4th and 5th November 1883.

الملحق (١)

تطورات معركة شيكان كما وقعها قلم ونجت علي كروكي بناء
على المعلومات التي قدمها محمد نور البارودي عند استجوابه ٠

There was also a part of the Cavalry behind them:-



الملحق (ب)

صفحة من تقرير حسن حبشي كاتب الامير عبد الحليم مساعد بخط ونجت توضح خطة سير الحملة صبيحة المعركة ·

gathered all military men who had fire arms & fired at the army in their camp all night untill morning when they withdrew to the main force.

This morning 4th of Muharram 301 the Arabs gathered a circle around the troops who marched in 3 squares in corners of a triangle the stores & ammunition in the inside & the Cavalry bashbuzuk forming two wings one on each side. Cavalry of the Arabs being behind

الملحق (ج)

صحيفة من أقوال الشيخ محمد ادم أحد شهود العيان لمعركة شيكان ·

وسلمني اياها في منديل وتحتي محل المهدوي بالكلام

لما

يموت غدا بيوم الاثنين اربعة محرم سنة ١٣٠١ لما اصبح

الفجر واذن المؤذن وهلل المهلل وسبح المسبح و

كبر المكبر وطلعت الشمس وقفت حول المهدي عليه

السلام خلقا لا تعد ولا تحصي منهم من يبكي ملتوقا

الي لقاء الله ومنهم من يذم ومنهم من يتكلم بالترجمة السريانية

ومنهم من يشعر بشعر القتال والمهدي عليه السلام

اداهم ببيعة الرضوان وقال لهم توكلوا علي الحي القيوم

وقولوا اللهم ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك

انما تقتلهم انت الله اكبر وامر الامراء كل قبيلة

ان تدخلهم تحت راية الخليفة علي حلو الامير موسي حلو

علي عافية ولكن علي دغيم وكنانة الشبلي عجب الغبه وقرف

ولد



